اليوم التالي
لدعم الانتقال الديمقراطي في سوريا

كي لا أكون على الهامش

الذاكرة الشفوية لناجيات سوريات من الاعتقال

لمى قنوت

The Day After (TDA)
www.tda-sy.org

كي لا أكون على الهامش –

الذاكرة الشفوية لناجيات سوريات من الاعتقال

مؤسسة اليوم التالي

لمى قنوت

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة اليوم التالي©

2019

مؤسسة اليوم التالي (TDA) هي مؤسسة سورية مستقلة تعمل على دعم الانتقال الديمقراطي في سوريا ، وتؤمن بالشرعة الدولية لحقوق الإنسان، وحقوق مواطنة متساوية لجميع السوريين، ويتركز نطاق عملها في المجالات التالية :
سيادة القانون ،العدالة الانتقالية ،إصلاح القطاع الأمني ،تصميم النظم الانتخابية وانتخابات الجمعية التأسيسية ،التصميم الدستوري ،الإصلاح الاقتصادي والسياسات الاجتماعية.

لوحة الغلاف : سارة خياط

اليوم التالي – اسطنبول-تركيا

Pürtelaş Hasan Efendi Mahallesi, Cihangir Caddesi, No:3 , D:1
Estambul
Tel: +90 (212) 252 3812

Email: info@tda-sy.org
www.tda-sy.org

لمى قنوت:

كاتبة وباحثة مستقلة، حاصلة على بكالوريوس في التصميم الداخلي، تشتغل على التغيير الديمقراطي والمواطنة والمساواة الجندرية، صدر لها في عام 2017 كتاب/بحث بعنوان "المشاركة السياسية للمرأة السورية بين المتن والهامش"، وقدمت العديد من الأوراق حول التغيير الديمقراطي في سورية، ومبادئ الدستور الحساس للجندر، والنظم الانتخابية المتوافقة مع الجندر، والمواطنة وغيرها من القضايا ذات الصلة. كما شاركت في تأسيس وإدارة عدد من منظمات المجتمع المدني المعنية بالديمقراطية وحقوق الإنسان.

الفهرس

المقدمة	**5**
الرهينات	**8**
جرح قديم وانفتح	**22**
كي لا أكون على الهامش	**46**
زلغوطة زينب	**106**
لقاء في المسلخ	**134**
أميرة	**160**
شمس الدمشقية	**182**
نور	**196**
آخر امرأة في القابون	**206**
بين سجنين	**226**
عندما نفيت من بلدي	**240**
رسالة شكر	**252**

المقدمة

يكتسب التاريخ القائم على الرواية والشهادة الشفوية أهميته خلال الثورات والنزاعات المسلحة ،والحروب كشاهد على التاريخ وأحد ركائزه التوثيقية في مواجهة التزوير الذي تسعى إليه السلطة المستبدة لطمس الحقائق والوقائع التي رافقت استبداده وانتهاكاته المتعددة لحقوق الإنسان ولذلك ينبغي معرفة أهمية التاريخ الشفهي كمصدرٍ مكملٍ يحدد الوقائع التي وثقتها المصادر التقليدية أو يصححها، في ظل عدم توافر الوثائق لأسباب عدة، ما يستدعي أحياناً الاعتماد على الشهادات والروايات الشفهية ،لتكون المصدر الأساسي للتوثيق التاريخي ،وذلك بجهود القائمين على التوثيق الشفوي واصرار الشاهدين على نقل الحقائق واخراجها الى العلن لتكون شاهداً و وثيقةً تاريخية تروي ما جرى، وتسلّط الضوء على كفاح النساء من أجل الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية.

ويعتبر التاريخ الشفوي من الوثائق المهمة التي لا تقل أهمية عن الوثائق المكتوبة، لأنها تحفظ جوانباً من التاريخ وسيرة الشعوب والمجتمعات الإنسانية، ويساعد الوقوف عليه على الحصول على رصيد معرفي وعلمي بتاريخ البيئات والصراعات والتحولات الانسانية التي لم تدون، الأمر الذي يجعل من الضروري تدوين واستخدام التاريخ الشفوي في كتابة تاريخ المجتمعات البشرية باعتماد الأسس العلمية.

منذ أن استلمت عائلة الأسد السلطة قبل 47 عاماً تقريباً حتى يومنا هذا، وإمكانية وصول الباحثين للمصادر محدودة، ويبقى العمل الميداني شبه مستحيل تقريباً بوجود نظام الأسد وطالما أن البلاد تغرق في حرب، لذلك تنشغل المنظمات غير الحكومية بجمع مقاطع الفيديو، والسجلات الطبية، وتقارير شهود العيان حول انتهاكات حقوق الإنسان، مع وضعهم للإجراءات المستقبلية المتعلقة بالعدالة نصب أعينهم، إلا أن الشهادات الشخصية والروايات المنشورة من الصعب إيجادها.

عملت منظمة اليوم التالي وما زالت على محاولة تحقيق العدالة لجميع السوريين من خلال عملها ومشاريعها ، والتي كان منها مشروع الناجيات انطلاقا من ضرورة إيصال صوتهن الى اللجان الدولية والمنظمات المختصة بالتوثيق ليصار بعدها الى رفع دعاوى جنائية ، أو تقديم المساعدة لهن بعد كل ما عانين خلال فترة الاعتقال وبعدها، وكمبادرة من المنظمة سعت إلى تشكيل فريق للعمل مع الناجيات من الاعتقال لتمكينهن وتفعيل دورهن ، ومشاركتهن التطورات الخاصة بملف المعتقلين والمعتقلات ، وقد ضم مشروع الناجيات 27 سيدة في داخل وخارج سوريا وتم من خلال هذا المشروع توثيق شهاداتهن ورواياتهن ومن ثم اختيرت 11 قصة لتكون ضمن هذا الكتاب.

وكان من أهداف مشروع دعم الناجيات:

- العمل على تمكين وتفعيل دور الناجيات من الاعتقال.
- بناء الثقة فيما بينهن وتضافر جهودهن لمناصرة قضيتهن وقضية المعتقلات والمعتقلين.
- التعاون مع اللجان الدولية والمنظمات الشريكة المختصة بالتوثيق.
- توفير الدعم النفسي الاجتماعي للناجيات من قبل الجهات الشريكة.
- توثيق قصص الناجيات وشهادتهن ضمن هذا الكتاب كتوثيق تاريخي.

وقد عمل المشروع من خلال نشاطاته المختلفة على:

- إقامة جلسات توعية وتعريف بحقوق الانسان والقانون الدولي، إضافة إلى العنف الجنسي والجنساني القائم على النوع الاجتماعي.
- إقامة جلسات توعية بالآليات واللجان الدولية العاملة على توثيق الانتهاكات وبناء القضايا، والجهات والفرق السورية المشكلة من قبل مجموعات الضحايا وذويهم.
- القيام بتدريبات حول مفهوم العدالة الانتقالية وآليات المحاسبة، والمناصرة وبناء الفرق، إضافة إلى التعريف بمفهوم التاريخ الشفوي وأهميته.

يوثق الكتاب تجربة الناجيات الاتي شاركن في الورشات والتدريبات التي أقامتها منظمة اليوم التالي ، وتمثل تلك القصص جانبا من تجارب النساء مع العنف السياسي والاجتماعي وأشكال العنف الأخرى. وكل تجربة من تجاربهن لها خصوصيتها وآثارها المختلفة ، واقتصر الكتاب على احد عشر قصة فقط لأسباب عديدة ابرزها طبيعة المعاناة النفسية والضغط الذي لحق بالناجيات ، ووجودهن في أماكن مختلفة وصعوبة التنقل بالنسبة لهن ، والخوف من ذكر أسمائهن في الشهادات المعلنة وذلك حرصا على عدم تعرض أي من أقاربهن للاعتقال أو المسائلة من الاجهزة الامنية في سورية ، وخوفهن أيضا من الملاحقات أو التهديدات التي من الممكن أن تطالهن فيما لو أفصحن عن أسمائهن.

الرهينات[1]*

[1]- حوار أجرته الكاتبة مع نرجس (اسم مستعار) عبر WhatsApp))، في العاشر من شباط عام 2019، مدة الحوار: أربع ساعات.
* لوحة الغلاف: ديالا زادة

أنا نرجس من الزبداني بريف دمشق، عمري تسعة وثلاثون عاماً، درست التاريخ في كلية الآداب بجامعة دمشق، وعملت كمدرسة لمدة عشر سنوات، وتم فصلي تعسفيًا بعد اعتقالي، لديّ ولدان، ابنتي لجين وعمرها ثلاث عشرة سنة، وابني أسامة وعمره إحدى عشرة سنة. وأنا مقيمة حاليًّا في تركيا مع ولدَيَّ ووالدتي. انفصلت عن زوجي بعد خروجي من الاعتقال وقدومي إلى تركيا، لأنه كان يطلب مني العودة إلى سورية، وإجراء تسوية ومصالحة مع النظام، لكني رفضت بسبب العذاب والظلم الذَيْنِ لحقا بي في السجن، وتم الطلاق.

منذ بداية الثورة لم يكن لدي أي نشاط لأني كنت موظفة، كما أني كنت ملتزمة بواجباتي العائلية تجاه زوجي وولدَي. كان زوجي وأهله من مؤيدي النظام، بينما كان أهلي معارضين له، لم أشهد ما تعرضت له الزبداني من قصف وحصار، فقد ذهبت أنا وعائلتي ووالدتي إلى بلودان بين شهري حزيران وتموز 2012 وتابعت عملي، حتى أني لم أكن أتواصل مع أخي المعارض والمؤيد للثورة لأني كنت أخاف على نفسي.

مشفى المجتهد

في عام 2014 كانت أوضاع الزبداني سيئة جداً، وكان النظام يضغط من أجل أن يستعيد سيطرته عليها، رغبت والدتي بتفقد منزلنا في الزبداني لكنها أصيبت جراء سقوط قذيفة عليه في الرابع عشر من أيار عام 2014، في تلك الفترة كان النظام يأخذ رهائن من أهالي المطلوبين، أخت أو زوجة أو والدة ... ليضغطوا عليهم ويجبروهم على تسليم أنفسهم. كنت أنا وأختي ننقل والدتي ليتم إسعافها في مشافي دمشق، وأثناء مرورنا على الحاجز الأمني المتاخم للزبداني، أخبر بعض عملاء النظام عناصر الحاجز أننا من أسرة أخي المطلوب، والذي كان مقاتلاً مع الجيش الحر، وطالبوا باحتجازها للضغط عليه.

كنت أرغب بنقل والدتي إلى مشفىً خاص في دمشق، ففي داخل الزبداني لم يكن هناك سوى مشفى ميداني ولا يوجد فيه تجهيزات تعالج والدتي التي دخلت في غيبوبة، ولكن العسكري على الحاجز أصرّ على أن نأخذها إلى مشفى المجتهد، ولم يخطر في بالي حينها أن مشفى المجتهد هو مشفى حكومي وبداخله مفرزة أمنية.

دخلنا إلى مشفى المجتهد في اليوم ذاته أي في الرابع عشر من أيار عام 2014، وكانت عبارة عن ثكنة عسكرية لكثرة العناصر المنتشرة داخلها، فبعض أفراد الجيش المصابين كان يتم إسعافهم ومعالجتهم فيها، شعرت أنني مراقبة من لحظة وصلنا إليها، كان الطابع الإنساني غائبًا في المشفى، أُدخلت والدتي العناية المركزة، ووُضِعت أنا وأختي في إحدى الغرف واقفلوا الباب، لقد تم احتجازنا. لم يكن في الغرفة سوى سرير واحد، ولم يكن بداخلها حمام أو صنبور ماء، مساحتها متران بمترين، سألت المفرزة الأمنية في المشفى عن سبب وضعنا في الغرفة، فقال: "لا شيء، أتت الأوامر بأن تبقيا هنا، ولديكِ هاتفك النقال"، فسألته: "وكيف سنخرج إلى الحمام"، فأجاب: "هذا رقم هاتفي، اتصلي بي وسآتي وأدعك تخرجين". لكنّه لم يكن يردّ على هاتفه دائمًا، وحين كان يردّ كان يتركنا عدة ساعات ننتظر الخروج إلى الحمام.

لم أكن أستطيع أن أغسل وجهي، كانوا يجلبون لنا الطعام لكنني لم أكن قادرة على الأكل فقد كنت أخاف أن تموت أمي، وكنت أخاف إن ماتت أن لا يُخبرونا، كان يُسمح لي بزيارتها في غرفة العناية المركزة لمدة خمس دقائق فقط في اليوم، بقينا على هذا الحال لمدة خمسة عشرة يومًا. ثم نُقلت والدتي من العناية المركزة إلى قسم الصدرية، وذلك بسبب آثار القذيفة لسحب الغازات التي استنشقتها خلال إصابتها، فقد كانت بحاجة إلى قسطرة وتنظيف رئتيها، وبقينا على هذا الحال عشرين يومًا إلى أن قرروا إحضار والدتي إلى الغرفة التي كنا فيها.

حين صحت والدتي من غيبوبتها علمنا أنها أُصيبت بشلل نصفي سفلي، فقد دخلت القذيفة في النخاع الشوكي وأصبحت عاجزة عن الحركة كليًّا، ووضعوا لها قسطرة بولية، وبقينا ثلاثتنا محتجزات في غرفة لا يوجد فيها أي مقومات للحياة، بقيت مدة ستة أشهر وعشرين يومًا كنت أحلم خلالها بأن أستحمّ، لقد كانت أسوأ أيام حياتي، أشعر أنها كانت أصعب من فترة وجودنا بالفرع. كنت أتصل هاتفياً بولديَّ، وكنت أبكي وكانا يبكيان، فأنا لا أستطيع رؤيتهما، وقد ساء وضعهما لأنهما بقيا عند جدتهما المسنة وعمتهما. أصبحت والدتي عاجزة وتحتاج إلى تنظيف ومساندة ورعاية، ولم يكترث الأمن لوضعها الصحي، ولا أعلم كيف صبرت على هذا الوضع.

لم تكن الزيارات ممنوعة عني، وكنت أتصل بصديقتي من أيام الجامعة، أخبرتها بقصتي، وفي كل مرة كانت تزورني فيها كانت تغسل لي ملابسي وتُحضر لي الطعام وأكياس الخضار التي كنت أستخدمها في الحالات الطارئة، عندما لا يُفتح بابنا للخروج إلى الحمام.

بجانب غرفتنا في قسم الأوعية، كان هناك غرفة بداخلها شباب محتجزون كحالنا، كانت المشفى عبارة عن مفرزة أمنية، يتم "تفييش" الشباب المصابين، وحتى لو كان الشاب مريضًا يقومون باحتجازه إذا كان أحد أقربائه مطلوبًا لهم. كان العنصر يسمح لي بالخروج إلى الحمام مرتين في اليوم، أما الشباب فقد حرموا من ذلك، ظننت في بادئ الأمر أن في غرفتهم حمامًا، لكن الروائح الكريهة التي كانت تنتشر عندما يُفتح باب غرفتهم أوضحت لي أنه لا يوجد في غرفتهم حمام.

غرفتنا كانت تطل على الشارع، وقد تم اختيارها منزوية بحيث لا يكون أمامها حركة، وكانت غرفة الشباب بعد غرفتنا، وأبعد عن الحركة، وكان يصدر منها أصوات ضرب وصراخ، كانت هذه الأصوات ترعبنا وتزيد فضولنا لمعرفة ما يحدث فيها. فكنا أنا وأختي ننصت إذا سمعنا صوتًا قادمًا من الغرفة، ونستغل لحظات خروجنا إلى الحمام لاستراق النظر، وكما كنا ننظر من خلال الفاصل الصغير الذي بين البلاط والباب، وكنا نشاهد أحذيتهم العسكرية عندما يأتون، ونسمع الأحاديث التي كانت تدور بينهم وبين الشباب، في إحدى المرات سمعناهم وهم يضربونهم، كنا نهتم بأدق التفاصيل، وكان لدينا فضول لمعرفة إن كان بين هؤلاء الشباب من نعرفه!

في إحدى الليالي في الساعة الثانية فجرًا صحونا على صوت صراخ، وفي إحدى المرات صحونا الساعة الثالثة فجرًا، كانوا يضربون أحد الشباب ضربًا شديدًا، وكان الشابّ يقول لرئيس المفرزة: "والله كنت رايح

جيب دواء يا سيدي". وفي اليوم الثاني أيضًا ضربه ضربًا مبرحًا. لقد تعوّدنا أن يفتح العنصر بابنا في الساعة التاسعة والنصف لنذهب إلى الحمام، كنّا أنا وأختي نمشي ببطء، وعند عودتنا إلى الغرفة كان باب غرفة الشباب مفتوحًا، وداخل الغرفة بركة من الدماء، عندما رآني العنصر أنظر إلى هذا المنظر سارع في إغلاق بابهم، وأدخلني إلى غرفتي بسرعة وأقفل الباب علينا، لكنه لم يُقفل بابهم، فنظرت أنا وأختي من خلال الفراغ أسفل الباب لنرى ما يحدث، وشاهدنا خطوات المستخدم وهو آت لتنظيف الغرفة. كان لون المياه أصفر وملأت رائحة الدماء المكان، وسمعنا العنصر يقول للمستخدم: "يلّا حطّ من هالخلطات مشان تطلع الريحة حلوة"، يقصد خلطات مواد التنظيف، ثم صار يضحك.

لقد لمحت الشابّ الذي ضربوه، ولم يكن عمره يتجاوز خمسًا وعشرين سنة، وأعتقد أن الشاب كان ينازع، كانت صواني الأكل تخرج فارغة، كانت تسع أو عشر صواني، إلا واحدة كان الأكل يخرج كما دخل، وكنت أقول لأختي انظري إنها صينية الشاب الذي ضربوه، وربما يموت.

وفي اليوم الذي يليه في الساعة الثالثة بتاريخ 28 رمضان 2014، وكان قد نقلونا إلى غرفة أخرى، طلبت من العنصر أن يفتح باب غرفتنا المقفل وقلت له: أريد دخول الحمام، فشعر الشباب أن باب غرفتنا فُتح فدق أحدهم على بابهم وقال للعنصر: "افتح الباب"، قال له العنصر: "ماذا تريد؟" فكرر الشاب طلبه وقال: "افتح افتح"، لم أسمع ما دار بينهما عندما فُتح بابهم، لكن عنصر الأمن قال لي بانفعال: "يلّا إنتِ وإختك بسرعة بسرعة". وأدخلنا بسرعة إلى غرفتنا وأُقفل الباب، ثم أقفل باب غرفة الشباب، وحضر رئيس المفرزة ووقف بجانب غرفتنا وقال له أحد العناصر: "فطس مات سيدي". ثم شممنا رائحة "سبيرتو"، يبدو أنهم سكبوا على وجهه، فقال العنصر: "لم يصحُ"، يبدو أنه مات من فترة. فقال رئيس المفرزة: "أحضر عيسى "المستخدم" كي ينقله إلى البرادات"، وبالفعل أحضروا النقالة ونقلوه إلى البراد.

كنت كلما أسأل العنصر: متى سنخرج من هنا؟ يجيبني: إذا لم يكن عليكِ شيء ستخرجون، هي مسألة وقت فقط، كنت أقوم بمحاججته دائمًا: إذا كان أخي مذنبًا فما علاقتي بالأمر، لم يكن يعنيهم الأمر!

بعد ستة أشهر وعشرين يومًا، وفي الساعة الثانية فجرًا، نقلنا العنصر إلى غرفة أخرى يوجد بداخلها حمام بقسم الصدرية في مشفى المجتهد. الحمد لله تحسن الوضع وعلى الأقل استطعنا الاستحمام وقضاء الحاجة في الوقت الذي نريد، لكن وبسبب المدة الطويلة التي قضيتها في الغرفة السابقة، عانيت من موضوع حصر البول. بقينا في هذه الغرفة مدة أربعة أشهر. بلغت المدة الكاملة التي قضيناها في هذا المشفى عشرة أشهر وعشرين يومًا وخرجنا، كانت خلالها حياتنا ولا أسوأ.

فرع الخطيب

في الثامن من نيسان عام 2015، أخبرونا أننا سننتقل إلى فرع الخطيب، وقالوا لنا: "أن وجودنا في الفرع سيكون لأيام معدودة"، قلت في نفسي: "الحمد لله جاء الفرج"، وطلبوا منا أن نترك أغراضنا في المشفى، فتركنا "فرشة الهوا" الخاصة بوالدتي. وفور وصولنا إلى الفرع حملوا والدتي على كرسي من البلاستيك،

وتم إنزالها إلى القبو لمهجع جماعي. كان المهجع مليئًا بالبنات، كنَّ حوالي ثلاثين بنتًا"، تفاجأت البنات بوجود أمي المصابة بالشلل، وصرن يسألنني عن سبب قدومنا، فأخبرتهن بأننا لم نفعل شيئًا ووجودنا فقط بسبب أخي المطلوب للنظام. في اليوم الثاني من وجودنا في الفرع ساء وضع أمي كثيرًا، كنت أرجو السجان ليعطيني "فرشة من الإسفنج" كي أرفع أمي قليلاً عن البلاط، لكنه رفض، وبعد خمسة أيام استدعيت للتحقيق، كان جسد أمي قد احمرّ والتهب نتيجة استلقائها على الأرض، وكان التحقيق معي شكليًّا، ولم توجّه لي أي تهمة، كانت أسئلة المحقّق عن أسرتي وأقاربي، وقلت له: "أنا متزوجة من إحدى عشرة سنة، وليس لدي أي نشاط بالمطلق، وكنت أردّد أمامه، "ما ذنبي أنا؟"، كنت خائفة من التعذيب لأني شاهدت البنات بعد التحقيق معهن، تسيل دماؤهن، كُنَّ يُضربن ولا يستطعن بعدها المشي على أقدامهن المتورمة، هذا عدا التهديدات والكلام البذيء الذي يسمعنه، لكن لم يحصل معي أي مما ذكرت، تم التحقيق معي وأنا معصوبة العينين وكنت أجلس على البلاط. وعندما حلت العصابة عن عيني وجدت المحقق جالساً على الكنبة، وأمرني بوضع بصمتي على ثلاث أوراق بيضاء، وبعد أن انتهى التحقيق معي أخذوا أختي للتحقيق أيضاً، لكنهم لم يحققوا مع أمي.

بقينا شهراً في المهجع الجماعي، وبدأ الاحمرار في جسد أمي يتحول إلى لون أسود، وبدأ الجلد في جوانب جسدها يفتح - حشكريشا – قرحات الاضطجاع، زارها طبيب وفتح مكان التقرحات بواسطة مشرط فسال القيح، وبدا عظمها مرئياً لنا في ظهرها وأحد جانبيها. وأصبحت أمي تنام على جنب واحد، وهنا ترأف الطبيب بحالنا وأحضر إطارًا داخليًا لسيارة، نفخوه وطلب منها أن ترفع جنبها عن الأرض كي لا يتقيح أيضًا جراء طريقة الاستلقاء هذا.

أصيبت أمي بتعب ويباس في مفاصلها، وبسبب عدم وجود علاج فيزيائي لها تعطل كل جسمها، وحتى القسطرة البولية كانت تتعطل فيأتون بممرضة من مشفى الهلال الأحمر لأنه قريب من الفرع، تغيّرلها كلّ اثني عشر يومًا وأحيانًا كلّ عشرين يومًا.

كنت أستخدم لأمي الحفاضات، وكاد مالنا ينفد بسبب شرائها، في إحدى المرات قالت ميادة، وهي المعتقلة منذ عام ونصف وكان بحوزتها عشرة آلاف ليرة، للسجان: "نفذت نقودنا بشراء الفوط الصحية احضروا لنا فوطًا"، فأصبحوا يحضرون 3-4 أكياس فوط لجميع الموجودات، أما والدتي فلديها قسطرة بوليه ولكني كنت أقسم الحفاضة الواحدة إلى نصفين وأحيانا استخدم أكياس الخبز.

خلال تلك المدة كنا نسمع أصوات أطفال في المهاجع الأخرى، وفي اليوم التالي ظهراً سمعنا أصوات ضوضاء وبكاء، وسمعنا صوت السجّان يقرأ أسماء بعض النساء لإخلاء سبيلهن، والباقيات انتُزع أطفالهن منهن لأخذهم إلى الميتم "SOS"، كان صوت صراخهن وبكاؤهن وبكاء أطفالهن عاليًا جدًا، كان أكبر طفل فيهم عمره عشر سنوات.

بقيت ثماني أمهات في الغرفة، ثم ساد الهدوء في السجن، بعد ذلك أتى عنصر إلى المهجع الجماعي وقرأ أسماء إحدى عشرة امرأة من بينهن أنا وأمي وأختي وطلب منا الخروج، توقعتُ أن يخلوا سبيلنا، لكنهم

أخذونا إلى الغرفة التي كانت فيها تلك النسوة، اللواتي انتزع منهن أطفالهن، كنّ من قرية ميدعا في الغوطة، وأصبح عددنا في المهجع 19 امرأة.

في هذا الشهر الذي قضيناه، دخلت نساء جدد وأخريات خرجن، مقابل غرف المنفردة، كان هناك غرفة تخرج منها بنات كل عشرة أيام، وجوههن صفراء اللون، إلى الفسحة كي يتعرضن للضوء، كن حوالي ثلاث عشرة امرأة، سألت النسوة من حولي: "من تلك البنات؟"، فأخبروني أنهن أسيرات تم اعتقالهن من أجل المفاوضات والمبادلات، وكان واضحًا أنهنّ في السجن منذ وقت طويل.

عندما نُقلنا إلى تلك الغرفة علمت من النسوة أن السجان قال لهن بأننا على ملف التبادل مع منطقة الغوطة، نحن تسع عشرة امرأة في هذه الغرفة، وثلاث عشرة امرأة في الغرفة الصغيرة على ملف التبادل. بقينا على هذا الحال مدة سبعة شهور، لا يُفتح الباب ولا يدخل منه أحد. ساء وضع والدتي جدًّا ورائحة قيح جروحها أصبحت مزعجة و محرجة، لأن البنات لا ذنب لهن في شم تلك الرائحة، وكانت أشتري لها الحفائض من مالي المودع في أمانات السجن ولكني كنت خائفة من نفاذه، كان معي في الغرفة خالة عمرها ستون سنة وهي من حرستا، قالت لي: "لا تخافي ولا تقلقي أنا لدي نقود تستطيعين استخدامها لشراء الحفائض"، كانت الخالة أكبر الموجودات في الغرفة وأصغرنا صبية عمرها 15 سنة من مواليد عام 2000، عروس أحضروها من منطقة ميدعة في الغوطة، هي وأمها بعدما دخلوا بيتها وقتلوا زوجها وحماتها أمامها وكانت مختبئة في إحدى زوايا منزلها، ورجتهم أن لا يقتلوها فأحضروها أسيرة.

جدران غرفتنا كانت من الإسمنت السيئ جدًا، خشن وقديم ومليء بالحفر، أما حمامها فيخاف المرء الدخول إليه من الجرذان التي كانت تخرج، كنا نبكي ونصرخ حين نراهم وعندما نُخبر السجان بوجودهم كان يقول لنا: فليأكلكن، كانت الصراصير تمشي على وجوهنا، كنا يوميًّا ننظف الغرفة دون جدوى، أُصبنا بالقمل والجرب وكنا نساعد بعضنا البعض في إزالة القمل، حتى البطانيات التي زودونا بها كانت ممتلئة بدم الشباب، غسلناها لنتغطى بها. كان السجان يرفس برجله صينية الأكل لتدخل إلينا من فراغ أسفل الباب.

كنا من أجل معرفة مصيرنا، نضرب عن الطعام، فنحن غير متهمات بأية تهمة، وجودنا في المعتقل كان بسبب أحد أفراد أسرتنا الذين ناصروا الثورة، كانت أول وجبةٍ تدخل لنا الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر والوجبة الثانية كانت تدخل بين الساعة الواحدة والنصف أو الثانية فجرًا، في إحدى المرات وبعد أن انهارت أعصابنا رفضنا دخول الوجبة الأولى والثانية في اليوم الأول، وأكلنا بعض الخبز اليابس الذي كنا نحتفظ به، كنا نوهم أنفسنا بأننا نأكل بسكويت، واستمرينا بالإضراب في اليوم الثاني، وفي فترة دخول الوجبة الثانية فجرًا دخل عقيد إلى زنزانتنا بعد أن ضرب الباب برجله، وبدأ بشتمنا: "إنتو إخواتكم قليلين الشرف والناموس يا كلاب، كلوا خرا، لو فيهن هالرجال شرف وناموس ما كانوا وصلوكن لهون". كان يحاول إقناعنا بأن أزواجنا و آبائنا وإخواننا هم سبب اعتقالنا وليس النظام، حاولت أن أتكلّم لكنّ مدير السجن قال لي: "إنتِ بالذات بتاكلي خرا"، فسكتّ، كان يشتم زهران علوش لأن أغلبية النساء الموجودات من الغوطة، وختم كلامه: "البنت اللي شرفها رخيص عليها لا تأكل، هلق الأكل رح يفوت ورح خلي السجان يفوتو اللي شرفها

رخيص لا تاكل" ونظر إلي قبل أن يخرج وقال: "إنتِ إنتِ إذا بدي عاملك علي عملوا أخوكِ، أنا هلق بحطك بالمايو وبحطك قدام الموقوفين"، وبدأت الأمهات يسألنهُ عن أولادهن الذين قاموا بانتزاعهن منهن، وبدأت الأخريات يسألنه: "أنا شو ذنبي بزوجي، أنا شو ذنبي بأخي، ليش زوجي بيرد علي لتاخدوني!" فرد عليهن: "عيشة أولادكن الآن أفضل من العيشة اللي كنت معيشتيهن ياها إنتِ يا إرهابية إنتِ وأبوكي، هنن عم ياكلوا ويشربوا ونايمين على تخوت". بصراحة خفنا من تهديداته بعد أن تحدث عن الشرف، وأكلنا لأنه كان يرانا من خلال الكاميرا الموضوعة في الغرفة والتي كانت تصور ليل نهار.

سمعنا قصصاً مرعبة من السجينات، بعضها سمعناه في الغرفة الصغيرة التي كانت تتواجد فيها الأسيرات، وبعضها عندما اجتمعنا معهن في كفرسوسة عندما وضعونا إيداع قبل تحويلنا إلى سجن عدرا، حكوا لنا بأن الضابط شق فم إحداهن عندما سألته عن مصيرها ومصير أطفالها، وأخرى نقلها إلى زنزانة منفردة، وأخرى "أكلت فلقة في مكتبه" وهددهن بعد أن أضربن عن الطعام وقال: "هلق بنزل عليكن عشرة فحولة يفتعلوا فيكن إذا ما بدكن تاكلوا"، ورمى صواني الأكل عليهن "ورشقهن رشقًا بماء البندورة" وبعد تهديدهن بشرفهن أكلن.

بقينا على هذا الحال مدة خمسة أشهر وتوقفنا عن الإضرابات وكان أهم شيء عندنا أن نخرج بشرفنا، وسلّمنا أمرنا لله.

كانت نفسياتنا محطمة، تارة نأكل وتارة لا نأكل، أحيانا لملء الفراغ والوقت نلعب لعبًا بسيطة، وأحيانًا نغني ونرقص ونبكي، كنا نبدو أحيانًا كالمجانين. بقينا نترقّب موعد خروجنا من المعتقل، إلى أن حضر مدير السجن في أحد الأيام في الساعة الثامنة صباحاً وقال لنا: "سنخرجكم على أربع دفعات"، وخرجت في آخر دفعة في الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني عام 2015، كنا نخرج من الغرفة الكبيرة والصغيرة حسب ما تأتيهم الأسماء ،ظننا أننا سنذهب إلى بيوتنا، ربطوا أيدينا بعقدة بلاستيك وسلمونا أماناتنا وأخرجونا إلى باص يتسع لعشرين راكبًا، ثم قام العنصر بتهديد والدتي وقال لها: "إذا بتقولي إنك موجوعة أو مشلولة بدي رجعك للفرع، بتقولي رجليّ عم يوجعوني"، وضعوها على كرسي بلاستيكي وحملوها إلى الباص، فطلبت منه ومن مديره أن يفكوا يديّ لأساعدها لأنها لا تستطيع المشي، وتم ذلك.

لا أعرف بالضبط ما اسم المكان الذي أخذونا إليه، ربما إلى الشرطة العسكرية، هو مكان في منطقة المزة، ملاصق لكلية الآداب وبعد جامعة التعليم العالي، سلّمونا للفرع وكانت هوياتنا وجوالاتنا معهم، وسمعت عنصرين يتحدثان مع بعضهما البعض عندما شاهدوا أمي المشلولة، وكان أحدهم يقول: "مين أخو الشرموطة اللي موقف هيك حالة". في بداية الأمر لم يصدّقوا أنها مشلولة فقالوا: "لها انهضي وامشي"، فأخبرته بأنها لا تستطيع، فقال لها أحدهم: "خالة ضميني متل ابنك" وحملها.

بقينا هناك أربع ساعات، ثم أخذونا إلى مخفر الشرطة في كفرسوسة ووضعونا إيداعاً فيه، وذلك قبل إرسالنا إلى سجن عدرا، هنا لم نعد تابعات للأمن بل للشرطة، فقال لنا أحدهم: "أحيانا تبقى الحالات لدينا لمدة يومين، ولكن من أجل حالة الوالدة سنحاول أن نخرجكم غداً صباحًا"، كانت جوانب أمي مازالت مفتوحة

والقيح يخرج منها، ففي فرع الخطيب لم يكونوا يستخدمون لها أي مرممات، كانوا يستخدمون المعقم فقط ويغيرون الشاش كلّ أربعة أيام.

وفي اليوم الثاني أخذونا إلى سجن عدرا.

سجن عدرا

تفاجأنا عند دخولنا سجن عدرا بكثرة النساء اللواتي تم تحويلهن إليه من جميع الأفرع، أدخلونا إلى الجناح الخامس بعد أن أخذوا أماناتنا، استغرب العقيد عماد سليمان من حالة أمي، وعلمت بأنهم أحضروا سابقًا الخرفانة والمجنونة والمريضة. أدخلونا إلى الجناح الخامس في الغرفة الثالثة، بعض النسوة اللواتي أمضين مدة طويلة أصبحن "بنات سجن"، أخلاقهن وقلوبهن قاسية، قليلات منهن من يمتلكن قلوباً رحيمة، فعادة يقرفن من النساء القادمات من الأفرع الأمنية حيث يوجد فيهن القمل، والنسوة لا يمتلكن أي شيء وملابسهن مهترئة، أما هن فقديمات في السجن وتأتيهن زيارات من أهلهن وملابسهن نظيفة. كان باديًا علينا وضعنا المأساوي، بقينا فترة من الزمن ننام على الأرض وعلى بطانية عسكرية وهن على الأسرة، لم يكن لدي مال، ولم يزورنا أحد لأن الزبداني ومضايا كانتا في حصار خانق، قالت لي بعض المعتقلات بأن القاضي سيخرجك بالتأكيد، وسألوني كم المدة التي قضيتها في المعتقل، كانت المدة ثمانية أشهر في فرع الخطيب وأحد عشر شهرًا في مشفى المجتهد، أي تقريبًا سنة وسبعة أشهر، كن كالقاضيات يحللن ويشرحن لي بسبب مكوثهن الطويل في المعتقل. بعد إثني عشر يوماً حضر العقيد ليعمل تأمين "تفقد يتم للمعتقلات ومن ثم يتم وضعهن بغرفة ويُقفل بابها حتى يأتي وقت الخروج إلى الباحة" وأخبرني بأننا غداً سنذهب للقاضي في محكمة الإرهاب في المزة، فسألته كيف سنأخذ والدتي: "فقال سأحاول أن لا يأخذوها"، لكن كان يجب حضورها، وفي اليوم التالي في الساعة الثامنة صباحًا لبسنا الثوب الجزائي ذو اللون الأزرق، وأحضروا بطانية وحملناها أنا وأختي ومعتقلتين من الجهات الأربع ووضعناها في الباص، كان ملفنا مع ملف المعتقلات الثلاث عشرة "ملف تبادل الأسيرات"، اللواتي انتقلن من فرع الخطيب، كبّلوا أيدينا كلّ امرأتين معًا، قبل الدخول إلى القاضي في محكمة الإرهاب، كان الناس والمحامين ينظرون إلينا وكأننا مجرمات، كانت نظراتهم فظيعة، وبدأنا نبكي.

وضعوا أمي على "فسحة الدرج" عند شخص يرتب الأسماء ربما تكون مفرزة للأمن، ودخلنا لعند القاضي وكان اسمه حسام الدين مخلوف وهو من الأسرة الحاكمة، فسألني: "أين فلان؟" فقلت له: "لا أعرف"، فقال: "حسب ملفك أنتِ منذ خمس سنوات خرجتِ من البلد ولا تعرفين عنه شيئًا"، فقلت له: "نعم سيدي، وماذا يعني ذلك"، فأجابني: "أنتِ إيقاف"، هنا فقدت الأمل وسألته: "ما ذنبي أنا!" فقال لي: "ما لك ذنب وإيقاف"، فبدأت بالبكاء، دخلت أختي بعدي وشاهدتني أبكي فقالت: "مابكِ؟" قلت لها: "إيقاف"، وقلت في نفسي: "خلص" فقدت الأمل من كل شيء و يأست من الحياة، نظرت إلى الشام والمزة حيث درست، الناس في

الشوارع تمشي وأنا أقول في نفسي: "يا رب ما لي ذنب، لماذا يحدث لي هذا"، البنات الثلاث عشرة اللواتي عُرضن أمام القاضي أُخلي سبيل ثلاثة منهم والباقيات إيقاف! منهن أنا وأختي وأمي.

رجعت إلى السجن يائسة وكارهة الحياة، لم تُصدِّق المعتقلات أننا عدنا وظنوا بأنني أكتم شيئًا، وأشرن عليّ بأن أقدم طلب إخلاء سبيل لكي أعلم ما التهم التي وجّهها لي القاضي، أتى يوم الثلاثاء وطلبت إخلاء سبيل لنا وعندما جاء الرد، تهافتت البنات عليه مباشرةً، ليعرفن تهمتي، وكان قد كتب على الورقة كتم جنائي، فلم يصدّقوا لأنّ مدّتها من ستة شهور إلى سنة وشهرين، فقلت: "لا أعلم ربما لم يتم احتساب الحجز في المشفى".

بقينا مدة خمسة أشهر، وتحسن وضع الوالدة، وأصبح الدكتور الموجود في سجن عدرا يعمل لها ضمادات ويستخدم أدوية ومرممات، وأحضروا لها "فرشة هواء"، وأثناء وجودنا هناك زارتنا لجنة من الهلال الأحمر السوري، ربما أحدهم أخبرهم عن حالة أمي، وسألونا: "ماذا ينقصكن؟" فطلبت حينها كرسيًّا متحركًا و"مرتبة هواء" وطالبوا المعتقلات في المهجع بمساعدتنا في رعاية أمي.

لم يكن أخي يعلم أننا أحياء، فقد وصله خبر بأننا متنا تحت التعذيب، وفي بعض الأحيان كانوا يفاوضونه بأن يسلم نفسه مقابل خروجنا، لكنه رفض، وكان يعتبرنا شهداء، ولكن لن يسلم نفسه، وفعلاً كنت أقول من كثرة ما سمعنا أصوات تعذيب الشباب وضربهم في فرع الخطيب: "يا رب بين إيديك ولا بين إديهم يارب"، أي اجعل موتنا تسليمًا للروح، ولا تسلّطهم علينا ليقتلونا.

كانت المعتقلات يغلقن آذانهن كي لا يسمعن هذا التعذيب والقتل والكلام البذيء، يبدأ التعذيب من الساعة الثامنة ليلاً حتى الساعة الثانية فجرًا، كان صراخ المُعَذَّبين متواصلاً، وكنا نرتجف خوفاً، وعندما كان المعتقل يقول: "يا الله" كان السجان يزيد تعذيبه، ويسبّ دينه وربه.

كنا في السجن بحاجة إلى نقود من أجل شراء مستلزمات لأمي، التقينا بامرأة كبيرة في السن كانت تتصل بابنها المطلوب والموجود في الزبداني المحاصرة، وكان ابنها صديقًا لأخي، فأخبرته بقصتنا وقالت له: هنّ من عائلة فلان، حاول أن تتواصل مع عائلتهن لأن وضعهن سيء وبحاجة لمال، وبالفعل أمّن لنا أحد الأرقام وطلب منها أن نتصل به.

اتصلت بهذا الرقم فرد عليّ صديق أخي الصيدلي، فقلت له: "السلام عليكم، معك فلانة من سجن عدرا"، فقال: "هل أنتِ متأكدة؟!" وفرح كثيرًا، فشرحت له وضعي ووضع الوالدة وقلت له: "أريد فلانًا" أي أخي، فأنا لم أعد خائفة، وقلت في نفسي "خلص اللي بدهن يعملوا يعملوا"، فأخبرني بأن أخي ليس موجودًا أمامه، و أعلمته بأني أريد نقودًا لشراء مستلزمات لأمي، كان سعيدًا بوصولنا إلى مكان يستطيع فيه معرفة أخبارنا.

بعد عدة أيام وصلني مبلغ ستين ألف ليرة، لا أعرف كيف وصل. ناداني العقيد وقال لي: "من هو فلان الذي أرسل لك مالاً؟" فقلت له: "لا أعرف ربما يكون من طرف خالاتي من لبنان"، فقال لي: "ممنوع أن يكون لديك أكثر من خمسة وعشرين ألف ليرة، ولكن أنتن ثلاثة فهو ضمن المسموح"، بعد حصولي على

المال صرت أشتري ثيابًا من البنات اللواتي لديهن زيارات، وتجلب لهنّ عوائلهنّ الثياب، كانت البنات يعطنني من ملابسهن القديمة لأن ملابسي أصبحت رثة، كن يبعن الملابس التي يحضرها لهم ذويهم كي يشربوا الدخان، واشتريت منهن بيجامة وبنطلون وكنزة لحين خروجنا واشتريت مستلزمات الوالدة، ومرة اشتهيت القهوة واللبنة وغيرها، واشتريت أيضاً بطاقات التلفون للاطمئنان على أولادي.

في إحدى الاتصالات أخبرني زوجي بأنه سيزورني، ففرحت كثيرًا، لكنّه أخبرني فيما بعد أنه لا يستطيع الحضور، حزنت كثيرًا وشعرت بصدمة، فأنا لم أكن أطلب منه أن يأتي لزيارتي هو أو الأولاد، لأنني كنت أخاف إن حصل له مكروه أن يلومني أهله، وكنت لا أريد أن يشاهدني أولادي في هذه الحالة.

طوال فترة اعتقالي لم يزرني أحد، إلى أن أخلي سبيلي في الخامس والعشرين من نيسان عام 2016، حضر محامٍ من أجلي لكنه لم يستطع أن يفعل شيء، ثم حضر محامٍ ثانٍ وجعلني أوقع على وكالة، وبعد اثني عشر يومًا تم إخلاء سبيلي، من وكّل المحاميين، ومن أعطاهما النقود؟ لا أعلم، لكن زوجي دفع كفالة لي ولأمي وأختي بقيمة خمسة عشر ألف ليرة عندما اتصلوا به من محكمة الإرهاب.

بعد خروجنا ذهبت أمي وأختي إلى الزاهرة وأنا ذهبت إلى منزل أخت زوجي في مشروع دمّر، لم أصدق أني حرة طليقة، لم تكن مشيتي عادية لم أكن أعرف كيف أمشي، كانت رجلي ترتجفان وكنت أوشك أن أقع أثناء سيري، فقد كانت مفاصلي متعبة، قرعت الجرس وفتح أولادي الباب، كان عمر ابني عندما تركته ست سنوات، وقف ابني ولم يقترب مني و لم يعرفني، حاولت الاقتراب منه لكنه نسيني، ابنتي سلّمت علي، كان عمرها ثماني سنوات يوم تركتها، لقد تعوّدا على غيابي، لم أشعر بالعاطفة ولا الحنان، كنت عندما أخلو بنفسي أبكي، بقي ابني فترة من الزمن لا يقترب مني.

العلاقة مع الشارع

بقيت أربعة أيام في الشام، وكلما خرجت إلى الشارع كنت أتلفت يمنةً ويسرةً خوفًا من أن يتم اعتقالي مرةً ثانية، كنت أحب الشام، لكن بعد الاعتقال أصبح الخوف يسيطر عليّ، لأنني شهدت إعادة المعتقلات إلى السجن بعد خروجهن.

في إحدى المرات كنت أريد زيارة والدتي في الزاهرة، ركبت السرفيس من مشروع دمر وإذ بحاجز طيار، أخذوا منا الهويات، أصبح وجها ولدَيَّ أصفرَ، وأنا أيضًا اصفرّ لوني من الخوف، شعرت بأنّ مأساتي ستتجدد، نظر أولادي إليّ بخوف، ولم أطمئنّ إلا عندما أعادوا إليَّ هويتي.

كنت كلما دق الباب أصاب بالرعب، وبدأت بالتنسيق مع جماعة للذهاب إلى إدلب أنا وأمي وأختي وأولادي، أخبرني زوجي بأنه سيلحق بنا، ولكن الطريق إليها كان صعبًا، بقينا ننتقل من سيارة إلى أخرى واستغرقت الرحلة اثنتيّ عشرَ ساعة، وكان وضع والدتي صعبًا، كنّا نمر عبر الخط العسكري، والسائق يدفع الرشوة للحواجز.

عند وصولنا إلى إدلب ورغم القصف شعرت بالحرية وكنت أتحرك بكل راحة، بقينا فيها ستة أشهر، كان هناك هدنة. بعد شهر لحقني زوجي إلى إدلب، لم أطلب منه الحضور لأنني أعرف تفكيره وتفكير أهله، وكي لا يلومني يومًا ما لأني أحضرته تحت قصف الطائرات، أو يقول إني أخذته إلى مكان لا يمكن أن يُعاش فيه، بقي زوجي معنا في إدلب خمسة أشهر، وكان دائمًا يقول: "نريد الخروج من هنا".

اللجوء

توجّهنا إلى تركيا بقصد الدخول خلسة، سلكنا طريقًا جبليًّا وعرًا، ننزل نهرًا ونصعد جبلاً، بقينا نمشي في الجبال ثماني ساعات، حتى وصلنا إلى أنطاكيا، ولكن الناس نبهونا أنها منطقة حدودية وإذا وجدونا بدون هويات من الممكن أن يطلبوا منا العودة إلى سورية. كان المبلغ الذي بحوزتي محدودًا، فقد كان معي قطعتين من الذهب بعتهما في إدلب للخروج إلى تركيا، وعندما وصلنا إلى إسطنبول لم يتمكن ولدَيَّ من الذهاب إلى المدرسة بسبب عدم وجود الكملك، وهو بطاقة إثبات شخصية تمنحها السلطات التركية للاجئين السورين.

عمل زوجي براتب وقدره ألف ومئتا ليرة تركية، وكان راتبه بالكاد يكفي نفقات الأكل والشرب، وعملت أنا في مشغل خياطة، كنت أبكي لأني أخرج من منزلي من الساعة الثامنة صباحًا، وعدد ساعات الدوام اثنتا عشرة ساعة، وأحياناً كنت أبقى ساعات إضافية أي للعاشرة مساءً وأولادي وحدهم في البيت، ولأني كنت مدرّسة والآن أعمل في الخياطة، وأقول الحمد لله أفضل من السجن.

تركت والدتي مع أختي في إدلب بقيت حوالي ثلاثة أشهر ونصف وأطفالي بدون مدرسة، وزوجي لم يعجبه عمله بسبب طول دوام العمل، إخوتي أخذو أمي إلى طبيب أعصاب في إدلب فقال لهم: إنها تحتاج إلى علاج فيزيائي مكثف، واقترح أن تسافر إلى تركيا حيث يوجد مراكز علاج مجانية.

ثم خرجت أمي مع أحد إخوتي الصغار إلى تركيا، أدخلوها لدار جرحى ولكنها كانت تحتاج إلى خدمة، فقلت لزوجي سأذهب إلى الريحانية حيث أمي وأنت ابق هنا لتبيع أغراض البيت. وافق وذهبنا إلى الريحانية أنا والأولاد، استغل أهله وضع غيابي وشجعوه على العودة إلى الزبداني لأن الوضع أصبح آمنًا، وهو لديه بيت ومحل هناك، وليس مضطرًا ليدفع أجار المنزل أو العمل لمدة اثني عشر ساعة يوميًّا، فاقتنع وطلب مني أن أعمل مصالحة وأعود إلى سورية، قلت له: "مستحيل مستحيل أنا بعرف شو يعني اعتقال وإخوتي تهجروا إلى إدلب"، حسم أمره وقال: "أنا بدي ارجع" فقلت له: "أنا لا أريد العودة لأني ذقت الظلم"، فتركني أنا والطفلين وعاد إلى الزبداني، وانفصلنا بعدها بشكل رسمي وبقي الولدان عندي.

العلاقات مع الأسرة والمجتمع

بعد خروجي من المعتقل كانت العلاقة مع زوجي علاقة عادية، خالية من المشاعر، لأن في قلبي شيئاً قد كُسر، فهو لم يقف معي ولم يساندني، وعندما كنت في سجن عدرا علمت أنه كان يريد الزواج، وقد أحزنني الأمر كثيرًا ولم أقله له، وقبل اعتقالي بعام وضعت قطعتَيْ ذهب أمانة عند خالتي، وكان هو وعائلته

الوحيدين من أسرتي في الشام، وكانوا يستطيعون زيارتي في السجن ولم يفعلوا، وأهلي كانوا محاصرين في الزبداني والطريق مغلق، وبدل أن يزورني ويسأل عني ذهب إلى خالتي وطالبها بقطعتي الذهب، لكنها رفضت أن تعطيه الذهب، وقالت له: "لن أعطيها إلا لصاحبة الأمانة"، فأجابها: "بركي ماتت"، فأجابته: "وقت يصير عمر ابنتها ثماني عشرة سنة أعطيها الذهب"، لقد عذرت المحاصرين رغم أنهم قصروا بالسؤال عني هاتفيًّا، وصديقتي أيام مقاعد الدراسة لم تقصّر معي ولم تتركني، وكانت تغسل ملابسي وتُحضر لي طعامًا من بيتها ومحارم معطرة، فأنا لم أكن أستطيع الاغتسال في مشفى المجتهد، أنا لا أتحدث معها الآن خوفًا عليها، ولكنها بالنسبة لي أغلى من الخالة والعمة لأنها في وقت الشدة وقفت بجانبي. أما زوجي فهناك كسر قد حصل تجاهه، وقد عاتبته لأنه لم يزرني، فالمعتقل يفرح بالزيارة، فقال: "ابن عمي وأمي ما خلّوني زورك"، ما هذا الجواب! لكني تعلمت التسامح.

كان لدي هدف في الحياة، لكن بعد الاعتقال لم يعد لدي هدف، تعبت، مليت، يأست. ما حصل كان فوق طاقتي، كنت أكره الخروج من المنزل وأبقى صامتة طوال الوقت، وكنت أشعر بأني كالميتة ويصيبني الاكتئاب، منذ فترة وصلت لمرحلة حضور جلسات نفسية عند أخصائي نفسي، شعرت بتحسن بعدها، ولكني لم أستطع نسيان تجربة السجن ومآسيه. أحيانًا أشعر بأني غير مبالية ومتقلبة المزاج، على سبيل المثال كنت شديدة الحرص على دراسة أطفالي وتربيتهم، أما الآن فأنا أكثر مرونة، أحيانًا أشعر بأن حياتي انتهت.

بعد اعتقالي، كان زملائي وزميلاتي في العمل يقومون بحظر هاتفي، فمن بقي في مناطق النظام كانوا خائفين على أنفسهم، وأنا لم أتحدث معهم كي لا أسبب لهم إشكالات، حتى علاقتي بأسرتي تغيرت، كنت أحب خالتي وعمتي كثيرًا، وأشعر أن فرحهن فرحي وحزنهن حزني، أما الآن فأي موضوع يخصّهنّ هو أمر عادي بالنسبة لي، كشعوري تجاه الغرباء، لقد أوصلت لهن مشاعري تجاههن، هن من اخترن الابتعاد عني ولست أنا من ابتعد، هي لامبالاة عامة أصابتني، فالظلم الذي مرّ عليّ جعلني أشعر أن الكثير من الأشياء تافهة، حتى قضية طلاقي أراها عادية، ولن تكون أصعب من القسوة التي عانيتها في الاعتقال والحجز.

أما أبرز الأسئلة التي وجهت لي فهو سؤال زوجي: "هل اغتصبك أحد؟" أجبته بالنفي، أما إخوتي فلم يسألوني هذا السؤال.

حالياً في تركيا، أنا في عزلة في منطقة غريبة، أما وضعي الاقتصاديّ فأنا وولدَيَّ لا معيل لنا، وأنا لا أستطيع العمل كمعلمة بسبب اللغة، وليس لدي مورد ماديّ شهريّ فأنا دائمة الهم في كيفية تأمين متطلبات الحياة، ولا أستطيع العودة إلى سورية، وأحاول السعي في تأمين عمل لي، وتأتيني مساعدات شخصية من بعض الناس ومن الهلال الأحمر، أشعر أني أصبحت عبئًا.

كوني معتقلة سابقة أشعر بمعاناة المعتقلين والمعتقلات، ولا أرى فرقًا بين الرجل المعتقل والمرأة المعتقلة، بعض المعتقلات تعرضن للقتل والتعذيب والشبح وأشياء أخرى مثلما تعرض لها الرجل، الفارق الوحيد أن تعذيب الرجال يكون أشد. أمّا اجتماعيًّا، فالمرأة المعتقلة مرفوضة من قبل الناس والكثيرون يتحاشونها، هكذا أشعر. ولكن بعد هذه السنوات واعتقال كم كبير من النساء أعتقد أن المجتمع تقبلها

نسبيًّا، بعض الناس تقول لنا: "أنتن تاج رأسنا"، وآخرون لا يتقبّلوننا ولكنهم لا يفصحون عن آرائهم. شخصياً، كثير من الأشخاص الذين أجتمع معهم متعاطفين مع القضية.

كلمة أخيرة

يجب أن يحاكم من ارتكب الجرائم، وتنزل بهم أقصى العقوبات، فنحن سُجنًّا ظلماً ودون ذنب، وإذا اعتبرنا أن أخي كان مذنبًا فلماذا ادفع أنا الثمن؟

علينا كمعتقلات أن نقف صفًّا واحدًا وندعم محاكمتهم، فأنا لم أكن أدعم النظام ولم أكن ضدّه ولكنّهم ظلموني، وأتمنى لو تتاح لي الفرصة لأكون طرفًا بالادعاء على المجرمين.

إنصاف الناجيات يكون بتأهيلهن نفسياً وتمكينهن، فأنا كمدرسة، يجب أن أجدد معلوماتي فذاكرتي ضعفت بعد تركي العمل لمدة خمس سنوات، وأحتاج إلى دورات كمبيوتر ولغات وجميعها يجب أن تكون مجانية، بالإضافة إلى تأمين عمل للناجية لتعيش حياة كريمة، عدد كبير من الناجيات أرامل أو منفصلات عن أزواجهن وبقين دون معيل وظُلمن من الجميع ومن المجتمع، أنا الآن أتمنى أن أقدم لجوء في بلد أوربي، حيث ظروف الحياة أسهل، لأني تعبت خلال هذه السنوات الخمس.

رغبت بتوثيق تجربتي لأنني لم أستطع نسيانها، فيها ظلم لي ولعائلتي ولبنات عشت معهن في المعتقل ولا أستطيع نسيان وجوههن ومعاناتهن وقصصهن، أذكر إحدى المرات كنت أبكي بحرقة، فشاهدتني مشرفة الغرفة في سجن عدرا، وكانت من حماة، وسألتني عن السبب، فأخبرتها بشوقي لأولادي، فحدثتني عن معاناتها، فهي لم تكن تستطيع رفع يدها لتمشط شعرها بسبب قسوة شبحها أي تركها معلّقة خلال التعذيب، وحدثتني عن معاناتها جراء اغتصابها، مازلت إلى الآن أسأل عن الكثيرات منهن، فقد كان يجمعنا ألم واحد.

جرح قديم وانفتح[2]*

[2]- حوار أجرته الكاتبة مع نورهان (اسم مستعار) عبر WhatsApp))، في 2019/2/27، مدة الحوار: ثلاث ساعات ونصف.
* لوحة الغلاف: عمار خطاب

ضبي لسانك
جريئة
مطلوبة
١٩٨٦
٢٠١٣

أنا نورهان من محافظة دير الزور، من المدينة تحديدًا، عمري ثمانية وخمسون سنة، أنا بنت وحيدة بين سبعة شباب، من عائلة مرتاحة ماديًّا. خلال أيام المدرسة كان تفكيري منحصرًا في دراستي فقط، وكان عندي اهتمام في الأدب وكنت أقرأ دواوين الشعر والروايات، عشت الحياة ببساطة، طيبة القلب، هادئة جدًا، أصدق الناس ولا أفترض سوء النية، بنت جميلة ومدللة، ومن عائلة معروفة في البلد، كنت أسافر كثيرًا أنا وأهلي إلى الدول العربية مثل مصر ولبنان وعمان، لم يكن لدي اختلاط مع الناس والجيران، وكنت بعيدة عن مشاكل المجتمع. كان لدي تلفزيون في غرفتي وكنت أتابع أفلام الكرتون والبرامج التعليمية، وأخواني يتابعون السياسة.

دخلت جامعة حلب في عام 1982، ودرست اقتصاد وتجارة، عندما دخلت الجامعة أصبحت أريد أن أخالط الناس، ورغم وجود منزل لنا في حلب، فقد طلبت من إخواني أن أسكن في المدينة الجامعية، لأني أريد أن أرى المجتمع عن قرب، لكن مخالطة الناس أرتني أشياء كنت أستغربها في طريقة تعامل الناس وأشياء كثيرة أخرى.

انتهيت من دراستي الجامعية بعد جهد جهيد، فأنا انقطعت عنها فترة طويلة، حتى إن أحد الزملاء اتصل بي وقال: "يا أختي هي خمس مواد فقط متبقية لكِ أكمليها". تخرّجت من الجامعة في وقت متأخّر، وآخر دورة قدّمتها كانت في عام 1994، وكان اسمها دورة الباسل. الحالة الأمنية هي التي أعاقت دراستي، فقد لوحقت من قبل الأمن، وكانت المراقِبة تدخل أثناء الامتحان، وتسحب ورقتي قبل أن أبدأ بحل الأسئلة، وتطلب مني الخروج.

البدايات

عندما دخلت إلى الجامعة قال لي إخوتي: "أنت ذاهبة إلى الجامعة، وعليكِ أن تسيطري على خجلك، ربما يجلس زميلك بجانبك، عليكِ أن لا تخجلي". أحد إخوتي درس في مصر- جامعة عين شمس، وآخر في لبنان، وأفهموني وضع الجامعة وطلبوا مني الاختلاط ضمن حدود الأدب.

لم أكن أعرف شيئًا عن الأحزاب، كنا نعرف حزب البعث والناصريين فقط، لأن الناس كانت عاشقة لعبد الناصر، لم يكن أحد يجبرنا على تعبئة طلب انتساب لحزب البعث، كانوا يتوجهون إلى الطبقة الفقيرة، ويدعونها الطبقة الكادحة، ويقولون لهم: "إننا سنرفع مستواكم المعيشي"، أما نحن، فكأنهم يرون أننا لسنا بحاجة إلى حزب، ولذلك لم يستهدفونا.

خلال وجودي في المدينة الجامعية خالطت الشيوعيين والقوميين ورابطة العمل الشيوعي، وتعرفت على أناس كثر، كانوا يسمونني البورجوازية، وكنت أخجل من سؤالهم عن معنى هذا المصطلح، فقد كانت اهتماماتي أدبية، وبدأت بالتعرف على معنى هذه الكلمات، ليبرالية، حرية... وأصبحت أحضر اجتماعات رابطة العمل الشيوعي بصفتي صديقة.

صار معي موقف خلال السنة الأولى في الجامعة وهو الذي جعل الأنظار تتجه إلي، فقد أتاني شاب، وهو بعثي من حزب البعث، وقال لي تعالي واحضري اجتماعاتنا، وأصبح كلما رآني يقول لي تعالي، فتضايقت منه، وقلت له: "أخي أنا لو اقتنعت بحزبكم لكنت أتيت، وكلمة رفيقة لا تقولها لي، أنا لست رفيقة، ومرة أخرى لا توقفني في الجامعة"، فقال لي: "هذا كلام خطير، وستحاسبين عليه".

وفعلا كان أول تحقيق معي ضمن نطاق الجامعة وفي الفرقة الحزبية، دخلت إلى غرفة كبيرة وكان بداخلها عنصر من الأمن، فسألني عن ما قلته للشاب، وأجبته بأنني أسافر دائمًا وليس لديّ وقت لحضور الاجتماعات، فقال: "لا بأس، نعمل لك طلب انتساب وتحضرين الاجتماعات في البلد حيث تقيمين"، فقلت له: "أنا لست مقيمة في البلد، وليس لديّ مكان محدد". أخرجت نفسي خلال التحقيق بأسلوب أو بآخر، ولكن هذه الحادثة، وكيف أجبت الشاب وطلبت منه أن لا يدعوني رفيقة، لفتت الأنظار إلي، وأصبح النّاس الذين ينتمون للأحزاب المعارضة الأخرى يقولون لي: "أنتِ جريئة".

كل الأحزاب المعارضة الأخرى غير حزب البعث كان يُطلق عليها أحزاب معادية للدولة، كان سبرهم سبر الإخوان المسلمين، وذلك بعد أحداث حماة عام 1982، فعلى سبيل المثال، كنا نقرأ ونطلع على أدبيات الحزب القومي سرًّا لأنها كانت ممنوعة، وكنت أحضر اجتماعات رابطة العمل الشيوعي، كصديقة وكمستقلة ولم أنضم إليهم، كنت أريد أن أتعرف على أهدافهم، وبالطبع كانت تلك الاجتماعات تتمّ بشكل سريّ لأنّهم كانوا ملاحقين، وكنت أدرك هذا الأمر، وحين كنت ألتقي بأصدقائي كنت أسمعهم يقولون: "إن فلانة اعتقلها الأمن".

في إحدى المرات تواعدت مع إحداهن أن نلتقى في مقصف كلية الهندسة، فأتى أحدهم وقال لي: "لا تذهبي، لديها منشورات وتريدك أن توزعيها وربما يُلقي القبض عليكِ وأنتِ لست منتسبة لحزبهم"، فلم أذهب إلى الموعد، لقد كنت واعية، صرت مؤيدة لهم كصديقة لأني رأيت الظلم الواقع على الناس، فقد كان هناك فتاة من حماة، فقط لأنها من حماة وأهلها قُتلوا فيها، كان يتم التحقيق معها بشكل دائم، وكانت تأتي إلى الجامعة وعليها آثار التعذيب وشعرها مقصوص، لم يكن لديها مكان تذهب إليه، وكانت تسكن في المدينة الجامعية كونها مجانية، إلى أن اختفت ولم نعد نراها، كما سمعت آنذاك بجريمة اغتصاب ارتكبها الأمن بإحدى بنات الجامعة وقام أهل الفتاة بتسفيرها إلى إسبانيا.

أصبحت أتكلم بالسياسة وأشتم الأمن والنظام في لقاءاتنا، ولكني لم أكن أعلم أن هناك صبايا مُخبرات، يرسلوهن ليدرسن على حساب الدولة، تحت عنوان بعثات داخلية مقابل أن يكتبن التقارير. خلال تلك الفترة كان المظلّيون من جماعة رفعت الأسد مسيطرين، فأصبح الأمن يستدعيني ويقولون لي: "أنتِ لسانك طويل، ضبي لسانك"، وفي إحدى المرات قال لي رئيس الفرع: "أنتِ أتيت للدراسة مالك والسياسة؟ أنتن بناتنا ولا نريد أذيتكن".

لم يكن لي نشاط سياسي ولكني كنت فقط مع الناس المعارضين، وفي إحدى المرات كنت أقرأ كتابًا عن الماركسية، فنصحني أخي الكبير وقال: "لا تقرأي هذه الأنواع من الكتب لأنها ستغسل دماغك بشكل زائد،

ابقي على طبيعتك". فتوقفت عن قراءته لأنني كنت أثق بأخي، وكان ينتقي لي الكتب التي يمكن أن أقرأها ويقول لي: "كل عمر له نوع من الكتب"، وطلب مني أن أهتم بدراستي، كان بيني وبين عائلتي تفاهم، وكانوا ينصحونني بأن لا أشتم الحكومة والدولة، وكنت أخبرهم بأن أمن الدولة استدعاني، فيقولون: "هدي هدي حتى لا يأتي يوم نبحث عنكِ في السجون".

كان أول استدعاء لي في عام 1983، حيث كنت أدرس أنا وطالبتان، إحداهن من البعثات الداخلية لكنها كانت تدّعي بأنها معارضة، وكنا نتحدث أمامها بأريحية، فكنت أقرأ لهن ما أكتب عن الوطن وعن معاملة الأجهزة الأمنية للناس، ثم بدأت أشعر بأني ملاحقة حين أذهب إلى الجامعة، فأخبرت زميلتَيْ بالأمر وكنت أقول أمامهما: "عيب على الأمن أن يلاحقني"، لكن هذه الطالبة كانت قد كتبت بحقي عشرات التقارير.

وفي إحدى المرات كنا قد رتبنا أمورنا لنلعب الرياضة في الساعة السادسة فجرًا، ونزلنا أنا والطالبة الحموية، التي ذكرتها سابقًا، لكنّ الواشية اعتذرت بعد أن أخبرت الأمن، ووجدنا دوريتهم في انتظارنا على باب السكن الجامعي، أخذوني أنا والطالبة الحموية، هي إلى المعتقل فورًا، وأنا إلى المقدم، بقيت طوال الليل والمقدم يتركني ساعة وساعتين ويعود إلي ليسألني، وقال لي: "هناك أربع مئة تقرير عنكِ، احكي لنا مع من تلتقين؟"، ثم قال: "سنحرك كل هذه التقارير مقابل خدمة صغيرة للوطن، وهي أن تتقرّبي من طلبة عرب يسكنون في المنطقة الفلانية، وتزودينا بأخبارهم وانتماءاتهم"، فقلت له: "خدمة الوطن لا تحتاج إلى طلب، أنا عندما أشاهد أي أمر يؤذي وطني سأتكلم".

عندما رفضت طلبه، نادى العنصر وقال له: "خذها إلى صديقتها". وعندما أنزلني إليها وجدتها منهكة من الضرب والتعذيب، والسبب أنهم وجدوا لديها كلمات كنت كتبتها في ورقة واحتفظت بها، وكانت تحت عنوان "أبحث عن وطن"، ولأنها كانت حموية كانوا يستدعونها بشكل دائم، ويبدؤون بضربها أولاً لتكون نموذجًا لإخافة النساء اللواتي يتم اعتقالهنّ، ثم تمّ عرضنا أنا وهي أمام رئيس الفرع وطلعنا، لكن الحموية بعد ذلك اختفت نهائيًّا ولا أعلم إن كانوا قتلوها، لقد كانت تروي لي ما فعلوه بحماة، ويبدو أنها كانت تُخبر غيري أيضًا، فأخرسوها في النهاية.

تم استدعائي مرةً أخرى من قبل الأمن العسكري في الفصل الثاني، أثناء الامتحان وكانت أواخر عام 1984، ناداني أحدهم وكان في سيارة بيجو واقفة بجانب باب الكلية، وقال لي: "طالبك المعلم"، فسألته: "من هو معلمكَ؟" فأجابني، فقلت له: "عندي امتحان!" فقال: "سأنتظركِ". قبل أن أذهب أخبرت شخصًا من عندنا من البلد، وقال لي: "إذا لم تخرجي خلال نصف ساعة سنجري اتصالاتنا"، ذهبت إليهم برجلي، وحققوا معي ومضيت.

الاعتقال الأول

كان هناك اجتماع لكل الأحزاب المعارضة في سنة 1986، وكنت في قائمة المدعوين كضيفة، لكني لم أحضر بسبب وجودي عند أهلي، وعندما عدت إلى الجامعة وجدت أن الأمن قد طلبني، وأخبرني أحد العناصر أنهم منذ شهر يبحثون عني. صعدت في سيارة مرسيدس يوجد بداخلها "روسيات" وعنصران أحدهم يدعى أبو فارس والآخر أبو محمد، وأخذوني إلى الأمن العسكري وأدخلوني إلى رئيسهم، فقلت لهم: "لماذا تعذّبون أنفسكم وتبحثون عني منذ شهر، لماذا لم تشحطوني؟"، فأجابني: "لو أن لك انتماءً سياسيًا رسميًا لكنا شحطناكِ، لكننا نريدكِ كشاهدة".

أدخلوني إلى غرفة مظلمة كانت قريبة من باب الفرع، وبدون أن "يطمشوا" عينيّ، لم أكن أعلم كم الساعة، لكني عرفت أنه آخر الليل، دخل لعندي الشخص الذي يدعى أبا فارس، و أصبح يساومني، على أن يقوم بإخراجي في الصباح الباكر إذا تجاوبت معه، كان يريد اغتصابي، فأمسكته من رقبته "مسكتو من خوانيقو"، وكنت آنذاك رياضية وصحتي جيدة، فضربني في الجدار وشعرت بالنيران تخرج من أنفي، ووقعت على الأرض، وبدأ يدعس على بطني ويشتمني: "يا إخت الحفيانة ..." أخجل أن أكرر ما قاله فهذه الكلمات أصبحت معروفة لدى الناس، وقال: "سأضيع عليكِ تعب السنين كلها"، يقصد سنين دراستي.

ثم شحطوني وأدخلوني إلى أصدقائي من الأحزاب المعادية على حدّ قولهم، وكانوا "مكبوسين" في غرفة صغيرة، وذلك قبل أن يتم تحويلي إلى السجن المركزي، ثم أصبحوا يدخلون إلينا و"بواري" الحديد في أيدهم، ويضربوننا بها ضربًا مؤذيًا، ويربطون كل فتاتين معًا والحديد بينهما، كأنهما يحتضنان بواري الحديد، وعندما تُضرب إحداهما يضرب رأس الثانية بالحديد تلقائيًا وينزف دمها، نساء كثيرات فقدن ذاكرتهن من جراء هذا التعذيب، هذا المنظر لا يذهب من فكري حتى الآن، أولاً لأنه مقرف حيث إن الفتاتين "فاتحين رجليهن"، وثانيًا لأنه أسلوب تعذيب وحشي، وكان هناك صلب وشبح على الجدار، ولكنه لا يشبه طريقة الشبح الآن، إنما توجد حلقات على الحائط والحبال مربوطة بها ، مثل صلب المسيح، ويبدؤون بالضرب بواسطة السياط وبأدوات أخرى، حسب ما يختاره السجّان.

كانت غرفتنا مقرفة، وكان الأكل يأتينا في وعاء اسمه القصعة، نأكل كلنا سوية، بقايا طعام مخبوص، كان يُدخلون الأخريات ليأكلن أولاً، أما نحن فكنا نأكل بعد أن يكون الجميع قد أكل، إشارة إلى أن مستوانا أقل من الجميع، بالواقع لم نكن نستطيع الأكل بعد كل هذا التعذيب. كانت مدة الاعتقال، في الفرع والسجن المركزي حوالي ستين يومًا، منها عشرون يومًا في السجن المركزي.

لا تزال نفسيتي إلى الآن متعبة جرّاء هذا التعذيب، وأصبحت عصبية، كان أهلي دائما يقولون: "لا تزعلونها" وصاروا يداروني أكثر، إلى الآن أتوتر عندما أتكلم عن طريقة تعذيبنا، عمرنا ضاع وحياتنا الحلوة ذهبت، أحيانا أندم وأقول: "ليتني لم أدخل الجامعة، ولم أشاهد ما شاهدته"، وأحيانا أقول: "جيد أني عرفت".

عائلتي كانت ذات جاه ومال، "تواسطوا لدى الرؤوس الكبيرة"، وكان خلالها رئيس الفرع مسافرًا، واشتغل نائبه على كيفه. بعد خروجي من المعتقل سمعت أن زملائي خرجوا بعدي، ولكنهم أُجبِروا على كتابة تعهّد بأن يوقفوا نشاطهم السياسي.

في هذه الفترة كان بعض زملائنا معتقلين في سجن حلب المركزي وماتوا تحت التعذيب، وآخر ويدعى فراس وكان من عائلة معروفة في حلب، مات بعد أن خرج بشهر واحد بسبب حقنه بموادّ أدّت إلى موته، وكنا قد زرناه بعد أن خرج من المعتقل، وكان بالكاد يستطيع أن يتكلم.

كان الأمن العسكري هو من يقوم بهذه الاعتقالات، وأغلب من مات تحت التعذيب كانوا ينتمون إلى أحزاب شيوعية، أنا لم ألتق "الإخونجية"، لأني لم أكن أحبهم، فحاولت أن أكون بعيدة عنهم، ليس لأني كنت "سبور"، بالعكس أنا كنت من حفظة القرآن، لكني كنت أسمع أن الإخوان وصوليون وانتهازيون، ولا يعملون لمصلحة البلد بل لمصلحتهم الشخصية.

حتى في فرع الأمن، لم يكن معنا "إخونجية"، كان معنا أناس ليس لهم علاقة بالسياسة أبدًا، حتى إنهم ذات مرة أحضروا فتاةً كانت تريد أن تسافر إلى أهلها في فرنسا، اعتقلوها من مدرج المطار، ولفّقوا لها تهمة حيازة مخدرات، بقيت سنة ونصف وأهلها لا يعلمون أين هي، حتى إن الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران تدخل في الأمر، لأن الفتاة اختفت، ولم تعد موجودة على الأراضي السورية أو الفرنسية، قبض الأمن مالاً على قضيتها عن طريق أقربائها، وأعتقد أنّ القضية من أجل أمور شخصية. حتى الأمور الشخصية كان يتدخلون فيها مقابل المال، وهذا أسلوبهم منذ زمن، وقد قالت لي هذه الفتاة إنهم اغتصبوها في الفرع، كانت جميلة وصغيرة، عمرها لا يتعدى العشرين سنة، بعد سنة من اعتقالها تعاطف معها السجان وأخبر أهلها بعد أن أعطته قطعة ثمينة كانت لديها، وكان الأمن قد نسيها عند تفتيشها لحظة دخولها، فأعطته إياها وطلبت منه أن يبلغ أهلها بمكان وجودها، كانت أصولها دمشقية وقد أتت لزيارة منزل جدها في حلب، وكانت تريد السفر من حلب إلى فرنسا، لكنهم أبقوها فقط "ليكسدرون فيها" كما يقولون، أي للتسلية.

أثر الاعتقال الأول

بعد خروجي من المعتقل، كانوا قد فصلوني "حرمان" من الجامعة لمدة سنتين، ثم حوّلوني إلى مجلس تأديبي في الجامعة، حضر أخي مع عميد الكلية، وطلب مني الأخير أن انتبه لدراستي. عدت إلى منزلي في دير الزور، وكنت أزور بعض المعتقلين بعد إطلاق سراحهم، وكان زملائي الشباب يقومون بزيارتي كي يخففوا عنّي، وبدأت بأخذ ساعات للتدريس، أحيانًا كنت أفضّل البقاء في المنزل، ومزاجي أصبح متقلّبًا، وكنت أحيانًا لا أرد على الهاتف ولا على طرق الباب، أصبحت عصبية، وكنت أحيانًا عندما أتضايق أضرب على وجهي.

بعد الاعتقال، تغيّر عندي توقيت الدورة الشهرية، فأصبحت تأتيني مرتين في الشهر، لم أدقّق في الأمر وظننت أنّ ذلك بسبب الحالة النفسية، ولكن بعد أن عرضتُ نفسي على دكتورة، تبيّن أنّ ضرب السجّان

لي على منطقة البطن سبّب ضررًا في المبيضين، وخلال زيارة شخصية لرئيس محكمة أمن الدولة، الذي كان بينه وبين عائلتي معرفة، أخبرته بالضرر الذي لحق بي، فطلب مني أن أشتكي على السجان الذي ضربني، وبالفعل اشتكيت، فأنزلوه إلى القبو مثله مثل أي معتقل وجردوه من امتيازاته، وكان لديه سيارة ومنزل، لأن أحد أقربائه رئيس فرع، وأتى إليّ أهله وتوسّطوا له، لكنّه بقي شهرًا معاقبًا، إلى أن قمت بإسقاط حقي، صحيح أني أكرههم لأنهم أفسدوا حياتي، وحرقوا عمري، لكني أتكلم بمصداقية.

عندما صدرت (دورة مرسوم)، قال لي أخي: "اذهبي إلى الجامعة، حتى لو لم تتخرجي بعشرين سنة، قدمي مادة أو اثنتين فقط من أجل أن تتسلي، اخرجي من هذا الجو"، ولكنني لم أوافق، فأصبح أحد إخوتي يأخذني إلى الجامعة من أجل الأمان.

بعد قصة الفتاة التي كتبت التقارير عني، أصبحت أخاف، وثقتي بالمجتمع قلّت، وعلاقتي بالشارع تغيّرت، ولم أعد أخرج وحدي، وأصبحت أخرج مع ابنة أختي التي كبرت، كانوا إخوتي يرسلونني بسيارة، وأصبحت لا أمشي في الشارع إلا نادرًا، اختلف سلوكي تمامًا، كل مشاويري أصبحت بالسيارة، وعندما كنت أذهب للجامعة في حلب كنت أعود فورًا إلى منزل أهلي ولا أبقى في حلب، لم يعد يرضيني أي شيء، بدأت أنحف وقلّت شهيتي على الطعام، وبدأت أدخن وأشرب القهوة، وإذا جعت أشرب قهوة أو سيجارة.

تحقيق في عام 1994

استدعاني الأمن السياسي في دير الزور بعد موت باسل الأسد بأشهر في عام 1994، بقيت يومين أذهب إلى التحقيق، ولكني كنت أعود إلى منزلي، وسألني المحقق عن كلام قلته عن موت باسل الأسد، وقال: أنتِ قلتِ: "فضحتونا بموته مات مات، شو الأب وشو الولد!" فأجبته بأنني بكيت عليه كما بكيت على أخي، أنا ليس لدي مشكلة مع الباسل، ثم أعطاني "نوتة" و سألني عن ثلاثة أسطرٍ فيها مكتوبة بخط يدي، فطلبت منه أن أنظر إليها، كانت "النوتة" مكتوبة بخط اليد، وكلّها كلام كبير عن عائلة الأسد والطائفة العلوية، فقلت للمحقّق: "هذا ليس خطّي"، وطلبت منه أن يقارنه بخطي بعد أن أكتب أمامه، كان تقريرًا كيديًّا من قبل إحداهنّ، ثم أخرجوني واعتذر مني ضابط برتبة عقيد، وقال لي: "من كتبت التقرير نحن نعرف شغلنا معها".

ما قلته عن وفاة الباسل كان: "مات مات، مثله مثل غيره، ليش قلبوا الدنيا"، ولكني أنكرت في الفرع، ومن كتبت التقرير بحقي كبرت الأمور وأضافت موضوع "النوتة"، طبعًا هؤلاء مأجورون، مهمتهم أن يكتبوا التقارير ليحصلوا على المال "نفسهم دنية على المصاري"، ومنذ زمن طويل كان أكبر ضابط مخابرات يُشترى بالمال ويفعل ما تريدين.

استدعاء في عام 2007

في بداية عام 2000، وبعد أن توفيت والدتي، فتحت ناديًا رياضيًّا من أجل التسلية وإضاعة الوقت، تم استدعائي في عام 2007، وأيضًا سؤال وجواب، كلّمني المقدّم بأدب وأخرجني، كانوا يريدون التأكد من شيء قلته، فقد سمعت من جماعة تكلّمت في النادي عن تدفق المال لبعض الناس، فقلت لهم: "هناك طرق كثيرة أحدثُها هو تعامل البعض مع الموساد، فقد سمعت عن شخصين فنانين يعيشان في إحدى الدول العربية كانا يتعاملان مع مكاتب عمل وهي تابعة للموساد"، فسألني المحقق: "من هما؟" فقلت له: "قصة سمعناها، والناس تتحدّث عنها"، فأدخلوني إلى رئيس الفرع وأخبرني أن الفنانين تمت تبرأتهما، وأضاف: "يا بنتي كتّي إهدي كترت عليكِ المشاكل"، في الواقع لقد كلّمني بأدب.

الثورة

كنتُ أتابع ثورة تونس وليبيا ومصر، و في السابع عشر من شباط عام 2011، انقطع البثّ التلفزيونيّ في قناة العربية ورأيت مقطعًا يهتف فيه الناس "الشعب السوري ما ينذل" في سوق الحريقة، ثم حضر آنذاك وزير الداخلية وقام بتهدئة الناس، وبدأت أفكر لو أن الثورة تقوم في سورية، ثم سمعنا بأحداث درعا، وطلعت بثينة شعبان وقالت إن الرئيس زاد الرواتب، فجاء هتاف الناس في مظاهرات درعا "يا بثينة يا شعبان الشعب السوري مو جوعان"، ثم قالت بثينة شعبان إن السيد الرئيس أصدر أمرًا بعدم إطلاق الرصاص على المتظاهرين، وكان الرصاص ينزل زخًّا على الناس.

كانت الأجواء في البلد "دير الزور" هادئة، وبدأت أكلم الناس في أننا يجب أن نقوم مع درعا ونتضامن معها، لأننا كلنا في وطن واحد، تطوّرت الأمور في بانياس وحمص، ولم تخرج مظاهرات في الدير إلا بعد شهر، وبعد أن قتلوا أول شهيد في حمص ونزلوا به للدير للتشييع وبدأ الأمن يضرب الناس، أنا كنت أشارك من أول مظاهرة، بدأنا في اعتصام عند الجامعة، وبعدها نزلت في المظاهرة ووجهت رسالة إلى عائلة الأسد وعائلة مخلوف، وقلت فيها على المايكرفون ما قاله مظفر النواب "إن حظيرة خنزير أطهر من أطهركم".

لم يكن الحشد كبيرًا، كان ذلك مساءً في الملعب، لم يحدث شيء بعدها وكأن أحدًا لم يستوعب ما قلته، طبعًا أنا تفاجأت بحجم الجهل الكبير رغم وجود الجامعات والمدارس، عندما تتكلمين بالعامية يفهمون، أما عندما تتكلمين بالفصحى فلا يفهمون، الكل يدرس حتى يعمل، في زماننا كنا نقرأ الكتب لنثقف أنفسنا، وتعرّفنا على أساليب التعذيب من كتابات عبد الرحمن منيف، وكنا نقرأ الكتب بين الامتحانات.

أصبح التجمع في الساحات وكثرت الناس واحتقنت البلد بعد المداهمات واعتقالات الشباب، وجّهت كلمة عندما رأيت الناس كثرت أعدادهم وقلت لهم: "أناديكم وأشد على أياديكم"، ووجهت كلمة لبشار وأسماء الأسد، وأصبحت أهتف في المظاهرات حسب الأحداث، فعندما كان يلقي بشار الأسد خطابًا أرد عليه، وعندما يصرّح وزير الداخلية كنت أرد عليه وأوجه له نداءً.

تطورت الأمور وكان الشباب يُقتلون، فأصبحت أقدم إسعافات أولية، وكنت عضوًا في الهلال الأحمر، وفي إحدى المرّات طلبت من المدير أن يعطيني شعار الهلال حتى أقوم بإسعاف المصابين، فقال لي: "لا تعلقينا مع الأمن، أنا سرنغة ما بعطي".

سمع إخوتي هتافاتي وكلماتي في المظاهرات فقالوا لي: "بردتي قلبك"، فأجبتهم: "لا لسا"، فقالوا: "يعني حتستمري؟"، فأجبتهم: "نعم، أريد أن أكمل"، فطلبوا مني أن أعطيهم علمًا عندما أريد النزول في المظاهرات، ليؤمنوا لي حصانة بحيث يقف الشباب حولي كي لا يتم تصويري، وفعلاً خلال كل فترة المظاهرات لم يتم تصويري إلا مرةً واحدةً، كنت فيها أتحدّث مع الفتيات ولم يظهر وجهي، وعندما شاهدوا أحدهم يصوّر ضربوه وأخذوا منه الجوال، كان البعض يصوّر في المظاهرات من أجل إعطاء الصور للأمن كإثبات لإدانة المشاركين في المظاهرات، وكنت أخيط الأقنعة ليضعها الشباب خلال المظاهرات، كي لا يتعرف الأمن عليهم ويعتقلهم ويقتحم بيوتهم.

ثم قلّت الأدوية في البلد، فبدأت أخرج إلى دمشق لإحضار أدوية، ولكن لم أكن أستخدم هويتي بل هوية أخرى، وكانت كل النفقات من مالي الخاص، وعندما أحتاج المزيد من المال كنت أطلبه من إخوتي، وهم باعوا بعض المحلات التي يملكونها من أجل دعم الشباب. نحن لم نرتبط بأي جهة داعمة على الإطلاق، أو بأي تنسيقية، وكنت أعطي الأدوية للمرضى المتواجدين ضمن حارتي أي ضمن محيطي الضيق لأن جميع الصيدليات أغلقت وسافر أصحابها.

في إحدى زياراتي إلى دمشق بغرض إحضار أدوية في عام 2012، خرجت في إحدى المظاهرات في شارع اليرموك، كان هناك شابان يهتفان أحدهما فلسطيني والأخر من الدير، وهجم علينا الشبيحة، فاختبأنا في أحد المحلات هناك، وقام صاحب المحل بإغلاق الباب، وبعد أن ذهبوا طلعنا. وذهبت لزيارة أحد أصدقائي وهو فلسطيني ورويت له ما حدث أثناء المظاهرة، فقال لي: "أختي هون على الفرّامة"، فخطر لي أن الأمن يخطفون الناس من الطرقات ويقتلونهم في أماكن نائية، بحيث يتم الأمر بعيدًا عنهم، ويتم تأويل هذه الاغتيالات على أنها خلاف وقع بين شباب، ويكون النظام هو القاتل الفعليّ، لكن صديقي أضاف موضحًا بأن داخل أفرع الأمن يوجد فرامة يضعون داخلها الجثث، كماكينة الكبة ويفرمونهم ويلقون بهم في التصريف الصحي، وقد سمعت عن الفرم هذا لاحقًا من معتقلات.

الكمين

في الشهر الثامن من عام 2011، عرفنا أن حملة عسكرية قادمة إلى الدير، فأخرج الرجال النساء من البلد، خوفًا عليهن من الاعتقال والاغتصاب، وخرجت معهن متوجهة إلى دمشق. وأثناء زيارتي لإحدى النساء، وهي من الدير وكانت متمرنة في النادي الذي أملكه، سألتني: لماذا تتظاهرين في المظاهرات؟ فأجبتها من أجل القمع والاعتقالات، ولم أنتبه لخبث سؤالها. ثم اتصلت بي وسألتني إن كنت أرغب بالذهاب معها إلى حمص لأنها تود زيارة أختها، فوافقت على مرافقتها على أن نعود مساءً في نفس اليوم، ووصلنا إلى

كراج حمص وكان هناك سيارة وبداخلها سائق وشاب آخر يلبس لباسًا مدنيًّا كان واقفًا بانتظارنا، ظننتهما من أقربائها، لكن عند صعودي إلى السيارة وجدت أن السائق يرتدي الزي العسكري، صمتُّ ولم أنبس ببنت شفة، وكأن الأمر مرّ بشكل عادي. ثم أخذوني إلى بيت، واكتشفت لاحقًا أنه في محافظة طرطوس، لأنّ السيارة كانت "مفيّمة"، كان في الصالون كرسي واحد وطاولة صغيرة "طربيزة"، وأغلقوا عليّ الباب وخرجوا، ثم عاد الشاب الذي كان يلبس لباسًا مدنيًّا وفي يده كيس يحتوي على طعام، وضعه على الطاولة وقال لي: "إذا جعتي كلي"، وخرج.

التزمت الهدوء وبدأت أفكر في مخرج، وإذ برجل كبير في السن أشيب، حضر وقال لي: "كيفك يا نورهان؟"، وبدأ يذكر معلومات مفصلة عني، أدركت حينها أنه يعرف كل شيء عني، وسألني إن كنت خائفة، فأجبت: "من ماذا أخاف!" ثمّ سألني إن كنت أخرج في المظاهرات، فأجبته: "لا، ولماذا أتظاهر؟ وهل أنا مستواي المظاهرات!"

فعاود سؤالي: "من تعرفين ممن يخرجون في المظاهرات؟"، فأجبته بأن علاقاتي محدودة جدًّا جدًّا، فسألني مَن مِن الشباب يتظاهر، فأجبته: "أنا لا أعرف النساء فكيف أعرف الشباب!" وسألته: "ألا يُفترض أن أعرف مع من أتكلم؟" فأجابني: "أنا العميد رئيس فرع الأمن العسكري في طرطوس"، ثم جاءه اتصال وقال: "هؤلاء المسلحون يمررون سلاحًا عن طريق بانياس عن طريق البحر، وطلب مني أن أنصح الناس بأنّ هناك إرهابيين يقبضون مالاً ليخربوا أمن الدولة والوطن، وأن الدولة متفهمة لمطالب الناس...إلخ"، كان يحدثني بكلام وطني وطلب مني مساعدتهم لأن هناك شبابًا مغررًا بهم، ثم أمر العميد بإيصالي إلى دمشق.

لقد نصبت لي تلك المرأة كمينًا، وقد خطّطت لهذا الأمر بعد أن سألتني لماذا أتظاهر، وأعتقد أن بينها وبين العميد معرفة شخصية، في بادئ الأمر استغربت طريقة الكمين، ولكن بعد فترة بدأت أسمع عن كمائن من هذا النوع، وأن هناك نسوة يعملن مع أشخاص مثل مقدم أو عقيد، وكن يسلمنهم شبابًا وفتيات بهذه الطريقة.

من دمشق، عدتُ إلى بيتي في الدير بعد أن طلبت من عائلتي عدم الإفصاح بأمر عودتي، وقد كان صعبًا عليّ الوصول إلى مكان تواجد إخوتي، فأنا بيتي في منطقة الحَويقة، ومنازل ومحال إخوتي في مركز المدينة في الساحة التي كان يوجد فيها تمثال الباسل، ويوجد قناصة بين المكانين. ثم اتصل بي أحد إخوتي وسألني لماذا عدتِ، فأجبته بأن لا شغل لي في دمشق وأهل حارتي بحاجة إليّ، ولم أخبر إخوتي بالكمين الذي تعرضت له إلا بعد أن التقينا في المناطق المحررة.

حارتي شبه محاصرة

كنت أنظم أمور حارتي من أجل عدم انتشار الأمراض، بعد أن تركت القمامة في الطرقات وكثرت الحشرات. كانت منطقتي شبه محاصرة، فالجسر القريب منا يوجد فيه ثلاثة حواجز، وكنا مضطرين للعبور من خلالها، والمسافة بيننا وبين أقرب مكان يمكننا أن نحضر طعامنا منه كانت كيلو مترين. كان يوجد قناص فوق

منزل المحافظ مقابل منزلي، وعندما يُرفع الآذان في المسجد القريب من منزلي كان القناص يقنص مايكرفون الجامع والإنارة.

عندما عدت من الشام كان عليّ المرور مشيًا عبر الحواجز لأصل إلى بيتي، وكان ممنوعًا أن تعبر السيارات على تلك الحواجز، وكان النظام متواجدًا حول منطقتي، وكان معي حقائب مليئة بحلوى الأطفال وأشياء أخرى، فسألني العنصر الواقف أمام أحد الحواجز: "أين كنتِ؟" فقلت له: "في دمشق في الشعلان"، فقال مستنكرًا: "حدا بيترك الشعلان وبيجي لهون؟!" فأجبته: "هنا بيتي"، ثم سألني عن ما تحويه حقائبي وفتحها، لكنني كنت أضع حلوى الأطفال في الأعلى وكمية من الأدوية في الأسفل تكفينا عند اللزوم ليلاً، فالطبيب في حارتنا كان جبانًا، في إحدى المرات طرقنا بابه عندما ارتفعت حرارة أحد الفتية فلم يفتح لنا، وحصلت حوادث أخرى لكنه كان يقول لنا: "أنا سرنغة ما بعطي"، كنت أطلب منه فقط تشخيص الحالة دون أن يعطي دواءً، فأنا لدي أدوية، أدوية أطفال، شراب للسعال، أبر كزاز، خافض حرارة، أدوية للالتهابات...إلخ. ومنزلي تحول إلى مشفى ميداني في عام 2012، وكان يوجد فيه سرير للمعاينة كنت قد نقلته من مركزي الرياضي حيث كان يستخدم لجلسات المساج، وقد أخبرت أحد الشباب بأن لدي أدوية في حال لزومها، فقد كان في حارتي أطفال كثر.

بدأ التسلّح في عام 2012، كان الشباب من الريف يعبرون من منطقتنا عن طريق النهر ثم يمرون من جسر الدرة ويتجمعون في البلد، وفي الشهر السادس من عام 2012، ظهر الشباب بسلاحهم، كان النظام يقوم بمداهمات، وسدّ منفذًا كان يعبر منه الشباب، وهو عبارة عن باب لأحد المنازل القديمة، لكن الشباب فتحوا منفذًا آخر لهم.

كنا نعبر الجسر لنرى الشباب ونسألهم عما يلزمهم، وجدتهم في إحدى المرات ينقصهم مضادات حيوية وفيتامينات، فكنت أزودهم بالأدوية والحليب واللحم. كانوا قد سيطروا على مساحة واسعة من البلد، وكان عليّ أن أعبر عددًا من المناطق لأصل إليهم، كانوا بعيدين عن تجمع الجيش الحرّ والمشافي الميدانية، أذكر أن أحد الشباب طلب مني إحضار لحمة حتى ولو كانت نيئة لأنه كان ينزف، وكان هناك ممرضٌ يزورهم. وفي إحدى المرات ذهبت إلى المشفى الميداني ولم أجد لديهم أدوية، فكنت أزودهم أيضًا بالأدوية وبعض الطعام.

كنت أمرّ أمام فرع حزب البعث حيث هناك حراس، وكنت أصطحب معي امرأة كبيرة في السن، وكان لها أسلوب في الحديث مع الحرّاس تمتدح فيه الرئيس، وبفضلها كنّا نمر دون تفتيش.

في عام 2012، داهم الأمن منازل إخوتي وكانوا يسكنون في عمارة واحدة، وداسوا على رأس أحدهم، وعندما عاد إخواني الاثنين إلى منزلهما وجدا أولادهما مصلوبين على الجدران، والروسيات موجهة عليهم ومجهزة لإطلاق النار عليهم، فمرض أخي وزوجته جراء الخوف وأصبح لديهما نقص في الصفيحات، وأخذهما أحد إخوتي إلى دمشق.

اضطر إخوتي إلى مغادرة منازلهم لأن أخي الكبير تم استدعاؤه عدة مرات، واتهم بالتحريض على المظاهرات وتمويلها، وآخر استدعي واستمر التحقيق معه ست ساعات، "وحطينا واسطات لحتى طلع لأنو بس ينام بالفرع خلص"، ثم طلبت الجوية استدعاءه مرتين، وأيضًا وضعنا "الواسطات" حتى شُطب اسمه من الجوية.

ووصلني خبر من أحد أقربائي بعد أن تواصل مع عنصر من أمن الدولة، بناء على طلب الأخير، بأن العنصر قال له: "عليكم بتسفيرها، لأنها في قائمة المطلوبين"، فسافرت، وكتب هذا العنصر أنني اعتُقلت في فرع أمن الدولة بتاريخ كذا وأُفرج عني، وتم إزالة اسمي واسم أخي الكبير وأسماء أبناء إخوتي الاثنين. أما أحد إخوتي، والذي لم يستطع العنصر إزالة اسمه، لأن التعليمات كانت أن يتم قتله بشكل فوري، فقد بقي في المناطق المحررة ولم يعد يستطيع مغادرتها، وكان يساعد الشباب لكنه لم يكن مقاتلاً لكبر سنه.

مكث أخي الكبير في منزلنا في الشام والواقع في منطقة الشعلان لمدة شهرين، ولم نعد نستطيع زيارته، لأن الأمن في الدير عندما كان يسأل عنه كنا نقول لهم: "إنه في منزلنا بالشام" وكان عنوانه معروفًا لهم، وعندما زرتُ جارنا صاحب أحد المحال القريب من بيتنا في الشعلان حذّرني من الاقتراب من المنزل لأن الأمن استولى عليه.

في بداية عام 2013، اعتقلوا شابًّا من أبناء عمومنا من حاجز باب توما، وكنت أعمل معه على مساعدة المنشقين من الجيش ليعبروا إلى بر الأمان ويعودوا إلى ذويهم، وفي إحدى المرّات نسقّت أنا وشاب يدعى علي وكان يقف عند الحاجز، وأعطاني نقودًا وطلب مني إرسالها إلى أهله، وطلب مني أيضًا أن أجلب له ملابس ونعود سويةً إلى الدير عندما أحضر إلى دمشق في المرة التالية، اتصل بي مرارًا وكان خائفًا.

كنت أساعد الشباب على الانشقاق، أمرُّ معهم على الحواجز وأقول لهم: "هذا قريبي أو ابني أو ابن اختي"، وكانت تمر عليهم هذه الأساليب، في إحدى المرات بدأ أحد العناصر يسأل الشباب من أين هم، فأجبته: "كلهم من شباب الحَويقة، هذا ابن أخي وهذا ابن أختي"، فقال لهم: "يلا سلموا على أهلكم وسلمولنا على أهل الشرقية"، كان تيسيرًا من رب العالمين، حتى أنا أستغرب كيف تمّ القبض علي فيما بعد، لكن أظن أن ذلك كان بسبب عنصر يدعى أبا يوسف، وكان "متحطط علي"، كان يريد اعتقالي منذ البداية، وعندما دخل الأولاد إلى المدينة في السابع عشر من كانون الأول عام 2012، شكّوا بأمر امرأة كانت تتعامل مع النظام، لأنها أثناء المظاهرات كانت تؤشر على الشباب وتتوعدهم بسبب تظاهرهم، وبعد أن خرجت من منطقتنا إلى مناطق النظام ظهرت على التلفزيون السوري بعد أن غطوا وجهها، ثم دعت على بشار الأسد وقالت: "الله لا يوفقك يا بشار هدول الجيش الحر أولادنا" وبكت، وفيما بعد علمنا أن الأمن العسكري اعتقلها. وبعد ظهورها على التلفاز كان أبو يوسف على الحاجز يقوم بتوقيف النساء جميعهن، ويتهم كل واحدة منهن بأنّها هي من ظهرت على التلفاز، وعندما أردت أن أعبر الحاجز كان أبو يوسف يُمسك بيد امرأة كبيرة في السن، وهي تبكي وتحلف وتقول له: "اعدم ولادي مو أنا اللي حكيت، والله يا سيدي مو أنا"، فقلت له:

"أسلوبكم الأمني ما يمشي، أنا جايبتها من مصطفى التاجر لحسن خلوف" أي أننا نعرف أساليبهم الأمنية وقد حفظناها من أشخاص أكبر منه، ونحن في العامية نقول عليها "رمي غطو" أي أنك تتبع هذا الأسلوب الأمني، وهو أسلوب ثعالب ماكرة، مع إنسانة ضعيفة فتعترف رغم أنها لم تفعل ما تتهمها به، فأجابني: "كلهم تحت صباطي، كلهم باعوا الوطن"، فقلت له: "والله لا نعرف من باع الوطن ومن عمره! دعنا نمرّ ولا تحلم بأن أذرف دمعة واترك يد المخلوقة"، فطلب من العناصر وهو ينظر إلي وقال: "جيبو لي هي أم الأسود"، فأجبته: "يجيبون مين! ما بيطلع لكشي عندي أصلاً" فأجابني: "أنتِ قلت كلاماً!" فقلت له: "آه المرأة التي حكت على الرئيس؟"، فأجابني: "نعم"، فقلت له: "مشان أفيدك بمعلومة، إنتَ كل ما بتمر ست بتقلها إنتِ إنتِ، أنتَ مالك عرفان مين اللي حكت، ست تستضعفها يجوز أنها تخاف منك، أنا ما يطلع لك عندي شي، ليك، طلّع، لا تستنى مني دمعة، ولا تستنى مني كلمة سيدي، وأنا ما عندي غير ربي اللي خلقني سيدي" فقال: "يلا كرامة الله روحوا" فأجبته: "يلا اترك يد المرأة" ونظرتُ للمرأة وقلت لها: "يلا كافي تتبكبكين"، كانت هذه الحادثة تقريبًا في الثاني والعشرين من كانون الأول عام 2012، وكنت خلالها أريد العودة إلى منطقتي، وكانوا يمنعوننا بدعوى وجود مسلحين، وأنا بقيت فيها ثلاثة أيام بعد دخول الجيش الحر ثم خرجت.

إنّ أبا يوسف كذاب ولئيم، وأعتقد أنه هو من قام بتعميم اسمي، لأني قبل هذه الحادثة كنت أمرّ على الحواجز، وقد قطعت الحدود وسافرت إلى لبنان، حيث يقيم أحد أخوتي وعدت إلى سورية، أي لم يكن على اسمي أي إشارة أمنية.

آخر سفرة قمت بها كانت في النصف الأخير من شهر كانون الثاني في عام 2013، وقفنا أمام حاجز كان يدعى حاجز الطلائع في دير الزور، وكان معي حقن تخدير لأحد الأطباء وضعت فوقها حلوى للأطفال، و قد مررت بها عبر عدة حواجز وجميعهم فتشوني تفتيشًا عاديًّا ما عدا هذا الحاجز، فقد استغرق التفتيش ساعة ونصف، وفككوا باص البولمان الذي كنت أستقله قطعة قطعة، ووجدوا الأبر، فادعيت أنها حقن للتاتو، أستعملها في صالون تزيين أملكه، وأنزلوا راكبًا كان من حمص، وبقينا في الباص ننتظر حتى نمرّ، لكن عنصرًا أشار لي بيده كي أنزل من الباص، وكانت بطاقاتنا الشخصية معهم، ثم أخذوني في سيارة إلى الأمن العسكري، وهنا انكشف اسمي ولقب عائلتي لديهم لأنني كنت أحمل بطاقتي الشخصية الأصلية.

الاعتقال الثاني

دخلت إلى غرفة عنصر برتبة نقيب وكان قصير القامة و يلبس لباسًا مدنيًّا، فقال لي: "يخرب بيتك لساتك عايشة، إنتِ ما متي، إنتِ ليش ما تزوجي وقعدتي في البيت وخلّفتي وعملتي عيلة؟ ليش ما قعدتي وانضبيتي؟ لساتك طيبة؟"، واكتشفت أنّ كلّ ما فعلته يعلمونه، وأضافوا له أني قمت بالقتل والتصفية، فقد كان هناك عنصر برتبة مقدم ومعه أربعون عنصرًا يريدون الانشقاق، ظننت أن القصة انطوت لأنه تم الاشتباه به، واتفقت أنا وهو على كتم الموضوع، "هون حفرنا وهون طمرنا"، لكن المقدم قُتل خلال اشتباك،

وحمّلوني مسؤولية قتله بذريعة أني كنت آتي إلى مناطق النظام وأحصل على معلومات وأعطيها للجيش الحر، "كانوا مسجلين عليّ بلاوي".

نادى النقيب عنصرًا يدعى سليمان، وطلب منه أخذي، فسأله: "إلى أين سيدي؟"، فأجابه: "إلى جهنم".

كنت أعرف سليمان هذا وشابًّا آخر من النيرب من الحواجز، وكانا يتعاطفان معي ويتعاملان معي بذوق، حتى عندما دخل الجيش الحر إلى منطقتنا وخرجنا قالا لي: "يا خالة سافري"، لقد حذراني ولم آخذ كلامهما على محمل الجد، كانا يعلمان أن اسمي ضمن قائمة المطلوبين والمطلوبات. كانت أغلب اعتقالات النساء في دير الزور تتم من قبل الأمن العسكري.

كان يفترض أن أنزل معهم إلى غرفة فيها معتقلات، لكني أُدخلت إلى غرفة غريبة عجيبة! كانت الغرفة مخصصة للصعق بواسطة الكهرباء فتتفحم الجثة، ولا يكون لها اسم ولا أرشيف مثل الذين يستشهدون تحت التعذيب.

كانت أرضية الغرفة مفروشة بالأسلاك الشائكة، على يمينها كان هناك بلاطة أستطيع الوقوف عليها، وعلى يسارها خلف الباب تقريبًا، كان يوجد طاولة عليها جهاز، بعد أن خرجت قال لي شاب إن هذا الجهاز هو جهاز كهرباء وشرح لي كيف يعذبون به، وهو يشبه الجهاز الذي يتم فيه صعق الدجاج، طبعًا الغرفة فيها إنارة خفيفة، وفيها نافذة عالية من البلور، رأيت الأشياء من خلال النور الخفيف، كان الجهاز له مكبسان ومفتاح تشغيل، لقد رسمت هذا الجهاز في إحدى المرات وحاولت أن أسال عنه لاحقًا.

تركوني في هذه الغرفة، وكنت أقف مرةً يمينًا ومرةً يسارًا جانب الجهاز، حيث كان هناك مكان يمكن أن أقف فيه وأجلس القرفصاء، كانت الغرفة مثل المستودع ومليئة بالكابلات وأشياء أخرى لم أعرفها، كانت غرفة "مكركبة".

في اليوم الثالث رموا لي قطعة صغيرة يابسة من الخبز وست حبات زيتون. كنا في فصل الشتاء، وكانت الغرفة باردة جدًّا، وتوجعتُ من خواصري جراء البرد. طلبوني للتحقيق في اليوم الرابع، وقال لي المحقق: "هاتِ لنشوف، احكي لنا يا مناضلة يا وطنية، ليش تحطي إيدك بإيد الإرهابيين؟"، وسألني عدة أسئلة ثم قال: "بكل الأحوال إن تكلمتِ أو لم تتكلمي فنحن لا يهمنا، أين إخوتك؟" فقلت له: "في لبنان"، فقال: "أليس أبو عمر تحت يساعد المسلحين؟" فأجبته: "لا، خرج إلى لبنان فورًا بعد إطلاق سراحه".

أعادوني إلى الغرفة، وبقيت فيها ثلاثة أيام، ازداد ألمي وكنت أصيح ولا أحد يرد، كانوا يرمون لي قطعة بطاطا مسلوقة ومحروقة، أما استخدام الحمام فكان يتم إخراجي من الغرفة كل أربع وعشرين ساعة، وكنت أصل إلى مرحلة لا أستطيع فيها التحمل، كنت أدق الباب فيتم إخراجي ولكن ليس قبل مضي أربع وعشرين ساعة باستثناء عندما يكون السجّان شابًّا أعرفه، وهو من النيرب، كان يحنّ عليّ، فقد كان صديق لعلي الذي أراد أن ينشق وأعطاني مالاً أرسلته لأهله وأحضرت له ثيابًا معي، حتى إنه زارني مرة عندما علم أني في المشفى.

مضى أسبوع كامل وكان ألمي يشتد ولم أعد أستطيع احتماله، كنت أضرب الباب ولا أحد يردّ.

الهروب من المشفى العسكري

نقلوني إلى المشفى، وقال لي الدكتور إنني مصابة بداء المنطقة، ويدعى سيخ النار، وهو مرض يصيب الإنسان نتيجة الحزن، وأصبحوا يعطونني مسكنات وحقن. بقيت عشرين يومًا في المشفى العسكري، وكنت خلالها أصرخ من الألم الشديد ما أن ينتهي مفعول المسكن، وامتد الحرق من خاصرتي اليسار إلى رقبتي وانتشر المرض في جسمي، وأخبرهم الطبيب بأن شفائي سيستغرق مدة لا تقل عن ستة أشهر. زارني مرةً هذا النقيب وكان يعتقد أني في مشفىً عسكري، في الحفظ والصون.

في أحد الأيام كان الهدوء يسود المشفى، وكان علي، وهو من الشام، قد وضع صديقًا له من النيرب مناوبًا في المشفى، وأنا كنت أعرفهما من وقوفهما على الحاجز وكنت أحوّل لهما رصيدًا لملء هاتفيهما وأحضر لهما دائمًا ما يطلبانه، وقد كانا متفقين على الانشقاق، على أن يلحق الأخير بعلي فيما بعد، ويسرها الله وهربنا أنا وعلي من المشفى، وقد ساعدتني في الهروب إحدى الممرضات بعد أن قبضت الثمن من علي، حيث طلبت مني أن أسير برفقتها إلى الحمام وقالت لي طمعًا بالمزيد من المال: "عندما تصلين إلى أهلك أرسلي لي المال"، فعلمت أنّ هناك مخططًا، وربطت طلبها هذا مع إشارة قام بها علي ولكني لم أفهم معناها في حينها، وتعني بأن أجهز نفسي، خرجنا من المشفى عبر باب يؤدي إلى بستان، وكان علينا المرور بشارع عام يفصل بين المنطقة ونفق يؤدي إلى المكان الذي يتواجد فيها الجيش الحر، ولكن كان هناك قناص على سطح المتحف، اتصل علي بأحد شباب الجيش الحر بعد أن أخبرته بأني أعرف أغلبهم وتحدثت معه وعرفته بنفسي: "أنا العمة فلانة أخت فلان من الرشيدية" وحددت له مكان وجودنا وأننا لسنا بعيدين عنهم ولكننا لا نستطيع التقدم بسبب وجود قناص وبرج يتواجد فيه دائمًا ثلاثة أو أربعة عناصر، وكانوا ليلاً يسمعون أغاني تتحدث عن الأسد مثل (تبقى الأسود أسود والكلاب كلاب)، وكان شباب الجيش الحر يطالبونهم باستمرار بأن ينشقوا ويقولون لهم نحن إخوانكم، كنت أعرف هذه المنطقة وأتردد عليها، ثم بدأ الشباب بإطلاق النار لإشغالهم، واستطعنا أن نمر، ونزلت إلى المنطقة المحررة في البلد، وكان ذلك في تاريخ 1 آذار 2013، وما زالت حتى الآن مطلوبة.

سألت علي عن سبب وضعهم لي في الغرفة بدل أن أكون مع المعتقلات في الأمن العسكري، فقال لي: "أنتِ طلعت من الموت، هذه الغرفة مخصصة للتصفية، تصعق فيها الجثة وتتفحم، أنتِ فيها تكونين مغيبة، لست معروفة إن دخلتي فرع أم لا، وهم يريدون أن لا تشاهدكِ المعتقلات في الفرع". ولا أدري حتى الآن لماذا أدخلوني إلى تلك الغرفة التي بقيت بداخلها حوالي اثني عشر يومًا طالما هي مخصصة للتصفية كما أخبرني علي، فهم كانوا يرمون لي ببقايا طعام، يجوز أنهم كانوا مشغولين بغيري، أو يتلذذون بتعذيبي، لأني كنت أتعذب خلال وجودي في هذه الغرفة، لكنهم حرصوا على أن لا تشاهدني أي معتقلة حتى لا يتحدثن عني حين يخرجن أو يقلن إنهن التقين بي أو شاهدنني، وتختلف سياسة التصفية عندهم من حالة إلى أخرى فقد يقومون بالتصفية فور الاعتقال أو بعده بفترة، على سبيل المثال فقد قتلوا الشاب الذي كنت أنسق معه والذي اعتقلوه من باب توما بعد خمسة أشهر.

أما علي فاسمه ما زال في قوائم المطلوبين، وبقي في المناطق المحررة وذهب إلى البوكمال وإلى قرية الموحسن حيث أصدقاؤه المنشقون، زارنا في البلد عدة مرات، وبعدها لم أعد أسمع أي شيء عن أخباره، أما أنا فبقيت مع أهلي وأطفالهم في البلد ضمن المدينة وكانت كلها منطقة محررة.

الحياة تحت القصف

كان النظام يقصفنا بالراجمة، ولا أعرف المصطلحات التي كان يستخدمها الشباب، كانت رباعية وبعدها أصبحت ثمانية، القذائف قتلت ضحايا كثر وسقط شهداء وكانت دماء الأطفال في الأراضي، وفي إحدى المرات دقت الأبواب إحدى المنظمات وكانت تريد التوزيع في أحد الأمكنة، ركض الأطفال باتجاه مكان التوزيع فنزلت عليهم قذيفة واستشهد بعضهم، وخرجت عدة مرات لأساعد في الإسعاف، حتى إخوتي عندما كانت تنزل قذيفة قربنا كانوا يركضون لإسعاف المصابين ريثما يحضر الإسعاف، لكنهم كانوا يزعلون مني حين أخرج للإسعاف وكانوا يقولون لي: "خلص أختي إنتِ ارتاحي"، وصار جميع من في البلد يطلقون عليّ اسم العمة.

أنا لم أسكن مع أهلي إنما سكنت مقابلهم وقريبة منهم، ولأني كنت أقيم في البيت وحدي كان الأولاد يدقّون الباب عندما ينتهون من المرابطة، وأحيانًا كانوا يحضرون في الرابعة فجرًا، فأقول لهم: "تعا عيني أهلاً وسهلاً" وأعدّ لهم الطعام، ومن يريد النوم كان يأتي لينام، كانوا أطفالاً غير قادرين على حمل السلاح ولكنهم اضطروا لحمله.

توزعت أعمال الناس في المرابطة، فبينهم من يراقب وبينهم من يحمل السلاح، وعليهم يقع عبء التصدي للنظام كي لا يدخل إلى المناطق المحررة، لقد أصبحوا مقاتلين، كان هناك قطاعات وكل مجموعة تعمل في قطاع لأنهم أخذوا تسعين بالمئة من المدينة، باستثناء منطقة الجورة التي بقيت بيد النظام.

داعش

بقيتُ في البلد عندما دخلت داعش في الشهر السادس أو السابع من عام 2014، إذ لم يعد لدينا أي مكان نذهب إليه، ولم نعد نستطيع كسابق عهدنا أن نزور بعضنا ونخرج، كنا نتحاشى الخروج لأنهم انتشروا في القرى والمدينة.

دخلت داعش بسبب خيانة، كان الشباب قبل دخولهم إلى منطقتنا، يخرجون للقرى القريبة التي دخلوا إليها كي يتصدوا لهم، وكانوا لا يستطيعون الوصول للبلد، لكن كان هناك شخص يدعى "أبو دجانة الزر" من قرية تدعى "الرز"، بايع داعش وأدخلهم إلى القرية، ثم انتشروا في القرى ولكنهم حينذاك لم يكونوا قد دخلوا إلى "البلد" منطقتنا، وكنا لا نريد دخولهم، بعد ذلك أصبحوا قريبين منا عند جسر السياسية، وكان الشباب يشتبكون معهم عند الجسر فيتراجعون مسافة معينة، وفي إحدى المرات قال لي أحد الشباب: "إن

شاء الله سنطردهم اليوم وسنرغمهم على التراجع، انتظري منا الخبر هذا اليوم في الساعة الثانية فجرًا لأننا فخخنا الجسر كي لا يدخلوا"، فقلت له: "الله يوفقّكم".

بقيت ساهرة طوال الليل، بقيت حتى التاسعة صباحًا إلى أن حضر الشاب فقلت له: "لم أسمع صوت رصاص ولا حتى صوت طلقة!" فقال لي: "راياتهم ملأت البلد، صار هناك خيانة، بعض الناس قاموا بمبايعتهم سرًّا، وفكّكوا العبوات التي وضعناها تحت الجسر وتركوهم يعبرون، لو تعرفين كم شخصًا دخل، فقط ثمانية أشخاص، وقّفوا البلد كلها على رجل واحدة، تعالي وانظري رايتهم ملأت البلد ".

لقد خاننا أهالي القرى، وكان بعض شباب القرى في البلد عندنا وقد بايعوا داعش سرًّا، وكان هناك تواصل فيما بينهم وادّعوا أنهم مع الجيش الحر، ورفعوا الرايات بعد دخولهم، ومنذ أن دخلوا، دخل بعدهم التوانسة ومن دول أخرى، ومباشرة اقتحموا منازل الجيش الحر واعتقلوهم، بعضهم هرب وبعضهم خضع للتحقيق من قبل داعش ومن ثم أفرجوا عن بعضهم، ومنهم من أرغموهم على مغادرة البلد، وسيطروا في النهاية.

في إحدى المرات وقبل أن تدخل داعش إلى البلد، نزلت إلى الحارة ودخلت إلى صالونات تزيين النساء، وكنت أنادي وأقول للنساء: "نحن المدنيات نستطيع أن نتصدى للدواعش"، لكنهم كنّ يقلن لي: "هذه ليس مهمتنا، هذه مهمة الجيش الحر، وأنتِ ليش آكله هم، انشاء الله لن يدخلون".

الحياة في ظل داعش

في الأشهر الأولى من دخولهم، لم يتدخلوا في شؤون الناس وكانوا يعاملونهم معاملة عادية، وبعد ذلك فرضوا غطاء الرأس وبدؤوا يتشددون، كان هناك شخص سيء منهم يدعى أبو شداد، وهو من استلم البلد لاحقًا، كان يقول إنه من السعودية، لكن بعض الناس قالوا إنه كذاب، وهو من الحسكة وغيّر لهجته، وكان إذا رأى فتاة لا ترتدي اللباس الكامل، وهو اللباس الذي يدعونه باللباس الإسلامي يضربها بالسوط، وكانوا يطلقون على النساء لفظ الحريم، ويخاطبون المرأة بـ"ياحرمة"، حتى إن إحدى النساء ضربته "طعمتو قتلة"، كانت تجلس مع ابن أخيها أمام باب دارها، فمرّ هو وشاهدهما وسأل الشاب: "ماذا تكون لك؟" فأجابه: "عمتي"، فطلبَ منه أن يذهب معه، فسألته المرأة: "أين يذهب معك، أنا عمته!" فوجّه للشاب سؤالاً: "كيف ترضى أن تجلس عمتكَ أمام باب المنزل؟" فقامت هي وسحبته من شعره الطويل، ووضعته على الأرض وبدأت بضربه، إلى أن جاءت دورية وأخذت الشاب وجلدوه في نفس الحارة، كي يردوا الاعتبار للداعشي.

حضرت الكثير من المشاجرات بينهم وبين شبابنا، في البداية كانوا لا يتحدثون مع النساء بل يطلبون التحدث مع "ولي أمرها".

في الواقع أنا لم اختلط معهم، و كنت أكتب عنهم أنهم غزاةٌ محتلون، وأصبحت في الليل أنام على الكنبة الموجودة في الصالون وعيني على الباب، كنت أتخيل أنهم سيعتقلونني من كثرة ما حكيت وكتبت عنهم، كنت أنشر عنهم في الفيسبوك وأطلب من الناس أن تنشر أيضًا، وبدأنا نخاف من الناس الذين يعملون

مُخبرين لهم، كما أن أخي حذّرني وقال: "أختي انتبهي، أغلب النساء أصبحن معهم، انتبهي من الوشاية، ونحن لا نستطيع فعل شيء معهم، ترى خالصين" أي أن عقليتهم صعبة، "وما في عندهم واسطات، وما في عندهم كبير"، حتى أني حضرت ذات مرة، قتالاً بالرصاص بين ليبي وشاب كان يدخن سيجارة، في البداية كان يريد أخذه إلى الحسبة لكن الشباب "التمو" عليه، حتى إن أخي قال له: "صلِّ على النبي وفضها سيرة"، لكنه لم يرد عليه رغم أنه كان بعمر أحفاد أخي، كانوا قساة بشكل كبير.

كانت الصواريخ تنهال علينا، ولم يبق أحد لم يضربنا من التحالف والنظام والطيران الروسي، كان الوضع لا يصدق وأغلب من يتم ضربهم كانوا من المدنيين، وأصبح لدى بعض الناس خبرة بأنواع الصواريخ والجهة التي تقوم بقصفنا، وكنا جميعنا نسأل لماذا لا يتم استهداف داعش! فعلى سبيل المثال، كان هناك مقرٌّ لهم يقع خلف منزلي مليء بالدواعش، لكنه لم يُستهدف ولم يتم قصفه أبدًا، وكان عندهم مستودع غاز على مسافة غير بعيدة عنا، وكانوا يذهبون إليه بشكل دائم لإحضار عبوات الغاز لكنه لم يُقصف أبدًا، كانوا يضربون بناءً على إحداثيات قديمة وأغلبها مدنية، في إحدى المرات ضربوا بناء فنزل على عائلة بأكملها، والبراميل التي تسقط علينا كانت تدور حول نفسها بشكل مخروطي وتسحب معها كل ما في طريقها، وكان سقوطه على بناء سكني يؤدي حين يلف حول نفسه إلى سقوط عدة أبنية مجاورة. وحين يفرض الدواعش علينا حظر تجوال نبقى عدة أيام بدون طعام، ولا نستطيع فعل شيءٍ سوى الصبر.

كما حضرت عدة مرات كان فيها الدواعش يقطعون الرؤوس، إحدى المرات رأيت إعدام عدة شبان كانوا يصلبونهم على سور حديقة حديدي، زعموا أن أحدهم يتاجر بالمخدرات، وأعدموا سبعة أو تسعة شبان دفعة واحدة "لا أتذكر عددهم بدقة" بعد أن ألبسوهم اللباس البرتقالي، كان من بينهم زائر من الحسكة أتى لزيارة أقاربه، وقالوا إنه من الجيش الوطني وأعدموه، والجيش الوطني شكله النظام من المدنيين في منطقة الجورة التي كان النظام يسيطر عليها، لقد شاهدت الشباب المصلوبين من بعيد ولم أستطع الاقتراب.

خلال فترة وجود الدواعش، أنا عاندت ولم أغط وجهي، وكانت سيارة الحسبة، سبحان الله، تقف بجانبي ثم تمشي، لم يكلمني منهم أي شخص ولم يقولوا لي "يا حرمة" لقد نجاني رب العالمين من أمور كثيرة، ولكنني لاحقًا خفت بعد أن انتشرت الخيانات، خفت أن يعتبروني خائنة ويقولون إني كنتُ مع الجيش الحر، لأنهم كانوا يطلقون على الجيش الحر اسم (الصحوات)، ويعتبرونهم مرتدين، وكانوا يعتقلون كل من يساندهم.

وفي إحدى المرات اعتقلوا امرأة واتهموها بأنها تخبئ السلاح للجيش الحر ليقاتلهم، واعتقلوا صيدلاني بتهمة أنه علماني وأنه حرّض الشباب لضرب أحد مقراتهم، وكان بعض الشباب ضربوا مقراتهم بالقنابل، وفي النهاية أرغموا الصيدلاني على الاعتراف بأنه علماني، وأصبحوا يبحثون عن الحقوقيين، فبالنسبة لهم لا يوجد قانون بل يوجد شرع، وكانوا يستولون على منازل المحامين ويعتبرون أنها أصبحت ملكهم، وعندما صار الناس يعملون معهم أصبحت أغطي وجهي خوفًا على نفسي، وحتى لا يقولوا إنني كنت مع الجيش

الحر، وأصبحت عندما أكون في الطريق، وكي لا يعرفني أحد، أغطي وجهي وأمشي منحنية الظهر مثل النساء المسنات اللواتي عمرهن سبعون أو ثمانون سنة، بالطبع أنا لست صغيرة ولكن مشيتي مستقيمة والحمد لله، وفي إحدى المرات كنت عائدة في الليل ووجهوا إليّ النور "كبسوا عليّ ضو البيل" فقال أحدهم: "ألم أقل لكَ إنها امرأة كبيرة في السن".

في الواقع أنا عمري خمس وخمسون سنة، لكن زوج ابنة أخي كبّر عمري في الكملك، لأنه وحسب ما قال لي: إنني أستطيع الحصول على راتب من الحكومة التركية، وسجل أولاد أخي تحت اسمي أي أنهم أولادي، كي نكون عائلة كبيرة ونستطيع الحصول على علاج مجاني، لدينا بطاقة الهلال الأحمر، وكل ما خطّط له زوج ابنة أخي "طلع فاضي" لم نستفد منه، لكني أغلقت الموضوع لأن أخي كان معتقلاً وأنا توليت أمور أولاده، وهم مثل أولادي وقد ساعدت في تربيتهم سابقًا.

الإصابة

بقيت سنة وشهرين بعد أن دخلت داعش إلى دير الزور في الشهر السابع من عام 2014، وفي زيارة لإحدى النساء، وكانت تعيش بمفردها مثلي، وقد آثرت، كما فعلت أنا، عدم الخروج من منزلها خشية تعرضها لأي موقف، وكنا نلتقي من حين لآخر، لكني افتقدتها حين انقطعت عن زيارتي، فوجدتها ما زالت في بيتها ولم تغادره، جلسنا في حديقة منزلها الصغيرة مع أولاد أخي الذين حضروا، كان الجو هادئًا ولا يوجد أصوات قصف، وقامت صاحبة المنزل لتعد لنا فطورًا، وعندما سمعت صوت الطائرة قلت لهم: (يبيي إجت الطيارة حسا تنكد علينا!)، فأجابوا: "لا لا بعيدة"، لكنهم ضربوا علينا وعلى المنزل المقابل لنا، وأصبت في رقبتي ودخلت فيّ شظايا، ومازالت شظية حتى الآن في رئتي اليُمنى، أخذوني إلى منطقة الميادين وأحضروا لي طبيبًا خاصًّا، وخضعت لعملية جراحية، وقام الطبيب بخياطة الشريان بعد أن أصبت بقطعٍ في الشريان السباتي، وبقيت لمدة شهر أقوم بالمراجعة الطبية، وبعد ذلك انتظرنا أحد المهربين الذي أوصلنا إلى تركيا في شهر تشرين الثاني عام 2015.

بقي البلور الناعم يخرج من صدري مدة سنتين، وكنت دائمًا أشعر بوجود شيء تحت الجلد، وعندما أقوم بحكه يخرج بلور ناعم جدًّا لونه أبيض بدل اللون الشفاف، وقد قال لي الطبيب، وهو نفس الطبيب الذي أجرى لي العملية وقد زرته حين حضر إلى تركيا، بأن لونه تغير لأنه أصبح تحت الجلد، وعندما نشر التلفزيون السوري خبر هذا القصف وقالوا: "تم قصف وكر للإرهابيين في منطقة الحويقة"، و بعد أسبوع من القصف الذي قام به النظام و الذي أصبت جراءه، تم قصف نفس المنطقة وقتلوا عائلة بأكملها، الجد وزوجة ابنه وحوالي ثلاثة أشخاص وأصيب بقية أفراد العائلة بالشظايا، وقد أذاع الخبر التلفزيون السوري على الشكل التالي: "تم تدمير مستودع للأسلحة"، وهم يضربون المدنيين! كان أغلب الضرب على المدنيين.

لم أستطع أن أخضع لعملية ثانية في تركيا، لأنهم خافوا من عقدة تشكلت في رقبتي قرب الشريان وهي قريبة من الجرح الذي أصبت به، وهي عقدة سامة تشكلت منذ فترة نتيجة الضغط، حتى إنهم رفضوا أن

يتم تصويرها بواسطة الإيكو، لكن طبيبي قام بتصويرها وأخبرني بأنها جسم غريب ويؤثر على صحتي، لكني وبصراحة وجدت أن متابعة علاجي عند طبيب خاص ستكون مكلفة، فهم طلبوا مني إجراء تحليل دم كامل، وأشعة وأنا ليس لدي إمكانية مادية، فأنا كنت أجلي في المطاعم بشكل يومي من أجل ألا أسأل أو أطلب مساعدة من أحد، وأملاكنا كلها في دير الزور والنظام مقيم فيها، حاولنا أن نبيع بعضها لكننا لم ننجح، أما إخوتي فبقوا في المناطق المحررة في قرى حلب، وليس لديهم إمكانية للسفر إلى تركيا. عندما اشتد قصف النظام علينا وقبل أن يعيد سيطرته على منطقتنا، استطاع أصدقاؤهم جمع مبلغ من المال كي يغادروا إلى قرى حلب، وأكثر من ذلك لا يستطيعون.

كنت أريد أن أعود إلى أهلي عندما لم أجد مجالاً لعلاجي في تركيا، وذلك كان قبل أن يترك إخوتي دير الزور، اتصلت بهم لكنهم أخبروني أن الوضع أصبح صعبًا جداً وأنني لا يمكنني أن أتحمّلهم، فقد تمادى الدواعش مع أهل المدينة.

لقد باع لي إخوتي شقة بقيمة مئتي ألف ل.س، أي بقروش، كي أخرج وأتعالج، فقد كان أغلى محل أو منزل يُباع بخمس مئة ألف ل.س. وكانت الناس مضطرة للبيع، وتجّار الحروب يستغلون الفرص، وبعد أن نفد مالي أصبحت أعمل من أجل أن أعيش، لكني كنت أُجمّل صورتي أمام الناس، وعندما يسألونني عن طبيعة عملي كنت أقول لهم إني أعمل مترجمة في إحدى الشركات، فأحيانًا المجتمع لا يرحم وهو يتجه للأسوأ والناس تهتم بالمظاهر، ونحن مرت علينا ظروف وحده الله يعلمها.

التغيرات والتحديات

لقد حصلت معي مواقف خلال دراستي الجامعية كنت أبكي فيها، وكان إخوتي يقولون لي: "يا اتركي يا كوني ديبة"، خذي حقك بيدك، لا تأتي وتقولي هناك طالب حكى معي وبكيت، لا، قولي لنا، حكى طالب ورديت عليه وجاوبته، لقد شجعوني بشكل كبير حتى إني تمردت على المجتمع "تقولها ضاحكة".

علاقتي مع إخوتي جيدة وهم يسألون عني ويتصلون بي بشكل دائم ويعتذرون مني دائمًا ويقولون لي: "أنتِ تعرفين الوضع، يا أختي آسفين ما عنا شي نساعدك فيه، ولو كان لدينا أي شيء لكنا أرسلنا لكِ".

إن أكبر تحدٍ لي هو الوضع الاقتصادي والاجتماعي، فأنا تفاجأت بالمجتمع والناس التي تعرفنا وتحترمنا وتقدرنا، لقد تخلوا عني. أحيانا أقول لنفسي إنه يتحتم عليّ أن أجعل قلبي قاسيًا كما قسى عليّ الناس، فعلى مستوى الطبابة، لقد حضرت إلى تركيا وأنا مصابة، ومعارف إخوتي لم يقفوا معي، وأنا كنت أحتاج وبشكل سريع إلى كملك كي أدخل المشفى لأتعالج، لكنهم كانوا يقولون لي، أعطينا مئة دولار بينما هو مجاني، أنا أريد منزلاً، أريد مأوى، والعمل غير متوفر لي بشكل دائم، فأنا إن لم أجد عملاً لا يمكنني أن أدفع أجار السكن، في إحدى المرات ذهبت للسكن في منزل إحدى قريباتي، لكني لم أستطع البقاء عندهم، فعائلتهم كبيرة وضيوفهم كثر ولديهم أطفال، وأنا أريد مكانًا أستطيع أن أرتاح فيه، أنا وحدي هنا ولم

يساعدني أحد! حتى على مستوى المنظمات، فقد سجلت في إحدى المنظمات التركية لكني لم أستفد، وقصدت إحدى المنظمات كي أتعلم اللغة التركية وأشتغل وأتفاهم مع الاتراك، فقالت لي الموظفة: "ممنوع، دورات اللغة فقط لجيل الشباب"، وأجبتها بأن العلم ليس له عمر محدد، فقالت: "هذه تعليمات الأتراك"، ثم أضافت: "تعالي، أنتم الكبار عشتم حياتكم وانتهت القصة، اتركوا المجال للشباب، راحت علينا نحن الشباب"، فقلت لها: "أنتِ تتحدثين معي بقلة أدب، أنتم جيل الشباب فُتح لكم مجال أكثر منا، نحن كبار السن لا أحد يستقبلنا في عمل ولا أحد يستقبلنا في أي شيء، ارمونا في حاوية إذن، نحن كبار السن لم يعد لدينا دور!" ثم خرجت.

منذ أن حضرت إلى تركيا انصدمت بهذا الوضع، على سبيل المثال، كان هناك امرأة عمرها ستون عامًا وكانت تعمل في مطعم بعيد عن مدينتها وتحتاج إلى ساعة من الزمن لتصل إليه، وكانت تخرج إلى عملها من الساعة التاسعة صباحًا حتى التاسعة والنصف ليلاً، كانت تصل إلى بيتها وهي منهكة، وكنا نقول عندما نراها منهكة إنها ستموت في الحال، أنا أطرح بشكل دائم، لماذا لا يكون هناك خدمات لكبار السن، فأنا عندما اشتغلت رأيت التعب والمشقة بنفسي، وأسأل دائمًا: "أين هي مكانتنا في المجتمع؟" لقد أثرت قضية السن على نفسيتي بشكل كبير، أنا أتيت إلى تركيا في ظرف وزمن كنت فيه كبيرة في السن، ولو أن الثورة حصلت وأنا في مرحلة الشباب لكنت اشتغلت وتحملت ولدي جَلَد لجميع التحديات، ومن الممكن أن يكون وضعي مختلفًا.

وتواصلت أيضًا مع منظمة سورية أخرى كانت تقدم مساعدات، وأعطوني رقم شخصين هما محمد وسليمان "سبحان الله، أسماء عناصر الأمن، محمد وسليمان"، اتصلت بسليمان فلم يرد عليّ، واتصلت بمحمد وقلت له: "يا ابني أريد حرامات؟" فأجابني: "نحن مشغولون الآن في مخيم أقشاقلا ونوزع معونات"، ثم تواصلت معه مجددًا، فقال لي: "ليس لدينا الآن"، فخجلت أن أتصل به مرة أخرى.

واتصلت بموظف يعمل في منظمة أخرى تقدم المساعدات، فأخبرني أنه ترك عمله في المنظمة، أصبحت أشعر أنها حبية، إذا كان لدي معارف يمشي مطلبي، وكرمال عين تكرم مرج عيون، وأعرف شخصًا كان يعمل مع أهلي سابقًا كمترجم، أصبح في تركيا موظف لدى إحدى المؤسسات، فتواسط لي عند مدير المنظمة، وقال له: "نريد مكانًا لها في هذه المنظمة، وهي جامعية تستطيع تنظيم البيانات، وبنت عالم وناس"، فأجابه المدير: "إي تكرم عينك، خليها تمر"، فزرت المنظمة، ومن بداية اللقاء قال لي: "أولاً نريد أن نؤمن لكِ السكن والاستقرار قبل العمل"، فقلت له: "تمام كلام موزون"، وعندما اتصلت به لاحقًا، قال لي: "إن السكن صعب حاليًا، ولكن تعالي سنوظفك في المؤسسة و تعملين لنا قهوة وشاي".

ثم ترك هذا الشخص المنظمة وسلموه إدارة منظمة ثانية، نصبوا فيها على الناس، وأخذوا أسماء ناس، وحمل القوائم وذهب بها إلى إسطنبول، وأصبح يحصل على معونات لتلك الأسماء، أعطى بعضها لفتيات في أورفة من ثم باع باقي المعونات، أي شغل عصابات، وهم سوريون نعم، سوريون! لقد قهرنا السوريون بشكل كبير، إن شاء الله أن لا نصل لمرحلة الذل، لكنهم جاروا علينا.

كما أني سجلت في إحدى المنظمات للالتحاق بدورة لغة وخياطة، وذهبت إليهم في الموعد المحدد، فقالوا لي: "عليكِ الحضور بعد اليوم العاشر من الشهر"، وذهبت في اليوم الحادي عشر، فوجدت أن الدورة بدأت، ثم توجهت لأستاذ اللغة فقال لي: "لقد اكتمل العدد"، فتوجّهت إلى المديرة المسؤولة عن المنظمة وطلبت منها أن أجلس في الدروس أو في فترة الاستراحة كي أتعلم وأعمل في ورشة خياطة، فرفضت وقالت لي: "إنها مسؤولية أمنية!" فقلت لها: "ادعموني ماديًّا"، فأجابتني: "نحن منظمة دعم نفسي واجتماعي"، فقلت لها: "كلكم رفعتم هذا الشعار دعم نفسي واجتماعي، نحن لسنا مجانين ونكلّم أنفسنا، أنا لو أعطيتني كل يوم محاضرة لن أرتاح طالما إني غير مرتاحة ماديًّا"، وخرجت.

فعلاً الماديات تستر، والحروب تفرز الناس، هناك نساء كبيرات في السن عملوا صداقات مع رجال أتراك من أجل أن يصرفوا عليهم وبدون زواج.

كلمة أخيرة

أما عن الإجراءات التي يجب أن تتخذ بحق مجرمي الحرب والجرائم ضد الإنسانية فأقول: "توجد قوانين دولية والمفروض أن يكون هناك محاكمات، ويجب أن يتم اعتقالهم ومحاكمتهم، لكن، وحتى في الحلم لن يحصل هذا، صحيح أننا نحكي ونعمل عسى ولعل أن تصل أصواتنا، ولكن ليس لدينا أمل، وأغلب المعتقلات متعبات نفسيًّا، حتى لو حكينا ضحكنا ولكن نفسيتنا متعبة نتيجة الجرح الكبير".

في بداية المظاهرات، قالت لي امرأة تعمل مع الأمن: "أنتِ شو بدك لحتى تطلعي مظاهرات، شو ناقصك؟!" فأجبتها: "جرح قديم وانفتح"، لقد اختصرت كلامي، ولم أشأ أن أتوسع في الحديث معها وأقول لها قتلوا أولادنا واعتقلوهم، هناك أناس الحديث معهم خسارة، ويجب أن تختصري الكلام، كلمتان تكفي، لأني أعلم أنها من الأمن، وبالفعل إنه جرح قديم، لقد أساؤوا لنا كثيرًا، فعندما طالبوا بالحرية، كثير من أفراد المجتمع فهموها بشكل خاطئ، نحن لأننا نعرف معناها، فإننا نقصد حرية الرأي والتعبير، وأن يعيش الإنسان بأمان بدون مُخبرين ومندوبين عن الأمن، لقد شغلوا نصف الشعب مندوبين عند المخابرات يكتبون لهم التقارير، وأحيانًا تكون تلك التقارير كيدية وبسبب خلاف شخصي، هذا الجرح لن يندمل أبدًا، بل قد زاد بسبب الطريقة التي تعاملوا بها مع الناس خلال الثورة أيضًا، صحيح أنني لست شابة، ولكن المورثات في عائلتنا تجعل من علامات التقدم في السن غير ظاهرة مهما كبر الفرد منا، لكني لم أتخيل أن التقدم في العمر سيبدو ظاهرًا عليّ، السنوات الثلاثة التي قضيتها في تركيا زادت همي فوق هم الثورة، فأنا أريد أن أستأجر بيتًا وأخرج من بيوت الناس "عيبة"، آكل عندهم بخجل، وأتحمم بخجل "مو عيشة هي".

لا ينصف المعتقلات الدعم النفسي أو المادي، ولكن وفي الحقيقة، وأنا لست مادية، المادّة تلعب دورًا كبيرًا، وقلتها تذل، فعلى الأقل يمكنك من خلالها استئجار مكان تقيمين فيه وتشعرين بقليل من الاستقرار، أي جبر الضرر.

يجب أن تتم محاسبة المجرمين وكل من أساء للمواطن، وإذا كان هناك عدل يجب أن يُحاسب ليس المجرمون خلال فترة الثورة فقط، بل والمجرمون القدامى، وإذا فتحت مسارات قضائية دولية فسأكون طرفًا في الادعاء عليهم.

نحن قبل أن نتعلم ما هي السياسة، كنا نسمع أن معتقلي الرأي لهم احترامهم، وإن أراد المرء أن يكتب داخل المعتقل فيزودونه بقلم ودفتر، ويعاملونه بشكل مختلف، أما في سورية "فكلوا تفعيس وإهانة"، لقد قال لي عنصر متطوع برتبة مساعد: "سأحرمك من تعب سنين الدراسة"، وضربني على بطني خلال اعتقالي الأول، لماذا حرموني من دراستي!

لقد رغبت بتوثيق قصتي لأني عندما أحكيها، صحيح أنها تثير لدي المواجع، ولكني إذا قلت ما في داخلي أرتاح لفترة لا بأس بها، "مو خرج أحكي للمجتمع"، قلة من الناس يعرفون أني كنت معتقلة.

لقد رويت قصتي تحت اسم مستعار لأن الوضع في تركيا اختلف، ولا أريد أن يقرأ أحد قصتي باسمي الحقيقي، فليقرأوا قصة إحداهن، أما من هي فلانة بنت فلان فأنا لا أريد ذلك، فالناس أصبحت تنظر لنا نحن أهل الثورة نظرة مختلفة، ويرون أننا خربنا البلد ودمرناها، ومن يعرفني قديمًا يعرف قصتي ويعرف ماذا عملت، أنا اسمع بعض الناس في المناطق المحررة يقولون الآن: "نحنا كنا بالبلد بس ما لنا علاقة"، "وأنا صرت كمان ما لي علاقة"، خلص، إضافةً إلى التصفيات التي تجري للنشطاء، وأنا أريد أن أموت ميتة طبيعية ولا أريد أن أموت على يد شبيح، وهذا حقي.

حتى من كانوا مع الثورة عندما وصلوا إلى تركيا انقلبوا كليًّا على الثورة، وهناك مرتزقة يعملون باسم الثورة وهم لا علاقة لهم بها، كانت حياتنا تحت القصف والضرب أرحم من الآن، وكانت العلاقات بين الناس علاقة تعاون ومحبة، كنا نستفقد ونطمئن على بعضنا البعض حتى عندما يكون القصف فوقنا، أما هنا فهناك لؤم وحقد، "إنو إنتو تبع المظاهرات خربتوا البلد"، طيب، هل كان لدينا طيران أم صواريخ تَقصف بها؟! ومن لا يعلم بأني من أهل الثورة يقولون عنا "هدول طلعوا تبع الثورة، كنا عايشين بأمان"، أين الأمان؟! من لم يكن لديه اهتمام بالسياسة لا يعرف ما حدث، هناك ناس تعني لها الحياة فقط أكل وشرب، هناك مثل فرنسي قرأناه في السنة الثالثة في مادة اللغة وهو: "نحن شعب نأكل لنعيش لا نعيش لنأكل". لكن شعبنا يُطبق العكس، فكيف نستطيع مناقشته، لقد تعبنا ولم يعد لدينا جلد.

كي لا أكون على الهامش[3]*

[3] - حوار أجرته الكاتبة مع هنادي عبر WhatsApp))، بدأ في الثالث والعشرين من شباط عام 2019، واستكمل على عدة مراحل في السابع والثامن والتاسع من آذار عام 2019، حسب ظروف الراوية، مدة الحوار: عشر ساعات.

* لوحة الغلاف: ديالا برصلي

Brisly

أنا هنادي، ولدت في الشام عام 1986، أما في السجلات الرسمية فأنا من مواليد عام 1985، أنا في الأصل من الجولان، ولكني تطبعت بطباع أهل الشام، وأعتبر نفسي واحدة منهم. لم أتمم دراستي، وصلت للصف الثامن فقط، وأثناء امتحاناتي في الصف الثامن كان عرس أخي، ولم يقدّر أهلي أن لدي امتحانًا، ورسبت لأني لم أذهب في اليوم التالي للعرس إلى الامتحان، وما زلت أذكر أن يومها كان لدي أهم مادة في الامتحان وهي الرياضيات، وبعد رسوبي لم أعد أذهب إلى المدرسة لأني خجلت من صديقاتي الناجحات، وكان يفترض بي أن أعيد دراسة الصف الثامن، أحسست أن الأمر كبير بحقي، رغم أني كنت أحب الدراسة كثيرًا وخصوصًا الموادّ العلميّة مثل الفيزياء والعلوم، ولم يكن لدي ميل للموادّ الأدبية.
خلال تلك الفترة، أُصيبت أمي رحمها الله بمرض خبيث، ولم يخبرني أحد وقتها عن طبيعة مرضها، وأصبحت ممرضة لها، قضيت سنتين أو ثلاث سنوات من عمري في المستشفى أرافقها، كنت صغيرة جدًا ولا أفهم أي شيء في الحياة سوى أن أمي مريضة، لم يكن لدي خلالها أي حياة خاصة أو أصدقاء، شاهدت أمامي، وأنا طفلة، موت عدد كبير من الأطفال في المشفى، وتغيّر طبعي وأصبحت منطوية على نفسي، فقرّر أبي وأمي أن أعود للمنزل بدل بقائي في المشفى مع أمي بسبب خوفهما عليّ جراء تراجع وضعي النفسي، بالإضافة إلى أن أمي ساء وضعها كثيرًا، ولم أعد أستطيع تحمل مسؤوليتها بمفردي، لكن بقائي في المنزل وتركها كان أصعب عليّ، وشعرت بفراغ كبير في حياتي لأني كنت قد اعتدت عليها، وكنت معها طوال الليل والنهار، أغسل قدميها وأنام قربهما، كنت أشعر قربها بقليل من الأمان، وكانت تنفعل وتحتدّ عليّ عندما ترتفع حرارتها، لكنها كانت دائمًا تقول أمام الجميع أن أحداً لا يفهم عليها كما أفعل أنا.

وعندما توفيت، رحمها الله، أصبح هناك فراغ كبير لدى جميع أفراد العائلة، وليس لدي وحدي، ولكن إخوتي كانوا أكبر سنًّا مني وكانوا كلّهم متزوجين، وكنتُ في المنزل مع أبي وأختي، وأصبح في البيت وفي حياتي فراغ قاتل، فقرّرت أن أعود للدراسة، لكنّ والدي رفض ذلك بحجة أنني انقطعت عن الدراسة حوالي أربع سنوات، فلم ألتفت لرأيه كالعادة، وذهبت دون علمه واشتريت كتب الصف التاسع من سوق الحميدية، وكنت أدرس أحيانًا في الحمّام وعلى ضوء خافت كي لا يشاهدني والدي، كنت استغلّ كلّ فرصة تتاح لي كي أدرس، أذكر أنه شاهدني في آخر يوم وكنت عائدة من امتحان مادة اللغة العربية فأخبرته، ولم يعترض فقد كان سبب رفضه أوّل الأمر أنه اعتقد أني لم أكن جادة في متابعة دراستي، وقال لي عندما أخبرته: "الله لا يضيّع لك تعب".
لم أتوقّع أن أنجح، ولكني نجحت وقدّمت البكالوريا الأدبية، رغم صعوبة الأمر بالنسبة لي لعدم وجود أي وسيلة للتعلّم أو دعم من أحد، نجحت ولكن علاماتي لم تكن مرتفعة، ولكني والحمد لله درست سنة في معهد سكرتارية وإدارة أعمال، ولكن المعهد لم يعجبني لأني كنت أرغب في دخول الجامعة لأدرس علم النفس، فقدمت خلالها البكالوريا مرة ثانية ونجحت وكانت علاماتي جيدة، فدخلت الفرع الذي أريده من

خلال التعليم الموازي، وقدّمت أوراقي للالتحاق في جامعتي التي كانت في محافظة السويداء، وهنا بدأت الأحداث في عام 2011.

لم أكن حينها قد استوعبت الوضع، ولكن مثل كثير من الناس كان لدي إحساس بأنّ أمرًا ما سيحدث، كان الناس يقولون: "الله يجيرنا مما سيحدث"، ولم يكن لدينا الوعي الكافي ولم نعتقد أنّ النّظام سيفعل ما فعله.

خلال الثورة فهمنا كيف أنّ النظام استعبد الناس، والذي غير اتجاهي حادثة حصلت معي عندما كنت في المعهد، حيث خرجت مسيرة وكانت إجبارية، و ما زلت أذكر حتى الآن كيف أجبرونا على المشاركة فيها، أحضروا الباصات ووقفوا أمام الباب، نادونا بالأسماء وأجبرونا على الصعود الواحد تلو الآخر.

لم أكن أرغب في المشاركة، ومن يريد أن يشارك فإنّ ساحة الأمويين قريبة ولا داعي لـ "شحط" الناس وإجبارهم على المشاركة وتعطيل الدوام والسير في الطرقات ونصب الحواجز الأمنية.

في المسيرة بدأ الناس يهتفون، وكان المنظر مقرفًا والشباب يتحرّشون بالبنات، وكان الشبيحة والأمن في كلّ مكان. لم نكن نعرف ما يحدث في درعا، لأنّ النظام كان يُظهر لنا أنّه يتعرض لهجمة خارجية، وعلينا ـ نحن أبناء الوطن ـ أن نكون معه، وبدأت أهتف للحرية، فتجمع حولي الناس وقالوا لي بأنه ممنوع أن ألفظ هذه الكلمة، لأنّ المعتدين يستخدمونها، وكان علينا الهتاف بـ "كلو لعيونك يا أسد" وجملة أخرى نسيتها تتضمن "إلى الابد" وغزل بعيون الأسد، استغربت حينها كيف منعوني من استخدام كلمة الحريّة!

بداية نشاطي في الثورة

في يوم الجمعة من الأسبوع ذاته كنت ذاهبة إلى منزل أختي، وكان هناك مظاهرة في منطقة القدم قرب المخفر، أحسست بالحماس وبجوٍ وروحٍ مختلفة، ولا إراديًّا مشيت معهم، كانوا كلّهم رجالاً، ولم تكن بينهم أيّ امرأة، ولم يكن هناك أي انتشار لعناصر الشرطة أو الأمن، بل كان عناصر الشرطة يقفون ويتفرّجون عليهم، سررت وبدأت أهتف معهم، وما زلت أذكر جيدًا أنّ الهتاف كان من أجل درعا وفك الحصار عنها، وبدأت أسال عن الموضوع، فأخبرني الناس أنّ درعا محاصرة والدبابات فيها، والأطفال ليس لديهم حليب، فقلت في نفسي: "العمى شو هالحكي، معقول صرنا متل باقي الدول!".

وعادت ذاكرتي إلى الوراء وتذكرت أوّل مظاهرة في الثورة حصلت في باب السريجة، على ما أذكر، حيث كنت أنا وصديقتي هناك نقدّم في إحدى الوزارات على ساعات تكليف للتدريس بعد البكالوريا، فشاهدنا المظاهرة وكانت الهتافات فيها جميلة، وكان فريق من الناس يقولون لهم: "يا خونة"، فقلت في نفسي إننا نعيش تجربة عظيمة، وعليّ أن أحدّد موقفي مما يجري، وقررت أن أكون مع الثورة، وصرت أتابع الأخبار والمظاهرات، وصرت أتواصل على السكايب مع الصبايا والشباب والتنسيقيات، وبدأت تتشكل عندي

قاعدة الوعي الحالية، وبدأنا نُحضر شرائح هاتفية وإنترنت إلى منازلنا، وبدأت تنقطع الكهرباء عندنا لفترات طويلة.

العائق الكبير كان بالنسبة لي أهلي وأخي ووالدي تحديدًا، وبدؤوا يقولون لي أني بنت ولا يجب أن أخرج مع الرجال وأصرخ معهم، لقد كسرت القواعد وبدأت تدريجيًّا أتواصل مع الناس من أجل الخروج في المظاهرات، وكنت سعيدة بذلك، وطلب مني الشباب، لأني بنت وأستطيع التحرك في المنطقة، أن أساعد في الإغاثة والأدوية، وأوّل عمل قمت به كان إغاثة للمهجرين من درعا وحمص، ثم عملنا على نقل الجرحى، وصدقًا في البداية لم يكن هناك من يحمل السلاح.

عملت في التنسيقيات باسمي الحقيقي، لأني لم أعلم أنهم سيفعلون ما فعلوه مع النساء، ودخلت في تنسيقية حي القدم والمناطق الجنوبية ونزل اسمي في اللوائح، كنا في التنسيقية أكثر من مئة وخمسين شخصًا، ولم يكن عدد النساء يتجاوز العشرة، وأسماؤهن أغلبها أسماء مستعارة، لكني أنا وضعت اسمي الحقيقي، وكان الشغل جميلاً جدًّا.

القرار الصعب الذي غيّر حياتي

عندما بدأ الحصار والقصف في منطقتي التضامن والقدم الدمشقيتين، ودخل العسكر بالدبابات وبدأت المداهمات، هرب الناس فجرًا وتركوا كلّ شيء من مال وذهب وكأنه يوم الحشر، هنا بدأ العمل الحقيقي والأصعب، كان ذلك في الشهر السادس من عام 2012، كنت عند أختي عندما قرّر أهلي الخروج إلى القنيطرة فاتصلوا بي وطلبوا مني الحضور لأنّهم أحضروا سيارة ليخرجوا، فتحايلت عليهم وقلت لهم أني سآتي، واتصل والدي مرة أخرى وطلب مني القدوم، لكنني في النهاية أخبرته بأني تغيرت ومن المستحيل أن أعيش معهم.

كان علي اتخاذ القرار الصعب، بين الهروب أو البقاء في المنطقة، رغم أن البقاء والعمل كان بمثابة الانتحار، لكني قرّرت أن أبقى، وقلت في نفسي إن الموت قادم لا محالة. لقد غيّر هذا القرار المفصلي حياتي، استاء والدي مني كثيرًا، وأراد أن يدفعني لتبديل رأيي، بدأت محاولاته بإقناعي بشكل عصبي في البداية، ثم أصبح يسايرني وكان يقول لي، كفاكِ تعالي، غدًا سيقتلونكِ، ولم أنسَ ما قاله لي: "بكرا بيقتلوكِ، بيدبحوكِ، هدول عنصريين وطائفيين"، لقد كان والدي يعرف النظام جيدًا لأنه عسكريّ مسرّح من الجيش. لقد تغيّر المشهد تمامًا بعد مداهمات النظام ودخول الدبابات، وبدأت الانشقاقات من الجيش، ولأول مرّة عشت في المنزل وحدي، وكان الأمر صعبًا عليّ وعلى أهلي، لأني من بيئة شعبية ومحافظة جدًا جدًا، وتهمهم السمعة أكثر من الشخص نفسه، لو كنت شابًّا لكان الأمر عاديًّا، ولما كان هناك خوف عليّ، أمّا لكوني بنتًا فإنهم كانوا يخافون من كلام الناس وليس خوفًا على حياتي.

أنا تمرّدت على هذا الواقع وتركتهم، هم عاشوا في مكان وأنا عشت في مكان آخر، لأني لم أرغب في أن أكون صفرًا على الهامش، وكان قراري هذا سببًا في تخلّي أهلي عني بعد اعتقالي وعدم مساعدتهم لي لأني أنا من تخلّى عنهم أوّلاً.

أصبحت المسؤولية أكبر، وبدأت بالتعلم عبر المشاركة في دورات إسعاف وتمريض وطبابة، ثم نقلنا المصابين من مكان لآخر، وكنّا ننقل الشهداء أحيانًا، ويشهد ربي أني لم أقصّر في أي شيء استطعت فعله وتقديمه. كنا نرى الناس مقتولين بالرصاص أو مذبوحين ذبحًا ومرميّين على الطرقات، شاهدت ذلك بعيني حينما كنت أذهب في سيارة لمساعدة الجرحى، وكنت أثناء تنقلي من منطقة لأخرى، أمر من منطقة فيها قنّاص وقد حماني رب العالمين من القنص.

كنت في المنطقة أنا وصبيّة أخرى كانت تدرس الحقوق، شخصيتها قوية وشجاعة، وقد أخبرت أهلها بأنها تعيش عندي وتعاهدنا بأننا سنبقى معًا، كنت قد تعرّفت عليها خلال المظاهرات، وقد ساعدتني في التصوير وبقضايا أخرى.

خلال تلك الفترة توافد على المنطقة عدة صبايا كنّ يتشجعن لدخولها عندما يسمعن أنني وصديقتي في المنطقة، ويبقَيْن فترة من الزمن ثم يغادرن، لكنني وصديقتي بقينا في المنطقة بشكل مستمر إلى أن اعتُقلْتُ، وكنا نعمل سويًّا بشكل تطوعي ولم يكن عملنا تابعًا لأي منظمة.

كان الجميع قد شاهدني أخرج في المظاهرات، وكان بعض الناس يتكلمون عنّي، ويقولون لأخي "روح ضب أختك"، لقد جرحني الأمر كثيرًا، وكنت أبكي وأقول ما هو الغلط الذي أرتكبه، ولماذا الناس يتكلمون عليّ! فأنا لا أفعل ما هو شخصيّ أو محرّم، كلّ ما كنت أفعله هو الخروج في المظاهرات، وحصلت هذه الحادثة عندما أثار ابن أختي مشكلة في السوق، فقال له أحدهم: "خوالك عاملين حالهم زلم! روح خلي يضبوا أختهم بالأوّل"، كان هناك رفض من الناس بأن تشارك النساء في المظاهرات، وكان هذا الأمر أصعب شيء في حياتي، لم يكن لدي سند ولم يكن هناك من يشجعني، وكنت دائمًا عرضة لكلام الناس وانتقادهم لأنني أسير وفق قناعتي وليس وفق ما يريدون.

عندما علم أهل صديقتي أنها تريد العيش معي، أحضروا سيارة لأخذها معهم، فهربت من البيت خوفًا منهم وكي لا تواجههم، وبقيت أنا، وللتمويه وكي لا يتمّ بيني وبينهم أي مواجهة خرجت إلى الطريق، فحاولوا دهسي بالسيارة، وتهجمت عليّ أختها وقالت لي: "الله لا يوفقك" وبدأت بشتمي، ولم أردّ عليها خشية أن يتجمهر من بقي من الناس حولنا، وتظاهرت بأني لا أسمع الشتائم، لكنهم استمروا بملاحقتي بالسيارة.

كان أهلها يهدّدونني ويتّهمونني بتحريضها عليهم، ويحملوني مسؤولية بقائها في المنطقة، ويقولون "أنتِ أفسدتها أنتِ غيّرتي عقلها"، كلّ ذلك لأنّها قرّرت مثلي أن تعيش وحدها لا مع أهلها، رغم أنّنا كنّا نعيش في بيوتنا ولكن أهلنا تهجّروا إلى مناطق أخرى، وكالعادة، يبحث الأهل عن سبب حتى لا يلوموا ابنتهم ويقولوا إنها اتخذت القرار، بل يقولون إن فلانة أفسدتها وهي المسؤولة، كان حكي الناس هو ما يخيفهم، ولم يكن مهمًا إن ماتت البنت، بل الأهم أن لا تحكي الناس علينا.

بعد الحصار، كان وجودي ضروريًّا لأنه لم تبقَ أي امرأة، وهم كانوا بحاجة إلى ممرّضة، ولأنّ تَنَقُّل المرأة أسهل، كنت أُحضر الأدوية، وكنت أستطيع الدخول إلى أي منزل مسكون، والتحدّث مع ساكنيه لفتح مشفىً ميدانيّ فيه، كما كنت أستطيع مرافقة المُصابين والتمويه على الحواجز، فعلى سبيل المثال كنت أجلس مع المُصاب في السيارة أدّعي أنه أخي أو قريبي كي لا ينتبه إليه أحد، كانوا بحاجة إلى امرأة لتقوم بتلك الأشياء، وكنت أقوم بذلك بالتنسيق مع المشفى الميداني الذي تشكّل وقَدِم كادره من درعا، فقد كان لكل فصيل من الفصائل التي أتت من داريا والغوطة وغيرها من المناطق والمحافظات ممرض أو دكتور، لكنهم قرّروا أن يكون هناك مشفى ميداني واحد وكنت من ضمن كادره الطبي، وكان يضم جرّاحًا وممرضًا وطبيب أسنان وغيرهم.

مع اشتداد الحصار بدأ الأطباء والناس العاملون في المشفى بالانسحاب، وبقيت أنا وممرض كان لديه خبرة حوالي أربعين سنة في التمريض وبعض الأشخاص الآخرين، وكان المشفى يقدّم العلاج للمدنيين المصابين من قناص أو شظية، وكنت أساعد كبار السن في نقلهم إلى أماكن بعيدة عن القصف، وكما قلت سابقًا، بعد أسبوع من تجهيز المشفى الميداني بشكل جيد ومنظم، عَلِمت بعض النساء بوجودي أنا وصديقتي في المنطقة فبدأن بالحضور لتقديم العون والمساعدة، بعضهن فلسطينيات من مخيم فلسطين، وأصبح المشفى مثاليًّا، فيه كراسي للمرضى، وبدأنا بفرز كل دكتور أو ممرض ومعه صبية وانتشرنا في كل المناطق كنقطة طبية إسعافية، وأنا بقيت في منطقتي وجانب بيتي، وللأسف بعد ذلك، بدأ النظام بقصف النقاط الطبية بعد أن عرف أماكنها، وأصبحت الأمور أسوأ بكثير ولم يعد هناك مواد غذائية ولم يعد هناك أدوية، وتراجعت إمكانية خروجنا إلى مناطق النظام، وبدأت المشاكل والخطف المتبادل بين الكتائب، وأغلب الأشخاص من الكتائب كانوا من المدنيين ودخلوا إلى المجال العسكري ومعهم عدد قليل من المنشقين، وكان يوجد مع كل كتيبة مكتب إعلامي وفريق طبي وشيخ أو شرعي يقوم بدور المفتي، لا أعلم من كان صاحب هذا القرار، وأنا حتى تاريخ اعتقالي في الشهر العاشر من عام 2012 لم أرَ في المنطقة متشددين كالذين نسمع عن وجودهم الآن، بل كان بعض الشباب يدخنون ويسكرون، حتى من كنا نعتقد أنهم متشددون كانوا يكفرون أحيانًا.

بدأ القصف يشتد وبدأ الجيش الحر يخسر وقُتل منهم الكثيرون في القصف، وكان كل واحد يُعتقل يعتقل بعده عشرة أشخاص، وحوصرنا في منطقة العسالي والمادنية والسبينة.

الاعتقال الأول – وقعت بين أيديهم

في الخامس من تشرين الأول عام 2012، قبل الحصار كنت موجودة في بيت أختي المتزوجة في منطقة المهاجرين، لأنام وأستحم وأرتاح عندها. وفي الصباح وصلني خبر بأن بيت أهلي الذي كنت موجودة فيه قد قُصف، وأحمد الله أني لم أكن فيه وقت القصف، فأخذت الكاميرا وذهبت لأصور، علمت أن النظام قد

دخل المنطقة وانسحب الجيش الحر وذهب إلى الغوطة، وكانت عادة النظام عندما يدخل أي منطقة يمشطها ويطلق على العملية "عملية التطهير" ثم ينسحب، ودخلت إلى المنطقة ولم أكن أعلم بوجود اشتباك بينهما، ولكن كان هناك جيوب للجيش الحر كتيبة أو كتيبتان، وظننت أن المنطقة آمنة ولا يوجد فيها اشتباك وأستطيع دخولها، فبدأت بالتصوير وصورت بعض الدبابات ومروحيات الطيران، وحرصت على أن لا أدعهم يشاهدونني كالعادة، لكن قلبي لم يكن مطمئنًا، فذهبت إلى بيت إحدى صديقاتي، ووضعت حقيبتي وهويتي وأغراضي عندها، لا أعرف لماذا فعلت ذلك، إذ لم يكن هناك داعٍ لذهابي فبيتها بعيد.

قلت لها: "سأذهب إلي بيت أهلي لأصوره وأعود، وإذا لم أعد أكون إما مت أو أخذني النظام"، ولا أعلم لماذا قلت لها هذا الكلام. ذهبت وفي الطريق بدأت أدخل في حارة وأخرج من أخرى، فالأحياء عندنا شعبية ومتشابكة مع بعضها البعض، وسمعت صراخ أحدهم يقول لي: "وقفي محلك" فارتبكت لأنني أحمل الكاميرا، فخبأتها في صدري وفردت شالي كي لا تُرى، واقتربت منه، وسألني: "ماذا تفعلين هنا؟"، فقلت له: "أنا قادمة لكي آخذ أغراض من بيتي"، فقال لي: "كاذبة"، اكتشفت أن المنطقة الموجودة فيها هي منطقة عسكرية بحتة يتواجد فيها النظام، وهي نقطة التصادم مع الجيش الحر، وأنا لم يكن لي علم بالأمر، فقلت له: "هل من المعقول أن أتواجد في مكان فيه قصف وضرب"، لكنه لم يصدقني وقال أني هنا لأستكشف المواقع، فأجبته: "هل من المعقول أن يحضر الشخص للموت ليستكشف موقعًا!" لكنه قال إنه سيقوم بتفتيشي، وفجأة خرج حوالي خمسين أو ستين عسكريًّا مكتوب على ملابسهم "فرع المداهمة"، كانوا منتشرين في البنايات والشقق وعلى الأسطح، وكان من الواضح أنها كانت معركة حقيقية، وأنهم كانوا يستريحون ليعاودوا القتال، كنت أعلم أن لديه غاية أخرى وأراد استغلال الوضع، وليس لأني موجودة في المنطقة أو أنه شك بي، ورغم خوفي منه حاولت أن لا أظهر له ذلك، أدخلني إلى منزل ومشى أمامي خطوتين، فرميت الكاميرا، ثم أخذني إلى منزل آخر فيه غرفة وبداخلها درج يصل إلى سطح وكان المنزل عبارة عن طابق واحد، وبدأ العنصر يتحرّش بي ويقول: "اخلعي ملابسك أريد تفتيشك"، فقلت له: "لا يجوز لك أن تفتشني، وأنا ليس معي أي شيء، ومن أنت حتى تفتشني!". فأصر أن أخلع ملابسي، تملّكني خوف لا يمكن وصفه، ولم يخطر على بالي موضوع الاعتقال والتعذيب حينها، وأردت فقط أن تنتهي تلك اللحظات، بدأ يلمس جسمي، وعاود الإصرار على أن أخلع ملابسي، فرجوته وقلت له: "إن لدي وضعًا خاصًّا، ولا أستطيع خلع ملابسي"، وقلت له: "اعتبرني كأخت لكَ، اعتبرني وحدة من حريماتك، باين عليك زلمة وابن حلال"، فشدّ شعري وصرخ بوجهي وتوحّش كثيرًا، هدّدته بأني سأصرخ، لكنه هددني في المقابل إذا رفعت صوتي وإذا لم أتركه يفتشني فإنه سيقول لجميع العناصر بأن يفتشوني، وأضاف إما أن أخلع ملابسي أو سيخرجني أمام جميع العساكر بدون ثياب، واصلت رجاءه وحاولت منعه كثيرًا لكنّه أصرّ وأجبرني على خلع ملابسي، وفتّشني غصبًا عنّي وتحرّش بي، لم يجرؤ على أن يعتدي عليّ، لأن العناصر كانوا منتشرين أسفل

البناء، كنتُ لا حول لي ولا قوة، لحظات صعبة جدًّا مررت بها، ولو كنت أعلم ما سيحصل لما دخلت إلى المنطقة أبدًا. وقد عرّفني هذا العنصر على نفسه، وقال إن اسمه سيد وإنه من إدلب من الفوعا.
في البداية كان لدي قوة لا أعلم من أين كنت أستمدها، ولا أعلم من أين أتتني الجرأة لأقول له: من أنت كيف تفتشني؟ ولا أسمح لكَ بتفتيشي، وماذا فعلت كي تفتشني؟ لكن لاحقًا في المعتقل تكسّرت قوتي وأصبحنا خانعين، ولا أعلم الآن عندما أتذكّر كيف كنت لا أصرخ عندما كنت في المنفردة، لم نكن نجرؤ على دق باب الزنزانة لنخرج إلى الحمام، لقد أصبحنا كالغنم، كالطرش كالحيوانات المأخوذة للذبح، قوتنا خمدت وإرادتنا سُلبت.

في داخل المنزل الذي فتشني فيه هذا العنصر، وجدت على الأرض كتابًا قديمًا وصغيرًا مرميًّا على الأرض، وكان مكتوبًا عليه "الحصن الحصين"، فالتقطه من الأرض، وبدأت بالدعاء، وقلت في نفسي: "كأن هذه اللحظات آخر يوم في عمري".
كانت المنازل مدمرة ومحروقة تمامًا، وبعدها أخذني العنصر إلى الضابط المسؤول عن العساكر، وكان أشيب وضخم البنية، وجميع العناصر كانوا يقولون له سيدي، وكان مكتوب على ملابسهم فوق الكتف "مكافحة الإرهاب"، ويلبسون بدلات سوداء اللون وبعضهم كانوا يلبسون ملابس الجيش، وسألني الضابط عن هويتي وعن سبب تواجدي في المكان، فأخبرته بأني أتيت لأخذ أغراض من منزل أهلي وأن هويتي وحقيبتي تركتهما في المنزل، وأخذ اسمي للتفييش، ثم سألني عن مكان سكني، فأخبرته عن مكانه، وقال لي: "اذهبي إلى بيتك"، أثناء مغادرتي أمسكني ضابط آخر وقال لي: "إلى أين أنت ذاهبة؟"، كانوا يلعبون بأعصابي، أخبرته بأني ذاهبة إلى أهلي، فقال لي: "لا، لن تذهبي إلى أهلك، أنا رأيتك من قبل تمرين على الحواجز، ومنطقتك فيها جيش الخرا، جيش الكلاب، وفيها فطايس"، قلت له: "وما ذنبي أنا!" لكنه قال: "لولا أنك تعرفين أحدًا منهم لما حضرت إلى هنا اليوم"، حاولت أن أبرّر له بأني أدرس وبحاجة إلى إحضار ملابسي من منزلي، ونحن ننزح من مكان إلى آخر، ولكن لم يكن هناك جدوى من جميع المبررات التي قلتها، لأنه كان مقتنعًا بأنّ لدى قصة ويجب أن أحكيها، حاولت إظهار تماسكي أمامهم لكني كنت مدركة أني وقعت بين أيديهم، وهنا حصل أمر بدا كالمعجزة، فجأة ضُربت قذيفة من دبابة فانصدموا، بقيت جراء صوت القذيفة أربعة أيام لا أسمع شيئًا، لأنها كانت قريبة منا، بعضهم هرب وآخرون وقعوا على الأرض، وأصيب عسكري وبدأ القصف والاشتباكات وأصبح الوضع جنونيًّا، ووجدت حائطًا وقفت بجانبه لأحمي نفسي من الرصاص، وطلبوا مني أن أبقى في مكاني، و سمعت أن عنصرًا في الدبابة قد انشق وبدأ يقصف عليهم فقتلوه، كانت المعركة حامية جدًّا، وقد شاهدت كل شيء، لم يكن أمامي فرصة كي أهرب لأنهم كانوا مثل النحل "ينغلون"، كان الضرب شديدًا وكانوا يصرخون ويكفرون بالله بكثرة، والطقس كان حارًّا وهم متسخون كثيرًا، وطلب أحدهم مني أن أمشي في أحد الشوارع، فاستغربت طلبه ومشيت بهدوء وحذر، فقال لي: "اركضي اركضي لا تمشي"، فركضت، وهنا هجم علي أحد العناصر وأمسكني من يدي بقوة وقال لي بصوت

عالٍ: "لا تذهبي سيقتلونكِ"، فهجم عليه خمسة عناصر وبدأوا بضربه بقوة وقالوا له: "يا كلب يا درزي يا ابن الشرموطة، لِمَ قلت لها؟"، لم أكن أعرف هذا الشاب سابقًا، وكان أسمر البشرة طويلاً ونحيفًا وشعره أسود ويرتدي ملابس الجيش، وكأني أرى هذه اللحظة تحصل الآن، ويشهد ربي أنهم من شدة ما قتلوه قد عطبوه، وعندما أخذوني من نفس الطريق الذي طلبوا مني أن أركض فيه، اكتشفت أنه طريق مليء بالدبابات والرشاشات والقناصة، وهذا يعني أنهم كانوا يريدون قتلي أو يتسلّون بقتلي، لكن هذا الشاب الذي أنقذني منعهم حين حذرني، وهنا ربطوا يديّ بشريط بلاستيكي أبيض وشحطوني وبدؤوا بتوجيه الكلام الوسخ لي "يا شرموطة"، وكلمة يا شرموطة عاديّة بالنسبة لهم، "عم تتعاملي مع الجيش الخرا وعم تساعديهم، وبدك تعترفي مع مين عم تتعاملي، ومين عم يسهل دخول السلاح لهم"، هنا تجمدت في أرضي، و بدؤوا يسيرون بي في عمق الحارة، ويتحركون وأنا معهم، وكنت أنتظر اللحظة المناسبة للهرب، ورأيت البيوت التي كانوا فيها، وأقسم بالله العظيم بأني لن أنسى هذا اليوم، وأصبح المنظر أكثر رعبًا، كانت كلّ البيوت مفتوحة أبوابها وشاهدت حوالي تسع جثث لمدنيين وقد تم إعدامهم إعدامًا ميدانيًا، وأعمارهم تتراوح بين العشرين والثلاثين، وأيدهم مربوطة بسلك أو برباط أبيض بلاستيكي يستخدمونه في العادة، وقد كان واضحًا من شكل دمهم أنهم قتلوا حديثًا وكان الذباب يحوم حول الجثث، وهم مدنيون وليسوا عساكر أخذوهم من الحواجز وأحضروهم إلى هذا المكان ليقتلوهم، لأن الشباب المقتولين كانوا يرتدون ملابس مرتبة، ولا أعتقد أنهم اعتقلوهم من منازلهم بل من الحواجز لأنهم كانوا يعتقلون الناس على الهوية، وكان في تلك الفترة أشخاص يعودون إلى منازلهم التي تركوها لأخذ أغراضهم ومالهم أو دوائهم والكثير منهم اختفوا بعد عودتهم، وقبل الشهر العاشر من عام 2012، كان الجيش الحر يدخل ويخرج من المنطقة ولم تكن المنطقة محاصرة، ومن لم يكن مطلوبًا أو مشبوهًا كان يمرّ على الحواجز، وأحيانًا لا يتشدّدون مع النساء، لكنهم كانوا يعتقلون الناس بناء على كنيتهم. ولاحقًا بعد خروجي من اعتقالي الأول في فرع 227 ودخولي مع شخصين إلى المنطقة ذاتها التي أخذها الجيش الحر خلال الشهر الحادي عشر من عام 2012، بحثت عن كاميرتي ووجدتها في المكان التي رميتها فيه فأخذتها، ثم بحثت ومن معي في البيوت التي كانت الجثث مرمية فيها، فلم نجدها وإنما وجدنا آثار دمائهم اليابسة.

بالعودة إلى ما حدث معي أثناء وقوعي بين أيديهم، فبعد أن شاهدت الجثث بدأت بالبكاء بشكل هستيري فقد كانت تلك أوّل مرة أشاهد فيها جثثًا، كان رعبًا حقيقيًا، وكان العساكر منتشرين، والاشتباك متقطعًا، ولكنه عندما يشتدّ يكون كثيفًا جدًا، وكنت أرجوهم أن لا يقتلوني، فصرخ أحد العناصر وقال "طمّش" عينيها ففعل، وأخذوني إلى غرفة ووضعوني هناك، وطلب مني أن أجثو على ركبتي، لكن الوضع أصبح أكثر رعبًا بالنسبة لي لأني لم أعد أرى شيئًا، وكنت أشم روائح بشعة جدًّا، ربما تكون رائحة قُمامة قديمة أو رائحة جيف، كانت الروائح بشعة جدًّا وتشبه رائحة حيوان نافق، كنت أبكي بشكل هستيري وأرجوهم أن لا يقتلوني، وهنا جاء أحدهم وقال لي إن لم تتكلمي سنقتلك الآن، فقلت له بأني لا علاقة لي بأي شيء، لكنهم أصروا

بأن لدي علاقة مع الجيش الحر، ثم جاء عنصر آخر ضخم، عرفت أنه ضخم من حذائه وقد شاهدته لاحقًا، وبدأ يضربني على وجهي بيده، ثم وضع "البوط" بفمي ثم وضعه فوق العصبة على عيني، واستمرّ بضربي بحذائه، لم يكن ضربًا قويًا وإنما أراد تخويفي، وما جرح قلبي هو عندما وضع بوطه بفمي وضربني على وجهي به، وأنا إلى الآن لا يمكنني أن أنسى تلك اللحظات، فبغض النظر عما فعلته أنا، ولكن من هو وكيف يحق له أن يضع "البوط" بفمي.

ثم ساد صمت، وسمعته يتكلم على الهاتف اللاسلكي مع شخص من أحد الفروع الأمنية ويخبره بأنه توجد بنت واسمها فلانة، وطلب منه أن يفيّش على اسمي، فأجابه: "اقتلوا أي شخص تصادفونه"، فقال له: "هي بنت"، فأجابه: "عم قلك أيا حدا تصادفوا اقتلوه"، وعندما سمعت ذلك طلبت منه أن لا يقتلني ويتركني في هذا المكان ذي الروائح الكريهة، فأجابني: "فشرتي رح خليكِ تعفني هون". في هذه اللحظة كانوا يتفقون على من سيقتلني، وينادون على عليّ وحسين، وكانوا دائمًا يستخدمون اسم علي و حسين، وهي ليست أسماؤهم الحقيقية أبدًا، وقد عرفت ذلك لاحقًا في الفرع، فهم لا يستخدمون أسماءهم الحقيقية لأنهم يخافون على حياتهم إذا تسربت أسماؤهم إلى الخارج، فينادون بعضهم البعض بتلك الأسماء أو بألقاب، كنت أسمع كل ما يدور بينهم وسلمت أمري إلى الله، وفعلاً كانت آخر لحظات حياتي، إلى أن حضر أحد العناصر وقال للذي كان يضربني: "سيدي هي ما نقتلها خلينا ناخدها على الفرع، هي عندها معلومات"، وخرجوا ليتفقوا على ما سيفعلونه بي، وجاء عنصر واقترب مني، والله يرسل في كل مكان خيط أمل، كان يحمل محرمة بيضاء معطرة ورفع عن عيني العصبة وقال لي بصوت هامس: "لا تخافي لن يقتلوك، ولكن لا تتكلمي عن أي شيء ابقي صامتة، إن تكلمت ستموتين، واصلي إنكارك، ومسح الدم والخدوش عن وجهي وعيني"، لم أفتح عينيّ حين رفع العصبة وخشيت أن يكون ملعوبًا منهم، ولن أنسى رائحة عطر المحرمة، كان عطرًا للرجال، وبعدها بدأ يصرخ عليّ ويقول "بدك تعترفي بالصرماية، بدك تقولي لنا مع مين عم تتعاملي"، فشعرت بالأمان وبأني سأعيش، حتى لو أخذوني إلى الفرع، وبأني لن أموت هذه الميتة، أحسست أن الوقت الذي بقيت فيه جاثية على ركبتي طويل جدًا، ولم أعد أعرف هل الوقت العصر أم المغرب، لم أعد أشعر بالوقت.

قرروا أنهم سيأخذونني إلى الفرع، ورفعوا عن عينيّ "الطميشة" ومشينا في طريق طويل، وكان الوقت آخر العصر، والطريق هو أتوستراد يصل إلى درعا، وكان خاليًا من أي سيارة مدنية ويتواجد فيه دبابات ومركبات عسكرية فقط ، كانوا يمشون رتلاً عسكريًا وكلّهم من الجيش، وكان هناك عنصر يمسكني من اليمين وآخر من اليسار، وكانا يتحرشان بي ويزعجانني بكلامهما، وأحيانًا يضع أحدهم قدمه على قدمي كي أسقط على الأرض، ويقوما بقرصي كي أتوجع وأصرخ، وقاما بحركات جنسية ووضع أحدهم يده على عضوه الذكري، ولم يبق عنصر إلا وتحرّش بي، سواء بالكلام أو باليد وبقلة أدب واحترام، وأذكر أن أحدهم قال لي:

"ليكي هلق في ميتين شب رح خليهم يغتصبوكِ إذا ما بتعترفي، أنا صرلي سنتين مالي شامم ريحة مرا، هلق بطلع كل شي فيكِ، بدك تعترفي".

لم يكن مجرد تهديد، فقد كانوا قادرين على فعل أي شيء وبدون محاسبة.

أدخلوني إلى مصفحة لونها أسود ووضعوني على كرسي ومقابله كرسي معاكس، و"طمشوا" عينيّ وبقيت يداي مربوطتين، ودخل إلى المصفحة خمسة أو ستة عناصر وأغلقوها، وبدؤوا يتحدّثون بين بعضهم البعض أحاديث عادية، لم يتعرّض لي أي عنصر منهم رغم أن منهم من جلس ملاصقًا لي، وهنا جاء الضابط الذي كان يعذبني ووضع حذاءه في فمي، وأنزل من المصفحة عددًا من العناصر وبقي فيها أربعة أو خمسة عناصر، وجلس بجانبي، وفهمت من لهجته وأحاديثهم بين بعضهم البعض بأنه من درعا وأن اسمه أبو عمار، وكان ضخم الجثة سمينًا ولون بشرته بيضاء وشعره خفيف وأصلع، وبدأ يتحرّش بي بشكل علني بدون أي خجل، وبدأ بتنزيل بنطالي ورفع "الطميشة" عن عيني وفك يدي، وكان العتم شديدًا وكأننا في قبو عاتم، وطلب مني أن أنظر إلى عضوه الذكري وأقوم بمسكه واللعب به، كان الموت أسهل بالنسبة لي، وكنت خائفة جدًا وأصابني دوار، بكيت بهمهمة، فقال لي بصوت هامس: "إذا صدر منك أي صوت أو كلمة سأقتلك"، وبدأ يشرح ما يريد مني أن أفعله بعضوه الذكري: "يلا عملي هيك، ساوي هيك" وكان يفعل بي كلّ ما يريده بيده، من لمس وحركات جنسية، وأنزل بنطاله، وامتدت يد ثانية على جسدي، وثالثة ورابعة، ازدادت همهمتي وفقدت وعي ولم أعد أشعر بشيء وأغمي علي، ويبدو أني وقعت على الأرض، عدت إلى وعي وصحوت وهو يضربني على وجهي ويقول: "لك فيقي، لك فيقي، خلص فيقي" وكان خائفًا جدًا، رفع بنطالي، ورتبت نفسي، وقال لي: "إذا تكلمت بأي شيء لأي أحد سأذبحك"، وفجأة فُتح باب المصفحة وحضر أحدهم وقال لي: "لقد أحضرت رقم أحد المسلحين من الداخل، سأتصل به وسأخبره بأننا نغتصبك الآن، إذا غضب وعصب فهذا دليل على تورطك معهم، وسنحبسك ونقتلك، وإذا لم يقل شيئًا فسنتركك تذهبين وسأعزمك على كأس في جبل قاسيون"، صمت وكأن لساني قد ربط من شدة الخوف، جلس جانبي وبدأ يتصل لمرات متتالية بعدة أرقام، لكن لم يردّ عليه أحد، وأحيانًا كانت بعض الهواتف مغلقة، كان هذا الضابط برتبة عقيد واسمه (علي. ح) شعره أسود وشديد السمرة ولحيته متوسطة وله شامة في وجهه وعيناه واسعتان ومربوع القامة.

أنا متأكدة بأني لو لم أكن في مصفحة لكانوا اغتصبوني وفعلوا بي أكثر مما فعلوه، لكن وجودي في مصفحة لم يسمح لهم بالقيام بذلك، وأعتقد أنهم كانوا في دورية، ولم يكن المدعو علي في راحته الكاملة، بل كان خائفًا من شيء ما، لأنه هدّدني بأن لا أصدر أي صوت وأنا كنت أبكي بهمهمة عالية كي يُسمع صوتي حتى فقدت وعي.

ثم توافد أمام المصفحة عدد من العناصر، و"انقلع" أبو عمار ولم أشاهده بعد ذلك، وحضر ضابط كان مسؤولاً عن منطقة القدم، ويعرفه ابن خالي وهو برتبة عقيد، وعندما شاهد المنظر والعناصر جالسين معي و بنطالي وبلوزتي ممزقة وأنا أبكي بحرقة، وكان واضحًا من بكائي بأن شيئًا ما قد حصل لي، فبدأ

بضربهم والصراخ عليهم وقال لهم: "يا كلاب يا حيوانات يا كر منك إلو، يا حمير شو عملتو"، لم يتوقف بكائي ولا لحظة، ربما بكائي هو ما جعلني أعيش، فبدأ العناصر يبرّرون له، فهو عندما فتح المصفحة لاحظ أن يديّ ليستا مربوطتين، وكان هناك سلاح داخل المصفحة، فكان يصرخ عليهم ويقول لهم: "كيف تتركونها مفكوكة اليدين وهناك سلاح"، رغم إني لم أنتبه إلى وجود سلاح بسبب العتم وعدم وجود ضوء سوى ضوء الهاتف الجوال ولأني كنت منهارة، وأعتقد أن أحدًا ما قد أخبر العقيد بما حصل معي داخل المصفحة لأنه منذ أن قدم إلينا كان وجهه مسمومًا.

ربطوا يديّ ووضعوا العصبة على عينيّ، وتحرّكت المصفحة ومشينا، وبدأت أسالهم: "إلى أين ستأخذونني؟" فقال لي أحد العناصر: "لا تخافي لن نذهب خارج الشام"، إلى أن وصلنا إلى بناء وفتحوا الباب ورفعوا عن عينيّ العصبة، فكرّرت سؤالي: "مشان الله وين آخديني كمان؟" فأجابني أحدهم: "لا تخافي لا تخافي هون الفرع، هلق بيحقّقوا معك، وإذا ما عليكِ شي بتطلعي"، لم أفهم حينها ماذا يعني الفرع، لكني شاهدت بعيني ما يعنيه!

الفرع 227 – الأرض الملعونة

دخلنا إلى فرع 227، وكانت أصوات التعذيب والروائح الفظيعة، وأنا خلال حياتي كلها لم أشمّ مثل تلك الروائح، وكانت عبارة عن عذاب الناس، كانت منطقة ملعونة ... أرض ملعونة، روائح موت، يمكن وسخ، أمراض... لا أعلم، روائح بشعة، أدخلوني وبدؤوا يأخذون معلوماتي، وسألوني عن أغراضي، فأخبرتهم بأني لا أحمل أي أغراض، فكّوا يدَيّ، وفتّشني أحدهم، وأدخلوني إلى جماعية ولكن مساحتها صغيرة، ويوجد فيها ست عشرة أو سبع عشرة بنتًا، مت رعبًا من وجوههنّ فقد كانت وجوه موتى، شفاههنّ صفراء وعيونهنّ ذابلة، وكن يُفَلّين بعضهنّ بعضًا من القمل، بعد هذا المنظر عدت إلى البكاء وبدأت أسألهنّ عن التعذيب وهل سيتم قتلنا؟ لاحظ البنات كيف كنت في حالة هستيرية، فأجلسوني، وقلت لهن: "إنني أشعر بالبرد"، فوضعوا علي حرامًا، يا لطيف كيف كانت رائحته، كان حرامًا عسكريًّا ملمسه كالشوك، ثمّ سألتني البنات عن اسمي ومن أي منطقة أنا، وماذا يحصل في الخارج وكيف أُلقي القبض عليّ، لم أستطع الكلام، وأومأت لهنّ برأسي أنني لا أستطيع الكلام، فقالت إحداهن: "اتركوها يبدو أنهم عذبوها كثيرًا".

كان هناك ضوء منبعثٌ من لمبة صفراء، فشاهدت آثار الإحمرار والدم على يديّ جراء ربطهما بقوة، وأصابعي سوداء اللون، ولم يَزُلْ هذا السواد إلا بعد أربعة أيام، وكانت ثيابي ممزّقة، وقد علمت لاحقًا أثناء وجودي في سجن عدرا أن البنات قلن إنه تم الاعتداء عليّ، لكنّي قلت لهنّ: "إني لا أسمح لكنّ بالحديث عني، وإن حصل هذا الأمر فهو أمر يخصّني وحدي"، وأنا لم أتحدث عن ما حصل معي إلا للمقربات منّي.

في الصباح قالت البنات لي بأنني كنت أصرخ وأبكي وأئنّ طوال نومي، وبعد أن شربوني الماء وصحوت، طلبت منهنّ طعامًا حلوًا، فضحكن وأخبرنني أن الطعام هو فقط رغيف خبز وحبة بطاطا، ما زلت إلى الآن أذكر ما طلبت وأضحك. حتى الماء كانت وسخة جدًّا، وكان المرحاض في داخل الجماعية، وكنّا نرى الفتاة

تستعمله، لأنه لا يوجد جدار بينه وبين الجماعية، وذوقًا كانت البنات يضعن ستارة لبعضهن البعض، حين تستخدم إحدانا المرحاض، ولكن الروائح كانت تنتشر في الجماعية.

أعمار الفتيات كانت متفاوتة، فهناك الصبايا والكبيرات في السن، ولكن الصبايا كنَّ الأكثر عددًا، وأغلبهنّ من الشام، واحدة كانت من درعا، وأخرى من جانب قرية الصفصافة في حماة وتدعى (سلمى. ب)، وقد كانت شرطية، وعلى ما أذكر رتبتها رقيب، كانت تحبّ شابًّا معارضًا للنظام، اسمه عليّ، وقد طلب منها أن تُحضر له ذخيرة، وعندما فعلت وشى بها أحدهم للضابط المسؤول عنها، وأحضروها للتحقيق فاعترفت مباشرة، وأحضروا عليًّا وقتلوه أمامها.

يعتبر الفرع 227 من أسوأ الأفرع الأمنية في كلّ سوريا، وهو أسوأ من فرع فلسطين وفرع 215، المراحيض والصرف الصحي فيه دائمًا فيها مشاكل، فهو مبنى قديم جدًا، ولا يقومون بأيّ إصلاحات فيه، وأنا لم آكل فيه لأني قرفت من سوء الطعام الذي كانوا يقدّمونه لنا، وهو فرع يقع في بداية شارع التوجيه الذي توجد فيه وزارة الكهرباء، وخلفه الشرطة العسكرية.
كانت البنات تحكي قصصهن، وبدأن بسؤالي عن قصتي، في البداية أعطيتهن اسمًا غير اسمي، وقلت لهنّ: "أنا هنادي ولكنّ اسمي الحقيقي ماهيتاب"، وأخبرتهنّ أني فلسطينية، بصراحة لم أعطهن معلومات صحيحة عني، لأني خفت أن يكنّ من "العواينية"، خفت من كل شيء ولم أعد أشعر بالأمان مع أي شخص، وأي شخص كان مرعبًا بالنسبة لي، ولاحقًا سخرت من نفسي، إذ أعطيتهنّ معلومات خاطئة، في الواقع لم أكن بكامل وعيي، وبعد أيام "أخدت وش عليهن" وبدأنا نحكي مع بعضنا البعض ونضحك، وكنّ يقلن لي: "كل العالم فوتتهم بكفة، أما أنتِ فقد دخلت وكأنك كنت ميتة وعدت إلى الحياة"، وفي اليوم الثاني قام العسكري بإيقاظي وطلب مني الخروج إلى الممر، لأني كنت كالميتة أثناء نومي، وفي الممر وضع بيدي لوحة، ولم أقرأ ما هو مكتوب فيها لأني كنت نائمة، وطلب مني رفعها وصورني، وعندما سألت البنات عن الأمر قلن لي: "لا نعرف ولكن كل البنات يتم تصويرهن"، وعرفت لاحقًا بأنه كان ما يُسمى "فيش"، مثل السجل الإجرامي، وهو ما أضرّ بي وأصبحت بسببه مهدّدة في كل لحظة من لحظات حياتي.
كنت أبقى نائمة في النهار وأستيقظ في الليل، وأبشع ساعتين في الفرع كانت مساءً قبل العشاء ساعة التحقيق والتعذيب والضرب، وفي الصباح كانوا ينقلون البعض إلى فرع آخر أو إلى المحكمة وكانوا ينقلون الجثث التي ماتت في الليل.
كل إنسان قادر أن يتكيف مع محيطه والبيئة التي يكون فيها حتى لو كان في جهنم، أخبرتني الفتيات اللواتي كن قبلي في الفرع بأربع أو خمس شهور تقريبًا كثيرًا من القصص، وكن متكيّفات مع الوضع ويعرفن التوقيت بشكل دقيق جدًا، أنا لم أر الجثث ولكنهنّ شاهدنها من خلال خرم موجود في الباب، حيث كانوا ينقلون الجثث التي عذبوا أصحابها ووضعوها في الليل داخل الحمام، ثم يتم تحميلها في الصباح،

وبعض المعتقلين إما ماتوا تحت التعذيب، أو ماتوا إثر جلطات من شدة التعذيب والخوف، أو ماتوا قهرًا وهذه جريمة أيضًا.

في اعتقالي الأول لم أر شيئًا، ولم أكن قادرة على الوقوف والتلصص لأشاهد من الخرم لأني كنت غائبة عن الوجود وخائفة، لكني كنت أسمع أصوات التعذيب وصوت طقطقة الكهرباء على الأجساد، وسكب الماء الساخن والبارد على المعتقلين، وصوت المحقّق وأسئلته المستفزة، والكفر بالله والكلام الوسخ وتوسّل المعتقلين، وقد رأيت في إحدى جلسات التحقيق عندما أخذني السجّان إلى الحمام، وأحياناً يكون السجان يريد الذهاب إما للمناوبة أو لشيء آخر، فيضطر إلى إخراجنا للحمام وإعادتنا إلى الزنزانة، ويطلب منا أن ننظر إلى الحائط، ولكننا كنّا نسترق النظر لنرى ما يحدث، وقد شاهدت بأم عيني صفين كاملين من الشباب، عراة تمامًا، حتى من ملابسهم الداخلية، يقفون في الممر، ومن يتم التحقيق معه "مطمشة" عيناه بقطعة جلد سميكة، ويداه للخلف ورأسه ونظره على الأرض، وهو يرجف كالطير المذبوح، وكان المحقّق يسأله عن اسمه واسم أمه وإخوته وأسماء جميع أقاربه، عمومه وأخواله وبناتهم وأولادهم وجيرانه، لم يبق أحد من معارفه لم يسأله عنه، ثم سأله سؤالاً مستفزًا: "أخبرني كيف مارست الدعارة مع خالتك، وكيف طلبت منك أن تمارس الدعارة معها من (طيزا) هل هي التي طلبت منك أم أنتَ اشتهيتها؟" لقد انتفض جسمي عندما سمعت هذا الكلام وقلت في نفسي: "إذا الشاب حاكوه بمثل هذا الكلام فكيف سيتكلمون معنا!" وبدأ الشاب بالصراخ وقال له: "لا سيدي أنا ما قربت عليها"، وهنا صرخ به المحقّق وقال: "ولاك" وأمسكه ورماه وضربه بكل شي بالأكبال "بالصباط" بالكرسي بالطاولة بكل شيء، وكل شيء مباح، كنت أسمع صوت عظامه وهي تتكسر في الأرض، وصوت أنينه وأنّاته، ويجب أن يبقى المعتقل ساكتًا وممنوع عليه الألم والصراخ والكلام، لأن ذلك يعني مزيدًا من الضرب والتعذيب، وممنوع على أي شخص أن يقاوم الضرب أو يتألم ويقول أي.

كان لديهم عادة شديدة القرف والبشاعة، وهي أول شيءٍ يفعلونه عندما يدخل المعتقل إلى الفرع، وبعد أن يطلبوا من المعتقلين الوقوف صفًّا واحدًا وراء بعضهم البعض،

يقصون غضروفًا في الساق بآلة حادة، كي يبقى الوجع لأيام طويلة ولا يستطيع المعتقل المشي، ولاحقًا تتكاثر فيه الالتهابات، وطبعًا هذا يتم بعد أن يحلقوا شعره ويضربوه، أو يفتحوا فتحات في أجسام المعتقلين، لا أعلم بأي شيء يفتحونها، ربما بأداة يتم تسخينها بالنار ويضعونها على الجسم.

شاهدت الكثير من المعتقلين في أجسامهم عدة فتحات، وهي فتحات دائرية بحجم الليرة المعدنية، ملتهبة فيها قيح ولونها بين الأحمر والأسود والأزرق، وبعضهم تكون يده أو رجله مكسورة والعظم يكون بارزًا و"طالعة لبرا" ماعدا انتفاخ الأقدام، وكأنّ الدم قد تم حبسه فيها بشكل متعمد، وهم لا يستطيعون الوقوف أو الزحف أو المشي، يتألم المعتقلون جراء ذلك ألمًا شديدًا، وشاهدت بعض المعتقلين أيضًا وجوههم منتفخة، والعين والأنف والشفاه "رح تطلع لبرا"، وكأنهم تم خنقهم، لدرجة أن الوجه صار أضخم من الجسد، أو الأصابع أو اليدين، كانت المشاهدات مخيفة وعذابًا بالنسبة لنا وعذابًا شديدًا وصعبًا لهم.

في اليوم التالي أخذني السجّان إلى التحقيق، وأوصتني البنات بأن لا أعترف بشيء، سواء بشيء فعلته أم لم أفعله، فأخبرتهن بأني بالفعل لم أفعل شيئًا، ولم أعرف من أين أتتني القوة وأخبرت المحقّق بكلّ شيء بعد أن قال لي: "أتمنّى أن تخبريني بكل شيء، ماذا فعلت، ومع من تعاملت، وأنا هنا لأسمعك"، فأجبته بأني سأحكي كل ما حصل معي وأضفت: "أتمنى أن لا تخبرهم لأنهم إذا عرفوا سيقتلونني"، كان أمامه أوراق وبيده قلم، أخبرته عن الضرب والإهانة والتحرّش وعن كلّ ما تعرضت له بالتفصيل الممل، وأعطيته أسماءهم ومواصفاتهم، وربما كان يعرف ما حدث معي، ثم رمى القلم من يده ووقف وقال لي: "إن كنت تكذبين يا هنادي، أو تقولين ذلك كي تستعطفيني أو تتسببي بمشاكل للشباب فاعتبري أن هذا اليوم هو آخر يوم في عمرك"، فقلت له: "أقسم بالله العظيم، واسأل من تريد، أن ما قلته هو ما حصل معي وما فعلوه بي، وأقسم بالله أنهم تبلّوني، وأنا لا علاقة لي بأي شيء"، ثم طلب مني الذهاب وقال إنه سيستدعيني لاحقًا.

ثم إرجعوني إلى المنفردة، وفي صباح اليوم الثالث طلبوني، وصعدوا بي إلى المكاتب في الطوابق العليا، وقلت في نفسي هناك جدار يفصل بين الحياة والموت، بين الحياة والجحيم، هو جدار يفصل بين ما يجري تحت من عذاب وتعذيب للمعتقلين والمعتقلات، وفوق حيث الحياة والناس لا يعرفون ما يحدث تحت. عندما صعدت إلى فوق حيث الحياة، والمكاتب والمراجعون وكل شيء نظيف، وكأنّ العناصر الموجودين فوق ليسوا هم من يقومون بالتعذيب تحت، وضعوني في أحد المكاتب وحضر شخص يلبس لباسًا مدنيًّا وقال لي: "نحن نعلم أنك تتعاملين مع المسلحين، وأتمنّى أن لا أراك هنا مرّة أخرى"، وربما قصد آخر مرة يراني فيها في المنطقة، فحاولت الكلام لكنه طلب منّي أن لا أقول ولا حرف، وأضاف: "أنتِ هنا لتسمعي لا لتتكلّمي"، وطلب مني الإمضاء على ورقة بحجم الكفّ أو أكبر قليلاً، ومكتوب عليها تعهّد، ووجدت فيها اسمي الكامل مكتوبًا، وأن أتعهد فيها أنا هنادي ... بأن لا أظهر في أي وسيلة إعلامية، وأن لا أفصح عن أي شيء حصل معي في هذا اليوم، من اعتداء وضرب، وأن لا أتحدث أين كنت، وأن أخرج من منطقة القدم وأن لا أدخلها مرّة أخرى، وأن أتعاون مع الجهات الرسميّة، وأن أقوم بإخبارهم عن المسلحين، وعرفت حينذاك أن المحقّق هو من فعل ذلك، ثم بصمت على الورقة، وقال لي ستخرجين بعد قليل، وعند الباب كان ينتظرني ضابط برتبة عقيد، هو الذي ضرب الشباب في المصفحة، وقال لي: "أتمنى أن تنسي كلّ شيء حصل هنا، اخرجي من هنا ولا تتحدّثي بأيّ شيء، وإذا سألكِ أهلك أين كنتِ قولي لهم إنك كنت عند صديقتك أو جارتك، أو قولي لهم إنك سافرتِ أو ضعتِ، وإياكِ أن تقولي إنك كنت في الفرع، وإياك أن تتحدثي لأي مخلوق كان عما حصل، ونحن سنعلم إن تحدثت، أتمنى أن تتعاوني معي، وسأعطيكِ رقم هاتفي وتخبريني إذا شاهدت مسلحين، وسنقوم بمساعدتك في كل شيء"، فقلت له: "أنا يا سيادة العقيد ليس لي علاقة بشيء، وأنا أخاف وسامحني أنا لدي دراستي وأنا قدّمت أوراقي وسجلت لألتحق بالجامعة وسأدرس تربية وعلم نفس، وأنا ليس لدي علاقة بالمسلحين وبعيدة تمامًا عن هذه الأجواء"، ثم أعطاني

خمس مئة ليرة وقال لي: "هذه أجرة الطريق، خذي تكسي ولا تذهبي مشيًا، اذهبي إلى أهلك ولا أريد أن أراكِ مرة أخرى في هذا الفرع".

فتحوا الباب وخرجت من الفرع في السابع من تشرين الأول عام 2012، حتى إني لم أر البنات، ولم أصدّق ما حصل معي، كيف دخلت وكيف خرجت. أخذت تكسي وذهبت إلى منزل أختي في المهاجرين، وكان أهلي قد علموا أنّي قد أُلقي القبض عليّ، وأني بقيت ثلاثة أيام في المعتقل، وكانت الأجواء مضطربة في المنزل، وكانوا يبحثون عني، فبعض الناس قد أخبروهم أني اعتقلت وبعضهم أخبروهم أني متّ، لقد اختفيت عنهم ثلاثة أيام، فقد خرجت من بيت أختي كي أصور منزلنا الذي قُصف واختفيت.
لقد قلقوا عليّ كثيرًا، فأنا البنت الوحيدة العازبة في العائلة، وقد ظنّ أهلي أن الأمن أخذني ومعي الكاميرا، لكني أخبرتهم بأنّي رميتها، وبدأت أخواتي البنات يعاتبنني على ما فعلته، ويقولون: "إن شباب العائلة رح يروحوا بسببك" وقلن: "إذا ما بتخافي على حالك خافي على إخواتك، نحن بسببك خرجنا بملابسنا من البيت"، لقد ظنن أني "رح جبلهن البلاء والأمن رح يعملهن شي" فهربن كل واحدة إلى مكان. لم أخبرهن بما حصل معي، ولم يسألوني أصلاً إن كنت قد تعرّضت للتعذيب والضرب، كنّ يلومنني لأن بعضهنّ يسكن في مناطق النظام، وقد خفن على أزواجهن، انزعجت من ذلك، فهنّ لم يعرفن كم تعذبت، وتوقعت على الأقل أن يسألوني إذا عذبوني.
طردتني أختي من المنزل بعد أن احتد النقاش بيني وبينها وبعد سؤالي: "ما هو الخطأ الذي ارتكبه حتى لا تسألوا عني، وتلوموني على أشياء أنا لا علاقة لي بها؟!" وقالت: "هالبيت إلك وهبينا يا، اطلعي من البيت، بيكفي إنتِ هون جايبتيلنا البلاء"، فخرجت من المنزل في الساعة الثالثة فجرًا، ولم يلحق بي أحد كي يعيدني إلى المنزل ويقول لي إرجعي "كان الكل قلبه مليان مني، لأني سأجلب لهم الأمن وسيمسكهم بسببي"، كان في المنزل أختي وزوجها وأختي الأخرى وزوجها، وخافت إحداهن أن يسمع بيت حماها أن الأمن اعتقلني.
أنا لا ألوم أحدًا، أختاي كانتا محقّتين، وحريٌّ بهما أن يخافا، فكل واحدة منهما عندها أطفال وزوج، وأنا شاهدت تعذيب الشباب في المعتقل وخفت عليهم، ولذلك خرجت من المنزل لأني لا أريد أن أجلب البلاء لهم، ولكن لم يكن يجدر بها أن تطردني.

في الطريق

مشيت في الطريق ولم أعرف إلى أين أذهب، ولم يكن لدي مال أو ملابس، كنت أبكي وأترجّى رب العالمين أن يجد لي مخرجًا لأني كنت ضائعة، وكنت أريد بيتًا فقط كي آوي إليه، ولا يوجد بيت فأبي كان موجودًا في القنيطرة، وأنا لا أحمل هويتي وليس معي مال كي أستطيع الذهاب إليه. أبي طيب جدًا وقد سامحني على كل شيء، وهو الوحيد الذي وقف بجانبي وساندني، جميع الناس حتى إخوتي وأخواتي تخلّوا عني إلا

أبي، إخوتي الشباب هدّدوني وتبرّؤوا مني، وسمعت كلامًا ثقيلاً جدًا لا يستطيع أي إنسان تحمّله، وما زلت حتى الآن أعيش في كوابيس، وما مررت به لا يمكن أن أنساه أبدًا.

بقيت في الشارع، جالسةً على الرصيف، لا أدري ماذا أفعل أو إلى أين أذهب، وبينما أنا كذلك إذ هجمت علي كلبة وبدأت تزمجر، واكتشفتُ بأني أجلس قرب جرائها، فركضت وركضت ورائي، واستمريت بالهرب منها وصعدت أحد الأدراج فلحقت بي، وقرعت باب أول منزل وجدته أمامي، لأن الكلبة كانت ورائي على الدرج، ففتحت لي سيدة وقلت لها: "داخلة على الله وعليكِ، افتحي لي حتى تذهب الكلبة" أدخلتني إلى بيتها وقالت لي: "خير يا أختي"، فطلبت منها أن لا تسألني قبل أن أرتاح، ولم أدرِ ماذا أقول لها، هل أقول لها إن أختي طردتني من بيتها!

بعد أن ارتحت أخبرتها أني لا أستطيع الكلام وقلت لها: "الله يعطيكِ العافية"، وأصرّت على أن تقدّم لي كأسًا من الماء وفنجان قهوة، وقالت لي: "شبك باين عليكِ مرعوبة، احكِ لي الناس لبعضها، إنتِ من وين؟!" فأخبرتها أني أريد الذهاب باكرًا، فأجابتني: "الساعة الرابعة فجرًا، أين ستذهبين! هل ضربك زوجك؟"، لم أخبرها شيئًا وأصرّيت على الخروج، وخرجت.

عدت إلى الطريق في منطقة المهاجرين- أول الجادات، وكنت تارة أحتمي من البرد بجانب سيارة وأجلس في مكان منزوٍ تارة أخرى كي لا يشاهدني أحد وبقيت على هذه الحال حتى آذان الفجر، وهنا أتى رجل وقال لي: "قومي أختي قومي، أنا أراقبك منذ ساعة، تعالي إلى منزلي ولا تخافي فزوجتي وأولادي في المنزل، دخلت منزله بعدما وجدت زوجته واقفة أمام الباب، كنت خائفة وأريد أن أتدفأ وأرتاح وأشرب الماء، فقال لي: "لن أسألك عن أي شيء"، كانت زوجته وابنته الصبيّة في الغرفة وقدّموا لي بسكويتًا وقهوة وقال لي: "خدي راحتك كأنو البيت بيتك"، ثم قال لي: "ماهي قصتك؟ إن كنت تريدين الكلام فأنا أسمعك"، فأجبته بأني لا أستطيع الكلام، وسألني إن كنت بحاجة إلى مال، فقلت له: "لا يا أخي لست بحاجة إليه"، فمد يده إلى جيبه وأعطاني مئة أو مئة وخمسين ليرة سورية، وأعطاني أيضًا رقم هاتفه إن احتجت إلى شيء أو عمل، وعرّفني عن نفسه وأخبرني عن اسمه، وأنه صاحب معمل، فشكرته هو وزوجته وخرجت.

أول خطة فكرت بها هي أن أعود إلى القدم كي آخذ حقيبتي، ولفيت لفةً طويلة جدًا كي لا أمرّ أمام الحاجز، وكنت أمشي أحيانًا أركب السيرفيس أحيانًا، واستطعت الدخول إلى القدم، ووصلت إلى منزل صديقتي التي كانت تظن أني مت عندما اختفيت أربعة أيام، فأخبرتها أن الأمن أمسك بي، ثم أخذت حقيبتي وأغراضي وذهبت.

الغوطة

خطتي الثانية كانت الدخول إلى الغوطة، ولم يكن الحصار آنذاك مُطبقًا عليها كما صار لاحقًا، ولم يكن التشديد الأمني شديدًا للدخول إليها، مشيت بطرق فرعية هربًا من الحواجز، ووصلت إلى مرج السلطان عند آذان العشاء في التاسع من تشرين الأول عام 2012، وكنت متعبة جدًا، وبدأت أسأل إن كان هناك من

يساعدني، كانت المنطقة محرّرة والجميع ثوّار والجوّ كان ثوريّ وأنا معتقلة، ففتح الناس لي بيوتهم واستقبلني الكثير منهم، فرحت كثيراً بالأجواء، والنسوة ساعدنني وطبخن لي، وجهزن لي "فرشة" كي أنام، وجهزن لي الحمام كي أستحم، النسوة اللواتي كنّ في مرج السلطان كنّ قد نزحن من مناطقهنّ، ثم حضر أشخاص وأخبرونا أن هناك مداهمة قادمة عن طريق المطار وأنّ علينا الخروج، فخرجت مع العائلات وانتقلنا إلى داخل الغوطة في منطقة المزارع، وبقيت أنا مع النساء، والحياة كانت جميلة جدًا جدًا، بالرغم من القصف والناس الذين يموتون جراءه، فجأة نسمع أن فلانة التي كانت معنا في الأمس القريب ماتت من القصف، وأن فلانًا ترك المكان وغادر، رغم ذلك كانت الحياة جميلة، وتعالجت من الالتهابات الحادة التي أصابتني في الفرع 227 والناس ساندوني. هناك من شكّك بقصتي، واستغرب كيف يطلق النظام سراحي بعد ثلاثة أيام، واعتقدوا أني جاسوسة، وكان صعبًا عليّ تقبل هذا الاتهام.

كان أبي يبحث عني ويسأل إخوتي عني، ويقول لهم أريد أن اطمئنّ عليها، وبدؤوا يتصلون على رقمي، وأنا لم أكن أحمل هاتفًا جوالاً بل شريحة هاتفية، وحين يتاح لي هاتفًا كنت أضع شريحتي وأقرأ رسائلي، حتى لا يكون هاتفي شاهدًا ضدي إذا مسكني الأمن، اتصلت بوالدي وطمأنته عني، وكان قد وصله خبر بأني مت، ثم أخبره إخوتي أني زرتهم وخرجت، ولم يخبروه بأنهم "قلعوني"، فأخبرته بما حصل، وأنهم طردوني وأني خرجت لأنهم لا يريدونني معهم، وأخبرته أيضًا أني في الغوطة، وطمأنته بأني سآتي إليه أينما كان وفي أقرب فرصة.

وفي العيد الكبير كنت في منطقة عربين، وكنت أرى القصف والضرب والحصار، وشاهدت كيف كان النظام يقصف البناية فتصبح في الأرض، وكيف كانت الناس تهرب عندما كانت تسمع أن النظام سيقتحم المكان، كنت أعيش مع عائلة من عربين، ورغم الحرب كانت حياة النساء طبيعية هناك، ولم يكن هناك أي أثر للتيار الإسلاميّ الذي ظهر لاحقًا، كان الشباب محترمين وينتمون للثورة. أنا لم أدخل إلى دوما إلا كعابرة طريق، وكان فيها محكمة شرعية، وكل الناس يعلمون أن دوما منطقة محافظة، ولهم أسلوبهم في اللباس والمعيشة.

وكان الناس رغم القصف يحاولون أن يمارسون حياتهم بشكل طبيعي، كنا نطبخ ونشرب القهوة ويزور بعضنا بعضًا، وكان النسوة يحبونني ويتعاملون معي بلطف وحنان، وفي إحدى المرات قالت لي صاحبة البيت: "تعالي نزور جارتي التي لديها قطط جميلة"، وبالفعل ذهبنا وكان بيتها جميلاً جدًا، ولديها قط أشقر شيرازي أحببته ولاعبته، فقالت لي الجارة: "إن أردت أعطيتك قطة".

وذات مرة قلت للنسوة: "أنا أشعر بالحياء منكنّ، ولكن أريد أن أقصّ شعري وأقلّم أظافري وأصلح حواجبي، فهل هناك أي وسيلة؟"، فأخذوني إلى امرأة تقوم بتلك الأشياء، كنا رغم كل القصف نحاول أن نعيش حياة طبيعية.

وحان وقت الخروج، حين اشتد القصف علينا بشكل جنوني في الشهر الحادي عشر من عام 2012، وكان الناس يهربون، والعائلة التي كنت أعيش عندهم استشهد ابنهم، وأخرج الأب عائلته من عربين، كي لا تسمع أمه خبر استشهاده، وتصاب بالصدمة، لأنه كان أكبر أبنائها ولها ابن آخر معتقل، ولكنها شكت في الأمر، وكانت دائمًا تسأل وتقول: "لماذا لا يتصلّ بي؟ ولماذا لا يردّ على هاتفه؟"، فعزمت أمري وقلت يجب أن أذهب إلى أبي، فربما مت أو أصابني شيء، فكلّ شيء أصبح موتًا، ولا أريد أن أشاهد عذاب هذه المرأة، لأني تعلقت بها كثيرًا.

خرجت من الغوطة بعد أسبوع أو عشرة أيام من العيد، وكان الجو باردًا، ولم يكن معي ثياب أو مال، وحاولت الوصول إلى والدي، وصعدت السرفيس وقلت للسائق: "عمو أنا ما معي مصاري وأضعت محفظتي، فهل توصلني؟"، فقال لي: "تكرمي أهلاً وسهلاً"، وكان يجلس بجانبي شاب قال له: "عمي حساب البنت واصل"، ودفع الأجرة عني وحاول أن يعطيني خمسين ليرة، لكني شكرته وأخبرته بأني أريد أجرة الطريق فقط.

مررنا أمام عدة حواجز، ورحمة الله هي التي أوصلتني كي أشاهد أبي، لم يكن هناك تدقيق على النساء مثلما حصل لاحقًا، خرجت صباحًا ووصلت عند آذان العشاء تقريبًا، وكان الطريق طويلاً، وكنا نقف على كل حاجز قرابة الساعة، وصلت إلى والدي وطار عقله فرحًا حين فتح الباب وشاهدني، وبدأ يسألني: "لماذا فعلت ما فعلته؟"، وطلب مني أن أبقى عنده، وقد اقتنعت بأن أترك كل شيء وأعيش معه.

كان أبي يعيش مع أخي وزوجته، وقد نبّه أخي قبل أن أصل أن لا يجرحني بأي كلمة، وأن لا يضايقني على الإطلاق، وبالفعل كان أخي حريصًا على أن لا أنزعج كي لا يخسروني مرة ثانية، المشكلة أن أهلي سمعوا كلامًا من الناس البشعين الذين حكوا عني بالسوء أمام إخوتي الشباب، وخصوصًا أولئك الرماديون، الذين ليسوا مع النظام ولا مع المعارضة، والذين يقولون "إي أبصر وينها!" الشباب مهما كانوا متحررين لا يهون عليهم هذا الكلام ويخافون علينا، فأهلي طيبون وبسطاء جدًا، وقد تقبّلوا ما فعلته، باستثناء شابين من إخوتي لم يتقبلاني نهائيًا حتى الآن، وسبب ذلك أني بقيت في القدم، وعملت في الإعلام، وأمتلك كاميرا، وأن الناس كان يقولون عني إني ثورجية، وأحرّض على المظاهرات وأجابه النظام وأخالط الرجال في المشفى الميداني.

بقيت عند أبي حوالي عشرة أيام، وبعدها اتصل بي شخص وقال لي: "ثمة مشفىً ميدانيّ، ومن الضروري أن تأتي لفترة مؤقتة تستغرق مدة عشرة أيام، فهل تستطيعين القدوم إلى القدم؟"، فقلت له: "إني موجودة مع أبي، ولا أستطيع العمل في المشفى لأني ضعفت وتكسّرت ولم أعد أستطيع أن أشاهد المصابين"، وأضاف هناك مكتب إعلامي وبحاجة لفتاة كي تنقل الأخبار وتنشر الفيديوهات وترفعها.

ودعت أبي الذي قال لي: "لك يا بنتي شو بدك بهالشغلة؟ والله يا بنتي بيدبحوك والطاسة ضايعة، خليكي هون، وشو بدك مصاري خدي، بدك تشتغلي اشتغلي ماحدا بيحاكيكِ " فقلت له: "لا أستطيع القضية أصبحت في دمي، سأجعلك ترفع رأسك بي، وغدًا عندما يسقط النظام كلّ من حكى عليّ سيسقطون معه"، حكيت له الكثير، لقد كانت تلك الأيام مختلفة، ثم ذهبت.

القدم مرة أخرى

استغليت وجود طريق لم يغلق بعد ويمكنني المرور فيه مشيًا على الأقدام، وبعد دخولي إلى القدم أغلقت كل الطرقات وبدأ الحصار والقصف بشكل جنوني على المنطقة، وسبب القصف موت الكثير من المدنيين، ولم يعد هناك إنترنت ولا كهرباء ولا طعام، وبدأت الفوضى والقتل والخيانات، وبدأت أخاف على نفسي، حتى إني بدأت أخاف من الناس الذين كانت غرفتي عندهم وصرت أقفل بابها، ولم أعد أخبر أحدًا عن مكان وجودي، وعمّت الفوضى الكبيرة، وبدأ القتال بين الفصائل والخلافات على المال، كنت أسمع أن فلانًا معه مال وقُبِض عليه، كيف قُبِض عليه؟ ولماذا يُقبض على من معه المال!

تبين لاحقًا وجود سرقة للمال، وظهر العديد من الناس كانوا مدسوسين، ورويدًا رويدًا بدأ وجود المدنيين يقلّ، وأنا إنما جئت إلى هذا المكان من أجلهم، أنا كنت ضد السلاح، ولم أتدخل فيه لا من قريب ولا من بعيد، وأصبح لكل شارع مسؤول عنه فلان جاهل، لم يدرس شيئًا، بدأ يتحكّم ويلمّ حوله حوالي عشرة أشخاص، صار هناك عصابات مقرفة جدًا، إحدى تلك العصابات أمسكت بي وحقّقت معي لمدّة يومين، وكانت مؤلفة من حوالي عشرين أو خمسة وعشرين شخصًا، وتحكّموا بحارة، حقّقوا معي لأنهم شكّوا بي، واتهموني فورًا أني "عواينية"، لأني دخلت إلى الفرع وخرجت بعد ثلاثة أيام، واتهموني بأني في مهمة كلفني بها النظام، وكان هذا الأمر كالخنجر في قلبي، لم يكونوا يريدون شخصًا مثلي ينتقد ويتكلم كثيرًا، فجاؤوا من باب الدين وتحدّثوا عن ملابسي ومكياجي، رغم أني لا أضع مكياجًا أو عطرًا، احترمت نفسي واحترمت المكان الذي كنت فيه، فأنا كنت معرّضة في أي لحظة للموت، ولكنهم استخدموا الملابس كحجة لأنني كنت أتكلّم وأنقل المشاكل التي تحدث إلى خارج المنطقة، وكنت أنتقدهم وأقول إننا خرجنا على مبدأ واحد وقلب واحد وقضيتنا واحدة، ولا يجوز ما يحدث، كنت كالشوكة في حلقهم.

في الشهر الحادي عشر من عام 2012، كنت في القدم ولم أجد فيها أي وجه غريب أو من جنسية أخرى غير السوريين، وقد ظهر المتشددون والجهاديون بسبب الفراغ الذي خلفه انسحاب المثقفين وحملة الشهادات الجامعية من المنطقة، وأنا قابلت الكثير منهم وكانت آراؤهم مقبولة للناس، ولكن للأسف لم يستمرّوا، وشهدت بنفسي الكثير من الأطباء كانوا يشاركون في المشافي الميدانية ولكنهم انسحبوا، أي أن الطبقة المثقفة انسحبت ولم يبقَ أحد منهم، ومن بقي في المنطقة هم الأشخاص "المعترون" والبسطاء والذين أصبحوا مطلوبين للنظام، لذلك أُجبروا على حمل السلاح، فإذا خرج أحدهم من المنطقة سيموت وإن بقي سيموت، ومن يتغيب سيأتي أحد غيره يسد الفراغ، وكان هناك أشخاص عقولهم متخلفة ودخلوا من باب الدين لكسب ولاء الناس الموجودين، ولم يكن هناك توجيه من أي مثقف، ولم يتبق أشخاص لهم تأثير غير الإسلاميين المتشددين، وفي ذاك الوقت ذهب المسار إلى التعصب لأنه لم يكن هناك توجيه من المثقفين، والموجودون بسطاء ومن السهل توجيههم، ولم نكن نعرف مصدر السلاح وكيف دخل، ولم يكن لنا أي علاقة بالسلاح، لأنه بدأ في المنطقة بشكل خفيّ وسريّ جدًّا، ولم نعرف أن هناك كتائب ستتشكل، وإنما عرفنا أن هناك جيشًا حرًا قد انشقّ، وأنا شخصيًّا كنت ضد العنف وضد السلاح بالمطلق.

وللأسف ظهرت الشعارات وبدأت التسميات الإسلامية مثل "كتيبة أبو البراء" وكتيبة "أبو حذيفة"، وبدأت اللحى تظهر وقصرت "الغلابيات"، وأصبحنا نسمع الخطاب المتشدد، السنة كذا وكذا، كل هذه التغيرات حصلت خلال أسبوع في نهاية شهر تشرين الثاني في عام 2012، وتم نبذ الجيش الحر الذي تشكل من بعض المنشقين عن الجيش والذين كانوا يأتون من مختلف المناطق إلى المناطق المحررة، وبدأ القتال بين تلك الفصائل المتشددة وكانوا يسرقون بعضهم بعضًا.

وهذه التغيرات كانت بالنسبة لي هي القشة التي قصمت ظهر البعير، وقرّرت قرارًا نهائيًا الخروج والذهاب للعيش مع والدي، فاتصلت به وقلت له: "تعال لأخذي وسأجمع أغراضي فأنا لا أريد البقاء"، وبالفعل بدأت أبحث عن طريق للخروج وأخذت جهازي "اللابتوب" الذي يحوي كلّ شغلي وتعبي وتوثيقي و"الفيديوهات" وأخذت ملابسي أيضًا وبعض أجهزتي مثل خطوط الإنترنت، وخرجت والحمد لله من خلال ثغرة في ساعات معينة كانوا يفتحون خلالها الحاجز ليخرج منها المدنيون فخرجت معهم، ومن حسن حظي لم يتم تفتيشي، وكان أبي بانتظاري، وحسبت أن أموري انتهت.

أراد أبي الذهاب لرؤية أختي التي تسكن في المهاجرين، ولكني رفضت الذهاب معه وقلت له: "اذهب أنتَ وأنا سأنتظرك وسنعود بعدها للبيت، وقرّرت أن أغادر الشام ولا أعود إليها. ذهب أبي وخرجت لشراء بعض الأغراض، صعدت في السرفيس وطال انتظار السائق ليلمّ الركاب، وكان قلبي غير مطمئن، وكنت متردّدة بين البقاء أو النزول من السيارة، لكني بقيت، ووصلنا إلى حاجز، وكنت أوّل شخص يطلب منه العنصر هويته، فعرفت أني مراقبة وأنهم يعرفون كلّ تحركاتي، فقلت له: "هويتي ليست معي، معي جواز سفري"، فأجابني: "كمان، أعطيني إياه"، وقال للسائق: "امشِ"، ولم يفتّش أيّ شخص آخر، ومشينا، وأوقفونا وجميع السيارات مرّة أخرى عند حاجز بوابة الميدان، وطلب من السائق أن يمشي إلى الامام، إلا أن وصلنا إلى نفس النقطة التي اعتقلوني عندها أوّل مرّة، وطلب العنصر أن لا ينزل أحد من السيرفيس وأن يصمت الجميع، أخذوا هويات الكل وفتشوا السيارة بواسطة جهاز، وعلمت أني وقعت في قبضتهم، وخفت على الناس الموجودين معي في السيارة أن يذهبوا بجريرتي، ثم أنزلوا الناس وفتشوهم الواحد تلو الآخر، وطلبوا من الناس المغادرة، وبقيت أنا.

الاعتقال الثاني – فرع 227 مجددًا

أخذوني من الحاجز، وعدت من جديد للعذاب، وبدؤا يقولون لي: "ألم تتوبي، عدتِ مرة ثانية"، فأجبتهم أنا لم أدخل، وبدأت أبرّر لهم، وهنا جاء الضابط وكان يمسك اللاسلكي وسألني عن اسمي فأجبته، وصفع وجهي بكفه صفعة قوية جدًا "مثل فراق الوالدين"، وقال لي: "بسرعة عدي لي أسماء إخوتك"، وكان بين كل اسم يصفعني صفعة أقوى من التي سبقتها، وعندما انتهيت خلع حجابي ورماه على الأرض، وشحطني

وجرني من شعري بقوة، من الحاجز إلى داخل مدرسة بجانب مغسل للسيارات، كانوا قد حوّلوها إلى ثكنة، شحطني على الأرض حوالي سبعة أو ثمانية أمتار، وكان يضربني بقوة بشكل متواصل، وأنا أترجاه لأن يسمعني، وكان يقول لي: "انتِ وحدة شرموطة وتتعاملين مع المسلحين، ولم تتوبي وضحكتِ علينا، ولن تخرجي بحياتك، وبدك تعترفي شو عملتي وكيف أدخلتي السلاح" كانت أسئلته كزخ الرصاص، وأحضر قلمًا وورقة وقال: "هيا اعترفي بكل شيء"، فقلت له: "لن أتكلم ولا كلمة"، فقال لي: "عظيم، حفظتِ حقوقك"، وبدأ يضربي بقوة، وكان بجانبي شاب أمسكوه قبلي، وأكل نصيبه من الضرب، و"مصفّى دمه" ومرمي على الأرض، أعتقد أنه كان ميتًا من التعذيب لأنه لم يتحرّك، واستمرّوا بضربي بشدة لدرجة أني لم أعد أعرف من أين ينزف دمي، من أنفي أم من فمي، وتورم وجهي، ومن شدة وكثرة ضرب الكفوف على وجهي لم أعد أسمع بأذني، وبعدها قلبوا كنزتي ووضعوها على وجهي، وربطوا يديّ إلى الوراء ووضعوني في السيارة مع الشاب الذي كان مرميًّا على الأرض، أقسم بالله العظيم منذ اللحظة التي وضعوني فيها داخل السيارة، حتى وصلنا إلى فرع 227، كنت أُضرب بكلّ الطرق باليدين والرجلين، وعند كل حاجز كنّا نمرّ فيه وكانوا يتفّون عليّ ويقولون لي: "يا خاينة يا كلبة يا شرموطة"، حتى إن من جلس بجانبي كان يضع يده كحاجز من كثرة ما ضربني "الرايح والجاي على الحواجز"، وذلك لأن اسمي كان معممًا على كل الحواجز وأنا لا علم لي بذلك.

وصلنا إلى فرع 227، وعلّق أحدهم حقيبتي في رقبتي وبدأ يجرني كالغنمة... كالحيوان، وقال لي: "هذا هو مستواكِ، إنتِ لازمك حظيرة، أنت بقرة ولا تفهمين، وستشاهدين ما سنفعله بك"، وكان يضربني، وكلما مررت من أمام أي أحد كانوا يضربونني، وكان اعتقالي في يوم الأربعاء الخامس من كانون الأول عام 2012.

منذ وصولي سألني من يأخذ الأمانات إذا كان معي شهادات، فقلت: "كنت أدرس في معهد سكرتارية"، فقال لي أحدهم: "ها يعني دارسة، هذا هو العلم، هذا ما تعلمته"، ثم أدخلوني إلى غرفة التفتيش ففتشتني صبية من الصبايا التي كانت معي سابقًا وبدأت تبكي وتقول لي: "ماذا فعلتِ بنفسك لماذا عدت إلى هنا مرة أخرى؟"، فنعرها العنصر وقال لها فتشيها واخرسي، ففتشتني وقالت له: "ليس معها شيء"، لكنها نبهتني بأن لا أتحدث بأي شيء وقالت: "انتبهي البنات مو متلنا". وبعدها أخذوني إلى نفس المنفردة التي كنت فيها أثناء اعتقالي الأول، وكنت خائفة أن يداهموا منزل أختي ويجدوا جهازي "اللابتوب" ويضروا جميع أفراد عائلتي، فقد كان فيه توثيقات وصور القصف والشهداء وصور المشفى الميداني وصور الأماكن التي كنت أتنقّل فيها، وكان فيه الكثير من المعلومات، وفيه أيضًا توثيق لمشاهداتي أثناء اعتقالي وبعده، من أسماء المعتقلات والمعتقلين والتعذيب، وصورت أماكن الضرب في جسمي بعد أن خرجت من المعتقل وكتبت عن أنواع الأدوية التي أخذتها جراء الأمراض التي أصابتني في السجن، ولاحقًا بعد ثمانية أشهر عندما التقيت بأختي في سجن عدرا، كان أوّل سؤال سألتها أياه: "أين اللابتوب؟"، فقالت لي: "قمت بكسره، عندما لم تعودي للمنزل عرفنا أنهم اعتقلوك"، لقد بكيت من قلب محروق وحزنت كثيرًا لأن تعبي

وشغلي كله ذهب وكسرته أختي، أنا لا ألومها وأعلم أنها كسرته بسبب الخوف، وكي يتجنبوا ملاحقة الأمن لا سمح الله، لقد كان لدي صفحة على الإنترنت وكنت أنشر فيها، والتوثيقات كنت أرسلها للتنسيقيات، وفي معظم الأحيان كان الإنترنت عندي ضعيفًا ولا أستطيع تحميل المواد على اليوتيوب، فكنت أرسل المواد للمكتب الإعلامي في المنطقة الجنوبية أو لأشخاص بأسماء مستعارة، ولم نكن نعرف بعضنا البعض إلا عبر الإنترنت، وأعتقد أني أخطأت لأنني لم أرفع على الإنترنت موادّ باسمي، فقد اكتشفت لاحقًا خلال اعتقالي أن بعض الناشطين كانوا يأخذون مالاً مقابل مقاطع الفيديو التي يرفعونها، وكل صورة صوّرتها كانت كطلوع الروح، صعوبة ومخاطرة بسبب القصف، وكنت أدخل وراء المداهمات التي كان يقوم بها النظام لأصوّرهم، وكنت أنا وصديقتي نوثق الجثث المرمية على الأرض، حتى أني صورت القطط التي ماتت جراء القصف، وكنت أقول حتى الحيوانات لم تسلم من النظام، وفي إحدى المرات قتلوا بالرصاص أبقاراً فصورتها، لقد وثقت كل شيء كل شيء، وكانت الكاميرا سلاحي، لكني اكتشفت من البنات في السجن أن المقاطع كانت تباع، فالكل تم اعتقاله ولم يبق أحد لم يُسجن، وأصبح في السجن مجتمع كامل فيه من كل الطبقات وفيه المثقف والأميّ والجاهل، وكنّا مجبرين أن نعيش مع من نحبّ ومع من لا نحب، مع العواينية والطيبين والجيدين ومع صغار السن وكبار السن، كانت حياةً ومجتمعًا كاملاً.

بدأ العذاب الحقيقي في اليوم الثالث، أخذوني إلى التحقيق وبدأت إهانات لا يمكن لأي شخص أن يتحمّلها، كانوا يقولون لي: "أنت عم تنتاكي مع المسلحين"، ومنذ دخولي سببت لي "الطميشة" رمدًا وألمًا في عيوني فلم أعد أرى شيئًا، ومرضت ولم يجلبوا لي دواء، وخلال التحقيق تواجد عدد من المحققين، أربع أو خمس محققين، وطلب مني أحدهم أن أجلس على الارض، وكلما تفوّهت بكلمة كانوا يضربونني بقوة، كانوا "يطقون" يدي ورجلي بسحب يدي أو رجلي ومحاولة كسرها، كنت أبكي طوال الوقت وأرجوهم وأقول لهم: "والله لم أفعل شيئًا"، ذات مرة حين حلفت بالله إني لم أفعل شيئًا، رفع أحدهم "الطميشة" عن عيوني وأدارني باتجاه الباب وقال لي: "اذهبي اربطي الله خارجًا وعودي، هنا لا يوجد الله"، خفت كثيرًا بعد هذا الكلام ناهيك عن الضرب والكم الكبير من الإهانات، كانوا همجيين في الكلام وقساة، وكانوا يصرخون عليّ، وبدأ أحدهم بإخراج أوراق وكانوا يعلمون بكامل تنقلاتي، وقال لي: "هيا أخبرينا كيف أدخلت السلاح من التضامن إلى منطقة الحجر الأسود"، فقلت له: "أي سلاح!" انصدمت حينها وقلت: "كيف سأهرّب سلاحًا إلى منطقة محررة؟"، غلطت وقلت كلمة "محرّرة"، وبدأ بضربي لأني قلت تلك الكلمة، وأضفت: "من أنا لأهرب سلاحًا؟ ومن قد يعطي معلومات لمثلي عن السلاح"، فقال: "أنتِ مهمة عندهم، ولو لم تكوني مهمة لما استطعت الدخول والخروج، ونحن نعرف عنك كل شيء"، فأجبته: "لم تكن حياتنا مهمة بل رخيصة"، ولاحقًا بعد خروجي من المعتقل عرفت مصدر معلوماتهم حين كان لدي مراجعة لفرع فلسطين، فقد ذكر لي أحد المحققين أن شبابًا أثناء التحقيق معهم اعترفوا عليّ بأني كنت أجلب السلاح عن طريق عنصر يسهل لي دخول الذخائر والأسلحة، بالإضافة إلى وجود تقارير باسمي، وأيضًا كان لديهم معلومات بأني كنت أصوّر الأحداث، وأن عصابة في القدم اعتقلتني لمدة يومين وحقّقوا معي، وقد أظهر لي المحقق

بعض تلك التقارير. واستمر التحقيق الأول لمدة ثلاث ساعات ولم أغيّر أقوالي، لكني كنت شبه منهارة من التعب، ثم أعادوني إلى الزنزانة.

وفي اليوم التالي طلبوني إلى التحقيق الثاني، وكانت الأسئلة نفسها، ولكن عدد المحققين انخفض إلى اثنين، وبدأت أسئلتهم تزداد، و كانوا يريدون أسماء شباب وأنا لا أستطيع إعطاءهم أي اسم طبعًا، رغم أن الشباب في مناطق معينة ولن يستطيعوا اعتقالهم، لكنها ستكون إدانة لي إن أعطيتهم أي اسم، وكنت أعطيهم أسماء وهمية، لكن المحقق لم يقتنع وكان يقول: "أريد الأسماء مع الكنية، وأريد أسماء من يرسل ويتسلّم المال والأدوية".

وكنت أحاول إبعاد تهمة السلاح عني، وأقسمت له وقلت: "إذا قمت بتقطيعي، وأنا مستعدة أن أموت، أنا لا علاقة لي بالسلاح، أنا أخاف من الصرصور، فكيف سأحمل وأهرب سلاحًا!" كنت كل تحقيق أعيد هذه الجملة.

وبعد يومين صار التحقيق الثالث، وكانت عيوني متورمة ومصابة بالرمد، فرفضت وضع "الطميشة" لأنها سببت لي الالتهاب، لأنها وسخة وتوضع للكثيرين وتنتقل بواسطتها الأمراض، وكان المحقق بارد الاعصاب وبدأ بأسئلة مستفزة، وكان يريد أن يعرف مصدر المال الذي كان يدخل، طبعاً أنكرت، ووضع المحقق "الطميشة" على عيوني رغم وجعي، وبدأ العذاب، وضعوني على الأرض وعلى ركبتي، ويداي للوراء وكان ممنوعًا أن أتكئ أو أحرك يديّ، وجلب الكهرباء لكهربتي، وأنا لم أكن أعرف ماذا يعني التعذيب بالكهرباء، وأول ضربة كهرباء كانت في رجلي، ولم أكن ألبس الحذاء، فانتفض جسمي وصرخت، كانت التعذيب بالكهرباء مؤلمًا جدًا، كنت أصرخ بكل قوتي من الألم وبدون وعي، وبقيت أصرخ سواءً أحسست بالألم أم لم أحسّ به ، كنت أصرخ بشدة، وكان يضربني ويقول إخرسي، كنت أريد أن أزعجهم بصراخي، وكلما أراد ضربي بالكهرباء كنت أصرخ وأحاول منعه، وكان يقول: "بدك تعترفي"، إلى أن طلب من العنصر إعادتي إلى المنفردة.

أعادوني إلى المنفردة وأنا أصرخ وأبكي، وعرفت البنات أنهم عذّبوني بالكهرباء وقالوا لي إنهنّ سمعن صراخي، وأنا أقول للمحقق: "مشان الله لا تكهربني، مشان الله أنا ما دخلني"، بقيت طوال الليل أشعر بالألم في كل جسمي وحاولت البنات الاهتمام بي.

كان التحقيق معي يبدأ من الساعة التاسعة أو العاشرة صباحًا، وينتهي بين الساعة الثانية عشرة أو الثانية ليلاً، ولا يمكن لشخص أن يتخيّل برودة أعصابهم وكأنهم صخور جالسة، لم يكن المحقق يتعب أو يمل أو يتعاطف، ولا يقتنع بشيء ولا يردّ ولا يسمع، كلّ محقق كان يريد هو أن يتكلم ويسمع فقط ما يريد أن يسمعه، وكل ما كنت أقوله كان جوابه الوحيد: "أنا لا أسمع أريد أسماءً، أسماء المسلحين، أسماء لا ألقاب"، وبعدها جلب لي صورة، كانت صورة للفتاة التي تدرس الحقوق وكانت معي بالداخل، وكانت قد أجرت مقابلة مع صحفية أمريكية في عام 2012، وقال لي: "اعترفي عنها" وأحضر نسخة مترجمة من المقال وقال لي أن اسمها هنادي ومكتوب جنوب دمشق، وسألني: "أنتِ التي أجريت اللقاء ووضعوا صورة لفتاة

أخرى للتضليل؟"، فقلت له: "إني لم أجرِ المقابلة، ولا أعلم من هي صاحبة الصورة"، فقال لي: "صرتوا عم تحكوا مع الأميركان!" وهنا أحضر جميع أسماء أخواتي البنات مع أسماء أولادهنّ، وقال لي: "سأحضر جميع إخوتك البنات، وسأضعكنّ بغرفة واحدة، وخليكِ معندة ولا تعترفي"، هنا ضعفت كثيرًا وبدأت أرجوه وأقول: "خلص اللي بدك ياه، أنا مستعدة أن أفعل لكَ أي شي، ومستعدة أن أبوس صباتك ورجلك، بس أخواتي لا تقرب عليهن، وهنن ما لهم علاقة بأي شي"، فقال لي: "تمام إذن هيا أخبريني وبالتفصيل"، وبدأت أخبره الأجزاء التي تخصني وتورطني أنا كي لا يتضرّر أحد، وبذلت كل جهدي أن لا أتحدث عن أحد ولم أذكر تواريخ أو أسماء، وكان يسألني عن الأكل والمشفى الميداني، وأعطيته ما يؤذيني أنا فقط، وسألني عن الفتاة: "أين هي؟ وأين أهلها؟"، بعد أن تراجع عن اتهامي بأني أنا التي أجريت المقابلة، فقلت له: "لا أعلم عنها شيئًا"، فأجابني بأن لديهم دليلاً على أنها صديقتي، لكني كررت أقوالي، وقال لي: "اذهبي"، وخرجت.

وكان مكتوبًا في الصحيفة الاسم الكامل للفتاة، وأنها تدرس الحقوق وفي السنة الدراسية الأولى، بالإضافة إلى صورتها، وكانت الفتاة موجودة في التضامن، والتقيت معها لمدة نصف ساعة فقط. أما عندما سألني عن الأكل في المنطقة وماذا كنا نأكل قلت له: "كان هناك مطبخ كبير يطبخون فيه الفراريج والكبسة، ويوزعون الطعام على الناس كي يحبوهم"، لا أعلم ما خطر في بالي حينها لأجيبه هذا الجواب، ففي الحقيقة لم يكن هناك أي شيء مما قلته، ربما لأثنيه عن توجيه أسئلة أخرى، وفي الواقع كان هناك جوع حقيقي والخبز انقطع وقلّ وجود المواد الغذائية مثل الخضار والحمص والأرز، والنظام بدأ بحصار المنطقة. ولاحقًا في أحد التحقيقات، كان في يده جواز سفري، وقال لي: "إذا كان جوازك مزوّرًا فلن تشاهدي الشمس في حياتك"، وطبعًا لم يكن جواز سفري مزوّرًا، ثم جلب حوالي أربع وعشرين صورة عن هوية فتيات يدرسن في كلية الحقوق، في السنة الدراسية الأولى، وقال لي: "إن لم تعترفي من هي هنادي التي أجرت المقابلة في الصحيفة، فسأجلب الكل وسأضعهن في المنفردة"، وهنا لم أعد أعرف ماذا أقول له، فإذا حكيت عن الفتاة سيضرّونها ويحضرونها، وإذا لم أتكلّم فسيجلبون جميع الفتيات وهن لا ذنب لهن وسأحمل مسؤولية ذلك، و"بلعت الموس على الحدين"، فقررت أن أخبره وكنت مضطرة، وقلت بيني وبين نفسي: "إن هنادي علِمت باعتقالي، وستتخذ الاحتياط اللازم، وستحمي نفسها وخاصةً أنها في مناطق آمنة من النظام، كما أنها، في الأساس، اسمها موجود في الصحيفة، وكنت مجبرة على هذا الخيار"، وقلت له: "هذه هي هنادي"، فسألني: "أهلها لهم علاقة؟"، فأجبت: "لا أبدًا، هي هربت من بيت أهلها، وهم متعصّبون ويريدون قتلها"، وسألني عن اسم والدها ومكان سكنه، فقلت: "لا أعرف أهلها ولا مكان إقامتهم، وأهلها مرضى كلّهم وإخوتها لديهم أمراض عقلية"، قلت ذلك كي أُبعِد الشبهة عنهم، فكتب المعلومات، وأصبحت هنادي مطلوبة.

كانت التحقيقات معي كثيرة، وفي كلّ يوم كان يسألني أسئلة جديدة ويوجّه لي تهمًا جديدة، ويكرر القديم منها مثل، "ماذا كنتِ تفعلين، ومع من تتعاملين؟"، أما الجديد منها، فعلى سبيل المثال اتهمني في إحدى المرات بأني كنت أجلب بنات وأعطيهن دروسًا دينية في الجامع، ثم انتقلنا لعمل حلقات دينية في البيوت، فقلت له: "أنا صلاتي لست ملتزمة بها حتى أذهب للجامع، يا ريت أتمنى ذلك". ثم انتقل إلى الأسئلة عن

المال، وكان يريد أن يعرف مصدر المال، فأجبته: "إن هذا الموضوع أكبر مني بكثير، ولا أحد يتحدث بالأمر"، وفي حقيقة الأمر كان موضوع المال والسلاح له ناسه وهما أمران لا أحد يتداولهما، وأنا لم أكن أعلم أي شيء عن الموضوعين وليس لي علاقة بهما، وسألني عن مصدر الدواء، فأجبت بأنه من الصيدليات التي تركها أصحابها وغادروا المنطقة، والأدوية كانت بغرض الإسعاف فقط.

وفي آخر يوم في التحقيق رفعت "الطميشة" وقرأت اسم المحقق الذي كان مسؤولاً عن التحقيق معي، وهو رقيب واسمه حازم ولا أذكر كنيته، وهو كان مسؤولاً عن التحقيق مع الشباب، وأنا كنت البنت الوحيدة التي حقّق معها، وكان هناك محقق للنساء وآخر للشباب، ولاحقًا استنتجت أن المحقّقين على معرفة بحركات الجسد، فمثلاً عندما يحكّ المعتقل أنفه يعرف المحقق أنه يكذب، وقد قال لي ذلك أحد المحققين في فرع 215.

في إحدى المرات كان المحقّق هادئًا جدًا وقدّم لي سيجارة، وسألني إذا كنت أريد قهوة أو شاي، فقلت له: "إني لا أدخن"، فأجاب: "للأسف، هي وحدة علينا لأننا لم نستطع أن نضغط عليكِ"، وقد عرفت لاحقًا أنها إحدى الطرق لتعذيب المعتقل أو المعتقلة، فإذا كان الشخص مدمنًا على التدخين، يشعلون سيجارة أمامه، ويقولون له: "إذا اعترفت فسنعطيك سيجارة وكاسة شاي"، وقد حصل ذلك مع الكثيرين. ثم بدأ الحديث معي بهدوء وقال لي: "سأسألك سؤالاً، ما الذي استفدته من كل الموضوع، الرئيس باق غصبًا عنكم وأنتم الخاسرون وستموتون"، فسألته: "أنا أريد أن أسألك متى سأخرج من هنا؟ ألم تحقّق معي وعرفت كل شيء؟"، فأجاب: "الأمر لا يرجع لي، الأمر يعود إلى جماعتك، هيئة التفاوض هي المسؤولة ويجب أن تطالب بكم، ويجب أن يحكوا باسمك، هل عندك شك بأنهم لن يطالبوا بكِ؟"، فقلت له: "أنا لا أعرف ماذا تعني هيئة التفاوض، ولا أعرف إن كانوا سيطالبون بي أم لا، أنا لا دخل لي بالأمور السياسية، أنا إنسانة بسيطة وتهوّرت، ولم أكن مدركة للوضع، وانجرفت بعواطفي"، لقد حاولت أن أقنعه بأني ليس لدي آراء سياسية، ثم سألني: "هل عندكِ أحد خارج البلد؟"، فأجبته: "لا"، فقال: "لماذا لديك جواز سفر؟"، فقلت له: "أريد أن أسافر إلى تركيا، وأخلص من هالبلد والقرف اللي فيها"، وهنا أصبح كالمجنون وضرب بيده على الطاولة، وبدأ مناداتي بالعميلة والخائنة، وقال: "أنتم أصلاً تريدون إدخال تركيا"، لا أعرف لماذا ذكرتُ تركيا، بصراحة كان غباءً مني لأنها تهمة بحدّ ذاتها، حاولت شرح الأمر وقلت له أريد السفر لأرتاح وأنسحب، ثم عاد إلى هدوئه وعاد إلى طرح الأسئلة ذاتها عن الأكل، وكنت أجيبه أجوبة من خيالي، بعيدةً عن الواقع تمامًا. ثم عدت إلى المنفردة.

بدأ عدد النساء في المنفردة يزيد بشكل يومي، كل يوم كانت تدخل معتقلة جديدة، كان عددنا تسع نساء فيها، إحداهن كانت حاملاً، وواحدة كان معها مرض الصرع، وكان معنا امرأة مصابة بداء السكري عمرها ستون سنة، وكان هناك صبية عمرها خمسة عشر عامًا، وثلاث صبايا، واحدة منهنّ من الزبداني، من عائلة معروفة هناك، تدرس الإعلام، اعتقلوها من جامعتها بعد أن كتبت زميلتها تقريرًا فيها، وأصبح المكان ضيقًا جدًا، كنا ننام بالدور، البعض ينام من الصباح حتى العشاء، والأخريات ينمن من العشاء حتى الصباح، وكانت

مساحة المنفردة تعادل مساحة حرام مفرد، وكان الباب أسود اللون سميكًا، والسقف منخفضًا جدًا، بينما سقف السجن عاليًا جدًا، وكانت المنفردات موزعة فيه على شكل متاهة، وكان هناك فتحة صغيرة جدًا شكلها مستطيل، وهناك "لمبة" مضاءة ليلاً نهارًا، ضوؤها أصفر، ولم نكن نشاهد الشمس ولا نعرف الليل من النهار، ومع مرور الأيام أصبحنا نعرف الوقت من توزيع وجبات الطعام، وأوقات التحقيق وخروج المعتقلات إلى المحكمة، وأصبحنا نعرف مواعيد تغيير السجّانين ونميز بعضهم البعض من أصوات وقع أحذيتهم ورائحة عطرهم.

ولم تخلُ الأمور من المشاكل داخل المنفردة، وللأسف، كانت الفتاة ذات الخمسة عشر عامًا تتعاطى حبوب هلوسة وقد أخبرتنا أنها أدخلت معها إلى الفرع ظرفًا من هذه الحبوب، وكان المحقّق يستغلّها وُيخرجها من المنفردة وتعود إلينا وهي سكرانة، وكان يقول لها إنه يحبها وسيُخرجها من المعتقل.

كان الوضع مقرفًا جدًا، فنحن لم يكن لدينا فوط نسائية، وكنا نقص قطعًا من الثوب الجزائي ذي اللون الكحلي، ونستخدمها بدل الفوط، ولم نكن نجرؤ أن نقول إننا نقص الثوب لأننا سنُعاقب، وكنا ننتظر أن يعطونا ثوبًا جديدًا، وفي انتظار الثوب نكون قد غرقنا بالدماء، لأننا كنا نجلس بجانب بعضنا البعض، وكنا نطلب ثوبًا جديدًا كل أسبوعين، بحجة وصول معتقلة جديدة إلى المنفردة، ولكن في الفترة الأخيرة طلبنا من السجّان فوطًا أو حتى قطع قماش على حساب من كان لديها مال في أماناتها، لكنّهم رفضوا، أحيانًا كان السجان يعطف علينا عندما يشاهدنا والدماء تغطينا، والرائحة منتشرة، ويعطينا شاشًا دون معرفة المسؤول عنه، لكن الشاش لا يكفي ولا يفي بالغرض، كان الوضع مقرفًا بل أكثر من مقرف، فمن ضيق المنفردة كنا ننام "تسييف"، كأن كلّ واحدة بحضن الأخرى وملابسنا كلها دماء.

أذكر حادثة أخرى مقرفة جدًا في فرع 215، كان معنا في الفرع فتاة أصابها التهاب أمعاء، وبدأت تصرخ وترجو السجان أن يفتح لها الباب كي تخرج إلى الحمام، وكانت تقول له إنها تعاني من الإسهال، لكنه رفض بسبب وجود معتقلين في المكان، ففعلتها على نفسها وأغرقت نفسها وأغرقتنا بالبراز، وبدأنا نصرخ ونقول: "هل نحن حيوانات!" لقد بكت الفتاة وأحست بالإحراج، وقلنا لها: "ليس ذنبك بل ذنبهم، لا تحزني".

كنت أخجل أن أقول إنني في الدورة الشهرية، ولكن في المعتقل صرنا نصرخ ونضرب الباب ونقول للسجان نريد فوطًا ونريد الخروج إلى الحمام، في إحدى المرات أصابني مغص وتشنج قوي من شدة البرد وسوء الغذاء، والبرد "أكل من جنابنا أكل"، وبدأت أصرخ وأضرب بطني وأضرب الجدران، وأطلب منهم حبة دواء، ولم يردّ عليّ أحد ولم يعطوني حبة دواء.

وأذكر في أحد الأيام و كان يوم جمعة، بعد انتشار خبر وجود وباء في الفرع، ربما يكون السلّ، خاف السجانون من أن يصيبهم الوباء، وحرصًا على سلامتهم، أجبروا المعتقلين على الاستحمام يوم الجمعة، كانوا يُخرجونهم كالغنم مكبّلين، يأخذون كل خمسة أو ستة شباب مع بعضهم البعض ليستحموا، وكانت الحمامات ثلاثة أقسام يوزعون فيها المجموعات، والمراحيض ثلاثة وبينهم مغسلة، وكل حمام مقابله

مرحاض، والماء في الحمام كانت تغلي كالنار، والمراحيض كانت دائمًا "طايفة" بالوسخ والبراز، ومع ذلك كانوا يرغموننا على استخدامها، وكان ممنوعًا أن نستحم بعد استخدام المرحاض خشية أن نتوضأ، وكان السجان يتحكم بنا حسب مزاجه، وإذا كان مزاجه جيدًا فإنه يسمح لنا بغسل وجهنا، كان يقف أمام باب المرحاض دائمًا، وكان لا يسمح لنا بالبقاء أكثر من دقيقة أو دقيقتين، كان يضرب الباب ويقول: "يلا يلا شو صار معك اطلعي"، ويقف خلفنا عندما نغسل أيدينا كي لا نتوضأ، فقد كانت الصلاة ممنوعة منعًا باتًا، وأي واحدة يعرفون أنها كانت تصلي كانوا يعاقبونها، إما يضربونها "فلقة" أو يعاقبها المحقق بطريقة ما، وفيما يخص الصلاة كانت المقولة المشهورة لمدير المهجع الملقب بأبي صاموئيل "بدكم تدعوا علينا، هلق صرتوا تعرفوا الله، إنتو الله تبعكن بدنا ندعس عليه".

وأبو صاموئيل هذا، كان بحالة سكر دائمة وخصوصًا في الليل، وكان ينتقي الصبايا الجميلات جدًا، ويتعامل معهنّ بإنسانية، بالرغم من عدم تمييز أي معتقلة عن أخرى بالطعام أو الشراب أو الفوط، ولكن الاستثناء يكون في المعاملة، على سبيل المثال كان يقول للمعتقلات "يا شرموطة ويا قحبة"، أما من يعاملهن معاملة خاصة فلا يقول لهن تلك الكلمات بل يتغزل بهن ويقول "يسلم لي"، وفي البداية كان يقول لي: "شو كان بدك بهالقصة إنتِ بعدك صبية" وعندما كنا نذهب على الحمام كان يضع عصاه على جسمي فأبتعد، كانت العصا دائمًا في يده، وكان أكثر من يستفزه صديقتي مي، وهي من الشام وتقيم حاليًا في ألمانيا، وهي صيدلانية وعندها مستوصف، لأنها كانت دائمًا تنتقد وتقوم بإضرابات وتشتمهم وتمتنع عن تناول الطعام، وتغلق الباب بقوة وتسألهم بشكل دائم: "لماذا أنا هنا!".

في إحدى المرات بلعت قطعًا حديدية وأخذوها إلى المشفى، وكان يضربها بالعصا دائمًا، ومدة تحقيقها طويلة، وكانت مي مثقّفة وقد عذبوها كثيرًا، وكانت كلّ صباح تجهّز نفسها وتستنفر وتقف أمام باب المنفردة، وفي صباح أحد الأيام كانت بحالة هستيرية، وبدأت تخبط على الباب بشكل هستيري، وتصرخ وتبكي وتقول لهم: "أخرجوني، ماذا تريدون مني؟ أريد أولادي"، وقال لها السجّان أول مرة: "فوتي انضبي ما لك طلعة"، وفي المرة الثانية والثالثة قال لها: "إذا ماسكتِّ رح نزلك لتحت"، ثم شحطها وبدأ يضربها وقام بإنزالها إلى الطابق السفلي، حيث قاموا بتعذيبها حتى فقدت وعيها وأبقوها هناك.

في الفرع كان هناك تحرش وانتهاكات لحرمة الجسد، أما حالات الاغتصاب فأغلبها يتم في الحواجز والمقرات، مثل مقرات الشبيحة، خلال مدة اعتقالي لم أشاهد أو أسمع بحالة اغتصاب في الفرع، وكان ممنوعًا أن تُعرف أسماؤنا وممنوع على أي عنصر أن يتبادل الأحاديث أو يجريَ أي احتكاك مع معتقلة، وإن تم ذلك فيعاقب العنصر أو المعتقلة ويشرف على ذلك أبو صاموئيل، وممنوع أيضًا الاحتكاك بين المعتقلين والمعتقلات.

وكانوا يخافون من الإضراب، في إحدى المرات أضربت خمسة أيام عن الطعام والشراب، وعندما غبت عن الوعى بدأت البنات بالصراخ،

وقلن للسجان إني مريضة ولم آكل منذ خمسة أيام، ولم يقلن له إني كنت مضربة عن الطعام، كي لا يعاقبوني، فأحضر لي السجان قطعًا من الحلوى والثوم، ووضعت البنات القطع في فمي ثم سقوني ماءً ولبناً مملحاً وثومًا، وكان سبب إضرابي هو تعذيبي خلال التحقيق وسوء الطعام، الذي لم أستطع تناوله لأنه كان مقرفًا، وهو عبارة عن أرز وسخ منقوع بارد وغير مطبوخ، ورائحة المرقة مقرفة وزنخة وباردة، والخضار تطبخ بأوساخها، فمثلاً توضع الزهرة كما هي بأوراقها ووسخها وكذلك الجزر، ولا يستخدمون الزيت أو السمنة في الطبخ وكانت فقط عبارة عن خضار مسلوقة، والخبز قاسٍ وقديم ومليء بالعفن، والبطاطا قاسية وخضراء اللون، والطعام خال من الملح، ويرفضون إعطاءنا القليل من الملح، وكانت تنخفض نسبة السكر في أجسامنا ونحتاج إلى شيء حلو المذاق.

النساء ورقة رابحة

كانوا يخشون الإضرابات لأن النساء في السجون ورقة رابحة يستخدمها النظام للتفاوض، كان بإمكانهم قتلنا كما قتلوا الشباب بلمح البصر، ولكن على الرغم من تعذيبنا وعدم إعطائنا الأدوية عندما نمرض كانوا يخافون على حياتنا، فإذا كان لأي معتقلة أخ مقاتل تصبح هي ورقة ضغط على أخيها، وإذا جرى تفاوض أو مبادلات تصبح هي ورقة ضغط عندما تتم المطالبة بالإفراج عن النساء، وأنا عندما كنت في سجن عدرا تم تداول اسمي عدة مرات في المبادلات، وهو الأمر الذي أخّر خروجي، والنظام عندما يعلم بأن هناك شخصًا يُطالبون به، يتأخّر إخراجه ليستفيدوا منه كورقة قدر المستطاع، كما يحصل الآن حاليًا مع إحداهنّ.

في "مبادلة الراهبات" كان ترتيب اسمي في التبادل هو الثاني بين الأسماء، وظهر اسمي في الإعلام، لكنهم لم يفرجوا عني لأن موضوع المصالحة في منطقة القدم بدأ يتحرك، وكانوا يريدون استخدامي فيها لأنهم سيستفيدون أكثر، فلماذا يدعونني أخرج في مبادلة؟ فأنا كنت هناك واشتغلت على الأرض، وجميع الناس يعرفون ذلك.

تسريبات من داخل الفرع

عندما غاب أبو صاموئيل لفترة، فتح لنا باب المنفردة سجّان يدعى أبا جعفر، تجرأت وسألته: "لماذا لم يعد المحقّق يطلبني؟ أريد أن أعرف متى سأخرج من هنا؟"، فسألني: "ما اسم محققك؟"، فقلت له: "يقولون له أبو علي"، وبعد ساعة طلبوني للتحقيق، ولم يضعوا لي "الطميشة"، وكان هناك ثلاثة عناصر يجلسون وراء المكتب، واثنان يجلسان بجانب بعضهما البعض، وآخر جالس وإحدى قدميه على طاولة والأخرى على الأرض، واثنان واقفان أمام الباب وآخر جالس على كرسي، وبكل حدة قال لي نفس المحقق الذي كان يحقق معي بعد أن مزق عدة أوراق: "هذه إضبارتك، وأنا مزقتها ومزقت اعترافاتك، وسأبدأ التحقيق معكِ من جديد"، فبدأت أرجوه وأقول له: "أنا لم أفعل أي شيء"، فقال لي: "أريد أن أعرف مع أي عنصر من العناصر

الموجودين هنا تتعاملين؟"، فقلت له: "أقسم بالله العظيم إني لا أتكلم مع أي عنصر، وأصلاً ممنوع علينا الحديث مع العناصر، وحتى عندما نتحدث مع بعضنا البعض نحن البنات في المنفردة، يدقّ أبو صومائيل الباب علينا ويطلب منا السكوت، فكيف سأسأل عن اسمك!" فأجاب: "لا، هناك تسريبات تخرج من داخل السجن وأريد أن تعترفي"، وقد علمت لاحقًا أن هناك تسريبات منشورة على الإنترنت بأسمائنا وبأننا موجودات في هذا الفرع مع تاريخ اعتقالنا، بالإضافة إلى اسم من يتم تعذيبها، وذلك عن طريق أحد العناصر، ونحن وغيرنا من المعتقلين والمعتقلات، لم يكن أحد يعلم بوجودنا في هذا الفرع، وقد شكّوا بي لأنني عرفت اسم المحقّق، ثم سألني: "كيف عرفت اسمي؟"، فقلت له: "في إحدى المرات وخلال التحقيق معي، دخل شخص وقال لك:"شو أبو علي ما خلصت؟ وعندما سألني السجّان عن اسم من يحقّق معي أجبته يقولون له أبو علي".

السجان كان حقيرًا، فهو يعرف اسم من يحقّق معي، ولكنه أراد اختباري إن كنت أعرف الاسم، رغم أنهم لا يستخدمون أسماءهم الحقيقية إنما يستخدمون ألقابًا، ولا يريدون أن يسمعوا إلا كلمة سيدي، وأنا لم أقل لأي منهم سيدي، وكنت أقول له "حضرتك" وكان ذلك يغيظه، وعندما أضطر أقول "سيادة المحقق".

وكان المحققون يخافون من معرفة أسمائهم خوفًا من الانتقام، لأن عمليات القتل الممنهجة والقتل المتعمد تحت التعذيب تكون عن طريق المحقّق وتحت يده جلاد، والسجان موظف وأداة، يفتح لنا الباب ويغلقه ويأخذنا إلى التحقيق، أي أن المحقّق هو المسؤول الأول عن القتل، وكان المحقق ينزل للتحقيق ليلاً ومعه عنصران أو ثلاثة عناصر ويجلس على كرسي وأمامه طاولة، وأحيانًا يكون الجلاد من السجناء القدامى ويتم إجباره على القيام بذلك، أو يكون راضيًا بهذا الدور طمعًا في إخراجه من المعتقل، وكنا نميّز بين الجلاد والسجين الجلاد من شكله، فالأخير يكون أصلع وهزيلاً وفي جسمه جروح.

ثم بدأ المحقّق يسألني عن المواضيع التي نتكلم عنها في المنفردة، فقلت له: "لا شيء، هناك التي عمرها ستون سنة، وأخرى حامل، وهناك المريضة بالصرع، وهناك من أخذتموها وتركت ابنها وعمره أربعة أشهر، وأخرى من وجع صدرها لا تنام، من له نفس ورغبة ليتكلم؟" بصراحة أنا كنت في مكان لا يمكنني الوثوق بأحد فيه، ولم أتحدث بأي موضوع يخصني، كنت أشعر بغصة لأني لم أقل إني اشتقت لعائلتي أو لأبي، وكنت أبكي وأنا نائمة، ولم أبكِ أمام أحد حتى لا يُستغل ضعفي، وقد كنت خائفة.

الكابوس القاتل

كانت أصوات المعتقلين في الليل كابوسًا قاتلاً، وكنا جميعًا نتمنى أن لا نسمع شيئًا، كان يتم تعذيب المعتقلين بجانب غرفتنا، ولا يمكن لأحد أن يتخيّل ألمنا وقهرنا عليهم، وأذكر صوت شابّ عمره في العشرينات، كان يصرخ وهم يعذّبونه: "دخيلك يا أمي أنا عم موت أنا موجوع، يا أمي الحقيني"، وقد ذاق الموت من شدة ما عذّبوه، ولاحقًا عرفنا قصة أمه، وأنها موجودة في منفردة في الفرع، وقد اعتقلت معه، وكانت تسمع صوته وهم يعذّبونه، وهي من ريف دير الزور، وقد اعتقلوهما لأنها كانت تحاول تهريبه من

الجيش لتأخذه إلى الضيعة، وألبسته لباس نساء وحاولت تهريبه، لكنهم كشفوا الأمر وأمسكوا بهما، ولاحقًا التقيت معها في فرع 215، وكنا نتبادل المعلومات خلال وجودنا بالحمام وأثناء انتشار الجرب، حيث كنا ننظف المنفردة بالنفط يوم الجمعة، وكنا نتحسس لمدة يومين من رائحته.

وفي إحدى المرات عندما أخرجنا أبو صومائيل إلى الحمام، كان هناك معتقل في الأربعينات من العمر، ينازع من شدة تعذيبه بالكهرباء، ويخر والزبد يخرج من فمه، وكان هزيلاً لدرجة أن عظامه ظاهرة جدًا، وكان مرميًا على الأرض أمام المرحاض، وكان عارياً حتى من ملابسه الداخلية، وطلب منا أب صومائيل أن ندوس على رقبته، الواحدة تلو الأخرى كي يموت، وطبعًا لم نفعل ذلك، وامتنعنا عن الخروج إلى الحمام، لقد تجمّدت في أرضي عندما شاهدت هذا المنظر، وبقيت ستة أشهر أراه في منامي يوميًّا، وكلما أغمضت عيني أتخيل منظره، وأتذكره كلما ذهبت إلى الحمام، وقد أخبرنا أبو صومائيل قصّته وقال إنه كان يسرق الغاز!

وفي مرة أخرى، كان هناك شاب عسكري ولا أعلم بالضبط هل انشق أو أراد الانشقاق، حكى خلال وجوده بالمنفردة أنه سينتقم من النظام عندما يخرج، فوشى به أحد الموجودين معه في الغرفة وأخبر السجّان، فأخرجوه من المهجع ووضعوه على الأرض وبدأ ثلاثة عناصر بضربه بقوة بالهراوات، والهراوة هي من البلاستيك القاسي كالعظم، وأثناء ذلك كنا نحن في الحمام وطلبوا منا مباشرة الخروج والعودة إلى المنفردة، وأثناء خروجنا شاهدنا الشاب مرميًّا على الأرض، وكان يلبس بنطال جينز وجاكيت "نفخ" أزرق اللون، وما إن دخلنا إلى المنفردة بدأنا نسمع الأصوات، وكان أحدهم يقول للشاب: "بدك تنتقم، رح نخليك تشوف كيف الانتقام!" ولم تبقَ ذرة في جسم هذا الشاب إلا وضربوه عليها بواسطة الهراوات، وكنا نسمع صوت تكسير عظامه، وأعتقد أن أول ضربة وأقواها كانت على رأسه، ولم يصدر عن الشاب أي صوت أو صراخ، فقط سمعنا صوت همهماته، وبعد أن أدخلونا إلى المنفردة بقينا نسمع صوت تكسير عظامه لمدة ساعة وبقي الشاب مرميًّا على الأرض، وكنا نعرف اسم أحد العناصر الذين عذّبوه، لأنه كان يفتخر بعمله ويعلن عن اسمه الصريح ومكان سكنه ويقول: "أنا باسل.ع، خرّوها وعملوا اللي بدكم يا، وبيتي في ....."، وعنصر آخر كان اسمه أبو جعفر، وأخرجوا "السخرة" الذين جلبوا سُطول الماء وشطفوا الأرض من الدم، ثم أخرجونا من المنفردة و لم نرَ سوى جاكيت الشاب المليئة بالدماء، وكان واضحًا أن الشابّ قد مات.

في آخر مرة استدعاني المحقّق، طلب مني أن أبصم على ورقة، وقال لي ستخرجين من هنا إلى فرع آخر، ومنه إلى المحكمة، وقد تذهبين إلى سجن النساء، نحن هنا انتهينا من التحقيق معك، قولي للقاضي إنك اعترفت تحت الضرب والتعذيب، لم أصدق ما قاله لي وقلت في نفسي: "ربما يريد إخافتي وتعكير فرحتي بخروجي".

في الصباح، وكعادتنا، كنا ننتظر أن نخرج من الفرع، وجاء العناصر وأخذوا دفعة من النساء، ولم أخرج معهن، لأول مرة بكيت بحرقة وقهر، وأيقنت أني لن أخرج من هنا طوال حياتي، فأنا شاهدت الكثير من النسوة دخلن وخرجن، إلا أنا وسلمى، وحتى بعد أن خرجت من الفرع بقيت سلمى فيه حوالي السنة

والنصف، وأخلي سبيلها ولم تذهب إلى سجن عدرا لأنها شرطية، وأقصيت من عملها وذهبت إلى ضيعتها، سلمى عذّبوها كثيرًا في البداية، ولاحقًا تساهل معها السجّان نسبيًّا، لأنها من السلك العسكري، وكانوا يخشون أن تعلّمنا كيف نتصرّف خلال التحقيق، وهي بالفعل علّمتني بعض الأشياء، وكانت تقول لي: "مهما قاموا بتعذيبك وكهربتك، لا تقولي شيئًا ولا تخافي، لأنك إذا قلت شيئًا سيزداد الأمر صعوبة عليكِ"، وكانت تحكي لنا عن ابن خالها المعارض، الذي أعدموه في سجن صيدنايا قبل الثورة، كان في أميركا فأعطاه النظام الأمان ليعود إلى سوريا، لكنهم اعتقلوه فور عودته وأعدموه بعد أربعين يومًا، وأجبروا والده أن لا يقيم له العزاء، وكانت خائفة أن يقوموا بإعدامها كما فعلوا مع أخيها، وكانت تردد أمامنا: "كلكن رح تطلعوا إلا أنا، ولأني علوية فعقوبتي مضاعفة".

كان فرع 227 فرع تابعًا للأمن العسكري، وأغلب من داخل المنفردات التي حولنا كانوا عساكر معاقبين ومنشقين، وضباط من رتب مقدم ورائد وملازم وضباط صف، ولا تحوي المنفرادات التي يتواجدون فيها أي معتقل مدني، وأذكر أنه كان من بينهم ضابط اسمه واصل من صفصافة، وضابط من عائلة طلاس، وكان للضباط معاملة خاصة، فعلى سبيل المثال لم يكونوا يستحمون مع باقي المعتقلين من المدنيين، بل كانوا يستحمون وحدهم خوفًا من الاحتكاك بهم، وأن يُعرف عنهم ومنهم أي شيء، وخاصة أن لهم تأثيرًا خاصًّا ويملكون معلومات، لكن المدعو "باسل. ع" كان دائمًا يهينهم، وأذكر في إحدى المرات أنه ضرب وأهان ضابطًا معتقلاً برتبة عسكرية عالية وقال له: "إنتِ ورتبتك يا خاين ..."، لكنهم عاقبوه لاحقًا، عرفنا ذلك لأنه غاب حوالي عشرة أيام بعدها، ونحن نعلم أن من يغيب منهم عن الفرع إما أن يكون معاقبًا أو تم نقله إلى مكان آخر، وأعتقد أن على من يحقّق أو يعذّب أيّ ضابط معتقل يجب أن تكون رتبتة العسكرية أعلى منه. ولا أعلم الرتبة العسكرية للمدعو باسل، لأنهم يلبسون لباسًا مدنيًا، وأحيانًا يلبسون بنطالاً عسكريًا، كان عمره حوالي ثمان وثلاثون سنة، نحيل جداً، ومتوسط الطول، وأشيب الشعر وأصلع من الجهة الأمامية، وكان يشرب الكحول ليلاً، وفي النهار يبقى غاضبًا ومستفزًا، إجمالاً هو شخص متقلب المزاج وضعيف أمام النساء، فإذا طلبت منه إحدى النساء أن يفتح لها باب المنفردة يفتحه، وإذا طلبت إحداهنّ دواءً للغسيل أو ملحًا أو خبزًا كان غالبًا ما يحضره لها، وهو المسؤول الأول عن قتل الشباب في فرع ٢٢٧، فقد كان لديه الصلاحية بالقتل، وكان يتباهى بعد أن يقتل أي معتقل ويقول: "أنا باسل. ع من جبلة، وأسكن في 86، ومن يريد مني أي شيء فليأتِ إلي". لقد كانت معهم صلاحية بالقتل دون أي مشكلة.

وكان في الفرع ثلاث طوابق تحت الأرض وشفاطات الهواء تعمل ليلاً نهاراً دون توقف، والكهرباء فيه لا تنقطع أبدًا في حين أن خارج الفرع كانت تُقطع.

أذكر جيدًا في بداية التحقيق معي في الخامس من كانون الأوال عام 2012، أظهر لي المحقق ورقة صغيرة جدًّا مكتوب عليها بقلم ناشف: "تُخلى مسؤولية المحقق عن موت أي موقوف أثناء التحقيق"، وكانت مختومة من قبل رئيس شعبة المخابرات العسكرية باللون الأزرق، وقال لي: "هل رأيت حتى لو متِ هنا، فأنت كالصرصور الذي أدعس عليه".

حفلة التعذيب

وكان لدينا "حفلة" عندما يأتي إلى الفرع دفعة جديدة من المعتقلين فيتفنن "باسل. ع" في تعذيبهم، يبدأ الأمر بحلق شعرهم على الصفر، ويكيلون لهم الإهانات ويضربونهم بعد أن يتم صفهم ووجوههم إلى الحائط، ويزيد الضرب إذا صدر عن المعتقل أي صوت أو نطق بحرف، والضرب يكون إما بكبلات سوداء اللون أو بعصي لها طرفان أحدهما ثخين وملفوف بكاوتشوك ثخين ولونه أسود، وكما ذكرت سابقًا في قص غضروف الساق وتكسير عظام المعتقلين، أما البواري البلاستيكية الخاصة بالتمديدات الصحية والتي يستخدمونها في التعذيب ويطلقون عليها اسم "الأخضر الإبراهيمي" فلم أشاهدها في هذا الفرع بل شاهدتها على الحواجز وفي فرع 215، وهي بواري قطرها 5 سم، وهي أخف أداة يستخدمونه للتعذيب.

وكان هناك مساحة كبيرة مثل الساحة تدعى "الجماعي"، وتعتبر ساحة التعذيب ويتم فيها الشبح، وتوجد فيها بواري ممتدة في السقف، تعلق فيها الجنازير وأدوات لربط الأيدي والأرجل، وفيها كرسي الكهرباء وعصي الكهرباء وبراميل الماء التي يتم إغراق المعتقلين فيها كي يختنقوا ويصل الماء إلى رئتهم، وإن لم يمت المعتقل فهو حتمًا سيمرض، وكنا نشاهد تلك الساحة من خلال استراق النظر أثناء طريقنا إلى التحقيق، ولكنني لاحقًا صرت أتعمد عدم اختلاس النظر إليها، لأن المشهد مخيف جدًّا.

خلال أحد التحقيقات سألني المحقق عن مال الإغاثة، وكان قد وصلتني أكثر من حوالة مالية من قبل أصدقاء لي يقيمون في الكويت، وكانت المبالغ قليلة لا تتجاوز خمسة وثلاثين ألف ل.س، وشركات الحوالات كانت تتعامل مع النظام وتخبرهم بأمر الحوالات، وقد برّرت الأمر للمحقق بأنها لمصروفي الخاص ووصلتني من أقاربي في الكويت، لكنه رد عليّ بأني لا أريد الاعتراف وطلب مني خلع ملابسي، وكنت ألبس جاكيتًا من الصوف وبنطال جينز، وأدخلني السجان إلى الحمامات حيث يوجد برميل أزرق اللون كان هناك، وكان البرميل أطول مني ومليء بالماء البارد جدًا، وكان الطقس يومها مثلجًا، فقد سمعت المحقّق وهو يقول لأحد العناصر إن قطعًا صغيرة من الثلج وصلت إلى ملابسه، وكان ينفض ملابسه منها، ثم رفع "الطميشة" عن عينيّ وبدأ بإدخال رأسي في برميل الماء، لكني قاومت بشكل قوي، ثم حضر المحقّق وطلب من السخرة ملء سطل من الماء البارد وقام بسكبه على رأسي، فبدأت بالصراخ، ثم سكب فوق رأسي سطل من الماء الساخن، ولم يكن الماء في حالة غليان كالذي يقومون بسكبه للشباب، ثم فتح (البلوزة) التي كنت أرتديها وكشف عن صدري وسكب عليه الماء أيضًا، واصلت الصراخ وحاولت الهرب إلى الممرّ، فلحق بي وربط يديّ ووضع "الطميشة" على عينيّ، ثم وضعني في الممرّ تحت شفاط الهواء البارد، وقال لي: "سأترككِ هنا حتى تموتي"، كنت حافية القدمين، وكلما حاولت الجلوس على الأرض كان السجان يصرخ في وجهي، وبقيت أرجف من البرد إلا أن غبت عن الوعي، لم أدرِ كم من الوقت بقيت في مكاني، وعندما استيقظت وجدت نفسي في الغرفة أرجف بردًا ولوني أزرق، وقامت البنات بنزع ملابسي المبللة عني لتنشيفها، وأعطتني كل واحدة منهن قطعة ملابس من عندها ثم قمن بإلباسي، وبقيت أربع ساعات حتى عدت إلى حالتي الطبيعية.

الديك...أبو صومائيل

وضع ملابسنا الداخلية يشبه قصة الفوط الصحية، وكنا نطلب منهم أن يشتروا لنا فوطًا وملابس داخلية، من أموال الأمانات، التي أخذوها من بعض السجينات، لكنهم كانوا يرفضون، كنا طوال فترة الاعتقال نبقى في ملابسنا الداخلية ذاتها، وأثناء الحمام في يوم الجمعة كان يُسمح لنا بغسل ملابسنا ثم نلبسها وهي مبللة، وكنت مع صديقتي نمسك قطعة الثياب من طرفيها ونقوم بعصرها جيدًا لنستطيع ارتداءها، ومن تلبس قطعتين تحت "المانطو" تعير إحداها لبنت أخرى حتى تنشف ملابسها. أما باب الحمام الحديدي السميك فكان ممنوعًا علينا إغلاقه أثناء استحمامنا، وكان أبو صومائيل يرانا بدون ثياب، ومن تحاول منا إغلاقه كان يدخل ويضربها بالعصا، وكان ممنوعًا على أي عنصر الوقوف أمام باب الحمام ونحن نستحم باستثناء أبو صومائيل، وعندما يكون مريضًا أو في إجازة فنحن لا نستحم، "كان عامل علينا ديك"، وكانوا يعطون كل واحدة منا نصف صابونة و ظرفاً صغيراً جدًّا من الشامبو و"ليفة جلي من النايلون"، ومقدارًا ضئيلاً من منظف ملابس سيء، بحجم كأس الشاي الصغير، وكانوا يعطوننا أيضًا نفط لنرشه في المنفردات من أجل القمل والجرب، لم نصب بقمل الرأس، ولكننا أصبنا بقمل الجسم، وكنا نقول لبعضنا البعض: "حتى القمل تآمر علينا"، لأنه كان مزعجًا جدًا.

كان هذا الفرع قاسيًا جدًا، والأيام فيه بشعة وأتمنى من الله لو أني أفقد ذاكرتي وأنسى تلك الأيام، ولا أتذكّر شيئًا مما حصل، بمجرد تذكرها أجد نفسي تلقائيًا أجلس في زاوية، ولا أستطيع البكاء أو فعل أي شيء، وتتوقف عندي الحياة، لقد قاسينا من تلك الأيام كثيرًا. بقيت في هذا الفرع خمسة وستين يومًا وتم التحقيق معي تسع عشرة مرة.

فرع 215

ظننت أني سأخرج إلى بيتي لكنّ المحقّق حوّلني إلى فرع ٢١٥، كإيداع لأن فرع 291 لم يكن فيه مكان للبنات، وسألت الشاب الذي أخذوني معه من أين هو؟ فأجابني بأنه طالب جامعي من منطقة الميدان، وعندما رآه العنصر يتكلم معي انهال عليه ضربًا وشتمني، ثم وضعونا في سيارة عسكرية بيضاء طويلة، وربطوا يديّ و"طمشوا" عينيّ، ووصلنا إلى فرع 291، وضعوني في مهجع للطعام لمدة ثلاث ساعات، وكان المكان كالمنفردة، غرفة وسخة وذات رائحة كريهة، ومليئة بالصراصير الصغيرة، وجاء عنصر وبدأ بشتمي: "يا شرموطة مَتنتاكي مع المسلحين، مَتعملي دعارة"، لم يكونوا قد فبركوا تهمة "جهاد النكاح" في ذاك الوقت، وبعدها أخذوني في السيارة إلى فرع 215، إلى المربع الأمني وكانت عبارة عن باحة مربعة وحولها أبنية، وكلها أشجار كينا و"متورات" بنزين من المصادرات، وبعدها أخذوني إلى غرفة شرشبيل الذي استلمني بدوره، واسم شرشبيل هو أحمد عليا، وهو مسن ومتقاعد وتكريمًا له وضعوه في هذا المكان، أصلع غبي وبيروقراطي كثيرًا، ومتعصب لحزب البعث ولحافظ الأسد وجماعته أكثر من بشار الأسد، وكان يتكلم كثيرًا عن حافظ الأسد ويردد: "لو كنتم أنتم على زمن حافظ لما بقيتن على قيد الحياة، بس المعلم

رايق معكم، ولذلك أنتنّ على قيد الحياة"، و يقصد بالمعلم بشار الأسد، وكانت جميع الصور الموجودة في غرفته لحافظ الأسد وبعضها صور شخصية له، وله أيضًا صورة شخصية مع حافظ، وغرفة شرشبيل كانت مسبقة الصنع ورائحتها رائحة دخان نتنة، وفيها "دفاية" على الأرض.

ثم أخذني بعدها إلى الطابق السادس، حيث غرفة تحقيق موجودة في ممر طويل جدًا فيه العديد من غرف التحقيق، والجوّ كان هادئًا جدًا، ولم أشمّ الروائح التي كنت أشمها في فرع 227، بل كانت روائح خفيفة، كان المكان مخصصًا للتحقيق الإداري بدون ضرب أو تعذيب، وكان يوجد على جانب الغرفة التي يفترض أن أدخل إليها ورقة مكتوب عليها "يمنع إدخال أي نوع من الأسلحة"، فشعرت بالارتياح.

وبعدها أدخلني إلى مكتب كبير ستائره حمراء اللون، ثم أغلق الستائر وقال لي اشلحي، فقلت له: "عفوًا شو بدي إشلح!" فأجاب: "اشلحي كلّ ثيابك يلا بسرعة يلا للتفتيش"، فقلت له: "أنا أتيت من فرع لماذا ستفتشني!" فقال: "تضحكون عليّ، أنا لا أثق بأبي"، وبدأت أحلف له بأني ليس معي شيء، لكنه بقي مصرًّا وقال إنني أكذب عليه وإننا، أي نحن المعتقلات، نقوم بإدخال شفرات وشرائح هاتفية وأجهزة موبايل، وهنا أتى بنفسه ورفع "كنزتي" وبدأ بنفضها، وطبعًا رأى صدري، لم يكن هناك تحرش بل كان غرضه إهانتي، ثم قام بإنزال بنطالي، أنا خجلت كثيرًا وانقهرت وانهارت أعصابي وبدأت أشتمه في سرّي، ثم أدخلني بعدها إلى غرفة جماعية في طابق آخر، كان فيها بنات وكان الجوّ مختلفًا، وكانت وجوه البنات أهدأ، وكان المكان نظيفًا ودافئًا وفيه حرامات سميكة، وكان هناك نافذه صغيرة محاطة بالشبك في أعلى الجدار تدخل منها أشعة الشمس، وكنّ يعرفن الليل من النهار، ولاحقًا كنت أصعد إليها لأرى الدنيا، وكنا لا نرى من خلال النافذة إلا السماء، كان عدد البنات الموجودات أربعًا وعشرين بنتًا، والتقيت هناك بفاتن رجب ودعاء محمد وأخريات من دير الزور والشام وحلب، ولا أذكر في أي يوم تمّ تحويلي إلى هذا الفرع.

انعزلت عن البنات ولم أتكلم مع أي منهن، وكنّ يسخرن منّي، ولم يعجبهن شكلي "تيبي"، وبدأن بنشر إشاعات عني وصاروا يقولون إني ساحرة وأمارس التنجيم وأقوم بأشياء غير جيدة، لأنه في إحدى المرات روت إحداهنّ منامًا شاهَدته، ففسّرته لها، وأخبرتها أنها ستخرج من المعتقل، وبالفعل كان تفسيري صحيحًا وخرجت، وكنت منعزلة عنهنّ والتزمت بالصلاة، وكانت إحداهنّ تعمل في مقصف وتعرّفت عن طريق الصدفة على شاب من الميدان ينتمي للجيش الحرّ، وطلب الأمن منها أن تسهل لهم إمساكه ففعلت، ولا أعرف لماذا اعتقلوها فهي لا علاقة لها بالثورة، وكان معنا أيضًا معلمة محترمة من الشام وتدرّس في ركن الدين، وأخرى كانت طالبة جامعية من جوبر تدرس الشريعة، وكان معنا أيضًا دكتورة أسنان وغيرهنّ.

بقيت في هذا الفرع وفي تلك الغرفة ثمانية وعشرين يومًا، وكان مسموحًا لنا الكثير من الأشياء، مثل الدخول إلى الحمام متى نشاء، وكان في الغرفة منشفة وقرآن، والطعام كان أنظف، هو نفس طعام الفرع السابق ولكنه أكثر استواءً، وكانوا يقدمون لنا كلّ يوم خميس فروجًا، وهو يشبه كل شيء إلا الفروج الذي نعرفه، أذكر ذلك وأضحك، فقد كان "مقرمدًا وصغيرًا" ومسلوقًا بدون أن يتم تنظيفه، وغير مستوٍ ورائحته

سيئة، وكنت أوزع حصتي من اللحم على البنات، لأنني لا أتناوله، كانت حصة كل ثلاث بنات فروجًا واحدًا، ويبدأ فطورنا المؤلف من الشاي واللبن في الساعة السادسة صباحًا.

والشيء الغريب هو اختفاء روائح الجسم حتى لو تأخر موعد الاستحمام، ولا أعرف ما هو سر ذلك! فأنا على سبيل المثال لم أستحم في فرع 215، بسبب عدم وجود حمام، وقد كان هناك "دوش" في الممر، وإذا أرادت إحدانا استخدامه كانت تستعين بمعتقلة أخرى لتغطيها كي تستطيع الاستحمام، لكني لم أشعر أني مضطرة لذلك، وبقيت أكثر من شهر بدون استحمام ولم يكن لي رائحة جسم.

رحاب علاوي

بعد دخولي بأسبوع على فرع 215، أدخلوا صبية كانت رائعة وذات ملامح جميلة وشخصيتها قوية، دخلت إلينا وهي تضحك وتسخر من السجانين، وكانت ترتدي "بيجامة عليها دباديب أو ورود حمراء اللون"، رحمها الله كانت رحاب العلاوي، وهي أكثر واحدة أثرت في حياتي وغيّرتني، كانت إيجابية وحنونة وقوية، ورغم اعتقالها كانت قوية، لم نشعر معها بأننا كنا في السجن، وكانت طالبة هندسة مدنية، وأصبحنا أصدقاء وكانت لا تنام إلا في حضني، وبعد دخولها بفترة مرضت جراء فيروس ككلّ الفتيات، وجميعهن أصبن بإسهال وإقياء وارتفعت حرارتهن، وكنت أنا وصبية أخرى الوحيدتين اللتين لم تمرضا، ربما لأني مرضت عندما كنت في فرع 227، وطلبت فاتن رجب من السجان أن يأخذ مالاً من أماناتها ويجلب لها دواءً، لكنه رفض وجلب "الباندول"، لكنه لم يفعل شيئًا وكن بحاجة إلى مضادات حيوية، وبطريقة ما استطعنا جلب أدوية وإبر، وأعطينا سجانًا آخر ألف ليرة سورية ثمن الدواء، وأخذ هو مقابل كل إبرة عشرة آلاف ليرة سورية، وكانت المبالغ من الأمانات الشخصية لبعض البنات، لأن الوضع الصحيّ أصبح كارثيًّا، أما أنا فلم يكن لدي مال، وأماناتي هي عبارة عن حقيبة يدي وبعض الأغراض الشخصية.

كنت أداري رحاب وأهتم بها لأنني أحببتها منذ أن دخلت وتعلّقت بها، وأثناء مرضها كنت أمسح لها جسمها عندما تتعرق، كنت أداريها لأنها صغيرة في العمر ولا ذنب لها، في البداية لم تخبرنا عن قصتها، ولكنها حكت لي عن أهلها وأمها وأبيها وإخوتها بعد أن سهرنا سويًّا عدة ليالي، وأخبرتني أنها كانت تساعد في الإغاثة.

كانت تطير كالفراشة بيننا، ملهمة بإيجابيّتها، وهي صغيرة السن ولطيفة مع الجميع والكلّ كان يحبها، حتى السجّانون كانوا يحبونها ويحترمونها، وكانت تقول دائمًا: "أنا شاوية". كانت تسكن في منطقة برزة في حي تشرين، وأغلب من في هذا الحي شبيحة، وكان هناك شخص من القرداحة مسؤول عن مكتب عقاري هناك، وكان لديه مستودع يقتل ويعذب من يشاء بوضح النهار، فتواصل معها أفراد من الجيش الحر في برزة، وطلبوا منها المساعدة في استدراجه، ولكن ليس بهدف القتل إنما بهدف التبادل على معتقلين، وأحلف على المصحف عنها بأنّ نيتها وهدفها كانت المبادلة على معتقلين، ثم اتصلت به من هاتفها والتقت معه

في سيارة، ودخلوا عليهما بالسلاح وأخذوه، حتى إنهم ضربوها وطردوها من السيارة ليُظهروا بأن لاعلاقة لها بالموضوع، ثم قتلوه.

وبعد ثلاثة أيام تتبّع أهل الشبيح الذي قُتل الرقم الهاتفي الذي يعود إلى رحاب، وطوّقوا البناية التي تسكن فيها بالمدرعات ودخلوا بالسلاح وكسرو الباب، واعتقلوها وكان في البيت أختها وزوج أختها وأمها وأختها الصغيرة، ولم تكن تعلم رحاب أنّهم اعتقلوا أمها وإخوتها لاحقًا ثمّ أطلقوا سراحهم بعد فترة، وصادروا خلال اقتحامهم أجهزة الكومبيوتر والهواتف وعرفوا القصة كلها ومن ضمنها أن رحاب استدرجت ذاك الشبيح. وكانت عائلته كلها شبيحة وضباطًا في أفرع الأمن، وحتى المحقّق الذي حقّق معها كان أحد أقربائه وقال لها: "والله سأرميكِ مثلما رمي ابن عمي، وسأجعل العالم كله يرى أنك ميتة"، وتمّ التحقيق معها بأقل من عشرة أيام.

وبعد خروجي من المعتقل بأسبوعين أو ثلاثة أخذوا رحاب من الفرع واختفت، وعلمت أيضًا حين تواصل معي أحد إخوة رحاب بأن المجموعة التي قتلت الشبيح أصدرت بيانًا، ولم يبادلوا على معتقلين، بل صوّروا فيديو كيف قاموا بتعذيب الشبيح وقتله ثم بثوا الشريط، ورموا جثته في منطقة البساتين في برزة، وقد حصلت المجموعة على تمويل لأنهم أمسكوا الشبيح وقتلوه، وافتخر العرعور بالبيان الذي أصدروه وأثنى على الشباب، ولاحقًا علمت أن هذه المجموعة ارتكبت أشياء مقرفة كالدعارة والمخدرات وكان لهم علاقة مع النظام.

أذكر بعد أن خرجت من المعتقل أن أخا رحاب كان يبكي كالأطفال وكان يقول لي: "ضيّعوا البنت"، وحتى الآن لم يقتنع أهلها بأنّها ماتت، وقد نصب النظام عليهم عشرين مليون ليرة سورية مقابل الإفراج عنها. وقد اعترفت رحاب بأن الأمر جرى غصبًا عنها، وأخبرها المحقّق أنها ستُحوّل إلى المحكمة الميدانية وهناك سيقرّرون، وكانت هي وفاتن رجب ودعاء محمد الوحيدات بيننا في الغرفة اللواتي كانت محكمتهنّ ميدانية، ولاحقًا تغيرت إضبارة دعاء محمد التي بقيت حوالي ثلاث سنوات في فرع 215.

بعد خروجي من المعتقل بقيت مدة عام كامل أنتظر أن تخرج رحاب من المعتقل، إلى أن أخبرني أحدهم أنّها خرجت، لكني لم أصدق الأمر لأن محكمتها ميدانية ولن تخرج، وإذا خرجت فإما إلى القبر أو ستحول إلى سجن عدرا، وهي لم يتم تحويلها إلى عدرا، ولكن بعد فترة علمت أنهم أخذوها من فرع 215 ليلاً، وطلبوا منها أن تحزم أغراضها لأنها ستخرج إلى البيت، وعادة لا يقولون لأي معتقلة إنها ستخرج إلى البيت، ولكنهم قالوا لها ذلك كي تسمع الموجودات أنها خرجت، وأخذوها إلى فرع 293 وبقيت فيه فترة، ومرضت خلالها جراء التعذيب والضغط النفسي، وقد أشرف على تعذيبها إحدى مندوبات الفرع، وهن نساء من العواينية تطوعن للعمل في الفرع، وكانت رحاب تعرفها قبل أن تعتقل وبينهما صلة قرابة، وبعد مرضها أخذوها إلى المستشفى العسكري، وقد دفع أخوها عشرين مليون ليرة سورية على أساس أنهم سيعطونها إبرة ويتوقف قلبها وتبدو وكأنها ماتت، ويصدرون تقريرًا طبيًّا بذلك، وبعدها يتم تهريبها بالتابوت، ويتسلّمها أخوها في لبنان، وعلى هذا الأساس دفع الأخير هذا المبلغ لشخص من فرع 215.

لكنهم كذبوا على أخيها، ولا أعرف كيف قتلوا رحاب هل ماتت خنقًا، أم بسبب إهمال طبي، أم أعطوها شيئًا ما، لأنها لم تكن تعاني من أي مرض مزمن، وصورتها التي ظهرت على الانترنت ضمن مجموعة صور "سيزر" تبدو فيها وكأنها اكتسبت وزنًا فوق الوزن الذي كانت عليه في الفرع، أظنّ أنّهم أعطوها إبرة هواء أو أعدموها شنقًا.

أحد الممرّضين في المشفى العسكري كان يعرف رحاب، وهو من نفس بلدها المو حسن بدير الزور، شاهدها وكانت مربوطة اليدين والقدمين على السرير، وقالت له: "أخبر أهلي بأني عم موت، عم يعذبوني وبدهم يقتلوني"، وقد رأها الممرض بعد أن ماتت بالفعل، وقد انشقّ لاحقًا وأخبر أهلها بالأمر. وهناك أمر غامض بطريقة قتل رحاب فصورتها وهي ميتة يظهر فيها السيرون على يدها وازرقاق قرب فمها.

ثم أخبروا أخاها بأنها خرجت من المعتقل وهي في لبنان، وذلك قبل ظهور صور "سيزر"، وبالفعل أخذوا هويتها وسجلوا دخولها برًّا إلى لبنان، وتأكّد أخوها من الأمر، ووجد أيضًا أنها لم تخرج من لبنان، ولذلك أصرّ أخوها على أنها ما زالت حية، رغم أني قلت له إن الأمر هو مسرحية رتبها النظام بدءً بالإيحاء لزميلاتها في المعتقل بأنهم أخرجوها إلى منزلها وحتى تسجيل دخولها إلى لبنان، ثم بدؤوا بإخبار أخيها بأن رحاب خائفة من أن تقتلها عائلتها بسبب شائعات طالتها وهم، أي أهلها، من العشائر، مع أني أعلم أن رحاب لا يمكن أن تقول هذا الكلام، وأعلم أيضًا أن أهلها لا يمكن أن يقوموا بأي شيء يؤذيها، وقد سألتني عائلتها بعد خروجي إلى إسطنبول عن صحة الخبر وهل هي خائفة منهم، وذلك قبل ان تنتشر صور "سيزر"، فأكّدت لهم كذب ما يخبرونهم به، وعلى العكس أكّدت لهم أنها كانت تبكي ليلاً شوقًا لهم.

وبعد فترة وصل خبر لأخيها أن عليه مغادرة سوريا لأنه أصبح مطلوبًا للنظام، وخرج بالفعل، والعائلة كلّها مطلوبة وهم خارج سوريا، وحتى الآن ما زالت عائلتها تعيش تحت وطأة الديون والضغوط النفسية، وأحاول الآن أن لا أتواصل معهم لأنني أتعب نفسيًا حين أتواصل معهم، رغم أني أحبّ أن أتحدّث مع والدتها، وقد حكيت قصة رحاب لأنه يجب أن يعلم الناس ما حصل معها.

في بداية 2015، أحضر شخص صور رحاب، ولم أكن أعلم بعد بصور "سيزر" التي نُشرت، وعندما شاهدتها كانت كالسيف الذي شقني إلى نصفين، وقلت له: "لا إله إلا الله، رحاب شو عم تعمل هون!" فسألني: "دقّقي جيدًا بالصور، هل هي رحاب؟ واسألي صديقاتك"، فأجبته: "نعم هي رحاب، بالتأكيد رحاب، والشال الذي تلبسه هو شالي، فأنا أخذت شالها وأعطيتها شالي"، لقد قتلوها.

قبل أن ينشّق "سيزر" وتظهر الصور التي صوّرها، تحدّثت في إحدى المقابلات الصحفية بأنه سيأتي يوم ويخرج أحد ويتكلم عن الفظائع التي ارتكبها النظام، وبعد انشقاقه ونشر الصور تواصل معي عدد من الصحفيين، فقد ظنوا أني أعرف سيزر، وأنا لا أعرفه طبعًا، ولكني كنت متأكدة بأن قهرنا وعذابنا سيكون كاللعنة التي ستلاحق النظام.

فاتن رجب

اعتقلت فاتن في السادس والعشرين من كانون الأول عام 2011، وبقيت في فرع الجوية لأكثر من عام كامل، وكانت في البداية عبارة عن رقم (1) هناك، وكانت ممنوعة من كل شيء، ثم تم تحويلها إلى فرع ٢١٥، وبعدها إلى سجن عدرا ثم أخذوها إلى سجن صيدنايا وأعدموها، رغم أنه لا يوجد شيء مؤكد، والنظام لن يقول إنه أعدمها، لكن الدلائل تشير إلى أن أي فتاة يأخذونها إلى صيدنايا تُعدم، وفي المستقبل ستنشر صور ودلائل توضح كيف تم إعدام البنات.

قصة فاتن قريبة من قصة رحاب، الكتائب سهلت اعتقالها، فقد كانت فاتن من الناس المؤثرين في الثورة، وعملت بالطبية والإغاثة، وهي دكتورة في الجامعة بالفيزياء، وكل ما دار من أنها عالمة ذرة ونووي أو أن لها علاقة بتطوير الأسلحة كله كذب، وأعتقد أنها لو لم تعتقل كانوا سيغتالونها لاحقاً في دوما، لأنها كانت ضد الكتائب التي تشكلت في دوما، والدليل أن اسمها لم يرد في أية عملية تبادل ولم تطالب بها الكتائب في دوما، وهم كانوا سببًا غير مباشر في اعتقالها وسهّلوا اعتقالها، من كان يعلم ماذا يوجد معها في السيارة، وإلى أين كانت ذاهبة، ووقت ذهابها؟ ليعطي تلك المعلومات وتعتقل بكمين ومعها أكياس دم، وأكياس الدم والعمل في المواد الطبية كان عملاً خطيرًا جدًا بالنسبة للنظام، أشخاص محدّدون كان لديهم هذه المعلومات، والطريقة التي أعتقلت بها إما أن تكون عن طريق المراقبة الدقيقة أو عن طريق الوشاية، والاحتمال الأقرب بالنسبة لاعتقال فاتن هي الوشاية.

عندما خرجت أنا من فرع 215، كانت فاتن ما تزال موجودة فيه، والتقيت معها في سجن عدرا وقد عانت كثيرًا فيه من قبل البنات اللواتي كنّ معنا، فقد كنا محبوسات في غرفة مع ثعابين، والمبكي أنهنّ نساء مثلنا.

تفسير المنام

في إحدى المرات وبعد انتشار الشائعات عني بأني ساحرة، طلب مني السجّان أن أخرج من المنفردة، فخرجت، فحكى لي أنه ليس لديه أولاد وبأنه يريد مني أن أعمل له "حجاب"، شعرت أنه يسخر مني، وطلبت منه أن يأتيني بقرن جحش وسنّ ضبع وديك أسود وهكذا، أي مواد تعرف كل الناس أنها تُستخدم في السحر، كنت أسخر منه، لأنني لا أفهم في كل تلك القصص، فقال لي متسائلاً: "عنجد بتعملي لي حجاب؟ أنا من وقت شفتك ما طمنت لك، أنتِ وحده داهية، إنتِ برقبتك دم كتير" فأوضحت له أني لا علاقة لي بالسحر.

كنت أبيت استخارة للبنات، ولا أدري كيف كنت أعلم بأشياء وأرى في منامي أحداثًا ستحدث، وفي إحدى المرات طلبت مني إحدى البنات أن أبيت لها استخارة، ففعلت، ورأيت في منامي بأننا مجتمعات في نفس مكاننا ورأيت بنتًا تلبس حجابًا أبيض وأنا لا أعرفها، دقّت الباب وفتحته، وكانت المنفردة نظيفة وأعطتني خيطًا، وطلبت مني كلّما عقدته أن أقرأ "قل هو الله أحد"، وأنفخ عليه، فسألتها: "لماذا أنفخ؟"، فأجابتني: "لا تسألي، واروي هذا المنام لبنت اسمها حنان"، وبالفعل عندما صحوت رويت لهنّ المنام ومن ضمنهن حنان

وهي فلسطينية، وقلن لي: "فلنجرب"، وبدأن بعقد خيط، وبنفس اليوم، وكان يوم جمعة، فتح السجّان الباب وقال لحنان: "هيا احزمي أغراضك". ومن وقتها، بدأن بإرضائي وملاطفتي.

القرآن

كان يوجد في فرع 215 معتقلين من الثمانينات، وفيه سجناء من لبنان وسوريا من الإخوان المسلمين، ويتواجدون في الطابق العلوي ويعيشون حياةً طبيعية، ولديهم تلفزيون وفرن، وأحيانًا يخبزون ولديهم مواد لم نكن نراها مثل الزيت والبصل والثوم، وكان هناك شخص يلقب بالشيخ من إدلب، قد أوصى السجان بإعطاء القرآن لفاتن رجب لأنها طلبته، فعندما أحضروا فاتن وضعوها في منفردة، وكانت قريبة من المنفردة الموجود فيها الشيخ وقد عرف الأخير معلومات عن فاتن، وكان الشيخ والسجناء القدامى يرفعون الآذان ويصلّون، وكان السجّان يسهر معهم في الليل. لم نكن نسمع في هذا الفرع أصوات التعذيب لأننا كنا في غرف فوق الأرض، أما المعتقلون والتحقيق فهم كانوا في الأسفل.

التحقيق والمساومة على التهم

تمّ التحقيق معي في هذا الفرع ثلاث مرات وكانوا يأخذونني إلى بناء آخر للتحقيق، وقد قال لي المحقّق إنه لم يقتنع بكل التحقيقات السابقة التي تمت معي، وإنه سيعيد التحقيق، لكنه في نهاية الأمر بدأ بمساومتي وسألني: "هل تريدين أن أضع لكِ العمل في تنسيقيات أو سلاح؟"، لم لديهم أي دليل ملموس ضدي مثل موبايل، وأنا لم أعترف، وفي أحد التحقيقات كان في الغرفة أربعة محققين وقال أحدهم: "هذه شرموطة لن تتكلم"، فقال له أحدهم: "لا يجوز أن تتكلم بهذه الطريقة"، فرد عليه: "مو شايفها عم تاكل خرا وما عم تحكي"، فأجابه: "مو شغلك"، ومباشرة هجم عليه وبدآ يتعاركان، ثم حملا الكراسي وتضاربا بها، وعلا صراخهما وضجيجهما، فخفت كثيرًا من انعكاس ما حصل عليّ، وخرجت من الغرفة وحاولت الهرب، فأمسك بي أحد المحققين ووضعني في غرفة أخرى وطلب مني أن أدير وجهي إلى الحائط وأن لا أتحرك. واستنفر المحقّقون وحاولوا وقف عراكهما وتهدئتهما، ثم غطّى أحدهم عيوني بشيء يشبه السُلك وأعادوني إلى الغرفة، وبدأت البنات يسألنني عما حصل وظننّ أني أبكي لأنهم ضربوني، وحضر السجان ليلاً وأخبر البنات بما حصل وقال: "يخرب بيتها هالساحرة شو عملت، لك دبحوا بعضهم! شو قريتي عليهم؟"، فقالت فاتن مازحةً: "قلت لكن بأنها أشتاتًا أشتوت"، لكن الجميع خاف مني ومن ضمنهم البنات، ولم تعد أي منهنّ تحكي معي.

بعد يومين أو ثلاثة رن هاتف قديم أخضر اللون، وعندما يرن فهذا يعني أن هناك تحقيق أو إفراج، وجاء السجّان وأنزلني إلى التحقيق ووضعني في غرفة كانوا يعذبون فيها شبّانًا، وكان هناك شخص له لحية و يلبس ملابس سوداء وبيده مسبحة، وكان يعذب شابًا ضخم الجثة ويلبس لباسه الداخلي فقط، وكله دم وقدماه منتفخة من شدة الضرب وجسمه "مفتح" وعيناه منتفختان وفمه متورم، وكان يضربه بقوة بكبل

أسود اللون، والكبل هو عبارة عن "قشاط غسالة قديمة والضرب به يجلخ الجلد"، وقال لي: "إذا لم تعترفي سأفعل بك كما أفعل به وسأنزع ملابسك عنكِ وسأضربكما معًا"، وبعدها أحضروا شابًا آخر للتحقيق، وبدأ المحقّق يسأله: "كيف مارست الجنس مع عمتك وخالتك؟ وهل طلبت منك خالتك ممارسة الجنس من دبرها أم من فرجها؟"، والشاب كان يحمّر خجلاً ويصمت، انزعجت كثيرًا من الموقف الذي جرى أمامي، وأعتقد أني لو لم أكن موجودة لأجابه الشاب بنعم لينهي عذابه، وبعدها وقف وأنزله بقوة على الأرض وقال له: "بس كون أنا واقف إنتِ بتنزل لعند صباطي، يلا بوس صباطي لطلعك"، يا حرام... بدأ الشاب يقبّلُ حذاءهُ، ثم قال له: "لا لمعه بلسانك"، وهنا تردّد الشاب، فدعس على ظهره بقوة عشرات المرات المتلاحقة، وكان يصدر من الشاب أنين متواصل وبدأ يرجوه ليتركه، لكنه لم يتركه.

ثم جاء عنصر وأخذني، وقال لي: " لماذا أنت هكذا مع أن أهلك عقلاء؟"، فقلت له: "من أين تعرف أهلي؟"، وأنا لم أكن أعلم أنه محقّق، فقال لي: "نحن سألنا عنكِ وعن أهلك، ولو كان أهلك متورطين أيضًا لكانوا يتعذّبون"، وهنا خفت أن يصلّوا لأهلي، ثم أخذني إلى ذات الغرفة التي جرى فيها العراك بين المحققين، وكان يتواجد فيها شخصان غير اللذين تعاركا، وقال لي: "لا تفكري أننا نفعل مشكلة بين بعض البعض من أجل واحدة مثلك، نحن زملاء وتحصل في كل الدنيا مشاكل، وأنتِ مجرد بعوضة لا قيمة لكِ"، وبدأ يسألني ويقول: "هيا اعترفي، أريد أرقام هواتف، إذا لم تعطيني أرقام المسلحين، سأمزق إضبارتك وأعيد التحقيق معك من جديد"، فأعطيته رقم هاتفي القديم والمنتهية صلاحيتة منذ أربع سنوات، وبدأت أعطيه أرقامًا من مخيلتي ومعلومات كلها خاطئة، وقلت له: "إني كنت أحب شخصًا"، وتوقف هنا وقال لي: "هيا أخبريني كيف مارست الجنس والحميمية مع هذا الشخص؟"، فقلت له: "لا لم يحصل بيننا أي شيء"، لكنه قال لي: "كاذبة، هيا أخبريني كيف كنت تحبين أن يمارس الجنس معك؟ من الأمام أم من الخلف؟"، فقلت له: "لا لم أفعل شيئًا"، فقال لي: "كاذبة، هل كنتِ ترضعين عضوه أم هو يطلب منك؟"، فقلت له: "عفوًا لم أفهم هذا الكلام وأنا لا أعرف شيئاً عن هذا الكلام"، وتابع: "هل كان يضع سائله المنوي في فمك"، فأجبته: "ما هذا القرف؟ أنا لا أسمح لكَ بأن تتحدّث معي بهذه الطريقة"، فأجاب: "أنتِ قحبة، ماتنتاكي، وفاتحة بيت دعارة في الحجر الأسود"، قلت له: "أنا فاتحة بيت دعارة! إذهب واسأل عني! أنا لا أسمح لكَ بأن تقول عني هذا الكلام"، وواصلت كلامي حتى أسكته، وفي الحقيقة أنا عندما قلت له بأني أحب شخصًا كان بغرض إضاعته، وحماية أهلي وإبعادهم عن أي شبهات في المستقبل لأنهم وبكل بساطة يستطيعون جلب واعتقال أهالي المعتقلات والمعتقلين، كان سخيفًا وهو يفاوضني على التهم التي يريد اتهامي بها، ويريد أن يفهم لماذا كنتُ في المنطقة، ويريد أيضًا أن يزج في إضبارتي قضية سلاح، وقلت له: "من أنا ليعطوني سلاحًا! وأجابني: "لا، إنتِ فايتة فيهم وإلك كلمة قوية عندهم"، وقاطعته قائلة: "أنا عياري رصاصة عندكم وعندهم، أنا واحدة لا قيمة لي في أي مكان، أنتم وهم لم تبقوا قيمة للبشر ونحن حطب بينكم"، لكنه تابع مساوماته في توجيه التهم لي وقال: "أنتِ كنت تستدرجين عساكر من الحواجز"، فطلعت عليه بالعالي وقلت له: "ما فشر، أنا مو مستواي إني إنزل على الحواجز"، وتابعت كلامي معه بفوقية لأني شعرت بأن

مزاجه "رايق"، فنحن في المعتقل أصبحنا نميّز بين المحقّق "المعصب أو الرايق" الذي يكون قادرًا على سماعنا، وكان واضحًا بالنسبة لي أنه يمكنه سماعي، وتابعت كلامي: "إني تورطت وأحببت هذا الشخص وليس لي علاقة بأي شيء"، ثم قال: "إذن سأضع تهمتك بالاستغلال الجنسي"، فقلت له: "عفوًا أنا لم أسمع بهذه التهمة من قبل!" فأجاب: "سأضع استغلال جنسي للمسلحين"، فقلت: "عفوًا، لم أفهم، أنا استغليت المسلحين أم هم استغلوني!" فأجاب: "أنتِ استغليتِ المسلحين"، ثم وضع التهم التي وجهت لي في فرع 227 وهي: العمل والمشاركة في التنسيقيات، التعامل مع المسلحين، والثابت لديهم كانت الحوالات المالية التي كانت باسمي، وخرجت من فرع ٢١٥ في شهر شباط من عام 2013.

سجن عدرا

أخذت أغراضي على أساس أني سأخرج إلى بيتي، ووضعوني في سيارة مع شباب تم تعذيبهم وأخذونا إلى الشرطة العسكرية، وبعدها تم عرضي على قاض عسكري وسألني نفس الأسئلة، وسرد اعترافاتي، وقلت له: "إنّ ما ورد غير صحيح، إني اعترفت تحت التعذيب"، وقد قلت ذلك بناءً على ما قاله لي المحقق في فرع 227، وحاولت أن أتصل بأهلي بناءً على نصيحة البنات، ولكن لم يكن لدي المال ليسمح لي أحدهم بالاتصال، وبقيت حوالي ثلاث ساعات في الشرطة العسكرية، ثم صعدنا إلى السيارة من جديد، وأخبروني أنهم سيضعونني إيداع في مخفر برزة، وسألني العنصر: هل معكِ شخص آخر في الإضبارة؟"، فقلت له: "لا، ليس معي أحد"، لكنه أصرّ، وبدأ العنصر يشتمني دون غيري من الموجودين، وطوال الوقت كان يسخر مني ويقول لي: "يا تنسيقيّات".

وصلنا بعدها إلى مخفر برزة وجاء العنصر لتفتيشي فقلت له: "لن أسمح لك بتفتيشي لأنني قادمة من فرع وليس معي شيء، ولن أسمح لأحد بأن يضع يده عليّ"، غضب مني، وكرّرت كلامي وأضفت: "ليس معي سلاح أو موس أو شفرة، شوف حالتي أنا مقملة"، فابتعد عني.

وضعوني في زنزانة كبيرة يوجد فيها ثلاث نساء من دير الزور، وكان الوضع مريحًا نوعًا ما، ويوجد "اسفنجة" لكنها وسخة جدًا، ومغسلة وحمام لكن بدون ماء، وهنا جاء العنصر وقال من تريد طعامًا فلتعطني مالاً لأشتري لها"، وأنا هنا طار عقلي لأني لا يوجد معي مال، لكن البنات طلبن طعاماً، وجلب لهن العنصر الفول والفلافل والخبز الطري والشاي ودفعن له، وشعرت أن عمرًا بحاله مرّ عليّ، "أنا آكل الفول والخبز التازة والفلافل؟ ومن أين؟ من برزة! طار عقلي من الفرح، وأحسست وكأن الحياة عادت لي".

في اليوم الثاني أخذوا النساء الثلاثة وبقيت أنا، وقال لي العنصر: "أنتِ ستذهبين إلى محكمة الإرهاب"، "أنا هون قصفوا" ركبي من الرعب والخوف وظننت أنني سأُعدم، ولم أكن أعرف شيئًا اسمه محكمة الإرهاب، وفي اليوم نفسه جلبوا ثلاث بنات من درعا، وفي المساء جلبوا بنات من فرع الجوية وأصبح عددنا اثنتي عشرة بنتًا.

سهرنا الليل ونحن نتحدث عن قصصنا وكيف سنخرج إلى بيوتنا، ورغم ذلك لم أكن مطمئنّة، وفي الصباح أخذت كل دورية ثلاث أو أربع بنات إلى جهات مختلفة، وأنا عدت بنفس السيارة التي أحضرتني، وطوال الطريق كان العنصر يهيننا ويكيل الشتائم لنا، ورأينا الشام وشاهدنا الناس كيف يعيشون حياتهم الطبيعيّة، ونحن اللواتي تعذبنا لا أحد يشعر بنا، وشاهدت طلاب الجامعة وهم يخرجون من الجامعة.

أخذونا إلى القصر العدلي، وانتظرنا هناك طويلاً، المتهمات جنائيًا لم يكن أحد يتحدث معهن بسوء، كنّ يدخن ويتحركن، وقد عرفنا بأنهن متهمات جنائيًا من تهمهن المختلفة، سرقة، تعاطي، وتسهيل دعارة، ولم أكن أعرف ما معنى تسهيل دعارة، لكني لاحقًا فهمت أنها تعني كما نقولها بالعامية "بترونة".

أما نحن فكان ممنوعًا علينا الحركة والكلام والسؤال، وممنوع أن يقترب منا أحد، حتى الشرطيات كن يشتمننا، وبعد الإجراءات الروتينية أخذونا بعد العصر إلى محكمة الإرهاب في المزة، وأخبرونا أنه سيتم ترحيلنا إلى سجن عدرا، ووضعوا الأوراق وعدنا إلى القصر العدلي وبعدها ذهبنا إلى سجن عدرا بعد أن ركبنا بـ"فان" كبير فيه عناصر من الشرطة.

كان عناصر الشرطة والبنات المتهمات جنائيًا يعرفون بعضهم البعض، ووضعوا أغاني سارية السواس وبدأ "الفقش والطقش"، وقبل أن نصل إلى السجن أغلقوا الأغاني، وقال لنا أحد العناصر: "الكل رأسه إلى الأرض"، ولقموا الروسيات، وكان الطريق إلى السجن خطرًا، وقالوا: إن العديد من الأشخاص قتلوا على هذا الطريق، وقتل معتقلون أيضًا.

وصلنا إلى سجن عدرا في منتصف شهر شباط 2013، واستقبلنا حراس السجن ورموا أغراضنا على الأرض وطلبوا منا لمّها مجددًا، وبدأ السجان أبو تيمور، وهو من السويداء، يصرخ في وجهنا، وكانت إحدى البنات تضحك وهي صبية صغيرة من درعا وعمرها سبعة عشر عامًا، فقال لها "وجع انشاء الله يفش حنكك، ضحكة عنزة بباب المسلخ، جاية مبسوطة على خيبتك"، ثم وضعونا بالجناح الخامس – إيداع، دخلت أنا وثلاث بنات من درعا وكان في الغرفة حوالي سبع وعشرين بنتًا، وهنا بدأت المعاناة، كنا متعبات جدًا وجائعات، وفي سجن عدرا مسموح الطعام والشراب ضمن جدول معين، وكان في هذا يوم ندوة في السجن، أي تكتب البنات طلباتهن ويدفعن المال ويتم إحضار ما طلبنه، وبعد شهور شاهدت الخضار والبندورة والخيار والبقدونس والخس والبصل الأخضر، وشممت روائح الطعام، كنت قادمة وأنا مكسورة وجائعة، ورغم وجود الأسرة والحرامات، لم يعطنا أحد "حرامًا" ولم يكن لدينا سرير، فجلسنا على الأرض ونحن نرجف من البرد لأن الطقس كان باردًا، وكانت كل أربع بنات يجلسن حول "دفاية" وتحتهنّ "حرام"، ونحن جالسات على الأرض، مع أننا معتقلات مثل بعضنا البعض، ولم تدعونا أي منهن إلى الطعام و لم يعطونا شيئًا، إلا واحدة تدعى خولة وهي من دير الزور، أعطتنا "حرامًا"، وهو عبارة عن "حرام عسكري" أي قطعة من "حرام"، وجلسنا عليه، ورغم روائح الطعام لم تقدّم لنا أي واحدة منهن لقمة أو كسرة خبز وبقينا جائعات ونمنا على "شقفة هالحرام".

وفي اليوم التالي سألت خولة: "نحن ما بيطلعلنا حرامات! نريد حرامات، أنا أريد أن أستحم وأحتاج إلى

شامبو"، فسألتني: "هل معك مال؟"، فأجبتها: "لا ليس معي مال"، فقالت الفتيات: "من لا تملك المال هنا ما بتسوى شي".

وجلبت لنا خولة وصبية أخرى القليل من الشامبو، وأعتقد أنهنّ ليس لديهنّ أحد واعتدن على البنات والجو السائد، واغتسلنا بالماء الساخن، بالطبع لا يوجد ماء ساخن، لكن يتم تسخين الماء بواسطة شريط كهرباء "بيعملوا سالب وموجب، وبيحطوا بسطل وبيسخنوا، ثم يجلبونه"، وقد سخنّ لنا الماء وجلبنه لنا، وقد استحميت بعد أكثر من أربعين يومًا بقيت أثنائها دون حمام، وطلبن منا بعد الحمام رمي ملابسنا، فأخبرتهن بأنه ليس لدي ملابس أخرى، ولم تقبل أي واحدة من الموجودات أن تعطينا ملابس، وكنا نضع حذاءنا تحت رأسنا بدل "المخدة".

وفي اليوم التالي تغيّر الوضع قليلاً، وبدأنا ننام على ثلاث "حرامات"، ولم يكن لدينا "مخدة"، وبعدها بدأ تكسير "النفوس"، ولم يكن لدينا سجّان بل السجينة هي السجانة، وكل مجموعة كانت تتكتّل مع بعضها مناطقيًّا، فعلى سبيل المثال جماعة الشام كن عبارة عن ثلاث أو أربع بنات، وكذلك جماعة حمص، وكل جديدة تأتي إلى السجن تكون منبوذة سواءً كانت مصابة بالقمل أو ليس لديها مال، وبدأت تدريجيًا أتعود على الوضع، ولم أكن أتعاطى مع أحد، وبعد يومين أو ثلاثة أيام بدأت أطالب ب "فرشة"، فجلبوا لنا "اسفنجات" رقيقة جداً ولكنها أفضل من "الحرامات"، والطعام كان جيدًا ولكنه قليل جدًا، ومع أن العديد من البنات كانت لديهن زيارات ويطبخن ومع ذلك يأخذن حصتهن من الطعام الذي يوزّع علينا، وكنا نقول لهن: "أنتن تطبخن ولديكن طعام، اتركوا لنا حصصكن"، وكان جوابهن: "هذا حقنا، وهو أتى بأسمائنا"، ويبقى هذا الطعام إلى أن يفسد ولا يعطوننا إياه، هكذا بكل بساطة عبارة عن تسلّط وسيطرة.

رسم الحدود

إحدى النساء من اللواتي كن معنا وتدعى وصال، وهي من حماة، كانت ثرثارة وكلامها وسخ وقليلة أدب، وكانت بمثابة زعيمة "القاووش" و"عاملة علينا راس وزعيمة"، وفي إحدى المرّات وبعد أن طفح الكيل معي و لم أعد قادرة على التحمّل، كانت توزع الطعام، فأعطتنا كمية أقل وأعطت البنات اللواتي لديهن زيارات كمية أكبر من كميتنا، فأمسكت "قصعة الرز" ودعست عليها بقدمي، وقلت لها: "ليكي ولي، إحنا متنا من الجوع ولم يذلنا أحد، تجي إنتِ تمننينا على لقمة رز، ويا ريتها منك"، ودعست على الرز وبدأت أصرخ وأضرب الجميع ولم أعد أرى أحدًا، فبدأت البنات بتهدئتي، ولكني بتصرفي هذا وضعت حدًا لأن يأخذ أحد حصتي، وبعد ما حصل بدأن يلتفتن إليّ، ويحاولن تهدئتي، وقلت لهن: "إلي بتقرب علي دابحتها مين ما تكون تكون، تجيبو لي الشرطة، ترجعوني على الفرع، أنا ما عاد يهمني حدا، متنا من الجوع وفوقها ذل على حبة رز"، دعست على كل الطعام، على كل شيء، فصمت الجميع، وكل البنات اللواتي ليس لديهن زيارات أيدنني وقلن لي: "أنتِ عملتِ الذي كنا نريد أن نفعله"، وهنا بدأت البنات بالتعاطف معي وأعطتني إحداهن علبة مرتديلا ورغيف خبز، ولكني رفضت أخذ أي شيء، وقلت لهنّ: "لا أريد صدقة من أحد وطعامي

يكفيني"، وفي الواقع أنا لم يكن يهمّني الطعام لأني كنت أريد أن أعرف ما هو مصيري، وماهي قصتي في هذا السجن.

كان هناك مجموعة من البنات اللواتي كنّ معي في الأفرع، وبعض البنات "الأوادم" كنّ يجمعن بعض المال ويجلبن للبنات الجدد أغراضًا شخصية مثل الفوط الصحية والصابون والشامبو، إلا أنا لم يجلبن لي شيئًا لأنهن اعتقدن أن لدي مالاً، وأنا لم أطلب منهن شيئًا ولم أشتكِ من شيء، وبقيت على هذا الحال، وعندما كنت أريد شامبو كنت أطلب من بنت "بمون عليها"، وليس ضروريًّا أن أستحم يوميًا، بل كل أسبوع مرة وخاصة بعد أن انتهيت من قمل الجسم، وفي ذاك الوقت كان ممنوعًا علينا أن نجري اتصالات هاتفية.

الإضراب

باشرنا إضرابًا جماعيًا بعد عيد الأم في آذار 2013، وكان من أنجح الإضرابات بتاريخ سجون النساء في سوريا، وكان مميزًا جيدًا، وقد حقّق صدًى واسعًا، حتى العناصر استغربوا بما فعلنا، وقد بدأ بعد احتقان المعتقلات بسبب عدم إطلاق سراحهنّ وعدم عرض أي منا أمام القضاء لمدة تزيد عن الشهر، وخلال عيد الثورة أجمعنا على رأي واحد بأهمية أن نباشر بالعصيان وبإضراب جماعي. وأتى عيد الأم وبدأ العساكر يضعون أغاني مؤيدة وخطابات ولقاءات بشار الأسد بغية إغاظة الأمهات المعتقلات واستفزازهنّ، وكانوا ليلاً يسكرون ويسخرون منا أمام الباب بغياب الكاميرات، وكان ممنوعًا عليهم الدخول إلى مهاجعنا. وبدأت "مي" بالتخطيط للعصيان، وهي المعتقلة التي عذبوها كثيرًا وكانت تبلع القطع المعدنية في فرع 227 والموجودة حاليًا في ألمانيا، ومعها الحجة "ح. ك" و"نايفة خضور" وأخريات من حمص ودير الزور ومن كافة المحافظات السورية.

بعد عيد الأم بدأ الإضراب بخروجنا إلى الباحات، حيث هتفنا للحرية بصوت عالٍ وغنينا أغاني الثورة، وكنا نشتم الشبيحة والأمن، على سبيل المثال من كنّ في فرع الجوية غنين "هاه هاه هيه هيه طز بفرع الجوية" ونحن هتفنا "يلعن روحك يا حافظ"، ولم يتحدث معنا أحد من عناصر الشرطة، ولم نكن خائفات وحضرنا أنفسنا ولبسنا ملابس سميكة في حال تعرضنا للضرب، ثم باشرنا بعصيان صامت ورفضنا الدخول إلى مهاجعنا، وبقينا في الممر وأغلقنا الأبواب وقفلناها وصمتنا، ولكن إحدى البنات سامحها الله كانت سببًا للفوضى وقالت: "يلا يا بنات تكبير"، وما إن قالت تكبير حتى بدأت الشتائم والهتافات "سوريا لينا وماهي لبيت الأسد" وصرنا نكتب على الحيطان "سوريا لينا وماهي لبيت الأسد" و"سوريا للجميع وليست مزرعة لآل الأسد"، مازلت أذكر ما فعلناه وأضحك، نعم كتبنا على الحيطان، والله العظيم كنا صوتًا واحدًا ولم نكن خائفات من أي شيء، "خلص طز اقتلونا"، ولم تكن أي واحدة منا خائفة على حياتها، فالأمهات بعد عيد الأم "طق قلبهن على أولادهم" ولم يشاهدن أولادهن منذ عدة أشهر، وهنا دخل الشبيحة وعناصر الشرطة - حفظ النظام، وكان أحدهم يحمل إطار سيارة رفيعًا، وآخر يحمل عصًا "شنتيانة"، وعنصر واحد كان يحمل

مسدسًا، والباقي يحملون عصيًا وقطعًا حديدية، وبدأوا بضربنا لكننا بقينا جالسات على الأرض، ولم يكن هناك مكان نختبئ فيه، وبدأ الصراخ و"الولاويل" والاستجداءات مثل: "دخيلكن عم يدبحونا، عم يقتلونا، وين العالم وين النخوة؟"

وبعد ذلك خفت وتيرة الضرب تدريجيًا، وفتحوا الأبواب وأدخلونا وحقّقوا معنا كل واحدة على حدا، وصاروا يسألون من التي كتبت النشيد ومن غنت ومن كتبت... إلخ، وكتبوا محضرًا لكل واحدة منا، واتهمونا بالنيل من هيبة الدولة لأننا شتمنا "سيادة الرئيس"، وأصبح الجو هادئًا وأخذوا عدة بنات من اللواتي كتبن على الحيطان إلى المنفردة لساعات قليلة ثم تم إعادتهن إلى المهاجع، وكنا متفقات في حال بقيت أي واحدة منا في المنفردة لعدة أيام أو تم ضرب أي واحدة، منا فسوف تُصعّد العصيان ولن نخاف من أي شيء.

ثم أحضروا لنا الطعام ورفضنا جميعاً أن نأكل، إلا واحدة قالت: "أنا جائعة وأريد أن آكل"، وقلنا للعنصر: "إننا كلنا نرفض أن نأكل إلا هذه البنت"، وطلبنا منه ومنها أن تأكل في الخارج، لكنها غصبًا عنا أدخلت الطعام وأكلت وحدها، ونحن رفضنا إدخال الطعام ولم نأكل. كنا في ثلاثة مهاجع، وكل مهجع يضم بين أربع وعشرين وست وعشرين امرأة، وجميعهنّ شاركن في الإضراب.

وفي اليوم التالي حضر قائد شرطة دمشق وحضر العميد والعقيد والضباط الملازمين وفتحوا الأبواب، وطلبوا منا أن نهدأ وسألونا بلهجة ناعمة: "ماهي مطالبكن؟"، وبدأت النساء تقلن: "نريد أولادنا، نريد أن نخرج، ونحن لا نريد أي شيء آخر ولا نريد "حرامات" ولا أكل ولا أي شيء، نريد فقط أن نخرج لعند أولادنا أو أن تُحضروا أولادنا إلى هنا، وغير ذلك لا نريد شيئًا"، وطلبنا أيضا أن يسمحوا لنا بإجراء الاتصالات، فقالوا لنا: "أنتن بشكل خاص غير مسموح لكن بإجراء الاتصالات، ونحن ليس لدينا الصلاحية للسماح لكن، انسوا هذا الأمر، ولكن وفي حال أتت لإحداكنّ زيارة يسمح لها أن تعطي من زارها رقمها أو رقم زميلة لها للتواصل معها أو مع زميلتها"، وكان ذلك ممنوعًا سابقًا ولكن بعد إضرابنا سمحوا لنا بذلك، وبعد ثالثة أيام حوّلت سبع أو ثمان بنات إلى محكمة الإرهاب، وتم عرضهنّ على القاضي وخرجن "ترك"، ثم توالى تحويل النساء إلى القضاء - محكمة الإرهاب يوميًا، وبعضهن كن يخرجن "ترك"، وبعضهن يعدن إلى السجن، واستمرّ الوضع على هذا النحو.

تعوّدنا على هذه الحياة، لدينا مواعيد للطعام، وخروج إلى الباحة للتنفس، في داخل السجن حياة كاملة ومجتمع كامل، كما هو الحال خارج السجن، وبدأت المواهب تظهر وكانت المُدرّسة تعلّم والمتدينة تعلّم القرآن، ونساء يستفدن ويعملن بالخرز، أما أنا فلم أحب العمل بالخرز وأحسست أن فألها سيء عليّ.

نظمنا أنفسنا وكوّنا مجموعة صغيرة، كنا من خلالها نجمع المال من البنات من أجل المقطوعات من المال، وأحيانًا يأتي إلى السجن نساء متزوجات ولا تلبث دورتهنّ الشهرية أن تنقطع، فكنا نطلب من الممرض إحضار جهاز كاشف الحمل أو أدوية، أي مثلما كنا نشتغل خارج السجن اشتغلنا داخله، وكنا نشرب القهوة صباحًا، وأصبحت شخصًا فاعلاً داخل السجن، كما أصبح لنا قيمة ووزن بعد الإضراب.

الزيارات

في يوم من الأيام أتت إحدى المعتقلات واسمها "خولة" وأيقظتني من نومي وقالت إن لي زيارة، لم أصدقها في البداية وقلت لها: "لا تسخري مني"، لكنها حلفت لي وأكدت أن أبا تيمور ينادي عليّ، وخرجت إلى الزيارة وشاهدت واحدة من وراء الشبك تبكي وتشير لي بيدها، فسألتها: "من أنتِ؟"، ونظرت مليًا وقلت في نفسي "والله أنا بعرف هالناس!" كانت أختي وزوجة ابن خالي، وبدأتا بالبكاء، لكني حاولت طمأنتهما وقلت لهما: "لا تبكيا أنا بحالة جيدة". كانت أختي تبكي وتدوخ، وفهمت أن إخوتي وجدوا أن إحدى التنسيقيات وضعوا صورة امرأة استشهدت قنصًا وملابسها تشبه ملابسي التي كنت ألبسها حين اختفيت عن أهلي، لكن أختي أكدت لهم أن ملابسي كانت مختلفة.

كما أني كنت طلبت من إحدى البنات وكانت معتقلة مصابة بالصرع في فرع 227، أن تخبر أهلي أني حية وتطمئنهم عني، وذلك لأنها كانت تسكن في مكان قريب من منزل أختي، وحين خرجت أخبرت أهلها بذلك فزار والدها إخوتي، وكنت أوصيتها أن يطلب منهم الخروج من المنطقة التي يسكنون بها إن استطاعوا، وكان والدي آنذاك في بيت إخوتي عندما وصلهم الخبر، فعادت له الحياة بعد أن دخل في حالة نفسية حرجة بسببي، وعلمت لاحقًا أنه كان يبكي ويقول: "بنتي شرفي وعرضي"، وكان خائفًا عليّ لأني بنت، وكان دائمًا يتساءل عما يحصل معي داخل المعتقل هل أُضرب! ماذا آكل؟ هل اقترب مني أحد؟ هل اعتدى عليّ أحد؟

والدي مسكين ومسنّ وحنون عليّ، وكان أثر اعتقالي عليه كبيرًا، وقد زارني كثيرًا في سجن عدرا وأحضر لي نقودًا وملابس وجلب لي أطعمة كنت أحبها وجلب لي أيضاً فرشاة أسنان ومعجون أسنان. وكان يبكي كالأطفال في كل زيارة، وكان دمعي يختنق ولا أستطيع البكاء أمامه كي لا يضعف وكنت أقول له: "لا تحزن وارفع رأسك بي، لأنني لم أرتكب خطأً"، وأمزح معه وأقول: "منيح أحسن لك بترتاح من الشقا تبعي وما بقا تسمع حكي من العالم عني، وغدًا ستسمع عني أخباراً طيبة بما فعلت، ولا تخف، ولا تأتي لزيارتي لأنك تتعب".

طلب والدي توكيل محامٍ لأنني بقيت كثيرًا في السجن من دون محاكمة وتأخرت في الإيداع أكثر من ثمانية أشهر،وطلب المحامي من والدي مبلغًا كبيرًا، وكانت الدفعة الأولى مئة ألف ليرة سورية، وأهلي نازحون ولا يوجد معهم نقود ولا عمل لديهم، ورفض إخوتي مساعدتي لأنهم لم يرضوا عن عملي في الثورة، ولم يقف إلى جانبي ويساندني سوى والدي الذي كان يدخر مبلغ خمس مئة ألف ليرة سورية، ودفع للمحامي الدفعة الأولى مئة ألف ليرة سورية، وفور عودته من عند المحامي أخبر إخوتي أنه يعاني من ألم في رأسه ودخل لينام، لكن إخوتي لاحظوا أن صوته بدأ يتغيّر، وازرق وجهه ومال فمه، فنقلوه بالإسعاف إلى المستشفى وأصيب بجلطة دماغية أدت إلى تلف في دماغه، وأصبح يبول في الخزانة معتقدًا أنها الحمام، وفي شبابه كان والدي عسكريًا متطوعًا في بابا عمرو، فصار يقول لإخوتي إنه ذاهب إلى بابا عمرو.

كان أبي قد اشترى سيارة تكسي من تعويضه المالي بعد أن سُرح من الجيش إثر مرضه، وصار يشتغل عليها، لأنه لا يعرف صنعة أخرى، وبعد فترة اشترى سيارة أخرى، ثم اشترى مزرعة وصارت أموره مستقرة بشكل جيد، ولكن بعد وفاة والدتي أصبح وحيدًا ولم يرغب بأن يتزوّج.

وبعد إصابة والدي بالجلطة الدماغية انقطع إخوتي عن زيارتي الأمر الذي سبب لي خوفًا على والدي، لأنه في آخر زيارة لي بكى كثيرًا، وكان يسألني: "كيف تستطيعين أكل هذا الطعام؟ والله الكلاب لا تأكله"، لأنه رأى بعينه نوعية الطعام المقدم لنا وشاهد "القصعات" الخاصة بالحساء والأرز، فأجبته: "وهل يتوقف الأمر على الطعام يا أبي! والله الذل الذي يذيقوننا إياه لا تحتمله الحمير، ولكن ماذا نفعل؟"، كان يبكي ويقول لي: "عم يذلوكِ، عم يضربوك؟" فأجبته: "لا، من يجرؤ!" ماذا أقول له! هل أقول له "نتغدى بهدلة ونتعشى بهدلة"! خفت عليه وقلت له: "ممنوعٌ عنا الضرب لأننا نساء"، وكان يبكي ويضرب بيده على رأسه ويقول: "ليش كل هالنسوان هون؟ شوفي الأولاد عم يبكوا على أمهاتهن!" ويبكي بحرقة وأنا أحاول تهدئته، واشتكى على أخي لأنه لا يُحضر لهم الخبز، وقال له: "شوف إختك يا عرص، أختك بين الشبيحة وأنت لا تجرؤ على الخروج، وتدعني أنا أجلب الخبز".

وعندما اشتدّ تعب والدي أخذوه إلى السعودية، ليقيم عند إخوتي الموجودين هناك، ولكنّ مرضه تطوّر وهو الآن في إسطنبول ولا يعرف أي أحد منا ويبول على نفسه، كان الوضع أكبر من أن يتحمله، فنحن تهجّرنا وراح بيتنا وسيارتنا، وتشردت كل العائلة وتفرّقنا وأصبح كلّ أخ وأخت في مكان، وزادت المشاكل ونزح الناس، وأصبح يقيم في كل غرفة أربع أو خمس عائلات، ولم يعد أحد يطيق أحدًا أو يتحمله، ولا يوجد نقود ولا عمل، والناس أصيبت بضيق فلم يحتمل والدي كل ما حصل بعد أن كان صاحب عزّ، وكبير العائلة والكلّ كان يجلس حوله.

كانت أختي تأتي كل فترة لزيارتي في السجن، ولكن زوجها كان يمنعها ويقول لها: "أنا لا أسمح لكِ بزيارتها"، ولكنها كانت ترفض ما يقوله وتزورني مرتين في الشهر، ووالدي كان يأتي مرة كلّ شهر.

محكمة الإرهاب

بقيت في سجن عدرا من نهاية شباط 2013 حتى السابع والعشرين من تشرين الثاني 2014، واشتغل المحامي على ملف المبادلة لأن اسمي كان موجودًا في الملف.

وقد أخبرني المحامي أنه لا يجوز لي أن أطلب إخلاء سبيل بسبب تحويلي لمحكمة الجنايات، والقاضي أصدر قرار توقيف بحقي، وتمّ عرضي عليه أوّل مرة في الشهر السادس من عام 2013، وألبسوني "مريولاً" أزرق ووضعوا "الكلبشة" بيدي وأدخلوني إلى القاضي، وتم استجوابي وسألني نفس الأسئلة الموجودة في الإضبارة وقال لي: "هل تعرفين (هـ.م)، فقلت له: "لا" فسألني: "أين تسكن؟"، أجبته: "في التضامن"، فقال: "شو بعرفك بالتضامن!" فقلت له: "أعرف"، ونظر إليّ القاضي وقال: "لا أدري لماذا أشعر أنك فعلت

شيئًا!" فقلت له: "فعلت شيئًا مثل ماذا؟"، فقال لي: "أنتِ مدانة"، وأغلق الإضبارة وقال لشخص يجلس بجانبه: "اكتب يا ابني توقيف"، وأوقفني القاضي، ومباشرة قلت له: "حرام عليك، بدي روح لعند أهلي، بدي أدرس، بدي عيش حياتي، بدي حب بدي أتزوج"، وبدأت أصرخ وأقول: "بدي عيش حياتي"، وبدأ الحاجب يقول: "اخرجي، اخرجي، إياك أن تصرخي"، فأجبته: "شو بدو يعملي يعني أكتر من هيك!" فأجابني: "طولي بالك ممكن يحولك جنايات"، ولم أكن أعلم ما هي الجنايات، ولاحقًا أخبرني إخوتي نقلاً عن المحامي، أن أحكام محكمة الجنايات تتراوح بين ستّ سنوات وخمس عشرة سنة، وأنه سيعمل على أن يتم تخفيض حكمي إلى نصف المدة، ولكن المحامي قال لإخوتي: "الأفضل لنا أن نعمل على ملف المبادلة، لأنها ستبقى في السجن مدة ست سنوات"، وكان اسم المحامي (إ.ع) وهو ضابط سابق في المخابرات، تقاعد وأصبح محاميًا. واشتغل على ملف المبادلات، ولكن عندما كان يأتيه مبلغ مالي أعلى يضع اسم صاحبته أولاً، أي الأولوية لمن يدفع سعرًا أعلى، ورغم ذلك كان المحامي لا يُقدم ولا يؤخر، وهو بنفسه كان يقول دائمًا: "ملف هنادي خارج يدي، وهو ملف مبادلة، لا أنا ولا القاضي نستطيع إخلاء سبيلها، القرار بيد الفرع الذي حقّق معها".

حضرت حوالي تسع جلسات في الجناح الرابع الذي كنا موقوفين فيه بسجن عدرا، وكنت قبلها في الجناح الخامس وتم نقلي فيما بعد للجناح الرابع إيقاف، وكان القاضي يؤجلني في كل مرة، وبين كل جلسة وأخرى أربعة أو خمسة أشهر وأحيانًا ثلاث أشهر حسب مزاجه، وفي كل مرة كنت آتي إلى التحقيق كنت أشتم أمام الجميع وأقول: "خراية عليكم وعلى هالمحكمة، صدقتوا حالكن عنجد شو هالمسخرة! يا موتونا يا لا تطالعوني على القضاء، هي القضاء عم يأجلنا، شو هالقضاء! هي مسخرة"، ولم يكن أحد يرد على كلامي، وخلال تلك الفترة تعلمت الدخان.

محكمة الإرهاب عبارة عن سمسرة كبيرة بين القضاة والمحامين، سمسرة نظامية، وفي آخر فترة كانوا يفاوضون المحامي على المال من أجل إخلاء السبيل، بعض الناس لا يستطيعون دفع الملايين من أجل إخلاء السبيل، أما الشرطة في سجن عدرا فكان وضعها مختلفًا عن الأمن ومحكمة الإرهاب، في الشرطة تدفعين ألف ليرة سورية وتشترين كرامة الشرطة كلها.

سجن عدرا – قسم التوقيف

أخذوني من قسم الإيداع إلى قسم التوقيف في الشهر السادس من عام 2013، وهو جناح معروف عنه أنه لا يخرج منه أحد إلا نادرًا، وأعداد من فيه قليلة، داخل كل غرفة سبع أو ثماني صبايا، ونادر خروج أي منهن، لا يخرجن إلا بمبادلة، وأغلب تهمهن كبيرة، ولهن أهمية عند النظام، من أجل المبادلات، شعرت أن أغلبهن من الثورة، ويوجد في سجن عدرا حوالي ستة أجنحة، والمعتقلات في الجناح الرابع والخامس لصالح محكمة الإرهاب.

بدأت أتأقلم مع هذا الجناح، وكان أقل وطأة عليّ من الجناح الخامس، ربما لأني تعوّدت أكثر على الوضع، وشهدت فيه خروج العديد من البنات عن طريق المبادلات، وكانت معاملة العناصر معنا مختلفة وأقل قسوة من الجناح الخامس وكنت أشعر بوجود نظرة احترام لنا.

في إحدى المرات جرت اشتباكات قوية مع جماعة الغوطة، وأطلق النظام من محيط السجن وسطحه قذائف وراجمات صواريخ، وصل عدد الصواريخ التي أطلقت تسع صواريخ، وفي المقابل كان يدخل الرصاص إلى غرفتنا أحيانًا، وكان هناك اشتباكات بشكل دائم، وقد تعودنا نحن على أصوات القصف، ولكن يومها كان الاشتباك أقوى وأطفؤوا الكهرباء ودخل علينا العناصر وطلبوا منا أن نرتدي ثيابنا وأن نلتزم الصمت، وأغلقوا الأبواب علينا، وطلبوا منا أن لا ننظر من الشبابيك، وشددوا بأن أي واحدة منا تحاول الخروج فسيتم قتلها، وإذا سمعوا منا كلمة تكبير فسيكون آخر يوم في حياتنا، عرفنا أن هناك شيئًا يحدث في الخارج، واستنفروا استنفارًا عامًا، ثم أناروا الكهرباء، واشتد القصف وصرنا نسمع صوت جنازير الدبابات، وصوت تكبيرات من خارج السجن، وتوقعنا أننا سنموت في ذاك اليوم، فالنظام مستحيل أن يطلق سراحنا، ومن المستحيل أيضًا أن يأتي أحد ويحرّرنا، فقدنا الأمل، وبدأ قسم من النساء يصلين وقسم آخر يبتهلن إلى الله بالدعاء، لكنني جهزت نفسي لأني أملت أننا سنخرج من السجن.

وبعد ساعة أنزلونا إلى القبو، واشتد الضرب وأصيب عدد من العناصر ومنهم من مات، وفي الفجر هدأ الوضع وأعادونا إلى غرفنا وبدأت المحاسبة، وأحضروا النساء اللواتي هتفن، واللواتي صلّين اتهمن أنهن كن يدعين عليهم، وعاقبوا كل البنات وضربوهن على أقدامهن "الفلقة"، ومنهن من تم أخذهن إلى فرع الأمن السياسي وعذبن، وتمت إعادتهن بعد أسبوع إلى سجن عدرا، لأن بعضهن قلن على من ماتوا كلب وفطس، وهناك بنات طلبن أن يخرجن ليسعفن العناصر الذين أصيبوا وسرقت إحداهن الهاتف الجوال لأحدهم وأدخلته إلى الجناح، وقامت الدنيا علينا وما قعدت، وفرضوا علينا العقوبات وأغلقوا علينا الأبواب وحرمونا من الزيارات ومن الندوة، وصاروا يضربوننا وحرمونا من أشياء كثيرة مثل الأقلام والأوراق.

في إحدى المرات كانوا يضربون بنتًا فقلت للعنصر: "لا أسمح لكَ بضربها، اضربونا كلنا ولا تأخذوا واحدة منا لتضربوها"، فأجابني: "شرفي اطلعي لبرا"، ظننت أن كل البنات سيدافعن عني، لكن جميعهن خفن وانسحبن، فخرجت وأنا أقول له: "أنا لا أخاف منك"، وبدأ يضربني أنا والبنت، فركضت ودخلت إلى مهجعي، لكنه لحقني واستمر بضربي، قلت له: "بيكفي ظلم، ما الذي تريدونه منا! حابسينا وقاهرينا وبدكم تحاسبونا شو بدنا نحكي، يا أخي ما بنحبكن ورح نضل نكرهكن ورح ندعي عليكم بالسر وبالعلن"، وكنت أغيظه وأقول: "الله أكبر، وإن شاء لله بتموتوا أكثر من هيك، ورح يفوتوا ويدعسوا عليكم"، واستمر بهجومه عليّ وأنا أركض إلا أن تمكن مني، فصرخت "وولولت": "دخيلكن عم يشلحني ثيابي، دخيلكن الحقوني"، فتركني فورًا، لكني تابعت كلامي: "بتحكوا على الإسرائيلية، والله الإسرائيلية أشرف منكم وما بيعاملوا الأسرى هيك"، فتركني وقال لي: "حسابك بعدين عم تستني جيش الخرا تبعك"، وبدأت العقوبات والتضييق علينا وصار الحرف محسوبًا علينا، وصارت بنات "الهشك بشك" يشتغلوا فينا ويكتبوا فينا تقارير، وتم استدعاؤنا إلى

المحكمة بناء على كتاب من دورية السجن، لقد حرمونا من أشياء كثيرة واستمروا بالتضييق علينا أكثر وأكثر، وأصبحت الزيارات مراقبة.

واستمر الوضع حتى تغير العميد القديم وأحضروا بدلاً عنه عقيدًا جديدًا، وكان نسونجيًّا وحقيرًا، وكان مسؤولاً عن سجن غرز في درعا، ولكن بعد أن تحررت درعا نقلوه إلى سجن عدرا، وكان عليه ملفات فساد وسمعت لاحقًا من البنات أنهم فصلوه من عمله، وكان يستخدم البنات لتسهيل أمورهن مقابل الوشاية بنا، فتارة يخبرنه أننا نهرّب معلومات وبيانات من داخل السجن من أجل أن يأتي المسلحون ويخرجونا.

ازداد عددنا وأصبح في كل جناح فوق الخمسين امرأة، وكانت تأتي عائلات بأكملها إلى السجن، وأصبحنا نجد الأم وبناتها، وانتشر القمل والجرب وسادت الفوضى والسرقات، وصار الشرطي يدخل ويضرب أي بنت يريد ضربها، وصار الوضع سيئًا جدًا، وتغيّر السجن عن الوقت الذي دخلت إليه حين كان هناك نظرة احترام لنا.

وبقيت أذهب مرارًا للتحقيق معي في المحكمة إلى أن صار هناك مبادرات للمصالحات، وزار السجن وفود أجنبية وعربية وصرنا نحكي لهم أننا تعذبنا وأن النظام عاملنا كرهائن، لكنهم قالوا لنا: "نحن لا نستطيع أن نسمع أو ننفرد بأي سجينة لوحدها بسبب البرتوكول، نحن عملنا فقط أن نراقب النظافة والصحة"، فقلنا لهم: "لا يوجد نظافة ولا أدوية والطعام قليل وهناك حالات جرب"، فلم يستمعوا إلينا. كان لهم غرض معين، فقد كان معنا أجانب في سجن عدرا، إحداهن عراقية وأخرى اسبانية وكان أزواجهن من الدواعش، فأخرجوهن عن طريق سفارات بلادهن وقاموا بتسفيرهن، لم نعرف من هي اللجنة التي زارتنا، ولكنهم حين حضروا كان معهم قائد شرطة دمشق، وقد طلبنا منهم أن يسمحوا لنا باستخدام الهاتف أسوة بالمهجع الآخر، فقالوا لنا: "إن هذا الجناح لا يمكن أن يتم تركيب خط فيه، وعلينا أن نستخدم الخط الذي في ذاك المهجع"، أول مرة أمسكت الهاتف بيدي واتصلت بأهلي، كانت في عام 2014، أي بعد سنتين وأكثر، وعندما كنت أتكلم كانت تقف بجانبي مسؤولة جنائية، وكان ممنوعًا علينا أن نتكلم أكثر من دقيقتين، وبعدها تفصل الخط مباشرة، بعض الأمهات قبلن قدمها كي يتحدثن مدة أطول لكنها كانت ترفض، وكنا نعرض عليها المال وترفض، وكانت تقول: "ممنوع عليكن لأنكن تسربن المعلومات"، حتى السجينات كن يعاملننا معاملة سيئة، كن يخافن منا، كان الأمر مؤلمًا جدًا، حتى أن العديد من النساء انهرن بعد أن سمعن أصوت أولادهنّ.

كان عدد النساء يزداد وكثرت المشاكل، وسحبت العديد من البنات إلى الأفرع من جديد، وحُكمت أول مرة بنت اسمها ولاء العاقل من الغوطة خمس عشرة سنة، وقد كنت معها في نفس الدورية وتم الحكم عليها أمامي، الأمر الذي سبب انهيارًا وتعبًا لنا، وصار هناك أحكام تعسفيّة بدل التوقيف، وبدأت الحياة تسوء أكثر، وصاروا ينقلوننا من جناحنا ويضعوننا مع سجينات الجنائية، ولكني لم أنتقل من الجناح الرابع، وكانت معاملة سجينات الجنائية سيئة، وعاملن البنات كالعبيد وكالحيوانات، فإذا فعلت إحدى البنات مشكلة أو عبرت عن رأيها كن يقمن بضربها، ويجب أن يكون الجميع مؤيدًا للرئيس، وكانت تهم سجينات الجنائية، القتل والسرقة والدعارة، أذكر إحداهن وكانت قد حكمت بالإعدام لأنها لم تستأنف الحكم ولم توكّل محاميًا،

وتم تنفيذ الحكم بحقّها، وجريمتها كانت قتل ابنة زوجها، وقد اعتقلوا نساء وتم إحضارهن إلى سجن عدرا وهن مختلات عقليًّا، باللغة العامية "ما في عقل" ودراويش ولديهن أمراض عقلية، وقد كانت إحداهن في فرع فلسطين قبل أن تأتي إلى السجن، وكانت مجنونة بشكل نظامي ولا تدعنا ننام لا في الليل ولا في النهار.

أذكر معتقلة كانت من بدو حمص وطبيعية جدًا، وعندما سمعت خبر استشهاد ابنها تحت التعذيب، لم يتحمل عقلها ذلك، وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي، فقدت عقلها وأمسكت عصًا وبدأت تتصرف كأنها ترعى الأغنام وتلم الحشائش، وقد صادفت معتقلة فقدت ذاكرتها في السجن، وكان هناك امرأة أخرى تدعى أمل و تقول إن معها أوراقًا من مشفى الأمراض العقلية في حمص، إنها ضمن جدول معالجة، وإذا لم تتم معالجتها فيمكن أن تنتكس حالتها، وإنها تريد أن تتعالج من أجل ابنتها الذي طلقها زوجها لأنها، أي أمها، مريضة وهي تريد أخذ أدويتها، وهناك حوامل ولدن في السجن، وهناك حالة ولادة لطفلة كانت بحاجة لحاضنة اصطناعية، وبسبب عدم تأمينها توفيت ولم تعرف أمها أين دفنوها، رغم أنها سألتهم ولم يردوا عليها لأن زوجها كان معتقلاً، وأهلها في اللاذقية ولم يستطيعوا الوصول إليها.

وكان هناك الكثير من النساء الحوامل، وكانوا يقولون لنا: "يلا الجيش الحر بيحبل ونحنا بنولد"، وفي إحدى المرات كانت إحدى الحوامل تتمشى في الممر، وكان مسموح لها بذلك لأنها حامل وحان موعد ولادتها، وفجأة صرخت ونزل الولد، وأخذوها إلى القسم الطبي.

وهناك أيضا سيدة اسمها فاطمة آغو، وهي من عفرين وزوجها من الغوطة، ولدت في السجن واسم ابنها فهد وعمره اليوم ست سنوات وقرأت اليوم على الفيس بوك أنهم يبحثون عن أهلها، لأنها عندما خرجت من السجن بعد ست سنوات لم تجد أهلها بسبب تهجير الناس. وأذكر أيضًا سيدة اعتقلت عندما كانت حاملاً في سجن اللاذقية، وولدت هناك ومن ثم تم نقلها إلى سجن حمص، ثم إلى عدرا وهي إلى الان معتقلة، وعمر ابنها الآن ثماني سنوات.

كمين أختي

خلال تلك الفترة اعتقلوا أختي وسلفتها عن طريق كمين وتم أخذهما إلى فرع فلسطين وتم تعذيبهما، وقد اعتقلوها بسبب هاتف جاءها من داخل المناطق المحررة، وأي اتصال كان يتم من داخل تلك المناطق إلى شخص يقيم خارجها يتم اعتقاله فورًا، لأن جميع الهواتف داخل تلك المناطق كانت مراقبة، وبعد الاتصال راقبوا هاتف أختي، ومن اتصل بها استغلّ موضوع اعتقالي، وقال إنه يريد تسليمها للنظام لأن أختها، أي أنا، معتقلة وكلّ أهلها معارضون، وكانت قد بدأت بوادر المبادلات، وهو لا يملك شيئًا فحاول أن يوقع بأختي ويسلمها للنظام مقابل أن يخرج من المنطقة المحررة، "كالدية، أنا بسلم وحدة برا وطلعوني، مثل المصالحة" وكان العديد من المدنيين تعبوا من شدة الحصار في منطقة التضامن والحجر الأسود والقدم،

فاستغلّ الأمر، وكنت خلال هذه الفترة أنتظر زيارتها لي في سجن عدرا، وفي الساعة الحادية عشرة في 2014/11/27 ، ناداني السجان وقال لي: "عندي لكِ خبر حلو، ضبي أغراضك وصل إخلاء سبيلك"، لم أصدق الخبر ولم أكن أتوقعه، وغبت عن الوعي ووقعت على الأرض، أيقظتني البنات واستفسرن عما حصل، فقلت لهن إن الشرطي أبلغني أن أضب أغراضي لأخرج ولكني أظنه يكذب، ففرحت البنات وأقمن لي حفلة وداع، و"زلغطن" لي وجاءت البنات من الأجنحة الأخرى وقمن بتوديعي.

الخروج عن طريق مصالحة

ودعت سجن عدرا وخرجت، ولم أكن أعلم إلى أين ذاهبة، إلى أن علمت بأني خرجت بمصالحة عرفت بـ"المصالحة الوطنية"، وأخذتنا دورية إلى المربع الأمني، وهناك طلبوا منا التوقيع على تعهّد مفاده أن أتعهد بأن لا أشارك في أعمال إرهابية، وأن أقوم بتسليم أي إرهابي، وقابلت وقتها عميدًا أو عقيدًا يتبع إلى فرع فلسطين، وممثلاً عن وزير المصالحة علي حيدر، وأخبرانا بأننا سنذهب إلى بيوتنا، وطلبوا منا مراجعة فرع فلسطين في تاريخ محدد، وقال لي:" لكِ مفاجأة إذهبي إلى الفان"، ذهبت فوجدت فيه أختي وسلفتها ومعهن أربع نساء أخريات، وحضنا بعضنا البعض، وكانت أحلى لحظات عمري، وكنت سعيدة من أجل خروج أختي أكثر من خروجي لأنها أرملة، وفرحنا كثيرًا وذهبنا إلى المحافظة، وهناك قال لي العميد علي: "هي آخر مرة بحياتك بشوفك هون"، يعني "بالمشرمحي قال لي: اطلعي من هالبلد".
رحنا إلى بيت خالي ولم نجد فيه أحدًا سوى أولاد أختي الذين فرحوا بطلعة أمهم وكذلك الأمر بالنسبة لأولاد سلفتها، ولم يصدق بيت خالي أني خرجت من المعتقل، لأن كل أهلي هربوا إلى تركيا ولم يتبقّ منهم أحد، والكل كان مصدومًا بخروجي والجميع كانوا يبكون فرحًا، وأخبروا أهلي في تركيا وكانت فرحتهم لا توصف، حتى إخوتي الذين لا يحبونني فرحوا بخروجي، ولم يصدّقوا إلا بعد أن شاهدوني صوتًا وصورةً عبر الإنترنت.

نجوت بروحي

بقيت أسبوعين في الشام، وقبل سفري راجعت فرع فلسطين مرتين، وطلبوا مني أن أكون عميلة لهم، وقالوا لي إني ذات شخصية قيادية وكلمتي مسموعة، وطبعًا هذا الكلام للتأثير عليّ والتلاعب بي وبنفسيتي، ومن أجل أن أشعر بجنون العظمة، كيف تكون كلمتي مسموعة إذا كانت الناس تقتل بعضها؟ ومن أنا كي لا يقتلوني برصاصة؟ وخاصة الدواعش والنصرة، والعفو "ما في ريغار وما انفتح"، والناس المحاصرة أكلوا القطط، ومن أنا لأدخل إلى تلك المناطق لأجلب لهم المعلومات، وطبعاً قالوا لي مقابل أن أكون عميلة لهم: "سنعطيكِ موبايل وسيارة وراتبًا"، أجبرت نفسي وسايرتهم وقلت لهم: "تكرم عينكم، ولكني أريد ان أرتاح هذه الفترة"، وطلبوا مني أيضًا أن أقنع أهلي بالرجوع إلى سوريا وإجراء مصالحة،

وطبعاً أنا لا أثق بهم ولا بالذين هم أكبر منهم. بقيت مدة أسبوعين ولم أعد أحتمل أكثر لأني كنت أعيش على أعصابي وخائفة في كل لحظة من أن يعتقلوني، حتى المحامي قال لي: "لا يوجد أمان"، ولا توجد ورقة إخلاء سبيل معي، فأنا خرجت تحت المحاكمة، وكان اسمي لا يزال معممًا على الحواجز وقد نبهني المحامي من خطورة الأمر، وطلب مني أن لا أخرج ولا أمرّ أمام حاجز، لأنهم سيدخلونني من فرع إلى فرع، وسأدخل في متاهة الأفرع، حتى إن أخي كان يريد أن يحجز لي بطاقة طائرة عبر مطار بيروت، ولكني كنت ممنوعة من السفر.

وكما يقال وضعت على الجرح ملحًا، ولأنجو بروحي أقنعت أختي أن علينا أن نسافر، مع العلم أنه لم يكن معي مال يكفي للسفر، كان معنا خمسة آلاف ليرة سورية فقط، لم يكن لدي ملابس حتى، ركبنا "البولمان" ولم أقل للسائق عن قصتي، وكان مع الركاب مواد غذائية فلم يتم تفتشينا، وكنت خلال الطريق أتظاهر بالنوم تارة وبالتعب والاستفراغ تارة أخرى، وقطعنا أربعة وأربعين حاجزًا من الشام إلى إدلب.

وصلت إلى إدلب في 2014/12/14 ودُهشت، "شو هاد! وين نحنا في الشيشان أم في أفغانستان! ليس مهمًا من يكون حتى ولو العفاريت الزرق، المهم أن لا يكون النظام"، كنت أرتدي "فيزون" وجاكيت لونه بني، فقال لي أحدهم: "ما بيصير يا أختي، والآخرة يا أختي"، فقلت له: "لو تعرف ما حدث لي لما لمتني، أنا كنت معتقلة"، فسمعني السائق وغضب لأني لم أخبره من قبل، وقال لي: "كنت خبأتك على الأقل"، فقلت له: "كنت أنا وأنت سنرتبك".

بقيت في إدلب ليلة واحدة وختمت جوازي من المعبر، وكنت ليلة رأس السنة في إسطنبول، وصلت ولم يكن معي ليرة واحدة، فقطع لنا أخي بالباص من أنطاكية إلى إسطنبول.

معاناة أخرى

مرضت بسبب السفر والتعب وقلة النوم، وبدأت معاناة أخرى، وصرت أبحث عن عمل في ورشات الخياطة أو في المطاعم لغسل صحون، وبقيت أكثر من شهر مريضة ولم يسأل عني أحد أو يساعدني أحد. وبدأت أنشر اسمي واسم أختي وأننا كنا معتقلات، وكتبت عما يحصل داخل معتقلات النظام ولم أتلق أي رد، وللأسف لم يكن هناك اهتمام بالمعتقلات والمعتقلين، مع العلم أني نشرت معلومات قيمة، ولم يهتم أحد بنا كمعتقلات ونحتاج للعلاج.

لقد توقّفت حياتي لمدة ثلاث سنوات وهي فترة اعتقالي، وأنا كنت أدرس وليس لدي مهنة أو حرفة لأعمل بها، ولا أعرف ماذا أعمل، وفي تركيا الحياة صعبة إذا لم تعملي، وكنت أنام وأنا جائعة وبردانة، استأجرت أنا وأختي بيتًا، ولم نستطع تأمين طعامنا، وكنا بدون معيل، ساعدنا الأتراك عندما علموا أننا وصلنا حديثًا.

أما الجمعيات والمنظمات فهي تستغل أوجاع الناس ومعاناتهم ولا نستفيد منهم بأي شيء، حاولت التواصل مع واحدة كانت عضوًا في إحدى هيئات المعارضة، قيل لي إنها كانت معتقلة وتساعد المعتقلات

والمعتقلين، لكنها للأسف استغلتني لموضوع في أحد وسائل الإعلام، كنت أريد أن ألتقي بها لأقص عليها قصتي من أجل أن تساعدني بأجرة البيت لشهر واحد فقط، أنا لم أكن أريد مكياجًا أو علاجًا، بل بيتًا يؤويني من البرد، وبعد ثلاثة أو أربعة أيام من قراءتها لرسالتي ردت علي وقالت أن بإمكاني رؤيتها في منطقة تقسيم، أي في الشارع، ولم يكن متوفرًا معي أجرة الطريق ولا أعرف الطرقات في اسطنبول، فطلبت من ابن خالي أن يأخذني بالباص، وعطّلت يومًا من شغلي من أجل أن أراها، وكنت حينها أعمل في ورشة خياطة وتطريز، وحين وصلت بدأت بمماطلتي، وكنت أكلمها من هاتف ابن خالي عبر الفيس بوك – ماسنجر، لأني لا أملك هاتفًا خليوي، وأسألها: "أين أنت؟"، وبعد ساعتين ردت عليّ، والدنيا برد ومطر، وأنا واقفة أنتظرها في الشارع، وفي نهاية المطاف قالت لي: "حبابة، هناك واحدة تريد أن تقابلك من محطة البي بي سي، التقي معها ولا أعرف إن كانت ستفيدك"، ووافقت وقلت لها: "ليس هناك أي مشكلة"، وأجريت المقابلة والصحفية كانت لطفية معي، وكانت تلك اللفتة جيدة من العضو في المعارضة، ثم أرسلت لها رسالة أخرى ولم تردّ عليّ وأنا واقفة تحت المطر والهاتف سيفرغ شحنه، ولم أقابلها بالرغم من أني بقيت من الصباح وحتى آذان المغرب، ورجعت إلى البيت، وفي اليوم التالي طردني صاحب العمل وقال لي: "أنا متحملك هنا وأنتِ لا تجيدين العمل، ولا تلزميني" وطردني، ولم أكن أجيد الخياطة خلال عملي في الورشة وكنت أنظف الورق والتطريز وأعمل شاي وقهوة وألم صحون الغذاء الذي يتناولونه ضمن الورشة، وحتى الآن ما زالت التجارب نفسها تتكرر، والناس يستغلوننا.

كانت أجرة البيت الذي استأجرته أنا وأختي ثلاث مئة وخمسين ليرة وهو سيء وضيّق، وبصراحة الأتراك ساعدونا أكثر من أي أحد، فعندما عرف الجيران أننا جديدات في الحي وليس لدينا فرش، أحضروا لنا الفرش والحرامات والسجاد ومواد تنظيف وأكل وغاز وأشياء أخرى.

التغييرات والتحديات

أثناء المعتقل كانت شخصيتي قوية جداً وكل من كان معي يشهد لي بذلك وكنت أواجه العناصر ولم يخيفني شيء فأنا لم يكن لدي ولد أخاف عليه، وكان أهلي خارج المعتقل ويعيشون حياتهم الطبيعية والكل تزوج وعاش حياته، وبصراحة حالياً وبعد الاعتقال، الكل يقول لي إن شخصيتي ضعيفة، وإني انطوائية ومنعزلة، الاعتقال كان بالنسبة لي شرفًا لكنه كسرني وخصوصًا مع ابنتيّ.

بدأت النكبة الكبرى عندما نزلت إلى غازي عينتاب كي أبحث على عمل، تزوجت بعد مجيئي إلى غازي عنتاب من شخص كنت على تواصل معه سابقًا، حصل النصيب وتزوجت الحمد لله وأنجبت طفلتين، وبعد ذلك تخلّى عني وأصبحت أنا أشتغل وأصرف، عملت في تنظيف المقاهي، وكنت أبحث أين توجد المقاهي واشتغل فيها من أجل خمسة وعشرين ليرة، هناك جمعيات نسجل فيها، ولكنهم يقولون لي أنتِ متزوجة، وأنا لم أعد أستطيع العمل لأن بناتي صغيرات، ولا يمكنني أن أتركهن في البيت وأخرج للعمل، إما أن يكون لديكِ واسطة ومعارف أو عليكِ ان تتنازلي وتقيمي علاقة جنسية كي تحصلي على المعونة.

أنا حالياً لا أعمل، ولكن هناك دورات مأجورة وفيها روضات للأطفال واصطحب معي ابنتيّ، وأحيانا أشارك بإعداد برامج ولكنه عمل أشتغله في بيتي، لكن حياتي في تركيا هي تحت الصفر، أنا أسكن في مناطق حدودية وأعيش على كرت الهلال الأحمر التركي وعلى المعونات، وبصراحة أنا المسؤولة عن كل شيء، أعمل في الخارج والداخل وأكون الأم والأب وأواجه كل شيء لوحدي، ولا أحد يبادر لمساعدتنا والسؤال عنا، باستثناء بعض الصبايا وبعض المعتقلات.

زوجي لم يكن يعمل، ولم يكن يعيلنا، ولم يكن يسأل عني، ومتنا من الجوع، حتى عندما كنت أريد أن أحدثه عن همومي لم يكن يسمعني، وكان يسخر مني ويقول إني كبرت بالعمر وصار عندي بنات، وجلست في البيت وزاد وزني، ولم أعد أهتم بشكلي، كان ينظر إليّ كصبية "فرفورة"، والآن دوري الاهتمام بالبنات إن بكين أو مرضن.

أجد أن دور الأم أصعب من كل غمار الحياة التي خطتها، وبالنسبة لي كل طلعة من البيت هي كفاح، فمثلاً عليّ إلباسهن اللباس السميك، ثمّ إلى أين سنذهب؟ وكيف نريد أن نذهب؟ أنا أتعذّب كثيرًا، ومن كثرة العذاب أفكّر أحيانًا أن أضعهما في دار أيتام وانتهي من هذه المعاناة، وأقول بيني وبين نفسي: "حرام أن أظلمهما معي في هذه الحياة القاسية التي أعيشها"، وإخوتي مثلي أيضًا لهم همومهم ومشاكلهم، وأنا تعوّدت منذ أن دخلت السجن أن هناك شرخًا كبيرًا بيني وبين كلّ الناس، أنا لا أشبههم ولا هم يشبهونني، ولا أشعر بأي علاقة تربطني بهم، أشعر أن الذين اعتقلوا هم أصدقائي وصديقاتي فقط، نحن نفهم على بعضنا وبيننا لغة مشتركة، فعلى سبيل المثال، إذا تكلمت هذا الكلام أمام أختي فستقوم بإسكاتي وستقول: "خلص يا، والله مقتي قلبنا، اسكتي ما حدا اعتقل غيرك؟" وإذا تكلمت أمام أحد من الجيران فهم سيسمعوني أول مرة حين أتحدث عن الاعتقال ويتأثرون، وبعد ذلك سيتململون من الموضوع، أما المعتقلة السابقة فهي تفهم وجعي وألمي.

بعد خروجي من المعتقل سألني إخوتي: "هل ضربوكِ؟" فأجبتهم: "نعم، وعذّبوني كثيرًا"، أما أختي فقد قالت: "لك هنادي، بدي أسألك بس لا تكذبي عليّ، أمانة ما حدا شلحك ثيابك، ما حدا اعتدى عليك؟"، أجبتها بالنفي، فلم تصدّق وقالت: "عم يحكوا كل وحدة اعتقلت وفاتت لجوا عم يغتصبوها، صحيح؟"، وأجبتها: "ليس شرطًا، هناك حالات اغتصاب وأنا لا أنكر، ولكن ذلك لم يحدث معي، وأضفت: "نكون بدون حجابنا ويدخلون علينا متى يريدون".

أظن أن سبب نفور إخوتي مني هو هذا الموضوع، وهم لا يصدّقون أني اعتقلت لمدة ثلاث سنوات و لم يُعتدى عليّ، هم يتهمونني بأنني تغيرت، وأنا لم أتغير، على العكس أشعر أني ما زلت في نقطة الصفر، بقيت بعد الاعتقال كما كنت قبله، ولكنهم هم تغيروا بعد أن تزوجوا وصار لديهم أولاد وحياة وشغل ولهم بيوتهم.

لم أعد أهتم لحكي الناس، ولا لرأي المجتمع وأصبحت أدخن في الشارع، وإذا أزعجني شخص ما أصرخ وأبهدل، وإذا تحرّش بي شخص ما أصرخ، وإذا لم يعجبني حديث أنتقده كائنًا من كان قائله، لا أستطيع

المجاملة، ولم يعد يهمني شيء وأتصرف بعفوية، ولم أعد أحسب حساب أي شيء لأن كل حرماتنا انتهكت، ولا أريد من شخص أن يعمل "زلمة، ويعمل لي عرض وشرف، وبالنهاية يضرب هو وشرفوا، نحنا أكلناها جوا وإنتِ كنت تهتف بالروح بالدم نفديك يا بشار".

بشكل عام، أنا لم يعد يهمني رأي المجتمع، وأن النساء يجب أن يبقين في البيت وأن لا يخرجن في الليل ولا يجوز أن تدخن، لا، طز، أريد أن أدخن ومن أنت لكي تحاسبني؟! صرت جريئة أكثر، وأستطيع أن أسأل أي سؤال، ولا أخجل من طرح أي سؤال، وإذا كان لي حق أطالب به بقوة.

الدعم النفسي

أما عن الدعم النفسي للمعتقلات فقد أقامت المنظمات كثيرًا من البرامج في هذا الصدد، ولكنها كلها عبارة عن برامج فاشلة، أنا امرأة مهتمة بعلم النفس، وهؤلاء الذين كانوا يدربوننا ساعة أو ساعتين، يكون واحدهم قد درس كتابين أو تخرّج حديثًا، ويريد أن يعمل علينا دراسة حالة، يسألني: "ماذا أثر فيك الاعتقال؟"، فأجيبه: "لم يؤثر فيّ، كنت طبيعية!" لم يبقَ أحد منا طبيعيًّا، نحن أرواحنا ماتت وجاءت أرواح جديدة، نحن أشخاص جديدون في الشكل والمضمون، ثم ألا يستطيعون طرح أسئلة أعمق؟ كانت البرامج النفسية سيئة، ونسخة واحدة، وأسئلة واحدة يسألونها لكل المعتقلين والمعتقلات، هناك أشخاص اعتقلوا ولم يتم تعذيبهم، وآخرون أصابتهم صدمة نفسية معيّنة، ويمكن أن يكون أحد المعتقلين تعرّض للتعذيب والآخر لم يضرب كفًّا واحدًا، مثلا أنا تكهربت ولكن لم أشبح ،غيري انشبح، وهناك سيدة اعتقلت هي وزوجها ولن تكون نفسيتها كالأخريات، لكنهم يستعملون قالبًا واحدًا لكل الحالات، بينما يجب أن يكون لكل حالة أسلوب مختلف، وكل حالة يجب أن يذهبوا إلى بيتها ويعرفوا احتياجاتها وظروفها وما الذي يُحسّن نفسيتها ووضعها؟ وماذا تريد؟ لن تنكسر ميزانية المنظمات إذا أعطوا المعتقلات منحة مئتي دولار، راتب كل موظف في المنظمات في تركيا فوق الخمسة آلاف دولار ومئتا دولار لن تكسر ميزانية هذه المنظمات!

تأتي المنظمات لتوثيق شهادات المعتقلين والمعتقلات ويقولون: "لا يجوز أن ندفع لكن المال كي لا يتحول الأمر إلى تجارة"، هم أنفسهم ألا يأخذون راتبًا؟ من ضمن هذا الراتب فليخصّصوا مبلغًا، أو يكون المبلغ بدل الشاي والقهوة، أو يوفّروا لنا فرصة عمل و دمج في المجتمع، واعملوا لنا نشاطات لأننا نشعر بفراغ، وأنا مثلا لا أستطيع أن أعمل شيئًا، نحن لم نترك الثورة وانحبسنا كي تطالب الناس بالحرية وباسترجاع الأراضي وبالعديد من القضايا، نحن كنا عواميد للثورة، "يعني كل اللي طلعوا لتركيا عملوا منظمات طلعوا على أكتافنا وأكتاف الشهداء الذين ماتوا تحت التعذيب، ومن يشاركون في هيئة المفاوضات لا يعرفون شيئًا عن التعذيب، ولا أحد يوصل للعالم ما يحصل في السجون، وما يتم هو اجتهاد شخصي من الناس ومن المعتقلين والمعتقلات.

تجربتي مع منظمات المجتمع المدني

في داخل سوريا لم أسمع بأي منظمة سوى منظمة واحدة رسمية، وكنا نسمع بأن هناك دورات تمريض مجانية، أما في تركيا، فهناك منظمات تتعامل معنا بفوقية وبقرف أيضًا ولا يتواصلون معنا، وهناك منظمتان وثقتا حالتنا ولم نعد نسمع منهم شيئًا، ولم يكن هناك متابعة منهم أو تمكين للمرأة، أشعر بالأسى تجاه هدر الأموال التي تُصرف على ورشات لم نرَ منها شيئًا ولم تؤمن لنا فرصة عمل، وهناك منظمة وحيدة ارتحت معهم وقدمت لي وللصبايا فرصة في دورات التمكين، ورغم أني في تركيا منذ خمس سنوات لكني لم أكن أعرف شيئًا عما تعنيه العدالة الانتقالية وجبر الضرر وحقوق الإنسان ولم أكن أعرف بحقي في الشهادة عن الجرائم إلا من خلال تلك الدورات.

يهلّلون للرجل المعتقل

عندما يخرج الرجل من المعتقل يتم الاحتفال به ويهللون له، بالتأكيد أنا أفرح عندما يخرج الشاب من المعتقل، أما عندما تخرج المرأة من المعتقل فتمنع من الحكي عن قصتها، أعرف الكثير من النساء المتزوجات يمنعهن أزواجهن من أن يتحدثن عن قصتهن حتى داخل البيت! لأنهم يعتبرون حبس المرأة عارًا وعيبًا وكي لا يتم تناول الاغتصاب، مع أنهن لم يتعرضن له، وأؤكد أن نسبة خمس وتسعين في المئة لم يتعرضن للاغتصاب ومن تعرضن له حوالي خمسة في المئة فقط، وأراهن أن من اغتصبت من المستحيل أن تقول: "أنا اغتصبت"، إلا إذا كان لديها إمكانيات لتحكي، وكانت شخصيتها بالأساس قوية، وكان أهلها يساندونها، ومجتمعها يدعمها، عندئذ تتحدّث، أما معتقلة يمنعها زوجها أن تتحدث في منزلها عن تجربتها داخل السجن، فكيف ستعيش باقي حياتها إذا كان في داخلها سجن؟ وكيف ستعيش وتربي أولادها!

كلمة أخيرة

كنت أقول سابقاً أن المجرمين يجب ذبحهم كالبقر، حاشا البقر، ولكن إذا أنا طالبت بهذا أو فعلت هذا، فهم أيضًا سينتقمون ويقتلون، ولن ينتهي شلال الدم، والحل الأفضل لهذه الأمور هو المحاسبة من أجل حقوق الناس، يجب على كل مجرم أن يعترف بلسانه أنه قتل، وتعلن أسماؤهم على الملأ، وتشهد عليهم الضحايا وتتم محاكمتهم على كل الانتهاكات والجرائم التي ارتكبوها، أمام قضاء عادل ومحايد، ليس طرفًا في المعارضة ولا في النظام، محايد وعادل كما هو شعار ميزان العدل، ويتم ذلك أمام الناس لكي نرتاح وننام ونسترد حقوقنا، لا بالمال ولا بالبيوت ولا بالمناصب ستعود حقوقنا، بل سنسترد حقنا عندما تتم محاسبتهم، بدء من بشار و"إنتِ نازلة".

أنا عندي حلم منذ أن كنت داخل المعتقل، وهو أن أحكي قصتي وجميع القصص التي شاهدتها داخل السجن، وعاهدت رب العالمين وعاهدت نفسي وعاهدت كل البنات اللواتي تعرفت عليهن داخل السجن أني سأحكي قصصهن وما فعله هذا النظام بنا في كل مكان، وسأحكي أيضًا ما فعله بنا بعض الخونة،

وسأحكي كل شيء، وحلمي أن أمسك "المايكروفون" وأصرخ وأتكلم عن كل شيء تعرضت له، لأني الآن حرة ولن تكتمل حريتي إذا لم يحاكم السجانون، قبل أن يحصل هذا ستبقى حياتي في خطر، وحياة أي معتقل أو معتقلة قرروا أن يحكوا عما فعلوه بنا.

ما حدث حدث، لا يوجد شيء يرد لي اعتباري أو يخفف ألمي أو يرجع عمري الذي راح مني، حتى لو رجعنا إلى سوريا، ما حصل حصل والجرح لن يندمل، وإلى الآن الناس داخل السجون تتعذب وتموت وما زال الناس يُعتقلون، ردّ الاعتبار هو أن تقف الاعتقالات أولاً.

والاعتذار من المعتقلين والمعتقلات كان يجب أن يتم ونحن في الداخل، الاعتذار لا قيمة له إذا أتى متأخرًا، بالنسبة لي لا أريد أي شيئٍ لنفسي، بل أريد لبناتي حياة أفضل، فهما ليس لهما أحد غير الله، أريد أن تتعلم بنتيّ لأني انحرمت من التعليم، وانحرمت من حياتي، ولا أريد أن تُعاد مأساتي مع بنتيّ، أريد لبنتيّ أحسن تعليم والصحة وكل شيء.

رغبت بتوثيق قصتي لأني يجب أن أحكيها كي لا تكون كتابًا يطوى، وإذا لم أحكِ أنا القصة فمن سيرويها ومن سيروي ما حدث، هي رسالة بالنسبة لي، وحتى لا يحدث معنا كما حدث بعد جرائم الثمانينات وسكتنا فتكررت معنا الجرائم، وإذا سكتنا مجدداً مثل الغنم وأتى ابن مسؤول أو أي متسلّق ليحكمنا من جديد وعدنا إلى البلد وكأن شيئاً لم يحدث وسكتنا عن الجرائم التي ارتكبت فستستمر. نحن تعرضنا لأبشع جريمة في القرن، جريمة حرب، ولا شيء قادر على إسكاتي لأنها بالنسبة لي أمانة في عنقي، كثير من النساء أمنّني على حمل رسائل وقصصًا من داخل السجن، وكن يقلن لي: "إياكِ أن تسكتي"، أنا حلفت يمينًا بالله وأنا داخل المعتقل أن لا أسكت، وربما طالت مدة اعتقالي جراء ذلك.

أسفي على النساء المثقفات والأسماء الكبيرة اللواتي ينتقلن من بلد إلى بلد ويتحدثن باسم المرأة السورية، أين هن؟ ولماذا لا يبحثن عنا! ليس كافيًا لهن المكانة الهامة، والكميرات التي صورتهن، والمقالات التي كتبنها، عليهن البحث عن المعذبات والمعذبين لإيصال أصوتنا إلى كل العالم، وهن بذلك سيرتقين، لماذا لم يسألون عن رحاب كيف ماتت؟ وفاتن رجب أيضًا، هل تكفي الحملات وحمل صور المعتقلين والمعتقلات! لا، لا يكفي، لا يوجد تواصل بيننا، وإن وجد فيكون بفوقية، هن الطبقة الأرستقراطية ونحن الطبقة الكادحة، نحن دفعنا الثمن من جميع الجهات، وإن لم يحصل تغيير ستعود المعارضة إلى البلد في المستقبل وسيتم تكرار ما حصل.

المعارضة عبارة عن كتل بعثية مبعثرة بين الدول، تربوا تربية بعثية أرستقراطية، أنا لا أنكر وجود نساء جيدات عملن وغيّرن، لكني أتحدث عن هؤلاء الذين وصلوا إلى مراكز السلطة وللمنظمات الدولية، بينما الأجانب يأتون إلينا من أوربا ليسألوا عنا، ما الذي يجبرهم على ذلك! أولاد البلد لا نراهم، هناك الكثير من المنظمات الدولية مثل منظمة العفو الدولية، تواصلوا معي حين وصلت إلى تركيا من أجل الاستماع إلى شهادتي وتوثيقها، وحضروا إليّ في أورفة حيث أتواجد، وكان بإمكانهم أن يبقوا في إسطنبول ويطلبوا مني الحضور ويعطوني أجرة المواصلات، لكنهم جاؤوا إليّ، وهذا هو عتبي على المعارضة.

زلغوطة زينب[4]*

---

[4] - حوار أجرته الكاتبة مع زينب عبر WhatsApp))، في 2019/2/6، مدة الحوار: ثلاث ساعات وخمسون دقيقة.

* لوحة الغلاف: سارة خياط

سارة

أنا زينب متزوجة وعندي أربع بنات وولد، عمري تسعة وأربعون عامًا، أقيم حاليًّا في تركيا مع زوجي وابنتَيَّ وابنِي بعد تهجيرنا من بلدنا القابون، إحدى بناتي تسكن في الشام، والأخرى مقيمة في ليبيا.

تركت الدراسة وأنا صغيرة، ولم أحصل على شهادة التاسع لأني تزوجت. قبل الثورة كنت ربة منزل فقط، ولم أكن بحاجة للعمل لأن أحوال زوجي كانت جيدة، لكن الوضع اختلف في تركيا، واشتغلت في مطبخ لإعداد المونة.

قبل الثورة كانت حياتي عادية، وعندما قامت الثورة في مصر كنا نتابعها عبر شاشة التلفزيون، وكأنها في بلدنا، كنّا أنا وعائلتي متفائلين بها كثيرًا، وكنت أشعر أن مصر بلدي وأني أشارك معهم في المظاهرات، وكنا ندعو الله أن تقوم الثورة في سورية كي نستعيد كرامتنا وحريتنا، لأن بلدنا ليست لنا.

بعد الثورة شاركت في أول مظاهرة خرجت في القابون، بالرغم من أنّ القابون كانت محاطة بالمخابرات الجوية والشرطة المدنية والعسكرية والحرس الجمهوري والوحدات الخاصة، رغم كل ما يحيط ببلدنا ووضعها الصعب لا أعرف كيف خرجنا بالثورة!

المشاركة في الثورة

بعد مظاهرات درعا وتأثرنا الكبير بحادثة المسجد العمري، خرجت مظاهرة في القابون يوم الجمعة في الواحد والعشرين من آذار عام 2011 نصرة لأهالي وأطفال درعا تمّ فيها تشييع فتاة من منطقتنا، وكان الأمن والشرطة موجودين منذ بداية التشييع إثر وشاية وبعد أن دخل المتظاهرون إلى المقبرة ودفنوا الفتاة، وكان معهم زوجي وإخوتي الستة وابني الذي يبلغ ثلاثة عشرة عامًا، صعد فتًى يلبس الشماخ ويدعى أبا درغام على سقف بوابة المقبرة، وحمل بيده الشماخ ولوّح به وقال: "الله أكبر"، وبدأ الشباب يهتفون للحرية فهجم الأمن والشرطة عليهم مباشرة، وتعاركوا معهم بالأيدي، وانتهت المظاهرة دون أن يعتقلوا أحدًا، وعاد الشباب إلى منازلهم.

عندما عاد ابني الصغير ذو الثلاثة عشر عامًا قال لي: "ماما نحنا خرجنا بمظاهرة، وقلنا حرية مثل مصر وتونس ولم نخف من الأمن، وأنا طلعت بالمظاهرة وأنتِ ما طلعتي، كتير كانت حلوة راحت عليكِ ماما". لقد فرح جدًّا بخروجه في المظاهرة، فقد كان لدينا خوف شديد من النظام، وكنا لا نجرؤ حتى على الحديث مع عسكري صغير، لأنه سيخرب بيتنا بعدها، وسيتم جرّ من تجرأ عليه إلى الأفرع الأمنية، ولن يعلم أهله أين هو.

ثم خرجت مظاهرة في منطقتنا مساء يوم الأحد من مسجد أبو بكر الصديق والمعروف بالجامع الكبير، وكان الأمن بانتظارهم إثر وشاية أيضًا، وما أن هتف الشباب: "الله أكبر"، حتى هجم الأمن وضربوهم وقبضوا على بعض منهم وفضوا المظاهرة، لكنهم أفرجوا عنهم بعد حوالي عشرين يومًا.

بقينا بعدها مدة خمس عشرة يومًا بدون مظاهرات بسبب التواجد الأمني، فأصبحنا نذهب إلى برزة كمنطقة جديدة، ولم تكن حينها قد شاركت في الثورة، وبدأنا نشارك في المظاهرات هناك، وشاركنا أيضًا في اعتصام دوما خلال نهاية الشهر الرابع عام 2011، وحصل خلاله إطلاق نار.

بعد اعتصامنا في دوما أصرينا على خروج المظاهرات من بلدنا القابون، فخرجت مظاهرة في بداية الشهر الخامس وصلت إلى الشركة الخماسية، أي قبل ساحة العباسين بقليل، وقد شارك فيها أولادنا وإخوتنا وجيراننا، ولم تشارك فيها النساء، لكننا انتشرنا في منطقة الأتوستراد خوفًا على رجالنا وأولادنا، وعندما وصلوا إلى الشركة الخماسية هجم الأمن عليهم واستشهد خمسة شباب، وكانوا أول خمسة شهداء من القابون.

في اليوم التالي خرجت مع النساء خلال التشييع وهتفنا، يومها خرجت أنا وأختي، لكن زوجي لم يسمح بأن تخرج البنتان معنا لأنه خاف عليهما من الأمن لأنهما صبايا صغيرات، إحداهن كانت في سنتها الجامعية الأولى في كلية الإعلام والثانية كانت في الصف العاشر، وبعد أن انتهينا من التشييع، عدت إلى منزلي فلم أجدهما لأنهما كانتا تشاركان في المظاهرة، وقد أحضرهما إلى المنزل أخي وشفع لهما، ومنذ ذاك الوقت بدأت مشاركة النساء في المظاهرات.

كنتُ أنا وأختي وبناتي وصديقة لي تقيم حاليًّا في ليبيا، نشارك في المظاهرات أينما خرجت في دوما، حرستا، شارع بغداد، الميدان، برزة، كفرسوسة، المزة، ومازلت أذكر حين تساقط الثلج علينا في مظاهرة المزة في الثامن عشر من شباط عام 2012.

لم أترك أي مظاهرة أو تشييع لم أشارك فيها، وكنت معروفة في المظاهرات لأني كنت أزلغط، وكان الجميع يحبون زلغوطتي لأن صوتي قوي، وكنت طوال هتافهم أزلغط، وكان صوت زلغوطتي يصل إلى أول المظاهرة حتى لو كنت في آخرها، وكنتُ أشعر أنّ من واجبي أن أشارك في التشييع لأزلغط للشهيد.

كان ابني يُشارك أيضاً في المظاهرات، حتى أنهم طلبوا منه في المدرسة أن يكتب تعهدًا بعدم المشاركة في المظاهرات، وتمت ملاحقته من قبل الأمن عدة مرات، لكنه كان يهرب منهم ويدخل إلى المنزل ويخلع اللباس المدرسي ويجلس. ورغم أنه كان متفوقًا في دراسته لكني منعته من الذهاب إلى المدرسة بسبب كثرة حوادث الخطف من قبل الشبيحة الذين كانوا يأتون من عش الورور وحي تشرين، ويدخلون إلى بلدنا بفانات، وينتظرون أمام المدارس ويقومون بخطف الطلاب ثم يقتلون بعضهم ويرمونهم عندنا داخل البلد، ويطلبون فدية مقابل الإفراج عن البعض الآخر.

في البداية اقتصر نشاطنا على المشاركة في المظاهرات، ثم امتد إلى كافة الأنشطة السلمية، كنت أذهب إلى سوق الحميدية، أشتري القماش وأفصله، وأُحضر العصيّ لأصنع أعلام الثورة من أجل رفعها أثناء المظاهرات، وكنت أطبع القمطات التي كان الشباب يضعونها على رؤوسهم وأخيطها، وكنت الوحيدة التي تجيد صنعها، وكنت أطبع على القمطة إما "الله أكبر" أو "لا إله إلا الله"، وأثناء ذلك كنت قد تعرفت على

شاب في سوق الحميدية، وخلال الحديث أخبرته بأني من الثورة، وأمّنت له، سبحان الله الأمان بالله، وأخبرته بأن أريد أن أطبع على القماش لكنه لم ينجح معي، فشرح لي بأني أحتاج إلى قالب من الحرير، فسألته: "هل تستطيع أن تفصّل لي هذا القالب؟"، فقال: "نعم، ولكن عليكِ أن تأخذيه من منطقة الحجر الأسود"، وكانت خلالها المنطقة في قمة مظاهراتها، وكان الانتشار الأمني فيها كثيفًا، وخاصة بعدما هجم الأمن على المتظاهرين وأحرقوا عدة سيارات، فأخبرته بأني موافقة على إحضارها من هناك، ولم أجرؤ على إعلام زوجي بالأمر، وكان علي أن أمرّ من حواجز شارع بغداد والعباسيين وحجم القالب كبير نصف متر بربع متر أي بحجم لوحة، إطاره من الخشب وداخله حرير.

وبالفعل خرجت وحدي لإحضاره وكنت أشجع نفسي خلال الطريق، وعندما عدتُ إلى بيتي اتصل زوجي وسألني: "أين كنتِ"، فأخبرته أني كنتُ في الحجر الأسود، ولن أنسى ما قاله لي: "الله لا يعطيكِ العافية، ما الذي دفعك للذهاب إلى هناك!" كان يعرف لماذا ذهبت، فأنا لا أُخبِئ عليه أي شيء، وأي مشاركة لي في الثورة كان يعرفها، لأن وضع البلد لم يكن على ما يرام، وفي حال تم اعتقالي، لا سمح الله، يجب أن يعرف مكاني وعلى أي حاجز كنت أو في أي فرع أنا. وكنا نشارك في الثورة سويةً كعائلة، مع ابني وإخوتي، حتى إنّ أمي في إحدى المرات قالت لإخوتي، وقد استشهد أربع منهم في الحرب، "أنتم تخرجون مع أختيكما وهما لديهما أولاد، فلماذا تترُكهما تخرجان!" فقالوا لها: "تريدان الخروج، فلتخرجا في علمنا أفضل من خروجهما من دون علمنا، هذه حريتهما، وهما ترغبان بإبداء رأيهما".

كنا نخرج بعد صلاة الظهر يوم الجمعة، وكنا يوميًّا نصلي العشاء ونخرج في مظاهرة من أول القابون إلى البلدية، لم تنقطع المظاهرات إلى أن استشهد اثنا عشر شابًّا، حاولوا يومها الوصول إلى ساحة العباسيين لكنهم لم يستطيعوا، ووصلوا إلى شركة سيرونيكس، وطلع الأمن واستخدم الغاز المسيل للدموع وأطلق الرصاص بغزارة على المتظاهرين، وبالإضافة إلى استشهاد اثني عشر شابًّا أصيب حوالي المئة، هربنا من الأمن وأسعفنا الشباب، ولم يكن هناك أي شخص مسلح في المظاهرة.

لم يتسلح الشباب إلا بعد أن فُرض عليهم الأمر، خلال معركة سميت بمعركة الباصات، وكانت على الطريق السريع، بعد أن حاصر الأمن بيت شابٍ يدعى بدر الحموي كان يُنظم المظاهرات وقتلوه، وشى به عوايني من عندنا من القابون كان يخرج معنا في المظاهرات ويدّعي أنه ضد النظام، حتى من تسلح من الشباب لم يكن يُظهر ذلك علنًا. ولم نكن نعرف الجيش من الأمن لأن جميعهم كانوا يرتدون الزي العسكري ويضعون الخوذ، بعضهم يرتدون البذلة ذات اللون الزيتي، وبعضهم يلبسون اللباس المموّه، مثل ملابس الوحدات الخاصة، حتى عندما كانوا يقتحمون بيوتنا لم نكن نستطيع التمييز بينهم.

استمرينا في الحراك السلمي مدة طويلة حتى معركة الأول من رمضان في عام 2012، التي استشهد فيها أخي الثاني بعد أن أصيب في الغوطة، وكان قد ترك القابون وذهب إلى الغوطة متأثرًا باستشهاد أربعة من أصدقائه كانوا ضمن الشبان الاثني عشر الذين قتلهم الأمن، وكان جميع المتظاهرين عزلاً من السلاح، حتى إنهم كانوا يكشفون عن صدورهم أمام الأمن ليوضحوا لهم أنهم عزّل، لكن عناصر الأمن كانوا يطلقون

النار عليهم، وكنا في بعض الأحيان نضربهم بالحجارة كأطفال فلسطين، وبعدها رفض أخي الخروج في المظاهرات، لأنه فقد الأمل بالنشاط السلمي والتحق مع بعض شباب الغوطة الذين كانوا يطلقون النار على الحواجز على طريق عين ترما.

بعد استشهاد الشبان الاثني عشر، توقفت المظاهرات في القابون، وقمنا بتأبينهم، وحضرت التأبين منتهى الأطرش ابنة المجاهد سلطان باشا الأطرش، وكان معها وفد من النساء والرجال، وكرمت النساء اللواتي كنّ يشاركن في المظاهرات، وحضرت أيضًا رزان زيتونة وفدوى سليمان رحمها الله وفارس الحلو، وكنت خلال التأبين أنا وأختي وصديقتي التي كنت أخرج وإياها في المظاهرات، وطلبت منا الأطرش، وكنا على صلة جيدة بها، الصعود على المنصة خلال التأبين، لكن صعود المرأة على المنصة بين الرجال قضية كبيرة في القابون، رغم أن إخوتي وزوجي لا يعتبرونها مشكلة.

كانت النساء حاضرات خلال التأبين خلف الخيمة الكبيرة بشكل غير ظاهر، أما نحن فكنا واقفات مع الناس، كما كنا نمشي مع إخوتي وزوجي وبقية الرجال صفًا واحدًا وكتفًا إلى كتف خلال المظاهرات، وبعد ثلاثة أيام دخل الأمن إلى القابون بعد أن كان يتواجد حولها خلال التأبين، ولم يقترب منا رغم أننا تظاهرنا وزرعنا شجر الزيتون مع فدوى سليمان وجلنا على منازل الشهداء وقمنا بتعزيتهم ومواساتهم.

وعندما انتهى التأبين في اليوم الثالث، انقطعت الاتصالات ودخل الأمن في الساعة الثانية فجرًا إلى القابون واقتحموا المنازل، وكان الشباب في بيوتهم نائمين ولم يتوقّع أحد دخولهم هذا، واعتقلت المخابرات الجوية حوالي خمس مئة شخص، واعتقلوا إخوتي في الساعة الثالثة والنصف فجرًا، ومنعوا أي شخص من الخروج من بيته، وإذا حاول أي شخص مدّ رأسه من النافذة كان عناصر الأمن يصرخون ويصوبون البندقية عليه ويقولون له: "فوت انضب في بيتك"، وكان أمام كل بناء عسكريٌ ومفرزة، وبقوا في القابون ثلاثة أيام وأغلقوا البلد، ومنعوا الدخول إليها والخروج منها، وأغلقت المدارس والأفران والمحلات التجارية، وشلّت الحركة تمامًا، وبعد ثلاثة أيام انسحبوا وخرجوا، وكانت هذه أوّل حملة اعتقال تمارس بحقنا.

بدأت وفود من القابون تتواصل مع فرع الجوية للإفراج عن الشباب، لكن المخابرات الجوية اشترطت قبل إطلاق سراح الشباب أن تتوقف المظاهرات، وبدؤوا بإطلاق سراح بعض المعتقلين، وكان من ضمنهم إخوتي الذين أطلق سراحهم من فرع الجوية بعد خمسة وعشرين يومًا، لكنهم عادوا وأفرجوا عن الجميع لاحقًا. وما زلت أذكر لحظة اعتقالهم، عندما غطوا رؤوسهم بملابسهم وبدؤا بضربهم حتى وضعوهم في الباصات، وضعوا كل عشرين شابًا في باص واحد، وأخذوهم إلى فرع الجوية، ولم يعتقلوا النساء خلال هذه الحملة، إلى أن اعتقلتُ فكنتُ أول امرأة يتم اعتقالها من القابون.

الاعتقال

تمّ اعتقالي في الرابع عشر من تشرين الأول عام 2011، من قبل فرع الجويّة، وكانت سيارات الأمن، وهي سيارات أوبل ستيشن طويلة، تجوب الشوارع يوميًّا بين الحارات والأزقّة، وفي حال وجدوا شابين واقفين

معًا كانوا يعتقلونهما. وبعد أن منعوا المظاهرات في منطقتنا أصبحنا نخرج من المدارس، وقبل يوم من اعتقالي، اجتمعنا مساءً وجهزنا اللافتات وبخاخات الدهان واتفقنا على أننا سنخرج من المدرسة ووزعنا الأدوار، منا من ستحمل اللافتات ومنا من ستكتب على الجدران.

وفي اليوم التالي جمعتُ كلّ تجهيزات المظاهرة ووضعتها في حقيبتي، ورافقتني ابنتي، والأخرى وتدعى بشرى كانت تلميذة في المدرسة التي سنتظاهر أمامها، وكانت تدعى مدرسة "أحمد ليلى"، وكانت إدارة المدرسة قد أرسلت لي شكوى لأن ابنتي بشرى كانت تتظاهر داخلها وعلى مقاعد الدراسة، وكنت بصدد إرسال تعهد لهم بأنها لن تتظاهر بعد الآن، حتى أنها أحيانًا وخلال طريق عودتها من المدرسة إلى المنزل تقوم بمظاهرة هي وصديقاتها حتى ولو كنّ خمس بنات فقط، كن يهتفن للحرية ويرددن: "الشعب يريد إسقاط النظام". ذهبنا إلى المدرسة وما أن بدأنا بالتجمع والإعداد لبدء المظاهرة، حتى حضرت سيارات المخابرات الجوية وحاصرت المدرسة، فجمعتُ اللافتات التي كنت قد وزعتُها على الطالبات حفاظًا على حياتهن، وطلبت منهنّ أن يذهبن إلى بيوتهنّ، لأننا لن نخرج في مظاهرة، طالما الأمن موجود، وبقيت أنا مع بنتيّ، ثم ذهبت إحداهما لترى صديقاتها داخل المدرسة، وبقيت أنا مع ابنتي الأخرى، فقلت لها: "إن المظاهرة فشلت، والله لن نرجع إلى المنزل دون أن نفعل شيئًا"، فأخرجت البخّاخ، وسألتني ابنتي عن ما أود كتابته على الجدران في الشارع، وفي تلك الأثناء كان الحديث عن الحوار مع النظام سائدًا، فقلت لها اكتبي: "ارحل يا حمار ما في حوار"، وبدأت ابنتي بكتابة الجملة بواسطة البخاخ، من بداية الجدار حتى نهايته، بخط واضح وكبير.

خرجت مدرّسة الرسم من المدرسة، وهي موالية للنظام، وما أن شاهدتنا نكتب على الجدار، حتى أجرت اتصالاً هاتفيًّا، فقلت لبنتِي: "إنها تتحدث مع الأمن، وعلينا الابتعاد عن المكان"، وضعت البخاخات في حقيبتي لنستخدمها مرّة أخرى، وبعد عشرة أمتار مشيناها وجدت سيارة الأمن الستيشن، واقفة أمامي وطلب منا أحدهم أن نركب فيها، بعد أن فتح الباب الخلفي للسيارة المخصص للبضائع، فسألته: "إلى أين؟"، فأشار إلى المكان المخصص للبضائع داخل السيارة، فصرخت وسحبت بنتِي وركضنا حوالي خمس مئة متر حتى وصلنا إلى الشارع الرئيسيّ، وكان الأمن خلفنا في السيارات، وكان موقع المدرسة في أوّل البلد عند البلدية، وهنا وجدت سيارة بداخلها ثلاثة شباب في مقتبل العمر، فطلبت منهم إيصالي وابنتي إلى داخل القابون، كي أختبئ داخل البساتين عند أحد أقربائنا، وصعدنا معهم في السيارة ـ أحد هؤلاء الشباب فجّر نفسه في باص أمام تمثال صلاح الدين قرب سوق الحميدية لاحقًا ـ وطلبت من الشاب الذي يقود السيارة أن يُسرع لأن الأمن يلاحقنا، وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة خرج الأمن مقابلنا وأحاطوا بنا، ونزلت من السيارة وأنا ممسكة بحقيبتي وابنتِي، وقال لي أحدهم: "لماذا تقومين بهذه الأفعال؟" فأجبته: "لماذا تلحقونني؟"، فقال لي: "انظري أنا صوّرتك!" وكان قد صوّرني وأنا أكتب على الجدران، وبدأ يصيح فتحدثت معه بنفس أسلوبه و"طلعت عليه بالعالي" وقلت له: "ابتعد عني، لماذا تقومون

بملاحقتي!" فقال لي: "إنتِ عم تبخي على الحيطان، إنتِ جاية تتظاهري"، فأجبته: "ومن قال لك ذلك! أنا كنت ذاهبة إلى مدرسة بناتي كي أقدم تقريرًا طبيًّا لابنتي"، وفجأة هجم عليهم شاب، وكان وحيداً لأهله وعمره خمسة عشر عامًا، وكان من آل رحمة، وبدأ يقول لهم: "ماذا تريدون منهما وهما امرأتان"، لقد خاف علينا هذا الشاب، لكنهم ضربوه وأبعدوه، وأخذت ابنتي وهربت، وقد استشهد هذا الشاب لاحقًا إثر رصاصة أصابه بها قنّاص عندما كان يكتب على الجدران.

بعد أن هربت أنا وابنتِي، طرقتُ باب أحد المنازل كي نختبئ فيه، لكنّ أصحاب المنزل خافوا ولم يفتحوا لنا، وركضنا ودخلنا في شارع ضيق وحاصرتنا سيارتا أمنٍ من الجهتين، فتوقفت ولم يعد لدي أي مجال لأهرب أنا وابنتي، وأدخلونا إلى محل ألبسة كان هناك، ولم أكن أحمل هويتي لأني أفرغت حقيبتي قبل خروجي من منزلي ولم أترك فيها سوى هاتفي وبعض النقود، حتى الذهب الذي كنت أضعه تركته عند جارتي وأوصيتها أن تعطيه لزوجي أو لبناتي، كنت أشعر أن شيئًا ما سيحدث، ومع ذلك ذهبت للمظاهرة ولم أكن خائفة.

وفي داخل المحل بدأت أقول للضابط: "خذني واترك ابنتِي"، فقد كنّا سمعنا قصصًا كثيرة وخفت عليها، وقال: "لا، نريدكما معًا"، وأمسك هوية ابنتي وقال: "نريدك مع بنتك"، فأخبرته أنّ ابنتي عزباء، ثم حضر اثنان من وجهاء القابون، أحدهما ينتمي إلى حزب البعث والآخر له علاقة مع النظام، وطلبا من الأمن أن يتركونا، لكنهم رفضوا، حتى إنهما عرضا عليهم مالاً، ولكنهم أصروا على الرفض.

دام احتجازنا في المحل حوالي مدة ربع ساعة ريثما حضرت مؤازرة لهم، أعتقد أنهم كانوا خائفين من أن يهجم عليهم أهالي القابون. وأثناء احتجازنا في المحل طلبت من ابنتي أن تنكر خلال التحقيق معها أنها شاركت في المظاهرات، وأن تقول لهم إنها كانت في المدرسة، وخرجنا منها سوية حين تم إلقاء القبض علينا، كنت أحاول أن اتفق معها على قصة واحدة، حتى لا نقول في التحقيق كلامًا متناقضًا فيُستغل ضدنا.

أخذونا إلى قسم شرطة القابون وبقينا في النظارة لمدة نصف ساعة ثم أخرجونا، حتى إن رئيس قسم الشرطة قال لعناصر الأمن حين حضروا: "لماذا تريدون أخذهما، دعوهما، إنهما امرأتان!" لكنهم رفضوا، كنا أنا وابنتي أوّل من اعتقل من النساء في القابون.

حين أخرجونا من النظارة، كان الضابط ضخم الجثة يرتدي طقمًا ومعه جهاز لاسلكيّ وحوله عساكر من الأمن، وفي الخارج كانت تقف سيارات سوداء اللون، وتم تطويق القسم، وحين أحضروني أمام الضابط قام أحدهم بضربي على وجهي بقبضة يده وركلني بقدمه، "وقتها أكلنا قتلة مرتبة أنا وابنتي وأخذونا".

في ذلك الوقت لم أكن أعلم أنهم اعتقلوا الشابين اللذين قاما بمساعدتنا حينما صعدنا معهم في السيارة، لكنّ الشاب الثالث هرب، أحدهم مات كما قلت سابقًا، وأحدهم هو الآن مع النظام على حواجزه.

فرع المخابرات الجويّة

أدخلونا إلى فرع الجوية أنا وابنتي، وأخذوا أغراضنا وحقيبتي التي كان بداخلها علب الدهان واللافتات والجوال والنقود، ثم قامت امرأة بتفتيشي بشكل دقيق أنا وابنتي التي كان عمرها ستة عشر عامًا، حتى إنها حلّت شعري المعقود، ثمّ أعدتُ وضع حجابي. وقد تمّ اعتقالنا في الساعة الثانية ظهرًا، واستمرّ التحقيق معنا حتى الثانية فجرًا، وكانوا ينقلوننا من غرفة إلى غرفة، وكل ضابط كان يسجل ضبطًا وحده، وكانوا يصفعوننا أنا وابنتي على وجهَيْنا، بالإضافة إلى ركلنا بأقدامهم، وأول سؤال وجه لي هو: "لماذا تتظاهرين، وبماذا قصّر الرئيس معكم، ماذا تريدون من التظاهر، أنتم تأكلون وتشربون وتعملون لماذا تفعلون بلبلة في البلد؟"

حين تم اعتقالنا وضعونا في غرفة مع الشابين اللذين صعدنا معهما في السيارة وساعدانا، وأداروا وجوهنا إلى الحائط، وعندما كان الضابط بسام وهو من حماة يوجه الصفعة للشاب الأول كان أثرها ينتقل إلى ابنتي الواقفة في آخر الصف، ومن شدة الضرب يومها لم أعد أستطيع الوقوف على قدمي.

كنت خائفة كثيرًا على ابنتي، ولن أنسى ما حييت عندما دخلنا إلى النظارة، وكان هناك أربعة رجال يمسكون بنا، وكنت وقتها متعبة جدًّا نتيجة الركض والتحقيق والوقوف والضرب، وكانت أعصابي متلفة، وسمعت صوت شخص، دون أن أراه، يقول لأحدهم: "اخلع حجاب زينب وابنتها"، فقلت له: "أنتم قبضتم علينا من أجل أمر آخر، ما دخل الحجاب؟ وما شأنكم وحجابي؟!" وسمعت وقتها صوت آخر يقول له: "على حجاب زينب وابنتها لا أحد يقترب"، وعلمت أن من قام بالرد هو ضابط وليس عسكريًّا لأنهم التزموا بما قاله وابتعدوا عني، ثم أدخلونا إلى النظارة.

كنت مع ابنتي طوال فترة اعتقالي التي استمرت شهرين، رغم أنهم هددوني بأنه سيتم تفريقنا وكانوا يقولون لي: "إذا أخذنا ابنتك إلى غرفة أخرى وأسمعناكِ صوتها ما الذي سيحصل لكِ؟"، وكنت أقول لهم دائمًا: "خذوا ما تريدون، ولكن لا تُبعِدوا ابنتي عني".

بقينا في النظارة أنا وابنتي وحدنا، ولم يزرنا أحد، ولم نستحمّ، ولم يكن لديّ حتى ملابس داخلية، وقد انزعجت لأن أهلي لم يسألوا عني، لكني علمت بعد خروجي أن زوجي وأشخاصًا من القابون حاولوا زيارتنا لكنهم لم يستطيعوا، ومنعوهم من إدخال أي غرض لنا. كان هناك حمام في النظارة لكنه كان مظلمًا وبدون إنارة والماء فيه بارد جدًّا، وقد استغربت كثيرًا لأني كنت أسمع من بعض المعتقلات أنّهم كانوا يقدمون لهنّ الشامبو والشاي، لكنّهم لم يقدّموا لنا شيئًا.

أما بالنسبة للطعام فابنتي خلال الأسبوع الأول لم تستطع أن تأكل أبدًا، وكانوا يطبخون البرغل دون أن تتم تنقيته من البحص، ومرقة الفاصوليا سيئة والخبز لا يؤكل.

لم أعرف كيف كانت الأيام تمر، كانت تمر كطلوع الروح، ولم نكن نعرف الليل من النهار، ولم يكن هناك نور أو إضاءة، فالمكان دائم العتمة، كان شيئًا مخيفًا ومظلمًا وباردًا، بالإضافة إلى الرطوبة والقذارة، كان شفاط

الهواء يعمل دائمًا، وفوق البرد كانت يزيد من شعورنا بالصقيع. لم نكن نرتدي ملابس الشتاء، رغم أننا كنا في الشهر العاشر من السنة، وكنت أرتدي "المانطو" فوق كنزة صيفية وبنطال.

بعد فترة تعودنا على حياة السجن، وكنا نمضي النهار أنا وابنتي ونحن نتحدث بصوت منخفض عما فعلناه قبل اعتقالنا، وكيف ركض الأمن وراءنا، وكنا نخطط بعد خروجنا من السجن لما نريد فعله، وكنا نخمن كيف سيكون رأي أهل البلد بعد اعتقالنا، وهل ستختلف نظرتهم تجاهنا.

لم يعطونا بطانيات إلا بعد عدة أيام رغم أن الطقس كان باردًا، وكل يوم كان هناك تحقيق، كنا في الطابق الثالث تحت الأرض، وكانت الغرفة صغيرة جدًّا، حتى إنني لم أكن أستطيع مدّ قدمي عندما أستلقي، وكنت أضع يدي على ابنتي وأضمها إلى صدري من أجل أن تنام، ولم أكن أجرؤ من شدة خوفي عليها أن أنام وأتركها، فقد كنت أخاف إذا نمنا أن يدخل علينا أحد من عناصر الأمن، وكنت حين أسمع وقع أقدامهم على الدرج أعلم أن هناك تحقيقًا، فالتحقيق معنا كان يتم في طابق النظارة التي كنا فيها، وأنا منذ دخلت وحتى خروجي لم أرَ الشمس.

كان في غرفة التحقيق طاولة صغيرة وكرسي، وبجانبهما بساط الريح، وكان الضابط ينزل وحوله العساكر، ومعهم عصي وحبال، وعندما كنت أسمع وقع أقدامهم، كان جسمي يرجف ولوني يصفّر، حتى الآن عندما أشاهد رجال الشرطة في تركيا أخاف وأرجف، وأحاول أن أتجنّبهم، لأنه أصبح لدي فوبيا فظيعة منهم.

لم يتوقف التحقيق اليومي معنا إلا بعد خمسة عشر يومًا، كانوا خلاله يوجّهون كلامهم لي، وفي إحدى المرات قال لي المحقق: "ليش عم تتظاهروا إنتو النسوان ورجالكم محافظين، والنسوان ما بتطلع على هيك شغلات، النسوان مستتة بالبيت"، لكني أنكرت أنني شاركت بالمظاهرات، فعرض المحقق صورتي وأنا في مظاهرة، وكنت أضع نقابًا أسود اللون، وكانوا خلال المظاهرة يطلبون منا نحن النساء أن نغطي وجوهنا كي لا يتم تصويرنا، ولكني في الأحوال العادية لا أضع نقابًا بل "إيشارباً" عاديًّا، لكن المحقق عرفني من عيوني، ومن التقط الصورة كان يستهدفني، فسألني المحقّق: "أهذه أنتِ أم لا؟" وأجبته: "نعم أنا"، فقال: "كيف تقولين إنك لم تتظاهري؟!" فأجبته: "لم أتظاهر"، فصرخ قائلاً: "هل تريدين أن أشغّل الفيديو وأنتِ تهتفين؟"، فقلت له: "نحن عندما يموت شخصين أو ثلاثة، تخرج النساء ليشاهدن ما يحصل ولمواساة أهاليهم، وأنا خرجت مثل جميع النساء اللواتي خرجن، أنا وزوجي منشغلون بحالنا ولا نقترب من أي شيء".

لم أذكر كلمة استشهاد كي لا أستفزّه، لكنّ المحقّق لم يصدّق كلامي ولا التبرير الذي قلته، وخرجت من المعتقل ولم أغيّر أقوالي.

كان الضرب بالعصا والحبال والصفع بالأيدي والركل بالأرجل. وفي إحدى المرات قال لي أحد العناصر وهو الشخص الذي كتب إفادتي خلال التحقيق، وكان يدعى أبو عبدو ويسكن في القابون ويعرف أهلي: "يا زينب، نحن لا نريد أن تكبر المسألة، ويُقال إننا نأخذ النسوان، وأنتِ تعلمين وضع النساء في الشام، ونحنا بدنا نلفلف القصة، وما بدنا الشام تفز أكتر من هيك، وبدنا الأمور تكون محصورة، وما تطلع لقلب الشام"، كان هذا الكلام بيني وبينه، ولكن حين يكون الضباط موجودين كانت طريقة كلامه مختلفة، ولم أرد عليه

لأني خفت أن تكون مكيدة بهدف أن أنزلق بالكلام، وأنا حين اعتقلت مع ابنتي لم تكن المظاهرات قد خرجت في الشام، باستثناء مظاهرتي الحريقة والمرجة وتوقفت بعدها، ولكن بعد ذلك خرجت المظاهرات فيها.

أحد الأشخاص قال لزوجي خلال فترة اعتقالي: "إن هناك من يستطيع إخراج زوجتك وابنتك، ولكنه يريد مليون ونصف ليرة سورية"، وافق زوجي على الدفع واتفقا على أن يتم اللقاء في المزة، ولكن تبين له أنهم نصابون.

عندما كنت في الأمن الجنائي حقّق معي ضابط برتبة عقيد من أمن الدولة، ويدعى ر.ع، وكان من اللاذقية ويسكن في القابون، وكان يتحدث معي بلطف كي لا يخيفني، ويهدئ أعصابي وقال: "أنا أسكن في القابون، وأنا أعرف أن نساء القابون محافظات، وأعرف إنكن ما بتطلعوا ولا بتفوتوا ورجالكم بيخافوا عليكن"، فقلت له: "صحيح، رجالنا بيخافوا علينا وأنا ما طلعت"، وبقي أكثر من ساعتين يحقّق معنا ولم يضربنا، وهو الوحيد الذي لم يضربنا خلال التحقيق معنا، لكنهم في إحدى المرات أحضروا ثلاثة شباب من الميدان، وبدأوا بضربهم أمامنا حتى إن ابنتي اصفرّ لون وجهها، وكادت تقع على الأرض، فطلب من العناصر أن يعيدونا إلى النظارة.

بقيت شهرين في الجوية وبعدها تم تحويلي إلى الأمن الجنائي - فرع باب مصلى، وكان هناك نساء داخل النظارة.

الأمن الجنائي

بقينا شهرًا في الأمن الجنائي، وكانت مساحة النظارة التي وضعونا فيها أنا وابنتي 1،30× 3 أمتار، خلال هذه المدة حقّق معنا الأمن الجنائي، وحقّق معنا أيضًا عناصر حضروا من الأمن السياسي وأمن الدولة، ومن حضر من أمن الدولة كان يدعى ر.ع، وقد شاهدته في القابون إحدى المرات بعد خروجي من المعتقل حيث كنا نريد الخروج في مظاهرة، وطلبوا مني أنا وأختي أن نتبين ونستطلع إذا كان الأمن موجودًا عند مسجد الشيخ جابر، فوجدنا الأمن والجيش في منطقة المسجد الكبير القريب منه، وكان معهم ر.ع، وحاول أن يتحدث معي لكنني ابتعدت وغيرت طريقي، خشيت أن يشاهده الناس في القابون وهو يتحدث معي، ماذا سيقولون عني إذا رأوني واقفة مع الأمن؟! سيقولون إني "عواينية" ومُخبرة، فكما كان الأمن يراقب المنطقة، كان الشباب أيضًا يراقبون، هربت ودخلت في حارة وطلبت من أختي أن لا تنظر خلفها أبدًا، ولم أدخل إلى بيتي بل دخلت منزل إحدى قريباتنا.

خلال وجودي في الأمن الجنائي جاءني ضابط في إحدى المرات، وكانت الساعة الثالثة فجرًا، وقال لي: "يا زينب، غدًا سيحوّلونك إلى المحكمة، أعطيني رقم زوجك وأمك كي أخبرهما بذلك، ليتمكنوا من مساعدتكِ في توكيل محامٍ أو في تأمين واسطة"، لم أكن أعرفه سابقًا لكن معاملته معنا كانت جيدة جدًا، أذكر من ذلك حادثتين، الأولى: عندما حوّلونا إلى الأمن الجنائي لم تعد ابنتي تأكل، خرج ذات مرة من الفرع، واشترى

"سندويشة شاورما" وخبأها في سترته، وعندما رجع إلى الفرع تظاهر بأنه يقوم بتفتيش غرفتنا ووضع سندويشة الشاورما جانبًا، ثم قال لي: "هذه لابنتك، فلتأكلها".

والثانية: في إحدى المرات أحضروا ثلاث نساء كانت قضيتهن دعارة، فقد كانوا يحتجزون في الأمن الجنائي أشخاصاً متهمين بجرائم جنائية مختلفة إضافة إلى المتهمين بالمشاركة في المظاهرات، وكان معي في النظارة سيدة تدعى أم حسين، وهي من أصل جزائري تسكن في الغزلانية، وكانوا قد اعتقلوها مع ابنها الذي كان يشارك في المظاهرات، لأنها لم تدع الأمن يأخذ ابنها فاعتقلوها معه، وقبل أن يُحضروا النسوة الثلاث قال لي: "ستدخل الآن ثلاث نساء سمعتهن سيئة، ضعي ابنتكِ بينكِ وبين أم حسين". وبالفعل اتصل هذا الضابط بأمي بعد أن أعطيته رقمها ورقم زوجي وأخبرها أن لدي محكمة صباحًا، واتصل بهاتف زوجي لكن ابنتي هي التي ردت على الاتصال، وعندما أخبرت أباها أن أحدهم يريد أن يكلمه بشأني، قال لها: "لا أريد الكلام كلهم كاذبون"، وقد اتصل هذا الضابط به ثلاث مرات حتى استطاع أن يتحدث معه، وطلب منه أن يحضر إلى المحكمة في الساعة السابعة صباحًا.

وعندما وصلت أنا وابنتي إلى المحكمة، وجدت بانتظاري زوجي وأختي ووجهاء من القابون ومحامياً له مكانة هامة وأربعة محامين آخرين من بلدنا، وأخبرني القاضي التهم الموجهة إليّ وهي، إثارة الشغب وإهانة شخص الرئيس وتنظيم المظاهرات، وتم توجيه التهم نفسها إلى ابنتي، وكان ملفنا واحدًا، وبعد أن وقّع القاضي على إخلاء سبيلي، طلب مني مراجعة محكمة في ركن الدين بعد شهر، لكن المحامي قال لي: "لا تراجعي المحكمة"، لأنهم خافوا أن يعتقلوني مرة أخرى، وأطلق سراحي أنا وابنتي في بداية الشهر الأول من عام 2012.

المداهمات

كنا ننظم المظاهرات أنا وبناتي، وفي إحدى المرات رمينا كرات في نهر بردى مرسوم عليها علم الثورة، وجميع الرسومات تم رسمها في منزلي، بالإضافة إلى نشاطات أخرى. بفضل رب العالمين لم يداهموا منزلي خلال تلك الفترة، وأول مرة تمت مداهمته عندما كان الجيش الحر والمسلحون مُحاصَرين في المبنى الذي يقع جانب بيتي، ولم يكن لدي علم بذلك، وكنت وقتها أطبع القِماط المكتوب عليهم الله أكبر وأقوم بتنشيفه في صالون بيتي الكبير، الذي يبلغ طوله عشرة أمتار وعرضه أربعة أمتار، وفجأة سمعت إطلاق نار فهرعت إلى الشرفة وشاهدت أشخاصًا يضربون النار باتجاه القابون، وكانوا يلبسون لباسًا مدنيًا وينتعلون أحذية رياضية، فقلت في نفسي: "لا يبدو من وجوههم أنهم من القابون"، فأنا لم يكن لدي احتكاك مع الجيش الحر، ولم أشارك سوى بالنشاط السلمي منذ بداية الثورة حتى آخر لحظة، وقلت لبناتي وصديقتي التي كانت تزورني: "دخل الأمن إلى البلد؟"، فركضوا باتجاه الشرفة ونظروا إليهم وقالوا: "هؤلاء ليسوا من الأمن، هذا الجيش الحر"، فأجبتهم وأنا أضحك: "شو حر ما حر، هؤلاء شبيحة"، وكان وقتها الشبيحة

من حي تشرين يدخلون مع الجيش ويلبسون لباسًا مدنيًا، ثمّ أغلقت القابون كلها، ورأينا الأمن وقد أصبح أمام بيوتنا، وبسرعة جمعت القِماط ووضعتهم في السقيفة ووضعت القالب فوق السرير، وما إن أغلقت باب السقيفة حتى خلعوا باب منزلي ودخلوا، وأخذوا هواتفنا الجوالة وبقي معنا هاتف واحد وضعته ابنتي تحت المقعد، وقعدوا عندنا في البيت، وانتشر الجيش في كامل المبنى ونصبوا الرشاشات على سطحه، ولم نكن نعرف ما يحصل، ووضعونا في غرفة وأغلقوا بابها بعد أن فتشوا المنزل.

أنا شخصيتي قوية، وعندما أتعرض لمثل تلك المواقف أصبح أقوى، شعرت أني أصبحت مسؤولة عن اللواتي كن معي في المنزل، ففتحت باب الغرفة وخرجت، ووجدتهم قاعدين في الصالون، فقلت لهم: "السلام عليكم، هل تريدون شيء؟"، وبدأت أتحدث معهم من باب المزاح، وأضفت: "هل تريدون كأسًا من الشاي أو فنجانًا من القهوة؟ أو هل أعدّ لكم فطورًا؟"، لكنهم رفضوا وقالوا: "لا نريد الأكل ولا الشرب"، وعندما كان يرنّ هاتف المنزل كانوا يرفعون السماعة، وعندما اتصل زوجي قال: "كيفك زينب، ماذا تفعلين؟"، فأشار لي الضابط بيده أن أقترب لأحدثه، وحاولت أن أعلم زوجي بأن الجيش عندنا في البيت وعليه أن لا يتحدث بأي شيء، فقلت له: "مرحبا، كيفك أبو محمد، نحن في المنزل وأمورنا بخير، ونحن في حماية الجيش العربي السوري"، وكل من اتصل من أهلي كانوا يعرفون أن الجيش في بيتنا والدبابة مقابله، والقصف وإطلاق النار حوله، وكنت أقول لهم: "لماذا تخافون علينا؟ نحن في حماية الجيش العربي السوري".

بقيت أقول هذا الكلام حتى يأمنوا لي، وهنا قال لي أحدهم: "قومي ودعي بناتك يخرجون من الغرفة"، والمدهش أنهم لم ينتبهوا للقالب الموجود فوق السرير، حتى قصاصات المناشير التي طبعناها من أجل أن نرميهم في المظاهرات كانت موجودة في أحد الأدراج ولم ينتبهوا لها عندما قاموا بفتح الأدراج وتفتيش المنزل.

جميع أقاربي لم يتوقعوا أن نخرج على قيد الحياة، حتى أن أختي التي كانت تسكن في الغوطة عندما علمت بأننا محاصرات اتصلت هاتفيًّا وردت عليها ابنتي وقالت لها: "نحن في المنزل والجيش عندنا وقاعِدات"، فقالت لها: "كل ما يحصل عندكم في المنزل والأشياء التي تقوم بها والدتك ولم يفعلوا معكن أي شيء!" وطبعًا لم يسمعوا هذا الكلام لأنهم أمّنوا لنا وكانوا جالسين معنا.

ظلوا معنا في المنزل من الساعة الثالثة عصرًا حتى الساعة السادسة والنصف صباحًا، وكانوا من فرع المهام الخاصة التابع للمخابرات الجوية وهم يحضرون من أجل الاشتباكات، وكان عليهم أن يغادروا ليدخل فريق المداهمة التابع للجيش لتفتيش المنطقة، وقبل أن يغادروا، كانوا قد أمنوا لي والأمان بالله، قال لي أحدهم: "نحن سنغادر في الساعة السادسة والنصف صباحًا، وسيدخل غيرنا إلى البلد، والأفضل أن تخرجن من هنا أنتِ وبناتك"، فقلت لرئيس الحملة وكان يجلس أمام منزلي: "ولكني لن أستطيع الخروج لأنهم لن يسمحوا لنا"، فأجابني: "عندما سأغادر سأصطحبكن معي".

وبعد أن غادر منزلي فريق المهام الخاصة، أرادوا كسر باب شقة في عمارتي لأنها كانت مطلة على المدرسة التي يتواجد فيها الجيش الحر، وكانوا يريدون دخولها ونصب الرشاشات فيها، وكانت داخل الشقة جارتي وبيت حميها، فرجوت الضابط أن لا يكسر الباب لأن من فيها نسوة وأطفال فقط وسيسبب لهم الذعر، واقترحت أن أحضرهم إلى بيتي، فقال لي: "اذهبي"، وعندما وجدوا الجيش معي بدؤوا بالبكاء، فطمأنتهم وقلت لهم: "لن يفعلوا معكم أي شيء"، وأحضرتهم إلى بيتي وبقينا حتى الساعة الثالثة فجرًا، وعندما اشتد بكاء الأطفال قال لي الضابط: "فليعودوا إلى منزلهم، فنحن خرجنا من الشقة، وابقي أنتِ وبناتك في بيتك". وفي الصباح أرسلت خبرًا للضابط، عن طريق عسكري حضر إلى بيتي، بأني أريد الخروج أنا وجاراتي، فهل أخرج أم أبقى في بيتي؟ فكان الجواب بأن نخرج، وكلّف عنصرين بمرافقتنا إلى نقطة آمنة.

أثناء وجودهم في منزلي انكسر هاتف الضابط، فطلب مني لاصقًا ليلصق هاتفه، وكانوا قد قطعوا الكهرباء عن منطقتنا، فأحضرت له اللاصق وذهبت إلى المطبخ لإحضار سكين ليقطع بها اللاصق، وبسبب العتمة أحضرت له سكينًا كبيرًا هي لتقطيع اللحم، وعندما أعطيته السكين بدأت جاراتي بالبكاء، وقلن له: "ماذا ستفعل بها!" فأجابهنّ: "سأذبحكنّ بها"، فطمأنتهنّ وقلت لهنّ: "لن يذبحكنّ، هو سيلصق هاتفه المكسور"، ولكنّ ريثما قلتُ ذلك، استولى عليهنّ الرعب لمدة عشر ثوانٍ.

في الصباح خرجنا من بيوتنا، ووجدت زوجي ينتظرني خارج المنطقة التي حاصروها في القابون، وكانت مساحتها حوالي كيلو متر مربع، وذهبت إلى منطقة تدعى أبو جرش، حيث كان يوجد مزرعة لصديق زوجي، فقعدنا فيها حتى العصر ثم رجعنا إلى منزلنا، ووجدت أنهم قد قاموا بتفتيش كل المنازل إلا منزلي، فتذكّرت ما قاله لي أحد العناصر عندما طلب مني أن أخرج وأُغلق باب منزلي بأنه لن يدع أحدًا يدخله، لكننا وجدنا دمارًا مخيفًا وبيوتًا محروقة بسبب دخول فريق المداهمات، وقد قتلوا أثناءها خمسة شبّان من الجيش الحر، فقد كانوا حاصروا خمس مجموعات منهم، في كلّ مجموعة حوالي اثني عشر شابًا، كان أغلبهم على ما أعتقد من القابون.

كانت ليلة مخيفة، فأنا عندما شاهدت الدبابة أمام منزلي وسبطانتها موجهة إلينا، لأن الإخبارية التي وصلت للأمن كانت تفيد بأن المجموعة المسلحة موجودة في عمارتنا، ناديت سائق الدبابة حينها وقلت له: "يا شوفير الدبابة يا إبني يا أخي ما في حدا بالبناية كلنا نسوان هون"، وخرجت من منزلي لأكلمه عندما لم يرد، فصادفت الضابط وهو يصعد إلى عمارتنا وقلت له: "ما في حدا بالبناية هون خلّيه يدير السبطانة عنا"، وكانت الدبابة جاهزة لقصفنا بعد أن قصفت الأبنية التي حولنا، فقال لي: "سأخبره بأن يزيحها، من يوجد في العمارة؟"، فأقسمت له بأن غالبية البيوت فارغة وأصحابها تركوها، وبأنه لا يوجد منازل مسكونة غير منزلي ومنزل ابنتي وجارتي والمنزل المقابل لشقتي، وكانوا يحملون الجنسية الأميركية وقد خرجوا وقتها وسكنوا خارج القابون، فأزاحوا وجهة السبطانة عنا، لم أشهد ليلة مرعبة كتلك الليلة، وكان ذلك في عام 2012.

التهجير القسري

أنا لم أكن أخرج من بيتي حتى عندما كانت قذائف الهاون تنزل علينا، وكنت أخاف أن يحصل لي كما حصل مع الفلسطينيين، فالفلسطينيون عندما خرجوا من بلدهم لم يستطيعوا العودة إليها، وللأسف ما كنت أخشاه حصل معي لاحقًا، رغم أني كنت لا أغادره مهما داهم الجيش والأمن منطقتنا أو اشتد القصف علينا، وكنت أختار البقاء أنا وزوجي وأولادي في المنطقة الآمنة في عمارتي وهي الممر، حيث يوجد حوله الشقق وفوق بيتنا ثلاثة طوابق، ومع ذلك فإنه لا توجد أي منطقة آمنة حين يشتد القصف علينا. ونحن لم نخرج من بيتنا إلا قبل دقائق من نزول صواريخ أرض أرض علينا، وقتها كان ابني يعمل في مكتب إعلامي وأخبرنا بأن النظام سيقصف منطقتنا، فخرجنا في الساعة الرابعة فجرًا بملابس النوم ولم نستطع أخذ أي غرض من بيتنا، وبعد أن وصلنا إلى منطقة أخرى في القابون نزلت الصواريخ عليه واشتدت الاشتباكات على أوتوستراد حمص الدولي، كان ذلك في الشهر الثامن من عام 2012، لكن المعارك اشتدت أكثر فنزحنا إلى الغوطة وبقينا فيها حوالي ثمانية أيام ثم عدنا إلى منطقة أخرى في القابون، ولم أعد إلى بيتي، وبعد خروجي منه لم أشاهده، فقد تم الاستيلاء عليه من قبل إيرانيين في عام 2013، حتى سيارة زوجي تركناها قرب المنزل ودفعنا مالاً وتواسطنا كي نُخرجها، لكن الضابط الذي ذهب ليُحضرها أخبرنا أن الحرس الجمهوري وإيرانيين قاعدون في بيتنا ولم يستطع التفاهم معهم ولا بأي طريقة، ولم يستطع إخراجها من هناك، لقد خرجنا من بيتنا بملابس النوم فقط.

ما زلت حتى الآن أبكي حين أتذكر بيتي، وأحزن على بلدي وعلى ماضينا، "ما صفي شي" يذكرنا بالماضي غير الأسى، وأتمنى أن يسقط النظام لنستطيع الرجوع إلى بلدنا، لأني لا أستطيع العودة طالما النظام موجود، فأنا وإخوتي مطلوبون، أربعة منهم استشهدوا، واستشهد أيضًا أبناء عمي زهير ورضوان وسهيل، وابن خالتي وابنة خالتي، وأزواج بنات خالاتي وابن سلفي وابن ابن سلفي، تقريبًا أربعة عشر شخصاً من عائلتي استشهدوا، حتى عندما تم تهجيرنا لم نكن نريد الخروج من سورية، وأنا رغم الحرب لم أخرج من بيتي رغم أنه لم يكن هناك أي إمكانية للبقاء فيه، ولكن عندما خرجت منه ولم أعد أستطيع مشاهدته، قلت في نفسي: "لن أخرج من بلدي بعد أن تهجرنا"، وعشت طوال الوقت خائفة من الخروج من الوطن وانعدام القدرة على العودة إليه، وعندما قالوا إنهم يريدون تهجيرنا، قلت لابني: "اخرج أنت"، لأني خفت عليه، "أنا وأبوك سنبقى في المنزل فنحن كبار في السن، ماذا سيفعل النظام بنا!" وحينها خرجت أمي وإخوتي من البلد أيضًا، ولم يبق أحد، وخرجت لتوديعهم عند أول القابون في المكان الذي اعتقلت فيه، ونويت أن لا أخرج، رغم الحرقة في قلبي لأني لن أستطيع مشاهدتهم بعد الآن، ولكني قلت الأفضل أن أبقى في بلدي كي يبقى لنا أثر فيها، ويومًا ما إذا عادوا سيكون لهم أهل فيها، وبعد أن ودعتهم رجعت، وكان الطريق مخيفًا بسبب قصف الطيران والقذائف، واستمر القصف ولم يتوقف مدة أربعة أشهر تقريبًا في عام 2017، ولم يكن حينها الطيران السوري والروسي يغادر السماء وهو يقصفنا في القابون.

أما الغوطة فقد بقيت فيها سبعة أو ثمانية أشهر، وفور التوصل إلى وقف إطلاق النار في القابون عدت مباشرة، بعد مصالحة تمت بين برزة والنظام، فأخرجوا على إثرها مدنيين من سكان برزة، كانوا قد نزحوا إلى الغوطة وعادوا إلى برزة، وتدخل وجهاء القابون لتشمل سكان القابون النازحين أيضًا ليعودوا إلى القابون، وركبنا باصات الأمن وفتّشونا وعدنا، ولكن في القابون لم تجر مصالحة وإنما تم وقف لإطلاق النار.

عندما كنا في الغوطة كان القصف شبه يومي، ولن أنسى ما حييت حين قصفوها بالكيماوي في الحادي والعشرين من آب عام 2013، وقد شاهدت الجثث بأم عيني، وكان المنظر، يا الله دخيلك، يشبه التراب الذي ينزل من السيارة ويتشكل على شكل جبل، كانت جثث الناس كجبل التراب مكوّمة فوق بعضها البعض، وقتها جلتُ على المراكز الطبية مثل كل الناس، لأساعد من قُصف بالكيماوي بما أستطيع، كنّا نرش الماء عليهم ونغسِلهم، كنا نحن النساء نأخذ النساء اللواتي استنشقن الكيماوي وفقدن وعيهن وبقي فيهن أثر حياة إلى بيوتنا البعيدة عن مكان القصف، لأن أهل الغوطة محافظون والنساء مفصولون عن الرجال، كنا نعمل جميعنا كيد واحدة، كان يومًا لا يُنسى.

كانوا يقصفون القابون بالغازات أيضًا، ولكن ليس بتلك النسبة التي قصفوا الغوطة بها، أذكر أني قبل أن أنزح إلى الغوطة قصف النظام بالغازات نفقًا كان يصل بين القابون والمنطقة الصناعية، وكان ممرًا للناس لتعبر الشارع، وهو تحت أتوستراد حمص الدولي، وكان شباب الجيش الحر قد حفروا نفقاً وصلوه مع النفق الرئيسي الذي لم يكن يتواجد فيه عناصر من النظام ولكنه كان يستخدمه، وللنفق الرئيسي فتحات تهوية، وقتها قصف الجيش هذا النفق بنوع من الغازات، سمعت من الناس أنه استخدم الكيماوي، وتم إسعاف الشباب، وكنت أثناءها في القابون أساعدهم في نقطة طبية، رغم أني لم أعمل فيها سابقًا، ولكني كنت أجلب الدواء من الشام وأتواصل مع أطباء من أجل تأمينه، وكنت أخرج مع بناتي ونحضر الأدوية في سيارة، كنا نخاف، ولكننا كنا نُحضر لعناصر الحاجز علب بيرة ووسكي، يقوم بشرائها سائق السيارة، وأحياناً كنا نشتري لهم دخانًا وطعامًا، ونعطيهم إياها فلا يتم تفتيشنا، وهم بالطبع لا يعلمون أن معنا أدوية، فقد كنا نخبئها داخل الكراسي ونجلس عليها، ثم نقوم بإيصالها إلى النقط الطبية، ولكن بعد فترة تمت محاصرة القابون، وأغلقت منافذها باستثناء منفذ وحيد عند طريق مسجد الغفران، ولم يكن فيه حاجز أمني ولكن القناص يطلّ عليه، كنّا نوقف السيارة جانب صالة اسمها الأمراء في منطقة أبو جرش، وكنا ننقل الأدوية على مراحل، إلى محل خضار من أجل التمويه، ثم يخرج الشباب لحمل الدواء إلى القابون، وتسلم للمشافي الميدانية.

كنا نحضر إبرًا للالتهابات بكميات كبيرة، لأنها مطلوبة كثيرًا، بالإضافة إلى أكياس الدم التي كنا نجلبها من مشفى المجتهد، وحين قامت المعركة في عين منين، كنّا نسلم الأكياس لشاب استشهد لاحقًا واسمه ف.ق، وقد سلمنا أيضًا في ذروة الاشتباكات في منطقة التل الكثير من أكياس الدم لضابط منشق.

هذا كان عملنا، وأي شيء كان يُطلب مني كنت أقوم به، وكنت أجلب أحيانًا كاميرات ومحابر للطابعات، وأدخلها إلى القابون والغوطة، والحمد لله ولا مرة لقطوني أو شكّوا بي، كنت أعمل أنا وبناتي وأختي نهلة، ولكننا لم نكن نخرج معًا، حتى إذا تمّ اعتقال أيّ واحدة منّا تبقى الأخريات.

النشاطات

لم يكن نشاطنا مقتصرًا فقط على الأدوية والمظاهرات، بل كنا نقوم بنشاطات أخرى في الثورة، ففي الذكرى السنوية الأولى للثورة وتشجيعًا للشباب، أحضرت أكياسًا وضعت فيها شوكولا وسكاكر وملبن وبداخله مسبحة أيضًا وضعت عليها علم الثورة، كلّ كيس أو صرّة زينته بالورود ووزعتها على الشباب الذين يشاركون في المظاهرات في عيد الثورة.

كانت نشاطاتي في الثورة سلمية وإنسانية، وما كنت تجدين أي شاب يتظاهر إلا وفي عنقه مسبحة علم الثورة التي كنت أصنعها، حتى أصبحوا يأتون من خارج القابون طلبًا لها، وكل ما يخص النشاط السلمي في الثورة كنت أعمل به، وخلال فترة المداهمات الكثيفة في منطقة منزلي قال لي زوجي إنه يريد استئجار منزل في بداية القابون، وهي المنطقة التي تم فيها اعتقالي وتابعة للنظام، وتقع بين المنطقة التي يسيطر عليها الجيش الحر والمنطقة التي يسيطر عليها النظام، وقد استأجرنا بيتًا من إحدى المؤيدات للنظام وبقينا فيه ثلاثة أشهر، وهي لم تكن تعلم بنشاطنا خلال الثورة، وأحيانًا عندما تأتي حملة المداهمات لا نستطيع مغادرة منزلنا، ولا نستطيع الوصول إلى المنزل الذي استأجرناه، والذي كنت أزوره من أجل الراحة بعد انتهاء المداهمات، رغم أني لم أكن أحبه لأنه في منطقة النظام، وكنت أشعر بالحرية أكثر في منزلي.

وقد تم تصوير التحضير للمظاهرات في عدد من القنوات التلفزيونية مثل كتابة اللافتات وتصنيع كرات كنا قد رميناهم في نهر بردى، كما أننا في إحدى المرّات أحضرنا ألواحًا بيضاء تطفو على وجه الماء، ورسمنا عليها علم الثورة، ورميناها في بالنهر، ورمينا كرات من جبل قاسيون، وصلت إلى منطقة ركن الدين التي تطل على منطقة المزرعة والعفيف وكلها مناطق تابعه للنظام، كما أننا قمنا بتلوين مياه "البحرات" في العديد من شوارع دمشق، وكان تجهيز تلك النشاطات يتم في بيتي، حتى إنني خرجت في عام 2011، ومعي بناتي وشاب، أصبح الآن زوجًا لإحدى بناتي، في مظاهرة في شارع مرشد خاطر وقمنا بقطع الطريق ثم هربنا.

بعض النشاطات كانت تجهّز في منزل بشارع بغداد، مالك هذا المنزل يدعى سيف، وقد قتله الأمن عندما حاول زيارة أهله المحاصرين، وعندما خشي الشباب أن يشتبه النظام في المنزل، أحضروا جميع الأغراض الموجودة فيه مثل الأعلام واللافتات ووضعها في المنزل الذي استأجرته في عام 2012.

عندما قمت باستئجار المنزل كان معي ابن سلفي، وعندما اتصلت صاحبة البيت على هاتف ابن سلفي سمعت صوت مخازن تُملئ بالرصاص، فظنت أنه في منزلها، وأن هذه الأصوات والأسلحة موجودة أيضًا

في منزلها، فاتصلت فورًا وقالت إنها تريد البيت، وأخبرني ابن سلفي أنها تتصل بي ولكن جوالي خارج التغطية، وأنها تريد أن أُخلي المنزل، وفعلاً ذهبت من أجل إخلائه، وأخذت أغراضي إلى منزلي داخل القابون، وفي اليوم التالي صباحًا أوصلني زوجي إلى منزلها بالسيارة كي أسلمها المنزل ومفاتيحه، وعندما تأخرت صاحبة المنزل عن الموعد المتفق عليه اتصلت بها وقلت لها: "أنا لديّ التزامات وأريد أن أذهب، وأنتِ وعدتني في الساعة العاشرة، والآن الساعة الحادية عشرة والنصف"، وخلال اتصالي بها سمعت صوت أجهزة لاسلكي، فخفت وقلت لها: "أين أنتِ؟"، فقالت: "أنا عند الحاجز"، ورغم خوفي الشديد بقيت في المنزل، وأحضرت الحقيبة المتبقية في المنزل، ووضعتها قرب الباب الخارجيّ، وقلت في نفسي إنني سأعطيها المفتاح وآخذ حقيبتي وأمشي ولن أقف دقيقة واحدة، وعندما وصلت دخلت مباشرة وفتحت الخزائن وجالت في البيت لدرجة أن طريقة دخولها وتفتيشها وسؤالها عن الجيش الحر إن كان يتواجد في المنزل أرعبتني، وقلت لها: "أي جيش حر والنظام قرب المنزل!" فأعطيتها المفاتيح ومشيت بسرعة، حتى إني نسيت حقيبتي التي وضعتها أمام الباب من شدة الخوف، وعندما وصلت إلى مكان يقع بين الحديقة وجامع الغفران، و يبعد خمسين مترًا عن منزلها وجدت الجيش مقبلاً باتجاهي وبيدهم الرشاشات ويطلقون النار على الناس، فركضت بسرعة ودخلت داخل البلد، أي بعد خمسة أمتار من حيث كنت، وداهموا المنزل الذي كنت قد استأجرته، لأن مالكة المنزل كانت قد أخبرتهم أن الجيش الحر داخل المنزل، رغم أن ابن سلفي لم يكن يزورني، ولم يكن أصلاً مع الجيش الحر عندما رافقني لاستئجار بيتها، وإنما انضم إليهم لاحقًا، ولكنّ رقم هاتفه الجوال بقي مع صاحبة المنزل، واتصلت به عندما كان خطي خارج التغطية، وسمعت تلك الأصوات، فظنت أن الجيش الحر في منزلها، وحين داهم الجيش منزلها أطلقوا النار على ابن عمي الذي كان متوجهًا إلى عمله صباحًا، لأن منزله كان قريبًا من منزلها فاستشهد، وهم كلما دخلوا إلى مكان يطلقون النار على أي شخص يجدونه أمامهم، وأمسكوا ابن عمي الآخر وهو أخ الشاب الذي استشهد وضربوه ثم قتلوه أمام أمّه، وأنا أحمد لله لأني دخلت المنطقة الآمنة، فهم كانوا لا يدخلونها إلا إذا كانوا جاهزين للاشتباك مع الجيش الحر.

الحياة خلال حصار الغوطة

لم يكن هناك كهرباء طبعًا، وكنّا كلّ خمسة عشر يومًا نشتري الماء ونقتصد في استخدامه، فلا نستحمّ إلا كلّ عشرين يومًا، أقسم بالله العظيم إن رائحتنا كانت كريهة بسبب قلة الاستحمام، والأكل لم يكن متوفرًا بشكلّ عام، رغم أنّي والحمد لله، كان معي القليل من النقود، وكنت في بداية الحصار، قبل أن يشتد، أشتري ما أجده متوفرًا مثل كيلو برغل وكيلو من الرز، كنت أشتري أي شيء أجده، وطبعًا كانت الأسعار غالية جدًا كالنار، ولم يكن هناك خبز، فأكلنا الخبز المصنوع من علف الحيوانات، وحين أكلته تسممت منه وأصابتني حساسية وانتشر في جسمي بقع لونها أزرق، وكنا نطحن فول الصويا المخصص طعامًا للأغنام ونصنع

منه خبزًا، وكنا نأكل وجبة واحدة في اليوم كي نبقى على قيد الحياة فقط، ولم نكن نأكل ونشبع، بل نأكل القليل من الطعام، فنحن لا نعلم ما الذي سيحدث غدًا أو بعد غد.

كان زوجي ينتظر أن يتوقف القصف ليخرج إلى البساتين، ويحضر ما يجده من الخضار التي كانت تنبت وحدها، مثل السباخ وتدعى رجل العصفورة، كنا نطبخه ونأكله، والحمد لله خرجت من الغوطة بحالٍ أفضل من غيري بكثير، والأكل الذي كنت أطبخ منه كان زوجي يأخذ منه للناس التي ليس لديها مال لتأكل، حتى المونة التي كانت لدي كان زوجي يوزّع منها.

كان هناك الكثير من الفصائل المسلحة، ولكننا لم نحتك بهم ولم نتعاط معهم ولم نقترب منهم بأي شكل من الأشكال، وبشكل خاص لم نكن نحب جيش الإسلام لأنهم مثل النظام، السجون نفسها والاعتقال والتعذيب وقمع الحريات، في إحدى المرات اقتحم سكان دوما مستودع أغذية لجيش الإسلام في دوما، وقتها ذهبت أنا وأختي لشراء البرغل، وكنّا سمعنا أنه يُباع في دوما، ولا أنسى ذاك المنظر، الناس تكاد تموت من شدة الجوع، وجيش الإسلام لديه في المستودع اللحمة المفرزة، الجبنة المعفنة التي شاهدنا منها في تركيا ولم نأكلها، المشروبات الغازية، وكلها حاجات للرفاهية، ونحن لم تكن تتوفر لنا الحاجات الأساسية مثل الجبنة والرز والبرغل، صار الناس بعد الاقتحام يأخذون الأكل ويمشون.

كانت كلفة الاستحمام خمسة عشر ألف ليرة سورية، وكان علينا إحضار الحطب كي نسخن الماء عليه، وإذا أردت تعبئة الماء يجب أن يكون لديكِ كهرباء، لذلك كانت الناس تبقى بدون حمام لفترة طويلة، أما الأكل فكما يقول المثل الشعبي: "قوت ولا تموت"، كنّا نطبخ على سبيل المثال البرغل ونضع فيه من السمنة قدر معلقة شاي، أو نضع عرق سبانخ أو خبيزة معه.

كنّا خمسة أشخاص في المنزل، أنا وبناتي وخطيب ابنتي وزوجي، وكنت أطبخ كأسًا أو كأسًا ونصفًا من البرغل، وبقينا على هذا الحال حوالي ثمانية أشهر حتى عدنا إلى القابون المحاصرة أيضًا، ابني كان هناك، فهو لم يخرج معنا إلى الغوطة لأنه مصوّر وموثق، وقد رغب في البقاء مع المحاصرين.

عندما خرجت من الغوطة، كنت كما يقولون "عظمة وجلدة"، ولم نذهب إلى بيتنا بل سكنا في بيت كان أصحابه قد تركوه ويعرفهم زوجي، رغم أننا نملك ستة بيوت في القابون لم يبق لنا أي بيت نسكنه، وقبل أن نصل إلى البيت الذي سنقيم فيه، نظفه ابني.

عندما رأيت ابني كان شكله مخيفًا، مثل الجائعين في الصومال، فسألته: "يا ماما ماذا كنتم تأكلون؟"، فقال: "لا شيء سوى الحساء، كنا نبحث في البيوت المدمرة عن أي شيء يسد جوعنا"، فالقابون ليست كالغوطة لأنها صغيرة وبقيت محاصرة ثمانية أشهر في عام 2013 ولم يكن يدخل إليها أي شيء.

خلال الحصار لم يكن لنا أي منفذ إلا عن طريق برزة، وكان النظام بين فترة وأخرى يغلق هذا الطريق فلا نستطيع إحضار أي شيء، ومن يتحكم بنا داخل القابون هم الفصائل، يتعاملون مع جيش النظام ويُدخلون عن طريقهم الأغراض ويتحكمون بالأسعار ويبيعونها لنا في الداخل، وكلما أغلق المنفذ كانت الأسعار ترتفع أكثر.

كان مع زوجي بعض النقود وبقينا نصرف منهم إلى أن عدنا إلى القابون، ابني كان يعمل موظفًا مع وكالة إخبارية وكنا نصرف من راتبه، وأصبحت أعمل مع أزواج بناتي في الأحذية، وأقوم بإحضار الشغل إلى المنزل. قبل الثورة لم أكن أعمل لكني بعد أن عدت إلى القابون عملت مرتين، الأولى في الأحذية والآن في تركيا، وكنت أجلب الشغل من ورشة الأحذية الواقعة خارج القابون لأعمل في منزلي بعد أن يفتشها العناصر على الحواجز.

في إحدى المرات كنت أنا وابنتي خارج القابون لزيارة طبيب، وكان طريق برزة مغلقًا بسبب اشتباكات بين شبيحة عش الورور وأهل برزة، بعد أن قتل أهل برزة سائق "فان" من شبيحة عش الورور، فركبت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يوصلني على مفرق حاميش، حيث أكمل طريقي للمنزل مشيًا على الأقدام، رغم بعد المسافة، لأن التدقيق على الحواجز يكون أقل وطأةً، لكني كنت متعبة وكان معي أغراض، فطلبت من السائق أن يدخلني إلى برزة، وخلال الحديث معه وقبل أن نصل إلى الحاجز أخبرت السائق أني من سكان برزة، وذلك لأني لم أجرؤ على إخباره بأني من سكان القابون، وذلك بسبب مصالحة أبرمت بين برزة والنظام، فبدأ يشتم أهل القابون ويقول: "هالكلاب هالعرصات هالإخوات المنيوكة قوصوا على أخوي مبارح، والله نسوانهم وأمهاتهم لنيكها قدام عيونهم"، فنظرت إليه ابنتي نظرة غضب، فقال لها: "ها أنتِ منهم ما عجبك حكيي؟!" وبدأ بالشتم والسباب ونظر إلى ابنتي وبدأ يهدّدها ويتوعدها، فقلت له: "يا ابني، الله يرضى عليك نحن لا علاقة لنا بهم"، وتم الحديث هذا قبل أن نصل إلى الحاجز، وبعد أن وصلنا وتم تفتيشنا بشكل دقيق جداً قلت له: "نحن يا ابني ليس لنا علاقة بأي شيء، نحنا طالعين لننستر، ولو معنا مال لكنا استأجرنا خارج المنطقة، يا ابني نحن نُحضر هذه الأحذية كي نعمل ونؤمن قوت يومنا"، لقد خفت منه كثيرًا لأنه بعد الحاجز تجاوز المكان الذي كنت أنوي النزول فيه وأكمل مسرعًا، فاعتقدت أنه سيأخذنا إلى عش الورور ومن ثَمَّ إلى الشبيحة، وسيذبحوننا ولن نخرج منها أحياء أو سيطلبون فدية كبيرة، كنت طوال الطريق أرجوه وأكرّر القول إننا لا علاقة لنا بأي شيء مما يقوله، وفجأة وكأن عقل الرحمن عاد إليه، توقّف بعد مئة متر من مدخل برزة وطلب منا النزول وقال: "بس هي بنتك الحقيرة ربيها". لقد قال تلك الشتائم البذيئة فقط لأن ابنتي نظرت إليه بغضب، وهي لم يهن عليها أن يشتم أهل بلدها، صحيح أننا لم نقترب من الفصائل المسلحة ولا علاقة لنا بهم، ولكنهم يبقون جيراننا وأهلنا وأهل بلدنا.

رغم الاعتقال والحصار والمداهمات والقصف، ولكن أقسى ما مررت به هو عندما خرجت من بلدي، كل شيء تخطيته ولكن عندما نظرت خلفي قلت في نفسي: "خلص ما بقى شوف بلدي"، تغلبني دمعتي كلما تذكرت هذا الموقف وأبكي بحرقة، ورغم أني هُجّرت إلى إدلب، ولكن المنطقة التي ولدت وعشت حياتي فيها لها مكان خاص في قلبي، فأنا لم أخرج منها كلّ فترة الثورة والحرب، والحمد لله أني لم أعتقل حين كنت أمر على الحواجز أثناء خروجي إلى دمشق، حتى الحواجز القريبة من منطقتي لم يطلبوا هويتي ولم يعرفوا اسمي الصريح بل كانوا يعرفونني باسم (أم محمد).

الحواجز

في إحدى المرات تعرضت لحادثة على حاجز، كانت ابنة أخي الصغيرة، وعمرها وقتها ثلاثة أشهر، مريضة وتحتاج الذهاب إلى مشفًى، ولم يكن غيري يستطيع الخروج من منطقتنا، لأن جميع إخوتي مطلوبون للنظام، فأخذتها أنا وأختي التي كانت في الغوطة إلى مشفى الأطفال، وعند عودتنا كان علينا المرور من حاجز المالكي القريب من المشفى، فطلب منا العنصر على الحاجز هوية كل منا، وأنا هويتي مكتوب فيها القابون وأختي حرستا، فقال لنا: "ماذا تفعلان هنا ومناطقكما محاصرة وتحوي إرهابيين"، فأجبته بأننا لا نسكن هناك بل عند أقاربنا في منطقة المزرعة، لكنه دقّق على هوية أختي، فادعيت فورًا أننا طلّقنا أختي من زوجها لأنه في الغوطة ونحن لا نريد المشاكل، وقتها عمل "تفييش" على هوياتنا، وحضر الضابط وسألنا من أين أتينا وإلى أين سنذهب، وبعد نصف ساعة تركونا، وبقينا أربعين يومًا نذهب إلى مشفى الأطفال، حتى تماثلت ابنة أخي الشفاء، وأخرجتها معي لنعود إلى القابون، وكان بصحبتي ابنتي الشابة وأختي التي تسكن في برزة وأولاد أخي الأيتام الذين وضعناهم في مدرسة للأيتام، وكنا نحضرهم ليزوروا القابون كل خميس وجمعة، وكان يتوجب علينا العبور إلى القابون عبر منطقة تدعى برزة الغربية، لكننا وجدنا أن الجيش أغلق المنطقة، وبقينا ننتظر في البرد طويلاً حتى سألت أحد العناصر: "متى ستفتحون الطريق؟"، فأجاب: "خالة ما رح يفتح الطريق، خذي البنات اللي معك وامشي"، كنت أعرف مديرة مدرسة كانت تسكن في المنطقة، فاتصلت بها وأخبرتها ما حصل معنا فطلبت أن نذهب إلى بيتها وننتظر عندها، لكن أختي وابنتي فضلتا البقاء، ونقلتُ أنا الأطفال خوفًا عليهم من البرد إلى بيت صديقتي، وعدت إلى الحاجز فوجدت أن عناصر الحاجز أخذوا هوية كل من أختي وبنتي، فقلت لهما: "هيا بنا نمشي"، لكن العنصر رفض وقال إنهما سيتم احتجازهما في الجامع مع خمسين امرأة أخرى، وما زلت أذكر تاريخ هذا اليوم التاسع عشر من آذار عام 2016، أي قبل عيد الأم، وقد علمت لاحقًا أنه تم احتجاز النساء في الجامع لمدة عشرين يومًا، وكنت لا أريد أن تبقى ابنتي وأختي محتجزتَين في الجامع والجيش يطوق المنطقة والعناصر كانوا سيئين وحقراء، يشتمون الناس ويرمون أغراضهم الخاصة على الأرض، وأثناء محاولتي أخذ ابنتي وأختي شتمني أحدهم وقال: "وين إنتِ قاعدة! انقلعي يا بنت الكلب، كلمة ثانية واحتجزكِ معهما"، فابتعدت عنه بعد أن شتمني، أحد العساكر كان يشاهدني أثناء خروجي المتكرر من القابون، وكان دائمًا لطيفًا معي حين يكون دوره في التفتيش، رأى ما جرى، فقال لي: "يا خالة قفي على جنب وأنا سأحضرهما لكِ مع هوية كل منهما"، وحاول إحضارهما لكن الضابط الذي شتمني منعه، فكرّر محاولته وقال له: "هن من أقاربي"، إلى أن نجحت محاولاته ولكن بعد أن شتم الضابط جميع النسوة الواقفات بأسوأ الشتائم وقال لهن: "يا شراميط شو مفوتكم على البيت بالليل، رجالكم جوا وإنتو عم تشرمطوا برا"، وأحضر لي العسكري ابنتي وأختي مع هوية كل منهما، وذهبنا إلى بيت صديقتي ونمنا عندها، وفي اليوم التالي "عملت واسطة" كي نعود إلى القابون، وتواصلوا جماعة من أهالي القابون مع أهالي من برزة، وبدورهم تواصلوا مع عناصر حاجز الأمن السياسي حتى استطعنا الدخول، ولم يكن بين القابون والنظام أي حاجز لأن النظام أغلق المنطقة تمامًا.

القصف

رغم اتفاق وقف إطلاق النار المعلن بين القابون والنظام، كان النظام بين فترة وأخرى يقصفنا، وفي إحدى المرات في عام 2014، قصف النظام عرسًا في القابون واستشهد جراء القصف ثلاثة عشر شابًا، وبعدها قصف النظام مدرسة أطفال وكان المشهد مأساويًّا لن أنساه في حياتي، كان ابن أختي وابن أخي داخل المدرسة، وفي صباح أحد الأيام استيقظت على أصوات ضرب الهاون علينا، وكانت بنتاي نائمتين في الصالون، فقال لي زوجي: "لم أعد أحتمل هذا القصف"، ونزل إلى القبو، لكني رفضت النزول وقلت له: "إذا بدي موت خليني موت في بيتي"، وما إن أغلقت الباب حتى نزلت القذيفة مقابل منزلنا، والله العظيم لو أني كنت قد اقتربت قليلاً، ولو أن بناتي لسن نائمات على الأرض ويلتحفن بأربع حرامات من شدة البرد، لكنا أصبنا بشظايا القذائف التي دخلت إلى الصالون الذي كنا موجودات فيه، شبابيك منزلي لم يكن بقي فيها زجاج بل وضعنا عليها البلاستيك، وطارت الأباجورات وطار البلاستيك من النوافذ، وانكسر زجاج الثريا وتساقط علينا، ووجدتُ الشظايا بجانب بناتي، وبعد تلك الحادثة نظفت القبو في العمارة وسكنت فيه أربعة أشهر، وبفضل الله تعالى رغم كل القصف لم ينزل على بيتي أية قذيفة مباشرة، حتى خزان الماء لم يصاب، وكانت الناس يسألونني: "ما الذي تقرأينه على بيتك، لتبعدي عنه القذائف؟!".

طوال تلك الفترة كنا لا نخلع العباية والحجاب وبقينا في القبو، ففي الأشهر الأربعة الأخيرة كان النظام يضربنا بصواريخ تدعى الخرطوم، يستخدمونها قبل الاقتحام فتنهار الأبنية جميعها في الحارة، كنا نسمع أصوتها عندما تنطلق، لأنها تُطلق علينا من المنطقة القريبة، ويطلقون أيضًا من الراجمة كل عشرة صواريخ مع بعضها البعض، وكنت عندما أسمع صوت إطلاقهم لا أتحدث مع أحد بل أقرأ القرآن، وعند نزولها يهتز بنا البناء رغم أنهم كانوا يستهدفون منطقة بعيدة عنا، ولم نكن نخلع ملابسنا لأن الجيش الحر في الخارج، وأنا لم أخرج من المنطقة طوال الأشهر الأربعة الأخيرة، وكنت أطبخ لهم وأطعمهم وأغسل ملابسهم.

العلاقة مع المجتمع

عندما اعتقلت ذهب زوجي إلى قسم شرطة القابون ليعطيهم هويتي، ليرسلوها بدورهم إلى المخابرات الجوية، فسأله العميد رئيس القسم: "ما الذي كانت تفعله زوجتك وابنتك حتى تم اعتقالهما"، فأخبره بالحقيقة وبأننا كتبنا على الجدران، فدمعت عينا العميد وعينا المحامي وقالا له: "ارفع رأسك بهما"، ما زال زوجي إلى الآن يبكي عندما يروي هذه القصة.

وعندما خرجت من المعتقل كان زوجي وأختي ووجهاء من القابون بانتظاري بالإضافة إلى خمسة محامين، وكانت أمي بانتظاري في بيتها، وعندما وصلنا بدأت بتقبيلنا وهي تبكي وتحمد الله على رؤيتنا وتقول: "لقد قطعت الأمل بمشاهدتكما لأن من يأخذه النظام لا يقوم بإرجاعه".

ثم ذهبت إلى بيتي القريب من بيت أمي، وكان علي أولاً أن أستحمّ لأن رائحتي كانت سيئة جدًّا، فدخلت إلى غرفة نومي كي أحضر ملابس نظيفة قبل الاستحمام وكان زوجي خلفي، وقف ولم يتكلم لكني فهمت

ما يدور في رأسه وما يريد الحديث عنه، فقلت له: "سأقول لكَ كلمتين إن صدقتني فذاك خير، وإن لم تصدقني فهذا شأنك، وأقسم بالله العظيم لم يلمسني أحد، ضرب ضربوني، شتم شتموني، ولكن لم يلمسني أحد أنا وابنتي"، فأجاب: "نعم أصدقك لأنك لا تكذبين عليّ".

وعندما حضرت عائلة زوجي لتهنئتي بخروجي، كانت نظراتهم توحي بسؤال: "كيف بدك تطلعي وتمشي في الشارع الآن؟!" أي أنني أصبحت خريجة سجون! فقلت لهم: "أنا ماني خريجة حبوس، أنا اسمي معتقلة ودخلت من أجل قضية، أنا لم أدخل في تهمة أو شبهة، أنا دخلت في عمل مشرف ويرفع الرأس، ومهما تكلم الناس أنا لا يهمني، وأنا لست خجلى بسبب ما فعلته"، لكن ابنتي كانت حزينة لأن أصدقاءها لم يتحدّثوا معها بعد خروجها من المعتقل، وكنت دائمًا أواسيها وأقول لها: "بإمكانك أن تصادقي غيرهنّ، نحن في ثورة ولا وقت للصديقات".

وبعد فترة ذهبت لزيارة أخت زوجي، وجلسنا وحدنا أنا وهي وزوجي، فقالت لزوجي: "زوجتك خرجت من السجن، وهي متزوجة ولديها أولاد، ولكن هل قمت بفحص ابنتك عند الدكتورة؟"، رد عليها زوجي وقال: "لم ولن آخذها، لقد أخبرتني زوجتي بأنه لم يلمسها أحد، وإذا لمسها أحد فهذا الأمر خارج عن إرادتها ولا يستطيع أحد محاسبتها". لقد أزعجني هذا الكلام كثيرًا، وما قاله زوجي صحيح، حتى لو حصل أي شيء معنا فهو خارج إرادتنا، ولو أنهم حاولوا اغتصابنا هل كان بمقدوري ردعهم مهما كنت قوية، لقد أزعجني كلامها لأنني لم أتخيل حجم وقاحتها بأن تقول أمامي ما قالته وتشكك بي وبابنتي، حتى زوجي انزعج من كلامها وقال لي: "إنها حتى، لم تحسب حسابًا لزعلي".

مهما كنا متحضرين ومتحررين لكن مجتمعنا يبقى مجتمعًا شرقيًّا، لقد تغيّرت علاقتي بأخت زوجي ولم أعد أزورها، وبعد عدة أشهر توفيت وذهبت فقط لأقدم واجب العزاء، أما ابنتي فبالرغم من اعتقالها فقد حضر لخطبتها الكثير من الشبان، وكان الشباب الذين كانوا يتظاهرون معنا يقولون: "إن الاعتقال يرفع الرأس، وهم يريدون امرأة بهذه الشجاعة"، وهذا ما أعطاني الأمل، فالناس لا يفكرون بطريقة واحدة، ولكني لم أوافق على أي ممن تقدم لابنتي رغم أنهم من أبناء العائلات والنعم لأنها كانت تتابع دراستها.

ورغم أن عذاب الاعتقال واحد بالنسبة للمرأة والرجل، ولكن المرأة تعاني من نظرة المجتمع، وأنا عانيت من الأمر كثيرًا، ولكني استطعت تجاوزه لأنني حرّة بما أريد أن أفعله، وبعض الناس من القابون كانوا "يضربون لي التحية" بعد خروجي من المعتقل.

قبل الاعتقال كان قلبي طيبًا جدًّا وما زال حتى الآن، ولكن بعد أن خرجت من الاعتقال وشاهدت نظرة الناس لنا اختلفت نظرتي إليهم وإلى كل العالم، السجن صعب وحجز الحرية صعب جدًّا، وخلال اعتقالي كنت أظنّ أني لن أخرج منه أبدًا، لأنهم اعتقلوني بالجرم المشهود وأنا أكتب على الجدران، ومهما أنكرت فلن يصدقوني، وكنت خائفة على أولادي الذين هم خارج السجن.

لقد أثر اعتقالي على زوجي، وهو لم يستطيع أن يرد على أخته بكلام غير الذي قاله لها لأنها أكبر منه سنًّا، ولكنه لم يكن يسكت لأي شخص يسيء لنا بسبب اعتقالنا تلميحًا أو تصريحًا، وكان يرد ردوداً حاسمة ويقول:

"أنا كنت أعرف أن زوجتي وابنتي يمكن أن يتم اعتقالهما في أي لحظة، وهما كانتا معرضتين لأي أمر من الممكن أن يحصل معهما، وأنا تقبّلت كلّ ما حصل معنا خلال الثورة"، مع العلم أن زوجي خسر كلّ ما يملكه في الثورة ولم يبق لنا أي شيء، وعندما خرجنا إلى تركيا لم يكن معنا من المال إلا أجرة الطريق، المال الذي كان معنا مكّننا من الوصول إلى الحدود، ولم نكن نملك مالاً لاستئجار منزل، حتى إننا بعنا الكاميرا التي كانت مع ابني في إدلب كي نستطيع الوصول إلى تركيا، وبقينا فترة عند أقاربنا، وعمل زوجي وابني حتى استطعنا أن نستأجر بيتًا، وفي بداية الأمر بقينا ننام على الأرض لمدة شهر، نفرش على الأرض حرامًا ونتغطى بحرام آخر، ولكن بحمد لله بعد فترة تحسنت أوضاعنا وبدأنا نشتري غرضًا بعد غرض، ونقتصر على الضروري فقط.

لم يكن لدي احتكاك مع الأهل والجيران، وأثناء الثورة كانت علاقتي فقط مع من يعملون في الثورة، ولم يعد هناك مجال للزيارات والمناسبات، قبل الثورة توفى ابن عمتي جراء طلقة نارية لم يُعرف مصدرها، وقبل الثورة بأشهر قتل ابن عمي وابن خالتي، ولذلك كنتُ قبل الثورة لا أحضر المناسبات، وفي بداية الثورة استشهد أخي، وفي الشهر السابع وقبل اعتقالي أخذ الأمن أخي أثناء مشاركته في مظاهرة ليلية، وبقي عامًا وتسعة شهور في المخابرات الجوية في المزة، ولم يخرج إلا بعد أن خطف إخوتي ضابطًا كي يبادلوا عليه ويخرجوه من المعتقل، ولي أخ آخر توفي في المعتقل وقد اعتقلوه منذ عام 2014، وفي عام 2017 طلبوا منا أن نتسلم أغراضه من مختار القابون.

بعد كلّ ما مرّ معي، تعودت على هذه الحياة، ولم أعد أشعر بالأمان إلا في منطقتي، ولم يعد أي مكان في سورية يريحني حتى لو كنت في منطقة آمنة غير القابون. كنت أحيانًا أضطر للنوم خارج القابون، عندما يكون معي أغراض ولا أستطيع المرور عبر الحواجز لإدخالها، فكنت أنتظر لليوم التالي، وأنام عند أحد أقاربنا أو معارفنا في الشام، ولكني لم أكن أشعر بالراحة، وأحيانًا لا أستطيع المرور على الحاجز بسبب التدقيق الشديد أو حملة مداهمات.

في إحدى المرات في عام 2016، كنت عائدة إلى القابون، وكان معي نقود لأشتري بها ملابس للأطفال الأيتام وأولاد الشهداء بمناسبة العيد، ولكني عندما وصلت إلى الحاجز شعرت بالقلق والخوف، وبالفعل كانت امرأة تقوم بتفتيش النساء وكأنهنّ في فرع أمني وتجبرهن على خلع ملابسهن، وفي اليوم التالي دخلت ومعي النقود بشكل عادي، حتى إني مررت وكان يمشي قربي أحد العساكر، وكان يعرفني وفي كل مرة يفتشني كان يجد معي إما ربطة خبز أو كيلو بندورة أو زجاجة زيت، ولم يكن يجد معي غير الطعام فلم يعد يفتشني بعدها، وعندما وصلت إلى الحاجز قال لي: "لك يا خالتي إيمت بدك تزوجيني؟"، فقلت له: "أي بدي أخطب لك وحده من عنا"، فأجاب: "إي والله، إنتو بناتكن حلوين"، ومشينا سوية وقطعت الحاجز ولم يكلّمني أحد واستطعت إدخال النقود.

إدلب

لقد اختلفت حياتي بعد الثورة، كانت أحوالنا فوق الريح، فأصبحنا في أسفل السافلين، أمر مضحك، الحمد لله أنا عندما أواجه مصيبة أو مشكلة أصبح أقوى وأتأقلم مع الوضع الجديد مباشرة، استطعت أن أتأقلم مع كل ما مررنا به، باستثناء المخيم في إدلب، عندما دخلت إلى المخيم في إدلب بعد أن قاموا بتهجيرنا في السابع عشر من حزيران عام 2017، لم أستطع البقاء فيه إلا ساعتين وخرجت، بسبب الروائح الكريهة، ووجود النساء والأطفال بكثافة، وأحوال الناس السيئة جدًّا، كنت أبكي وأقول لزوجي: "الله يوفقك لا أريد العيش في المخيم"، لم أتقبّل فكرة وجودي في المخيم على الإطلاق، رغم أني عانيت من الحرب والحصار، وكانت جميع مستلزمات الحياة معدومة عندنا، كل شيء تقبلته وتأقلمت معه، وكل ما مررت به كان أسهل من العيش في المخيم.

بقيت في إدلب شهرًا واحدًا، وتوجّهت إلى تركيا في الثامن عشر من حزيران 2017، قبل عيد الفطر بثلاثة أيام، كنت أريد البقاء في إدلب، ولكن بسبب وجود الفصائل فيها أخرجت ابني إلى تركيا قبل أن أخرج أنا، بصراحة لقد خفت من جبهة النصرة فهم المسيطرون هناك، وكنت أراهم عندما أنزل إلى سوق إدلب، كانوا يفرضون على النساء وضع النقاب، ونحن في القابون عادة نلبس "المانطو" تحت الركبة وتحته بنطال وجرابات، وبناتي في العادة يلبسن الجاكيت فوق الركبة، لكنهم كانوا يريدون من المرأة أن تلبس "المانطو" حتى مشط القدم أي مثل الجلباب، ونحن في القابون ليس لدينا تعصب في الملبس، "بس تكون مسترة، هيك عقلهم".

داعش

عندما تواجد داعش في القابون لفترة من الزمن في أواخر عام 2016، وكانوا لا يصرحون أمام الناس بانتمائهم، وإنما يتواجدون كخلايا نائمة، دخلوا إلى بلدنا وأصبحوا يطوّعون الشباب معهم لتقوية خلاياهم، ثم يضايقون السكان الأصليين في القابون، وقتها حضرت ابنة عمنا من الشام، وكان الدواعش قد نصبوا حاجزًا لهم، فشتم أحدهم ابنتي لأنها كانت تلبس سترة قصيرة، فقالت له ابنتي: "أنتَ لا علاقة لك بملابسي، ولست من أفراد أسرتي كي تتحدث معي، حتى أبي وأخي لا يتدخلون في ملابسي، أنا ألبس ما يريحني وما يقنعني"، فشتمها وقال لها: "يلعن أبوكِ على هالترباية"، وعندما حكت ابنتي لأخوالها ما حدث معها، جنّ جنونهم وقالوا: "بأي حق يوقفون بناتنا!" وهاجموهم وقتلوا بعضهم وهرب البعض الآخر خارج بلدنا، لم يكن جميعهم من القابون، فقد قُتِل شابان منها، وألقوا القبض على ثلاثة منهم كانوا من الصالحية وركن الدين.

التكريم :

حضرت في يوم المرأة احتفالاً تكريميًّا أقامه الائتلاف السوري في تركيا خلال آذار عام 2018، كرّموا فيه بعض النساء اللواتي شاركن في الثورة وكنت أعرفهنّ، وهناك من النساء من يستحققن التكريم ولم

يذكرهن أحد، وشعرت أننا لم ننتهِ من المحسوبيات، لقد خرجنا من بلدنا ولم تتغير الطريقة، شخص يعرف فلانة فيضع اسمها في لائحة التكريم، ولا ينظرون إلى تاريخها النضالي وعملها، المعايير هي للمحسوبيات، رغم أننا خرجنا من بلدنا، ودمّرت نفسيتنا وبلدنا، وكلّ ما نملكه تدمّر، ولم نخلص من المحسوبيات التي عشنا كل عمرنا في ظلّها، لقد خرجنا في ثورة من أجل التغيير، ولكن لم يختلف شيء، خرجت يومها من الصالة وأنا مقهورة جدًّا جدًّا، حتى عندما وصلت إلى البيت لم أتحدّث بالأمر وبكيت، وكانت أسرتي تسألني عما حصل، لكنني لم أستطع في البداية أن أخبرهم، وعندما عرفوا بعد إصرارهم قالوا لي: "حقك أن تحزني، ولكننا لا نستطيع فعل شيء، لقد قدّمنا كل ما نستطيع فعله". بعض من تم تكريمهنّ استشهد أفراد من أسرهنّ، ولكن لا يوجد في سورية منزل واحد يخلو من شهيد أو شهيدين أو ثلاثة شهداء، وما دخل ذلك بالتكريم وبمشاركة المرأة في الثورة! جميع من استشهد في الثورة هم أبناؤنا.

أنا لم أنزعج لأنني لم أكرم، فأنا لم أعمل للثورة من أجل التكريم بل من أجل قضية آمنت بها، علمًا أني منذ بداية الثورة وطوال السنوات السبع، لم أتسلّم قرشًا واحدًا من أحد أو من أي جهة، ولم أحصل يومًا على أي دعمٍ، بل على العكس تمامًا كانت أحوالنا المادية في بداية الثورة جيدة جدًّا، وكنت أصرف من مالي الخاص ومن مصروفي، وحتى اللافتات والمسابح والأعلام وغيرها كنت أصرف عليها من مالي، حتى ابنتيّ كان في رقبتهما حرف وسوار من ذهب "بلاك"، قطعتان متماثلتان من الذهب، كنت قد قدمتهما لهما سابقًا، وأنا كان لدي خاتم من الذهب الأبيض، أخذت ابنتي هذه القطعة الذهبية دون علمي وباعتها لتشتري أغراضًا للمكتب الإعلامي في منطقتنا، وكان خاتمي هذا هدية من زوجي، قدّمه لي خلال الثورة، وكنت أخاف عليه لأنه عزيز علي، واستعارته ابنتي مني وباعته لأن هناك نقصًا في المعدات في المكتب، ولم أحزن لأنه ذهب دعمًا للثورة.

كلمة أخيرة

كل من أجرم يجب محاسبته ومعاقبته، نحن بحاجة إلى عدالة انتقالية لنبني حياتنا من جديد، نريد محاسبة بشار الأسد لأنه هو المسؤول الأول والأخير عن دمار سورية، وهو من أدخل الإيرانيين والروس والجميع إلى بلدنا، وأنا مصممة على رفع دعوى قضائية ضده لأنه هدم ماضينا وحاضرنا ولم يترك لنا شيئًا إلا ودمّره، ولا شيء ينصفني إلا محاسبة بشار، ولا أريد شيئًا في هذه الحياة سوى سقوطه ومحاسبته، لأنه الرأس وعلينا أن نبدأ به، وبعد محاسبته ستتم محاسبة من معه من المجرمين في الأفرع الأمنية، وأيضاً يجب محاسبة الفصائل لأنهم أجرموا بحقنا أيضًا مثلما أجرم النظام، وهم لا يختلفون عنه إلا بالاسم فقط، وإجمالاً جميع قادة الفصائل ارتكبوا جرائم بحق الناس، وأنا لا أستثني أحدًا، فقد دخل إلى القابون من جميع أنواع الفصائل، ولم يكن أحد يجرؤ على رفع رأسه، في إحدى المرات قتلوا شخصًا في الليل يدعى ح. ع. لأنه يعمل مصالحة مع النظام، شخص آخر كان يجري مصالحة مع النظام أيضًا خطفوه وسلّموه لجيش الاسلام

وبدورهم قتلوه في دوما، بعد أن اتهموه بأنه خائن وعميل للنظام، وهو كان من المجموعة التي تفاوض النظام بشأن القابون في الفترة الأخيرة من الحرب.

لقد رغبت بتوثيق قصتي لأني أفتخر بما قمت به ولا أريد أن يُنسى، وقد شاركت في الثورة لأني آمنت بها، ولست حزينة على كل ما مررت به وحصل معي، وفي المستقبل إن شاء الله نستطيع أن نأخذ حقنا، أنا لم أقطع الأمل بنصرنا وهو قريب إن شاء الله، وإذا لم أوثق أنا وابنتي وأختي فكيف سيعلم الناس بالجرائم التي ارتكبها النظام بحق البلد.

لدي قصص كثيرة لم أحك عنها، لأنني كنت خلال الحصار والمداهمات، وأحمد الله أن ابنتي وابني معي الآن، وابني يعمل وأنا أعمل أيضًا، ولكنني توقفت عن العمل الآن بسبب آلام في المفاصل، جراء البرد الشديد الذي تعرّضت له في المعتقل.

لقاء في المسلخ[5]*

5 - حوار أجرته الكاتبة مع لولا الآغا عبر WhatsApp))، في التاسع من شباط عام 2019، مدة الحوار: ثلاث ساعات وأربعون دقيقة.

* لوحة الغلاف: سلام الحسن

SALAM ALHASSAN

اسمي لولا الأغا من مدينة حلب منطقة صلاح الدين، مواليد ١٩٨٤، متزوجة ولدي أربعة أطفال، وصلت في دراستي للمرحلة الإعدادية الصف التاسع، ولم أتابع تعليمي لأنني تزوجت باكرًا عندما كان عمري ستة عشر عامًا، تزوجت وتركت تعليمي بسبب العادات والتقاليد، فقد أملى علينا المجتمع أن "المرأة لبيتها وأولادها، والشهادة مو لازمتها". اعتقل زوجي واستشهد تحت التعذيب، وأنا الآن في تركيا.

منذ بداية الثورة في مصر عام 2011، كنت أتمنى أن تصل الثورة إلى سورية لعل هذا النظام يسقط، فأنا معارضة، أما عائلتي فلم تكن معارضة ولا مؤيدة للنظام.

أول منطقة في حلب خرجت فيها المظاهرات هي منطقتنا، منطقة صلاح الدين، وهي أول منطقة تحررت أيضًا من النظام، في بداية الأمر لم أتشجع لأشارك في التظاهر لكني كنت من مناصريها، ولاحقًا بدأت أحضر مع أصدقائي الأطباء المعارضين اجتماعًا كلّ يوم سبت نتبادل فيه الآراء، فبعد أن تمركز الجيش الحرّ في بعض المنازل كان علينا أن نغادر منازلنا ونترك فيها مواد طبية كالشاش والأدوية لإسعاف الجرحى والمصابين، لأنّ الجيش الحرّ كان سيبقى في منطقة صلاح الدين.

في إحدى المرات وأثناء خروجي أنا وصديقتي بعد أن انتهى الاجتماع، كان هناك مظاهرة ولا شعوريًّا وجدنا أنفسنا وسطها، وبدأنا بالهتاف معهم، كانت أول مظاهرة أشارك فيها، وللأسف قُتل فيها شاب أمامنا بعد أن هجم الشبيحة كالعادة، وكان بينهم شبيح من منطقتنا وهو قصاب، قتل الشاب بساطور كان يحمله في يده، فخرج كلّ ما في بطنه على الأرض، وما حدث أمامنا لن ننساه ما حيينا وزاد من إصرارنا على المشاركة في المظاهرات، وبدأنا نبحث عنها وندعو أصدقاءنا ومعارفنا للمشاركة فيها عن طريق إرسال الرسائل عبر وسائل التواصل الاجتماعية.

شاركت في ثلاث مظاهرات إحداها كانت في السكن الجامعي، لكن زوجي منعني من المشاركة فيما بعد، خوفًا عليّ من النظام، ولأني كنت حاملاً في الشهر الرابع من الحمل، وهو لا يرغب بالمشاركة لا بالمسيرات المؤيدة ولا بالمظاهرات، فتوقّفت عن المشاركة ولكن كلما مرت مظاهرة أمام بيتي، كنت أقدم للمتظاهرين الماء عندما يطلبون، وأمدّ لهم الخرطوم وأرشهم بالماء، فالطقس كان حارًّا جدًّا، وأنا أضحك عندما أتذكر تلك اللحظات.

تشكّل الجيش الحر في منطقتنا من أفراد دخلوا من عندان وإدلب وبعض شباب صلاح الدين، وكانت المدة الزمنية بين المظاهرات السلمية وتشكُّل الجيش الحر فيها شهر واحد فقط، وكان بعضهم يتظاهرون مع المدنيين.

في الأوّل من رمضان أعلن الجيش الحرّ سيطرته على منطقة صلاح الدين، وكانت مهدّدة بأن النظام سيقصفها، فخرجنا مع المدنيين منها، وبدأنا ننزح من منطقة إلى أخرى.

عدت إلى حياتي الطبيعية وابتعدت عن السياسة، وبعد فترة، وبسبب نزوحنا من مكان لآخر طلبت من زوجي العودة إلى بيتي في المنطقة المحررة، لكنه رفض لأنه كان موظفًا في خطوط السكك الحديدية، ولاحقًا انتقلنا للعيش في غرفة في مصلحة السكك الحديدية.

في عام 2013 قام شقيق زوجي ويدعى محمد بالإبلاغ عني، وأخبر الأمن أني كنت أشارك في المظاهرات، وفي العشرين من تشرين الأول عام 2013، اقتحم بيتي ثلاثة عناصر من فرع المخابرات الجوية، واعتقلوني أثناء وجود زوجي وأطفالي في المنزل، بعد أن أخذوا ابنتي التي لم يتجاوز عمرها السنة من يدي ورموها على الأرض، ولم يستطع زوجي الكلام أثناء ذلك، لكن أحدهم طمأنه وقال له إنّ مكوثي لديهم هو لمدة عشر دقائق فقط، وإن الموضوع هو سؤال وجواب فقط، وستتم إعادتي له، ثم قاموا "بتطميش" عيوني ووضعوا "الكلبشات" في يدي، وأخذوني.

المخابرات الجوية

عندما وصلت إلى فرع الجوية، تم إنزالي إلى قبو ورفعوا العصابة عن عينيّ، وقاموا بإدخالي إلى الحمامات، وشاهدت السجان الذي كان سمينًا ويشبه المصارع في حلبات المصارعة، وطلب مني خلع ملابسي من أجل التفتيش، لكني في البداية عارضت الأمر، فضربني على وجهي وقال: "إن لم تخلعي ملابسك فسأقوم أنا بذلك"، كان أمرًا وعليّ تنفيذه، وطلب مني بعد أن تعريت أن أقوم بثني جذعي، استغرق التفتيش دقيقتين، وبعد ذلك وضعوني في زنزانة منفردة ، مساحتها متر مربع، طولها متر وعرضها متر، وقام المحقق باستدعائي بعد نصف ساعة، وما إن دخلت حتى بدأ بضربي ولم يسألني أي سؤال، فطلبت منه أن أعرف ماهي تهمتي، فقال لي: "بدك حرية!" وبدأ بالشتائم الكبيرة ووضع حذائه العسكري فوق رأسي وقال: "هاد بيسواكِ إنتِ وعيلتك" ولم يتوقف عن إهانتي وشتمي بشتائم أصبح الجميع يعرفها. بقيت على هذا الحال أربعة أيام، كلّ يوم يضربونني ويشبحونني ويستخدمون الكهرباء في تعذيبي، في إحدى المرات شبحوني مدة خمس ساعات، والشبح هو عبارة عن قطع حديدية في سقف الغرفة يتم تعليق اليدين بها ثم تُترك السجينة واقفة على رؤوس أصابعها، هناك طرق أخرى للشبح مخصصة للشباب، فقد أخبرني أحد المعتقلين بأن شبحه كان بفتل يديه وتعليقهما بالقطع الحديدية، ولكن شبحي تم بالطريقة التي ذكرتها. بعد الأيام الأربعة بدأ التحقيق معي وكانت الأسئلة محصورة بخروجي في المظاهرات وتزويد الجيش الحرّ بالمعلومات، وبالطبع أنا أنكرت ذلك، وقد ألصقوا فيّ تهمة نقل المعلومات لأن قضية التظاهر كانت قديمة، ففي عام 2013 لم يعد هناك مظاهرات، وأعتقد أنّها أضيفت كي تعزّز اعتقالي.

كنت طوال الوقت أفكر في أولادي وبيتي، فالطقس كان باردًا، وقبل يوم من اعتقالي كنت قد طهوت حساءً من الرز على المدفأة "الصوبيا" وبينما كنت أغسل الأطباق، انقلبت المدفأة وانقلب معها الحساء على السجاد واندلعت النار، فقمت بإطفائها وغسلت السجاد ونشرته، وبقيت سجادة واحدة في غرفتي الكبيرة، وعندما تم اعتقالي كنت مهمومة بشأن أطفالي فالغرفة في بيتي كانت باردة وطفلتي الصغيرة كانت ما تزال ترضع من صدري، وكنت أتخيل أنهم سيعتقلون زوجي، فقد سمعتهم في إحدى المرات يحقّقون مع رجل كبير في السن وكانوا يسألونه عن أولاده الثلاثة، وهو يُنكر معرفته بمكانهم، وتفاجأت

بأنهم قاموا باعتقالهم وأحضروهم أمامه في الفرع، وأراد الأب أن يحمل كلّ التهم بدل أولاده، وهم أرادوا أن يتحمّلوا كلّ القضية بدل أبيهم، فبدؤوا يتحدثون بكلام متناقض بين بعضهم البعض، وعلقوا في دوامة، فراح تفكيري باتجاه زوجي وخفت أن يعتقلوه، وصرت كلما سمعت صوتًا أظنه صوته.

كانوا يقطعون سلسلة أفكاري هذه في تعذيبي وشبحي حين يستدعونني للتحقيق في الساعة الثالثة أو الخامسة فجرًا. تم شبحي أربع مرات خلال عشرة أيام قضيتها في الفرع، ومن ثم تم تحويلي إلى الأمن الجنائي.

أنا أعرف الأسباب التي جعلت أخا زوجي يكتب فيّ تقريرًا ويبلغ الأمن عني، فهو عقيم لا يستطيع الإنجاب، وعائلة زوجي كانت من الشبيحة، وكل الناس في حلب تعرف أنهم شبيحة، ولم تكن علاقتي معهم جيدة، وعندما كنت حاملاً في ابنتي كانوا يدعون الله أن يموت الجنين في بطني، وزوجي رجل عاقل جدًّا جدًّا، وكان يطلب مني دائمًا أن لا أجيب على دعواتهم، وبالفعل لم أكن أردّ عليهم، ولكني في الحقيقة لم أتوقّع أن يقوم بإبلاغ الأمن عني!

بعد أن وضعت ابنتي ونتيجة الغلاء الذي حصل تدهورت أحوالنا المادية، وبدأ زوجي يستدين المال من أخيه، وكان الأخير يعطيه، لكنه طلب من زوجي أن يُسجّل ابنتي الصغيرة باسمه، وبصراحة وافق زوجي على طلبه، لكني رفضت رفضًا قاطعًا وقلت لزوجي: "ممكن أن تنام عندهم أو يقوم بتربيتها، ولكن أن يسجلها باسمه فأنا لا أوافق، وأرفض أن تناديه ابنتي يا بابا وتنادي زوجته يا ماما، ولو صار عندي عشرة أولاد أقطع من لحمي ولا أعطيه ابنتي وكأني قمت ببيعها".

زادت المشاكل بيني وبين زوجي بسبب هذا الموضوع، ووصل الأمر بيننا إلى حدّ الطلاق، وتركت البيت على إثر هذا، لكن زوجي كان يعلم أن أهله لا يريدون تربية ابني وابنتي الكبيرين، فحماتي لن تربي ابني الكبير، وأخت زوجي لا ترغب بتربية ابنتي الوسطى، فخاف على الأولاد من الضياع، واتصل بي من أجل أن أعود للمنزل، فقلت له: "إن عادت ابنتي الصغيرة فأنا أعود، وإن استغنيت عنها وأعطيتها لأخيك فسأترك لك الأولاد كلهم"، فعدل عن رأيه وعدت إلى البيت، وانتهت المشاكل بيني وبينه، لكن أخا زوجي غضب وأخبر زوجي قبل ثلاثة أيام من اعتقالي أنه سيقوم بإبلاغ الأمن عني، وعندما أعلمني زوجي بالأمر بدأت أقلق وشاهدت في منامي أن فرع الجوية اعتقلني لمدة بسيطة ومن ثم أطلقوا سراحي، وعندما صحوت أوصيت جارتي بأولادي وأخبرتها عن المنام، وقلت لها إن اعتقالي سيكون لمدة قصيرة، وبالفعل في اليوم التالي اعتقلت.

فرع الجنائية

تم إخراجي من فرع المخابرات الجوية الساعة الحادية عشرة صباحًا بعد أن عصبوا عينيّ ووضعوا الأصفاد في يدي، وأخذوني إلى الأمن الجنائي في حلب، ورفعوا العصابة عن عينيّ وقامت شرطية بتفتيشي، وأنزلوني إلى قبو كان يحوي حوالي عشرين زنزانة، ولا أنسى الروائح التي شممتها في هذا الفرع، كانت روائح نتنة غريبة، هي مزيج من رائحة بول وبراز ودم، ثم وضعوني في زنزانة تحوي تقريبًا أربعين بنتًا، كانت تهمهن مختلفة وأقلّها التهم السياسية، أربع بنات فقط تهمهن سياسية، وباقي التهم كانت بين القتل والاختلاس والمخدرات، كنا ننام كالسيف بسبب الازدحام، وحوت الغرفة مرحاضًا لا يوجد له باب، بجانبه صنبور ماء هو للشرب والغسيل وللحمام ولاستخدام المرحاض، وقد شاهدت عبر الطاقة الموجودة في باب زنزانتنا أعدادًا كبيرة من الشباب يقفون متلاصقين، وليس لديهم أي إمكانية للتحرّك أو الجلوس، حتى إن أحدَهم كان وجهه ملاصقًا لطاقة الباب الحديدي للزنزانة.

كانت أحوالي يرثى لها منذ أن دخلت فرع الأمن الجنائي، فمن شدة تعذيبي في فرع الجوية التهبت إحدى أصابع قدمي وساءت أحوالها أكثر في الجنائية من كثرة الجراثيم المنتشرة، حتى أني أصبت بالحمى، وبالطبع لم يكن هناك طبيب ولا علاج.

كان تعذيبي في الأمن الجنائي أخف من تعذيبي في فرع الجوية، فقد تم ضربي فقط ب "الأخضر الإبراهيمي"، ورغم أنه ضرب وتعذيب لكنه أرحم من التعذيب القاسي الذي تعرضت له في فرع الجوية، لم أغيّر أقوالي ولم أعترف بأني كنت أشارك في التظاهر، وكنت أردّد أمامهم خلال التحقيق معي، أنني أم وكنت حاملاً، وبعد ثلاثة أيام تمت إحالتي إلى القاضي في بناء العداس بمنطقة الجديدة، "جنزرونا" في الأمن الجنائي نحن البنات في جنزير واحد كالغنم، وفعلوا الشيء نفسه مع الشباب، ووضعونا في منفردة حتى يأمر القاضي باستدعائنا.

سألني القاضي عن علاقتي بالإرهاب، فأجبته: "لا شيء"، أتذكر الآن سؤاله وأضحك، كنت حافية القدمين في المحكمة لأنني لم أكن أستطيع انتعال حذائي نتيجة الالتهاب الشديد في قدمي، وربما يكون القاضي قد رأف بحالي فأطلق سراحي.

أعادوني إلى الزنزانة في الأمن الجنائي ليتم "التفييش"، وكانوا قد جلبوا لنا الطعام، وهو كالعادة عبارة عن فاصولياء بيضاء مع عدد مع الصراصير، وطبعًا لم أستطيع أن آكل رغم أن البنات طلبن مني أن آكل، لكنني أخبرتهن بأني سأتناول الطعام مع أولادي وزوجي، وبعد ساعة أتى السجان ونادى بنتًا أخرى كانت معنا ولم يذكر اسمي، ثم خرج، فناديته وقلت له: "وأنا؟"، فقالي لي: "ما اسمك؟"، وعندما ذكرت اسمي قال لي: "ماذا تفعلين هنا هيا اخرجي"، لقد نسوا اسمي ولو لم أذكرهم بنفسي لبقيت في السجن.

الطريق إلى بيتي

تسلّمت هويتي وخرجت في الساعة السابعة والنصف مساءً، المسافة بين الأمن الجنائي وبيتي تستغرق حوالي خمس دقائق، لكني نسيت أين بيتي ولم أعرف في أي اتجاه عليّ أن أسير! توجّهت إلى حاجز الأمن الجنائي ورؤوا الختم الذي ختموه على يدي، والذي يشير إلى أنّهم أطلقوا سراحي وسألتهم: "أين محطة القطار؟"، ودلّوني على الاتجاه.

كانت أسير حافية القدمين على طريق محطة القطار الممتلئة بالحصى والحجارة، ونسيت إلى أين أتجه مجدداً رغم أني عشت وتربيت في هذه المنطقة! شاهدت من بعيد مجموعة شباب، فتوجّهت إليهم وسألتهم عن طريق ورشة الدهان، لكنهم استغربوا منظري الغريب! وربما خطر في بالهم أن أحدًا ما قد اعتدى عليّ، فأخبرتهم أني كنت في الأمن الجنائي، وبعد أن سألوني عن اسم عائلتي، قالوا لي: "نحن نعرف أخاك، والحمد لله على سلامتك"، ثم قاموا بإيصالي إلى بيتي وذهبوا، وأحمد الله أني تذكّرت مكانه، طرقت الباب بهدوء كأيّ زائر عادي حتى تشكل عودتي مفاجأة لعائلتي، لكن لم يفتح أحد! بدأت أنادي وأصرخ بأسماء أولادي، حموده، سعد وأنادي زوجي أحمد، وتوجهت إلى جارتي ولم أجدها أيضًا، حتى وجدت مجموعة شباب قرب منزلي فسألتهم عن زوجي وأخبرتهم أني زوجته، لكنهم قالوا لي: "إن زوجته في الجوية!" فقلت لهم: "نعم، والآن خرجت"، لم يصدّقوا الأمر لأنّ من يدخل فرع الجويّة لا يخرج منها، فأخبروني أنّ زوجي تمّ اعتقاله بعد اعتقالي بيوم واحد، من قبل فرع الأمن السياسي، انصدمت وعلمت أنّه لن يعود، وقلت بشكل تلقائي وبصوت مرتفع: "الله لا يوفقك يا محمد روّحت أخوك"، وطلب مني الشباب التوجّه إلى حارس محطة القطار، و يدعى أبو بكري لأحصل منه على معلومات أكثر، وذهبت إليه وسألته، فأخبرني أن فرع السياسية اعتقلوا زوجي واعتقلوا معه عشرين شخصًا من زملائه وهم على رأس عملهم، ولا أحد يعرف عنهم أي شيء حتى الآن، فسألته عن مكان أولادي، فأخبرني بأنّهم مع شقيق زوجي محمد.

نسيت ألمي وسط مصيبتي، ولم يكن لدي مفتاح غرفتي ولم أعرف إلى أين أذهب! فتوجّهت إلى شخص يدعى أستاذ رامز وهو المسؤول عن المحطة، وهو من مدينة اللاذقية، وسألني عن قصتي، فرويت له ما حدث ولكن بتحفظ وحذر، كأني أتحدث مع محقّق في فرع أمن وليس مع شخص عادي، فطلب مني أن أنام في مكتبه وأُقفل الباب حتى صباح الغد، ليُحضر لي صاحب الورشة مفتاح غرفتي، فأقفلت الباب وبقيت في الغرفة لكنني كنت أرتجف، ربما بسبب الخوف أو بسبب صدمتي جراء اعتقال زوجي وفقداني أولادي، كنت أريد أي شخص أحتمي به، وفجأة سمعت صوتًا ينادي: "لولا افتحي الباب"، كانت جارتي، ففتحت الباب وركضت باتجاهها وبدأت أرتجف وأبكي، اصطحبتني إلى بيتها بعد أن قالت لي: "ما الذي يبقيك هنا، تعالي نامي في بيتي"، أشعلت لي المدفأة وأعدت لي الحمام، فأنا كنت مقملة ومفسفسة وممتلئة بجميع أنواع الحشرات"، وبعد أن اغتسلت أعطتني دواءً لتعقيم إصبع قدمي وآخر للالتهاب وخافضًا للحرارة، وفي اليوم التالي كان عليّ استعادة أولادي ومواجهة شقيق زوجي، وقررت في قرارة نفسي أن أتجاهل أمر التقرير الذي كتبه للأمن بحقي كي آخذ أولادي ويتركني وشأني.

اصطحبت معي شاهدان من سكان المحطة، وتوجّهت إلى الحارة التي يقطن فيها شقيق زوجي كي لا يدّعي كذبًا أي شيء لم يحصل، فشاهدني في الشارع صدفة، وأنا لم أكن أعرف مكان بيته بدقة، فقلت له: "أتيت لآخذ ابنتي"، فأجابني مرتبكًا: "إي إي"، لقد انصدم حين رآني، ولسان حاله يقول: "كيف خرجت من فرع الجوية؟!".

سار أمامي باتجاه منزله، لكنه أخطأ في البناء ثم عاد وأخطأ مرة أخرى في الطابق، وحين دخل إلى منزله ليُحضر ابنتي، وقفت أمام الباب ولم أدخل، وسمعت صوت زوجته وهي تصرخ وتقول: "لا، لا أريد إعطاءها البنت، كنا عم نقول إنها ماتت خلص"، أخذت ابنتي واعتبرت أني لم أسمع شيئًا، أما ابني الكبير فقد كان في منطقة الجميلية عند عمته، وابنتي عند عمتها الثانية، وابني الأصغر سعد كان في ضيعة بنيامين عند عمته الأخرى، كل طفل من أطفالي كان في مكان، لكني أحضرتهم أربعتهم في اليوم نفسه، وعدت إلى غرفتي بعد أن فتحوا لي بابها وأعطوني نسخة من مفتاحها، فقد كان يحقّ لي أن ابقى فيها طالما أن زوجي لم تثبت عليه أي تهمة، وهي غرفة تعود ملكيتها للدولة، وقد تم إعطاؤها لزوجي باعتباره موظفًا في الدولة ونازحًا، ولكونها قريبة من مكان عمله.

كان عليّ البحث عن عمل كي أعيل أولادي لأن أهلي وأهل زوجي تنصّلوا من إعالتي وأطفالي، وكانت عائلتي تشترط لمساعدتي أن أترك أولادي لأهل زوجي لكني رفضت، وكانوا يحذرونني بشكل دائم من عائلة زوجي ويقولون لي: "إذا ابنهم روّحوا!" كان تواصلي معهم عبر الهاتف فقط لأنهم خافوا من زيارتي، كما خافوا ولم يسألوا عني حين اعتقلت، حتى إن المسافة بين غرفتي التي أسكنها ومنزل أخي كانت تستغرق مشيًا على الأقدام خمس دقائق فقط، لكنه لم يأت لزيارتي بعد إطلاق سراحي بسبب الخوف.

ورغم إني لم أعمل سابقًا وليس لدي أي مهارة لأعمل، لكني وجدت إعلانًا يطلبون فيه آنسة لتعمل في معمل لخياطة فساتين العرائس، فتوجّهت إليه، وكلّ الأسئلة التي سألني إياها "المعلم" خلال المقابلة والمتعلّقة بمعرفتي في خياطة هذا النوع من الفساتين كنت أجيب عنها بالإيجاب، على الرغم من أني لا أعرفها لكني كنت مصممة على أن أعمل وأتعلّم، وقال لي: إن أجرتي الأسبوعية وبشكل مبدأي هي ألف وخمس مئة ليرة سورية، وسيزيد أجرتي حسب عملي، وافقت على ما قاله، ومن ثم أدخلني إلى غرفة فيها أربع أشخاص، شابّان وفتاتان، وبدأت ألاحظ ما تقوم به إحداهنّ كي أتعلم، فقد كانت ممسكة بفرد اللصق، وتقوم بلصق الألماس على فستان عرس، فقمت بمد أحد الفساتين وبدأت أفعل مثلما تفعل، حتى إنهم اقتنعوا أني كنت أعمل سابقًا في هذه المهنة، أتذكّر تلك الأيام وأضحك، لقد تعلّمت بسرعة، وزادت أجرتي في الأسبوع الثاني وأصبحت ألفي ليرة سورية، وكنت أداوم في عملي من التاسعة ونصف صباحًا حتى الخامسة والنصف مساءً، وأحيانًا كنت أبقى ساعتين إضافيتين كي أقبض خمس مئة ليرة، فابنتي الصغرى كانت بحاجة للحليب والحفائض إضافة إلى مصروف بيتي، وكان ابني الصغير سعد يرافقني إلى العمل، ويقوم بقص الخيطان ويعطوني أجرة عمله، وكنت أترك ابني الكبير في البيت وأخته ذات السنوات الخمس ليرعيا أختهما الصغرى، بقيت على هذا الحال ثلاثة أشهر، وبدأت أسأل عن زوجي وتأكدت أنه في فرع الأمن

السياسي، ووصلني أحد أصدقاء زوجي بشخص يعمل في الفرع نفسه ويستطيع أن يساعدني ويفرج عنه، فقابلته وطلب لقاء ذلك مبلغ خمسين ألف ليرة سورية، فاشترطت عليه أن أسلمه المبلغ عندما أستلم زوجي، ووافق.

بالطبع، أنا لم أكن أملك من المبلغ ولا حتى ليرة واحدة، فأخبرت حماتي بالأمر وأرسلت معي ابنها محمد لمقابلة الشخص، وانتهت المقابلة على أن محمد سيفكر في الأمر، لكنه أخبرني بعد انتهاء اللقاء أنه لا يملك هذا المبلغ، مع أني أعلم أن الأحوال المادية لعائلة زوجي هي فوق الريح، ولديهم ثلاثة بيوت يقومون بتأجيرها. وعندما علم الشخص الذي يعمل في الفرع بأن عائلة زوجي لن تدفع، اتصل بي وطلب مني أن أُخرج شقيق زوجي من الموضوع، ودعاني إلى أن أتفاهم معه، فهمت غايته وأغلقت هاتفي الجوّال نهائيًّا ولم أعد أفتحه، وبعدها بأسبوعين تمّ اعتقالي مرّة ثانية.

الاعتقال الثاني

ذهبت في يوم عطلتي بعد أن قبضت أجرتي لأجلب الطعام لأولادي من شارع أدونيس، وأثناء عودتي ولأختصر طريقي مررت بشارع المحافظة، وكان هناك مفرزة أمنية تابعة للأمن العسكري، أوقفوني وطلبوا هويتي وسألوني عن القرابة التي تربطني بعائلة زوجي "مهمندار"، فأجبتهم بأن زوجي من تلك العائلة، ثم سألوني عن زوجي، فأجبتهم بأني لا أعلم عنه شيئًا وقد قيل لي إنه في فرع الأمن السياسي، وكعادتهم قالوا لي: "نريد أن نسألك بعض الأسئلة"، وأخذوني إلى الأمن العسكري في السابع عشر من شباط عام 2014.

قامت إحدى المعتقلات بتفتيشي بعد تعريتي، وفي اليوم الثاني أخذوني إلى غرفة المحقق، ورأيت هناك شقيق زوجي في مكتب المحقّق وبقي في مكتبه حوالي الساعة، وبعد خروجه قاموا بإدخالي، وسألني المحقق: "أنتِ شاركتِ في المظاهرات؟"، فأنكرت، ثم سألني ماذا كنت أفعل في المناطق المحررة؟ فأنكرت زيارتي لها، فقال لي: "اعترفي ما هي المهمة التي خرجت من أجلها؟"، واستمرّيت بالإنكار، وفجأة التقط جهازًا هاتفيًّا وأسمعني حوارًا مسجّلاً بيني وبين زوجي أثناء وجودي في منزل أهلي إثر خلافي مع زوجي وتركي للمنزل، وقد كان لأهلي منزلاً في منطقة عندان، والحوار المسجّل بيني وبينه كان يدور بعد أن تصالحنا، وكان يقول لي: "يلا انزلي وتعي على البيت"، فأجبته: "لا أستطيع النزول الآن، اصبر حتى يخلصوا"، وقد قلت هذه الجملة الأخيرة لأن داعش في تلك الفترة كانت قد دخلت إلى عندان وارتكبت مجزرة بحق مئتي شخص، وأثناءها لم يكن يجرؤ أي شخص أن يخرج من منزله، ولم أستطع أن أشرح لزوجي ما يحصل، ولذلك اختصرت الحديث بكلمتين، لكن المحقّق وعناصر الأمن فهموها وفسروها كما يحلو لهم، وبدأوا بتوجيه أسئلة متلاحقة لي: "ماذا كنتِ تفعلين، ما هو الأمر الذي سينتهي، ما هي المعلومات التي قمت بتزويدهم بها، ما دورك؟”

وهذا التسجيل الذي سجله شقيق زوجي، هو التسجيل الذي ثَبّتَ تهمًا عليّ وعلى زوجي، وبالنسبة للأمن كان التسجيل دليلاً على أن هناك اتفاقًا ما بيني وبين زوجي، ورفضوا أن يصدّقوا ما قلته، أنزلوني إلى تحت وبدؤوا بضربي، واستلمني محقق آخر "الله ياخدوا"، كانوا يدعونه "أبو زلعومة"، قام باستدعائي بعد أن "طمشني" وطلب مني أن أسير إلى الأمام، وكان هو خلفي، إلى أن اصطدمت بجدار، وقد شعرت بشيء غريب وكان هو خلفي مباشرة، فاستدرت باتجاهه لا شعوريًّا ورفعت العصابة عن عيني، وقال لي بلؤم: "لماذا التفتِّ؟ أعيدي وضع العصابة على عينيكِ"، وضربني حتى وقعت أرضًا، وانهال علي بالضرب المبرح، فقط لأني التفت نحوه. ثم بدأ بالتحقيق معي: "ماذا كنت تفعلين في عندان؟"، فأخبرته أني كنت عند أهلي نتيجة قصة عائلية فلم يقتنع، وأخبرني أن اسمي مكتوب على صفحة في وسائل التواصل الاجتماعي تدعى "حلب اليوم" تحت عنوان "اختفاء المجاهدة لولا"، فأجبته بأني لم أر شيئًا، وبدأ بتهديدي بالإعدام وقال لي: "إذا لم تعترفي رح ودّيكِ وراء الشمس". ومن جديد بدؤوا بتعذيبي بواسطة الكهرباء والشبح حتى أن أصابعي وأصابع المعتقلات كان لونها يتحوّل إلى اللون الأزرق من طول مدة الشبح، وبعدها كان السجان يُشعل النار بالولاعة ويجعلها تلامس رؤوس أصابعنا، مكان احتباس الدم، لإيلامنا بشكل أكبر، وهذه الطريقة المؤلمة في التعذيب استخدموها أيضًا مع الشباب، وبعد ساعات الشبح الطويلة وحرق رؤوس القدمين وأنت مشبوحة لا تعلمين نوع الألم الذي ينتابك، أهو نار تحرق رؤوس أصابعك أم هو جليد.

بقيت على هذا الحال قرابة الشهر، واعترفت خلالها أني كنت أتظاهر بدافع فردي، لكني لم أعترف على أسماء صديقاتي اللواتي كنت أتظاهر معهن، أما التهمة بتزويد المعلومات، فلم أعترف بشيء.

كان الأكل في الأمن العسكري أنظف من ذاك الذي في الأمن الجنائي، لكن نوعيته سيئة طبعًا. بعد شهر وفي الساعة السادسة صباحًا سمعت أحدهم يصرخ باسمي ليتم ترحيلنا إلى فرع فلسطين، طبعًا هم كانوا يقولون لنا إننا سنخرج إلى البيت، لكني كنت أشعر أنه كلام غير صحيح.

لقد حقد عليّ شقيق زوجي عندما رفضت تسجيل ابنتي على اسمه، وهو من أوصى الأمن بتعذيبي، ورغم أن عائلة "مهمندار" عائلة عريقة، لكن عائلة زوجي أي حماتي وأصهرتها معروفون في حلب بأنهم شبيحة، وهي كانت منبوذة من عائلة زوجها بسبب أطباعها وسلوكها، وقد توفي والد زوجي عندما كان عمر زوجي ثلاثة عشر عاماً، وكان زوج ابنتها والمدعو أ.ج يخرب الدنيا في حلب، وهو المرافق الشخصي للعقيد جواد، الذي كان مسؤولاً عن حلب، وصهرها الآخر شبيح وهو من كتب بحقي التقرير للأمن العسكري، وكان يعمل في تركيب المكيفات ويركب مكيفات للشبيحة، وقد اشترى بيتًا وسيارة نتيجة عمله وكتابة التقارير بالناس، وأولاد أخوات زوجي كانوا متطوّعين في اللجان الشعبية، وأحدهم كان عسكريًّا وتطوّع في اللجان.

وقد علمت لاحقًا بأن من كتب تقريرًا بزوجي وزملائه في العمل هم من كتائب البعث الموجودين في المحطة، وقد قام الأمن السياسي باعتقالهم، منهم من مات في المعتقل ومنهم من خرج، أردت مقابلة أحد الذين أطلق سراحهم لأسأله عن زوجي، فعلم الأستاذ رامز بالأمر واستدعاني إلى مكتبه، وسألني عن سبب رغبتي بمقابلته، فأجبته بأني أريد أن أعرف إذا كان قد شاهد زوجي في المعتقل لأطمئن عليه، فأخبرني

بأنه يمكنني مقابلته غدًا صباحًا، ولكن في مكتبه حصرًا، وفي اليوم التالي اجتمعت معه، تركنا رامز وخرج من الغرفة، لكنني كنت متأكدة من أنه أملى عليه ما سيقوله لي، وسألته إن كان قد شاهد زوجي، فأجابني بنعم، فسألته عن صحته وعن القضية التي يحققون معه بها، فأخبرني أن زوجي بخير، وأنه لا يعرف شيئًا عن التحقيق، ولم يعطني أي معلومة، فتأكدت أن رامز قد منعه من إعطائي أية معلومة، ولكني علمت لاحقًا من صديق والدي أن هذا المعتقل قد ترك وظيفته وذهب إلى ضيعته في عندان وهي منطقة محررة من النظام، لأنه كان يعلم أنهم سيعاودون اعتقاله، وقد أخبره أنهم يأخذون زوجي للتعذيب كل يوم جمعة، وعندما يعود إلى زنزانته يكون مُدَمّى، وعقله "عم ياخد ويجيب" ولا يستطيع التركيز، ويبول على نفسه، وحالته الصحية متدهورة بشكل كبير، ولم يعرف أحد منا بماذا كانوا يحققون معه، وقد انهرت عندما سمعت هذا الكلام.

لقد أثرت قصة اعتقالي على زوجي، لأنه حين تم اعتقالي من منزلي، بقي هاتفي الجوال وشريحتان هاتفيتان إضافيتان معه، وحين تم اعتقاله أخذوا معه هاتفي والشريحتين، وكان بداخلهم أرقام هواتف بالإضافة إلى عدد من مقاطع فيديو للمظاهرات، وأعتقد أن ذلك أثّر على التحقيق معه، أو على الأقل أثبت أنه كان يعرف نشاطي في المظاهرات، ومع ذلك لم يربطوا بين التحقيق معي واعتقالي وبين التحقيق معه واعتقاله.

الطريق إلى فرع فلسطين

قبل خروجنا من الأمن العسكري، أخذوني إلى الحمام أنا وامرأة أخرى "الحجة" وكان عمرها تقريبًا خمس وأربعون سنة، وكانوا قد اعتقلوها مع ابنها وهي بثياب الصلاة، وقيدوا أيدينا بقيود بلاستيكية وعقدوها بقوة على معاصمنا، وخرجنا من الأمن العسكري وأمامنا حوالي ستين شابًّا وقد قيّدوا أيديهم وراء ظهرهم بقيود بلاستيكية، وحين ركبنا الباص سألتني "الحجة": "إلى أين سيأخذوننا؟" فأجبتها: "يبدو إلى الشام"، ارتعبت من الفكرة لكنها ما لبثت أن فرحت حين شاهدت ابنها مع الشباب المرحلين معنا، كان طالبًا في السنة الثالثة، طب بشري، وهي أبت أن تتركه حين تم اعتقاله فاعتقلوها معه، واتهموها بالتستر عليه، واتهموا ابنها بالتواصل مع ضابط منشق.

في الباص كانوا يقولون لنا كلامًا مسيئًا جدًّا، ويطلبون منا أن لا نرفع رؤوسنا، وكان معنا شاب مصاب بالربو ويحتاج إلى دواء بخّاخ، والعناصر طوال الوقت يضربونه دون شفقة، ومن حلاوة روحه قال لهم راجيًا: "الله يخليك أنا وحيد لأمي، بدي إرجع لأمي بصحتي وعافيتي"، ورغم عذابي لكنني عندما كنت أرى عذابات الناس كنت أقول في نفسي هل أحزن على حالي أم أحزن عليهم، "كان شي بيقطع القلب".

وصلنا إلى الأمن العسكري في حماة، ووضعونا فيه كأمانات وبقينا حوالي الساعتين، أنزلوني إلى زنزانة منفردة مساحتها متر مربع، وبداخلها مرحاض، وكان فيها معتقلتان، إحداهما وعمرها سبع عشرة سنة، كانت في الأمن العسكري منذ عشرين يومًا، وكانت حالتها يرثى لها وكان تعذيبها شديدًا بشكل لا يمكن وصفه والثياب التي ترتديها ممزقة، وحالات الاغتصاب التي تعرضت لها كانت جلية بشكل واضح، خدوش وجروح

ظاهرة، ودماؤها كانت تسيل منها، وقد اغتُصبت من الجهتين بواسطة "الأخضر الابراهيمي" وفقدت عذريتها، وقد أخبرتني بأن من قام بتعذيبها أخبرها أنه يقرف من اغتصابها بعضوه الذكري، وتم شبحها وهي عارية، والفتاة كانت مخطوبة لشاب وتركته "فكت خطبتها"، ثم التحق خطيبها السابق بالجيش الحر، فاعتقلها النظام من حماة واتهموها بأنها ما زالت على علاقة به وبأنها تمارس جهاد النكاح، وطبعًا هذه التهمة أي جهاد النكاح اتهموا أغلب المعتقلات بها ومن ضمنهم أنا، حتى المرأة المسنة لم تسلم من هذه التهمة "هي تهمة ما بيصير بلاها"، لم أسأل الفتاة عن اسمها لأن وضعها كان سيئًا جدًّا، حتى أهلها لم يكونوا يعرفون أي شيء عنها بعد اعتقالها، والفتاة كانت مدركة أنها أصبحت عارًا على أهلها، وأنهم سيقتلونها بعد الإفراج عنها، وكانت تقول: "أنا ميتة ميتة، هون أو برا السجن"، عندما رأيتها أصابني الرعب واصفرّ لوني وقل تركيزي وخفت على نفسي من أن أعذب كما تم تعذيبها، حتى "الحجة" خافت أيضًا، كنت طوال الساعات التي قضيتها في الأمن العسكري بحماة مهتمة بسؤال الفتاة عن أسلوب التحقيق معها، فجميع التحقيقات التي أجريت معها كانت وهي عارية، وتعذيبها كان في اغتصابها بجميع أدوات التعذيب، وهي الحالة الوحيدة التي شهدتها في مختلف الأفرع الأمنية والتي كان يتم اغتصابها بطرق شاذة، أنا أعلم أن هناك اغتصابات ولكن بهذه الطريقة الوحشية لم أرَ أي شيء مشابه، كانت حلمات صدرها تنزف دمًا لأنهم كانوا يشدونها بواسطة شيء يشبه الملقط، حتى هي لم تكن تعلم بأي شيء يتم شدهما، لم يضربوها وإنما عذبوها من المناطق الحساسة في جسدها. كما سمعت من معتقلة كبيرة في السن تعرّفت عليها في فرع فلسطين وقد حكت لنا أنها تعرضت للتعذيب بطريقة مشابهة من قبل الفرقة الرابعة، وأنا لا أستغرب الأمر لأن في الفرقة الرابعة بدمشق يحدث الكثير من الاغتصابات.

بعد ساعتين نقلوني أنا و"الحجة" إلى الأمن الجنائي بحماة، وضعونا في غرفة كان فيها خمس بنات متهمات بتهم مختلفة منها الاختلاس والقتل والسرقة وليس بينهنّ متهمات بتهم سياسية، بقينا فيها كأمانات لليلة واحدة، وفي صباح اليوم التالي أخذونا من حماة إلى حمص، وتعاملت معنا دورية حماة التي أقلتنا بطريقة وسخة جدًّا، طوال الطريق كان العساكر يوجهون لنا كلامًا وسخًا ويتحرّشون بنا، وعندما كانت إحدانا تصرخ كان ضرب الكف بانتظارها، بدؤوا بالتحرش بصبية كانت معنا ثم انتقلوا للتحرش بي، لم يكن لنا حقّ بأن نعترض على سلوكهم القذر، وكانوا يقولون لنا: "لا يحقّ لكنّ الكلام، أنتنّ إرهابيات، ألا يكفي أنكنّ جاهدتنّ جهاد النكاح، معكنّ امرأة تلبس ملابس الصلاة، أهي الملابس التي تلبسونها أثناء جهاد النكاح؟"، كانت "الحجة" تبكي جرّاء ما تسمعه وما تشاهده، كانوا يضعون أيديهم على الأماكن الحساسة في أجسادنا، أحدهم وضع يده على صدر فتاة وقال لزميله: "تعا شوف هي صدرها أكبر من صدر الفتاة التي معك"، وقاحتهم كانت مرعبة، ولم نكن نستطيع أن نردعهم، فهم كانوا واثقين أنّ أحدًا لن يعاقبهم مهما ارتكبوا من انتهاكات، كانت دورية حماة أسوأ دورية شاهدتها، وحتى وصلنا إلى سجن حمص كانت "طلعت عيونّا".

وصلنا إلى حمص ووضعونا في فرع كان يدعى بالبالونة، ثم أقلتنا دورية حمص إلى سجن حمص المركزي، بقينا فيه خمسة أيام، وكانوا يأخذوننا يوميًّا إلى الشرطة العسكرية في حمص، حتى جاء أمر تحويلنا أنا و"الحجة" إلى فرع فلسطين بدمشق. حمدت الله لأني كنت أنا و"الحجة" سوية فقد كنا نؤنس بعضنا البعض.

صعدنا الباص، وكان يشبه السيارة التي تقل الغنم، كان معنا في الباص الشباب الذين كانوا معنا عندما خرجنا من حلب وكانوا قرابة ستين شابًّا، ووضعونا في مكان يشبه الغرفة المنفردة الصغيرة، وفي الداخل وضعوا الشباب، كانت الحجة متلهفة لترى ابنها وتتحدث معه، وطلبت من العسكري أن يساعدها ويسأل عن ابنها إذا كان بين الشباب الموجودين في الباص، كان العسكري من إدلب وتعاطف معها، وأحضر لها ابنها، شاهدته من وراء الحاجز الحديدي واطمأنت عليه، كلّ موقف مررت به كان مؤثرًا أكثر من الذي قبله، كان كلاهما يبكيان، هي تبكي وتدعوا له، وهو يبكي ويلوم نفسه على الموقف الذي سببه لأمه، كان مقهورًا عليها.

فرع فلسطين

وصلنا إلى فرع فلسطين في دمشق، أنزلوا الشباب أولاً، وكانوا مقيدين بجنزير واحد، عراة إلا من اللباس الداخلي فقط، كانت أعمارهم تتراوح بين الأربعة عشر عاماً والسبعين سنة، كانت القيود في معاصمنا، ولم يضعوا العصابة على أعيننا، نظرت إلى الأعلى فشاهدت لافتة مكتوب عليها "الداخل مفقود والخارج مولود" فعرفت أنني في فرع فلسطين، في الواقع أنا لم أكن أعلم إلى أين سيتم تحويلي قبل أن أرى اللافتة، فقلت للحجة: "نحن في فرع فلسطين، انظري للعبارة"، فقالت لي خائفة: "لا تقوليها! خلص لن نخرج أبدًا، هذا ألعن فرع".

لقد خفت كثيرًا من هذا الفرع. وضعنا أماناتنا وصعدنا للأعلى، كان هناك حوالي تسع غرف، وبداخل كل غرفة اثنان وثلاثون فتاة، أدخلني السجان إلى إحداها، كانت الغرفة ضيقة جدًّا ورأيت فيها فتاة لون عينيها أبيض ووجهها أصفر شديد الاصفرار، قلت في نفسي "إنها ستموت حتمًا"، سألت الفتيات عن قصتها، فأخبروني أنها مريضة، وبدأت أسال كل واحدة منهن عن مدة وجودها في هذا الفرع، كانت إجاباتهن تتراوح بين الستة والتسعة أشهر، وبدون أن يتم التحقيق معهن ولا حتى سؤالهن عن أسمائهن! فقلت في نفسي: "خلص راحت علينا".

كان في الغرفة كاميرا للمراقبة تراقبنا على مدار الأربع والعشرين ساعة، وكان يحق لنا الخروج إلى الحمام ثلاث مرات في اليوم وبأوقات محددة، في الساعة السابعة صباحًا وفي السادسة مساءً وفي العاشرة مساءً، وكان في الغرفة أيضًا سطل، كنا نضطر أحيانًا بسبب سوء الطعام أن نستعمله لأننا كنا نصاب بالإمساك وفجأة يصيبنا إسهال، ولا يفتحون لنا الباب للخروج إلى الحمام مهما قرعناه، فكنا نستعمل هذا السطل لقضاء الحاجة، كنا نمسك البطانيات ونغطي من تريد استخدامه كي لا يشاهدونا من خلال الكاميرا،

وأحيانًا لا يكون لدينا ماء لتنظيف أنفسنا، فنبقى بوسخنا حتى يأتي موعد خروجنا إلى الحمامات، ونقوم أثناءها بغسل السطل وملء عبوات فارغة بالماء، نستخدمها لتنظيف أنفسنا بعد استخدام السطل، كما لم يكن لدينا "ليفة" وصابون، فقط من تملك المال من ضمن أماناتها تستطيع شراءهما من "الندوة" التي كانت تحوي شامبو سنان "للقمل" وصابون وفوط نسائية وزعتر وسكر ومربى فقط، وكانت كل معتقلة معها مال تشتري لحظة دخولها صابونة وشامبو وتوزعها على البنات.

وجدنا داخل بطانيات النوم دودًا أبيض صغيرًا كحبات البرغل هو دود الجثث، فتأكدنا من وجود جثث متفسخة في الفرع، وكانت تلك هي المرّة الثانية التي أشاهد فيها هذا النوع من الدود، فسابقًا شاهدته يخرج من جسد قطة ميتة ومتفسخة، ومن شدة وجود الجراثيم والميكروبات في الفرع انتشر مرض الكوليرا، وكانت الفتاة المريضة التي شاهدتها عندما دخلت الزنزانة مصابة بالكوليرا لكن المعتقلات لم يكنّ يعلمن، كانت الفتاة مصابة بإسهال شديد وفقدت ذاكرتها وحرارتها مرتفعة، وفي اليوم الثاني انتقلت العدوى للفتاة التي تجلس بجانبها، وكذلك الأمر في اليوم الثالث، و جميعهن كانت لديهن الأعراض نفسها، وبدأ المرض بالانتشار حتى وصل عدد المصابات إلى سبعة بنات في غرفتنا، وانتشر الوباء في الغرف المجاورة أيضًا، وكنا نتبادل الرسائل بيننا وبين الفتيات في الغرف المجاورة عن طريق الكتابة على حائط الحمام خلف الباب بواسطة قطع قصدير كانت بعض البنات يوصون عليها للف الدخان، وبهذه الطريقة عرفنا أن المرض انتشر في الفرع، إحدى المعتقلات أصيبت بعدوى الكوليرا وأصبح وضعها الصحي سيئًا جدًّا، كانت معتقلة في الفرع منذ سنة، وقد استدعوها للتحقيق معها مجددًا بعد عام، وبدل أن يتم التحقيق معها بدأ المحقّق بضربها ب "الأخضر الإبراهيمي" وكنا نسمع صوت صراخها، وعندما أعادوها إلى الزنزانة كان جسمها كله أزرق اللون من قسوة الضرب وساءت حالتها المرضية وغابت عن الوعي، وبدأنا نصرخ ونقول لهم إنها فقدت وعيها، وهنا اكتشفوا أن مرض الكوليرا انتشر بعد أن حضر الطبيب، وبدؤوا بتعليق أكياس المصل للمريضات وإعطاؤهن الدواء، طبعًا ليس خوفًا علينا ولكن خوفًا على أنفسهم.

كنا نشاهد في الحمام من عشرين إلى ثلاثين كيسًا من أكياس الأمصال الفارغة، الحمد لله البنات تعافين ما عدا المعتقلة المريضة التي شاهدتها عند دخولي الزنزانة فقد بقيت فاقدة الذاكرة، وهي من دير الزور وكانت تعمل مدرّسة، وقد خرجت من المعتقل بعد مضي شهرين على دخولي، بعد أن بقيت فيه مدة سبعة أشهر، ولا أعلم إن خرجت إلى بيتها أو تم تحويلها إلى فرع آخر، لكني لم أشاهدها في سجن عدرا.

كان هناك شباب يموتون تحت التعذيب، وأذكر أننا سمعنا صوت أحدهم وهو يموت، كانوا يضربونه وهم يصرخون به ويدقون رأسه في الأرض، وكان الشاب يصرخ: "يا الله"، وفجأة سمعنا صوت الشاب وهو يشخر، كان الصوت عميقًا جدًّا، وفجأة سكت الشاب، صمتنا لنسترق السمع حتى نفهم ما حصل، وإذ بالمحقق يقول: "تعا شيلوا فطس"، لقد مات، ثم حضر محقّق آخر وتشاجر مع المحقق الذي كان يضرب الشاب، ولم نفهم على ماذا تشاجرا، لكن الفرع بقي هادئًا وبدون تعذيب مدة ثلاثة أيام بعد موت الشاب، وبعدها عاد الضرب والتعذيب كسابق عهده.

كنا كلما خرجنا من زنزانتنا نرى الدماء على الأراضي والحيطان، كنا نشم رائحة الدماء، لقد كان التحقيق مع الشباب قاسيًا جدًّا، بعض البنات كان يتم تعذيبهن ولكن ليس بحجم تعذيب الشباب، لأن أغلبهن يتم تحويلهن من فرع إلى هذا الفرع بطريقة شكلية، فلا يتم التحقيق معهن مثل بقية الأفرع أو الفرع الذي قام بالاعتقال.

بقيتُ في فرع فلسطين ثلاثة أشهر، وتم التحقيق معي مرة واحدة، وبعدها بيومين خرجت في الشهر السادس من عام 2014، ولم يتم تعذيبي في هذا الفرع، وكان التحقيق معي شكليًّا، ولم يضعوا فيه العصابة على عيني.

استهلّ المحقق التحقيق بالصراخ وقال لي: "امشي أمامي يا قحبة"، ولا أعلم من أين أتتني القوة لأرد عليه، فهذه الكلمة التي قالها هي كلمة معيبة جدًّا وأخجل من إعادة قولها، وقلت له: "حاجتنا إهانات، شبعتونا إهانات، تعا اضربني وخلصني بس مو ضروري تسمعني هالكلام"، فسكت وجلس على كرسيه، ثم سألني عن مشاركتي في المظاهرات، فقلت له: "نعم شاركت"، لأني كنت سابقًا قد اعترفت بهذا، ونفيت سؤاله المتعلق بتمويل المعلومات، وسألني إذا كان زوجي مسلحًا، فأجبته: "لا"، ثم سألني عن مدة وجودي في الفرع، فقلت له: "ثلاثة أشهر"، وطلب مني العودة إلى غرفتي.

عدت إلى غرفتي وأنا بحالة صدمة من المحقّق، وعندما سألتني البنات عن سبب ذهولي، أجبتهن بأن التحقيق معي كان بسيطًا للغاية وشكليًا، وأن المحقّق لم يضربني، وعندما أجبته بعدما قال لي كلمة كبيرة ومسيئة عاد إلى كرسيه، فطلبوا مني وصفه وأخبروني أنه المحقق الوحيد في فرع فلسطين الذي لا يعذّب المعتقلات ويحقّق معهنّ بطريقة شكلية وغالبًا ما يقوم بإخراجهن من الفرع، وأضافوا: "شغلتك يومين وبتطلعي من الفرع"، لقد كان شابًّا وعمره حوالي خمسة وعشرين عامًا، وإجمالاً كان وجهه مريحًا. وبالفعل بعد يومين بصمت وخرجت من الفرع مع ثلاثة بنات، وأخذونا بعدها إلى فرع بمنطقة كفرسوسة كإيداع، وفي اليوم الثاني أخذونا إلى سجن عدرا.

سجن عدرا

في سجن عدرا كانت الصاعقة الكبرى بالنسبة لي، لأني رأيت فيه بنات خرجن من فرع فلسطين منذ ثلاثة أشهر ولم تتم إحالتهن بعد إلى القاضي، كنا نعتقد أنهن ذهبن إلى بيوتهنّ ولم نتخيل أنهنّ ما زلن في سجن عدرا، وقالت لي إحداهن: "أنتِ هنا تبقين ثلاثة أو أربعة أو حتى خمسة أشهر كي يتم تحويلك إلى القاضي، أنتِ وحظك". وكان خلالها قد صدر ما يسمى العفو أو تسوية، وخرجت من خلاله عشرون بنتًا، وطبعًا، لا يدرج اسم أي بنت صدفة في أية تسوية أو كما يقولون "ممن لم تتلطخ أيدهم بالدماء"، فالبنت التي تخرج إما أن تكون قد دفعت مالاً للقائمين على التسوية أو لها "واسطة" كبيرة، ولا يهم نوع تهمتها، بل المهم أن تكون قد دفعت المال.

بعد هذا العفو أو التسوية بدأ التحويل إلى القضاة يمشي قُدُمًا، ولم تعد البنات يبقين شهورًا دون تحويل، وبعد سبعة عشر يومًا في سجن عدرا تمّ تحويلي إلى القاضي.

كان يوجد في المحكمة غرفة تحت الدرج تنتظر فيها البنات حتى يطلبهن القاضي، مساحتها متر مربع، كانت القاضية التي سأمثل أمامها هي (القاضي الخامس)، وتدعى خ.ح وهذه القاضية معروفة بالقسوة والحقارة، وعندما رأيت اسمها على الطاولة خفت كثيرًا لأنها لا ترحم أي شخص، وتقول للجميع "إيقاف" حتى لو كان الشخص بريئًا، وعلمت عندئذ بأني "إيقاف"، وأنكرت أمامها حين سألتني عن مشاركتي في المظاهرات، وسألتني عن زوجي إذا كان مسلحًا، فنفيت ذلك، ورغم أنهم كانوا دائمًا يسألونني على زوجي إلا أنّهم لم يضمّوا ملفه إلى ملفي، وقررت القاضية إيقافي مع شماتة في عينها وابتسامة على وجهها، كانت سعيدة وهي تكتب كلمة الإيقاف، كنت أريد أن أبكي لكن عندما رأيت الشماتة في عينيها امتنعت عن البكاء وقلت لها: "شكرًا"، وخرجت.

عدت إلى عدرا، ونقلوني من الجناح الخامس المخصص للإيداع إلى الجناح الرابع المخصص للإيقاف، وكان يدعى جناح الأموات، لأن التي تدخل إليه لا تخرج قبل سنين، وعندما دخلت إلى الغرفة كنت خائفة لأن أيًّا ممن كنت أعرفهن لسن موجودات فيها، ورأيت امرأة عمرها حوالي ستين عامًا، وهي في السجن منذ عشر سنوات أي قبل الأحداث في سورية، ومتهمة بالتعامل مع المخابرات الإسرائيلية واسمها م.ن وهي من حمص، ذهلت من المدة التي قضتها في السجن وقلت في نفسي: "إذن سأبقى فيه حتى أصل إلى عمر الشيخوخة"، وبدأت أسأل المعتقلات عن السنوات التي قضينها في السجن، إحداهن كانت منذ عام 2013، وأخرى منذ عام 2012.

وأعتقد أن أسرة أي معتقلة إن لم تهتم و لم تعمل وتسعى لإخراجها فيتم نسيانها في السجن، إحداهن وتدعى ب.م وهي من اللاذقية، خرجت الآن والحمد لله، ولكن بعد بقائها مدة خمس سنوات في سجن عدرا، وكانت حامل عندما اعتقلت، وبعد أن وضعت كانت طفلتها مريضة ولم يتم اسعافها، فماتت بسبب نقص الأوكسجين، وأصيبت الأم المعتقلة جراء ذلك باضطرابات نفسية، فمرة تكون حنونة وطيبة وأحيانا تتحوّل وتصبح شرسة وحقودة وانتقامية، ما أدى إلى ابتعاد الكثير من البنات عنها.

وأثناء الانتخابات الرئاسية في الشهر السادس من عام 2014، أحضروا لنا صندوقًا لكي ننتخب بشار الأسد! كيف ننتخبه ونحن معتقلات سياسيات! كان أسوأ يوم يمرّ علينا، كنّا مجبرات على الانتخاب، كنا بعد انتخابه نجهش بالبكاء، وبعد أن رفضت ثلاث بنات انتخابه سمعنا صوت المقدم ويدعى م.ب يقول: "نزلوا هالقحبات لتحت على المنفردة وممنوع عنهن الأكل والشرب"، وتم وضع كل بنت في منفردة وبدون طعام وشراب، وحين خرجن كانت حالتهن سيئة جدًّا و"مصفرنين بدون أكل وشرب"، وقد أشبعن ضربًا، وأجبرن على انتخاب بشار، بقين بعدها مريضات ومستلقيات على "الفرشة" لمدة شهر.

فرع الأمن السياسي

خرجت من سجن عدرا في العاشر من كانون الأول عام ٢٠١٤، وفي يوم إخلاء سبيلي أخبرني العقيد أن هناك برقية لتحويلي إلى الأمن السياسي، وهناك التقيت بزوجي وكان قد اعترف تحت الضرب والضغط أني شاركت في المظاهرات واعترف أيضًا أني موّلت معلومات وقمت بالتخطيط والتسليح.

كان فرع السياسية أسوأ فرع مرّ عليّ، وكلّ ما مرّ عليّ خلال اعتقالي كان بكفة وهذا الفرع بكفة أخرى، ومنذ أن وطأت قدماي هذا الفرع استقبلوني بعبارات بشعة وقالوا: "يلا جابو لنا قحبة جديدة يلا تعو لنيكها"، ثم أدخلوني إلى المنفردة للتفتيش، وحضرت إحدى المعتقلات لتفتيشي، وتم تفتيشي بنفس الطرق السابقة أي وأنا عارية، ثم أدخلوني إلى الزنزانة، وبعد قليل نادوني من أجل التحقيق، وكنت أتوقع لقاء زوجي لأنه اعتقل من قبلهم.

كنت أحاول أن أتذكر كل كلمة قلتها أثناء التحقيق معي سابقًا كي لا تختلف أقوالي، فبمجرد أن اختلفت أقوالي بحرف واحد ستتغير إضبارتي وتتغير أساليبهم وسيبدؤون بالتحقيق معي من نقطة الصفر.

كانت غرفة التحقيق تحت الأرض، وكانوا يدعونها بالمسلخ، كانت العصابة على عيني، وعلمت من كلام المحقق أن رئيس الفرع موجود خلال التحقيق ويريد أن يسمع أقوالي ويعرف ماهي التهم التي وجهت لي في فرع الجوية ببداية اعتقالي، وقال لي المحقق: "تكلمي"، فقلت لهم أنا لم أشارك ولم أفعل أي شيء، فسألني رئيس الفرع: "هل كان زوجك مسلحًا؟"، فأجبتهم بلا، فقال لي: "نحن لدينا كلام مختلف"، وطلب مني أن أقف جانبًا، وأضاف: "ما بدّي حسّك يطلع"، فامتثلت وسكتّ، ثم رفع العصابة عن عيني، وأحضروا زوجي، وكانت العصابة على عينيه، وبصراحة لولا صوته لم أكن لأتعرف عليه، كان طوله سابقًا 175 سم، ولم يكن نحيفًا وكانت أكتافه عريضة، لكني رأيته عبارة عن هيكل عظمي، وجسده مليء بالجروح التي تنزف دمًا، ولون جلده مزيج من الأخضر والأحمر والأزرق، أما رأسه فكان كبير جدًّا جدًّا من الورم، ولا يعلم المرء هل حجم رأسه كبير بالطول أم بالعرض "على قد مو آكل ضرب على رأسه"، فسأله المحقق: "هل كنت مسلحًا؟" فأجابه زوجي: "نعم كنت مسلحًا"، فسأله: "أين كنت مسلحًا؟"، فأجابه: "بتل سوسين وكنت على الحواجز"، مع العلم أن زوجي نظره ضعيف جدًّا جدًّا "12 ب 13" ودون أن يستخدم النظارة لا يمكن أن يرى شيئًا، حتى عندما يضعها كان لا يرى بشكل واضح، فكيف يمكن أن يحمل سلاحًا ويضرب به! وكانت هذه النقطة جيدة لأستخدمها دفاعًا عنه، وسأله المحقّق: "ماذا كانت تفعل زوجتك؟"، فأجابه: "كانت تخرج في المظاهرات، وتموّل الجيش الحر بالمعلومات، وهي من حرّضتني على التسلّح"، فالتفت إليّ رئيس الفرع وقال: "شو يا لولا؟!" فعلم زوجي بوجودي في المكان، فصرخت: "زوجي كذّاب، زوجي موظف في الدولة وإذا أراد أن يذهب إلى مناطق المسلحين فإنه يحتاج إلى إثنتي عشرة ساعة ذهابًا ومثلها للعودة، وهو لم يتغيّب يومًا عن عمله، وأنتم الدولة وبإمكانكم التأكد من كلامي، وزوجي نظره ضعيف جدًّا جدًّا، وهو الآن ولأنه لا يضع نظارته فهو لا يراكم ولا يراني، ويشاهد خيالات عندما يضع نظارته"، كانت إجابتي مقنعة جدًّا، وعندما وجدني زوجي تجرأت وتكلمت ودافعت عنه، قال له: "الله وكيلك يا سيدي كلام مرتي

مظبوط، أنا ومرتي مالنا علاقة بشي، وبسجن حلب كانوا ما يضربوني إلا على راسي"، وتراجع عن أقواله، وبالفعل آثار الضرب كانت واضحة على رأسه، وللأسف هم ليس لديهم دين ولا عقيدة، واستخدموا معنا الأسلوب الحقير والقذر بالضغط علي وعلى زوجي عن طريقي، وبدؤوا يضربونه وبدؤوا يتحرشون بي وقاموا بتعريتي واغتصبني أحدهم أمامه بعد أن أمسك بي عنصران، لم يتحمل زوجي ما رآه فوقع ولم تصدر عنه أيّ كلمة. اعتقدت أنه أغمي عليه وغاب عن الوعي، ولم يخطر في بالي أنه مات في هذه اللحظة، حملوه وأخذوه خارج الغرفة، وأنا ارتديت ملابسي وأعادوني إلى المنفردة.

وفي اليوم الثاني طلبني رئيس الفرع وقال لي: "اعترفي ولا تحملي القضية وحدك فزوجك فطس، اعترفي بأنه كان مسلحًا"، لم أصدّقه بأن زوجي مات وقلت له: "زوجي لم يكن في أي يوم مسلحًا وأنا ما بشيل خطيتو، إذا هو اعترف علي يسطفل، ويشيل خطيتي"، ثم عادت أساليب التعذيب و بدؤوا بشبحي وتعذيبي بالكهرباء، وفي كل تحقيق كانت تكرّر الأسئلة نفسها، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي: "لماذا لم يجمعوني بزوجي مرة أخرى، هل هو حقاً مات! أم أنهم يريدون اللعب على أعصابي"، كنت في حيرة من أمري، فما حصل حصل، وبقيت على أقوالي نفسها، وإن أرادوا قتلي فلا بأس بالموت. وبقيت على هذه الحال مدة شهرين، ولم أعد أعلم أي شيء عن زوجي.

سجن عدرا مجددًا

في الشهر الثاني من عام ٢٠١٥، عدت إلى سجن عدرا، وانصدمت صديقاتي عندما عدت إلى السجن من جديد وأصابهن الإحباط من الدوامة التي نحن فيها واستحالة خروجنا منها، وبقيت فيه سبعة عشر يومًا، ثم تم تحويلي إلى القاضي الثاني وكان يدعى أ.ج فقرّر إيقافي مجددًا، وكانت تهمتي هي المشاركة في المظاهرات وتمويل معلومات وكتم جناية "أي أني كتمت معلومات عن زوجي"، ثم وضعوني في جناح الإيقاف في سجن عدرا، وبعد حوالي سبعة أشهر تم تحويلي إلى محكمة الجنايات، وكل شهر كنت أمثل أمام المحكمة.

في هذه الفترة أصبت بجرثومة بالدم ولم يعرفوا ما هو نوعها، ظنوا في بداية الأمر بأني أصبت بجلطة، وكانت حرارتي ترتفع دائمًا، وفي إحدى المرات ارتفعت حرارتي إلى الأربعين وفقدت الوعي والتوازن، ولم أعد أستطيع الوقوف وكنت دائمًا مستلقية، وآخر مرة غبت عن الوعى لمدة أسبوع كامل، بقيت على هذه الحال مدة شهرين وكنت خلالها أقف بمساعدة صديقاتي وهن كنّ يوصلنني إلى الحمام من أجل قضاء الحاجة، والعقيد في السجن منع عني الدواء، إلى أن قامت صديقاتي في المعتقل بإعلام طبيب عن طريق أسرهن، فوصف لي دواءً، وأدخلوه عن طريق الزيارات، والحمد لله بدأت أتحسن واستطعت أن أقف وأمشي، لكن الأعراض الجانبية ما زالت مرافقة لي حتى الآن، فأنا أعاني من وجع رأس قوي جدًّا لدرجة أني أدخل في غيبوبة تمتد لثلاثة أيام إذا لم أتناول مسكن الألم، ولا أحد يعلم سبب تلك الآلام، ولكن الأطباء يقولون إنها حالة نفسية.

خرجت من سجن عدرا في السادس عشر من كانون الأول عام ٢٠١٦، وبقيت تحت المحاكمة، وحضرت جلستين وفي الجلسة الثالثة أصدر القاضي حكمًا في حقي بالسجن لمدة ستة عشرة عامًا، وكان لدي شهر لتسليم نفسي أو الطعن في الحكم، لكني فضلت أن أذهب إلى إدلب.

بعد اطلاق سراحي

عندما خرجت من سجن عدرا لم يكن هناك من ينتظرني، ولم أكن أعلم إلى أين أذهب، ولا أعرف طرقات الشام ولم يجرؤ أحد على السماح لي بإجراء اتصال هاتفي بعد أن شاهدوني أخرج من السجن، إلى أن اقترب مني أحد العساكر وسألني إن كنت أريد شيئًا، خفت منه وقلت له: "لا"، وتراجعت إلى الوراء، ثم قال لي: "إذا أردت إجراء اتصال خذي هاتفي"، فأخذت هاتفه واتصلت بصديقة كانت معي في السجن وخرجت قبلي، وأخبرتها بأني خرجت من السجن وطلبت منها أن تأتي وتأخذني من منطقة المزة حيث أنا موجودة، فرحت صديقتي وقالت لي إنها ستأتي فورًا، أنا أعرف طبيعة العساكر وأعلم أنه لم يعطني هاتفه لوجه الله، فأعطيته خمس مئة ل.س لقاء الاتصال لأقطع عليه الطريق قبل أن يطلب مني أي طلب، وانتظرت صديقتي حتى أتت وأخذتني إلى بيتها، وبقيت عندها يومين.

كنت أريد أن أعود إلى أولادي وبدأت أفكر بالمواجهات وجميع الاحتمالات مع أهل زوجي، كنت أتواصل مع أولادي هاتفيًّا، وكانت ردة فعل حماتي أثناء تواصلي معها قاسية جدًّا كوني خرجت من المعتقل وابنها لم يخرج، وكانت تقول لي: "اسألي عن زوجك أحمد"، بالرغم من معرفتها بأنه مات واستلموا هويته من الشرطة العسكرية في منطقة القابون، ولكني لم أكن أعلم ذلك في حينها، وكنت أشك بأن زوجي قد مات، ولكني كنت أحتاج إلى وسيلة لأتأكد من الأمر، فقد كان صعبًا بالنسبة لي أن أسأل عنه رسميًّا لأنهم سيعتقلونني من جديد.

كنت ما أزال تحت المحاكمة، وخائفة من العودة إلى حلب لأن النظام كان قد سيطر على المنطقة، وأخشى أن يتم اعتقالي مجددًا، فبقيت في دمشق مدة شهرين، وبدأت خلالها بالعمل صباحًا في محل إكسسوارت وألعاب وفي الليل كنت أعمل لدى سيدة مصابة بشلل نصفي، أهتم بها وأنام في غرفتها، كنت أنام في اليوم مدة ساعتين فقط لا غير، وكان هدفي أن أعمل لأعيل نفسي وأجمع مالاً يكفي أجرة الطريق لأعود إلى أولادي.

وعندما ذهبت إلى حلب، وقررت أن أذهب إلى أسرة زوجي بوجه متسامح، وأظهر أني لا أحمل أي ضغينة تجاههم، وأخبرهم أن أولادي سيعيشون بيننا، وبإمكانهم أن يروهم متى شاؤوا.

توجهت إلى مكان عمل شقيق زوجي محمد الذي تفاجأ برؤيتي، وقلت له: "أنا مشتاقة لأولادي وأريد أن أراهم"، فقال لي بطريقة هجومية: "ليس لك أولاد عندنا!" فأجبته: "أنا أمهم ومن حقي أن أراهم"، فقال لي: "اذهبي وقدمي شكوى ضدنا"، فتركته ومشيت بعيدًا. وبدأت أفكر بالأمر، فهم إن اكتشفوا نقاط ضعفي سيستقوون علي أكثر، بينما إذا أظهرت لهم نوعًا من القوة والمسايسة سيكون الأمر أفضل،

فاتصلت بحماتي، وأخبرتها بما قاله لي محمد وأضفت: "أنا لا أريد المشاكل ولكن إن أردتموها فلا مشكلة لدي"، لكنها قالت: "اذهبي إلى المحاكم".

لقد جرب أهل زوجي تحريض ابني الكبير ضدي، وكان عمره آنذاك خمسة عشر عامًا، وأخبروه أنهم سيرفعون قضية ضدي، وطلبوا منه أن يشهد بأني لا أتمتع بالأخلاق، كانوا يريدون الطعن بأخلاقي، وقد كان من المستحيل أن يفعل ابني ما طلبوه منه، فهو عندما علم بأني وصلت إلى حلب خرج ليبحث عني، وهذا ما دفعهم للتراجع عن تحريضه ضدي، ودفع أيضًا حماتي للاتصال بي، وطلبت أن أحضر لرؤية أطفالي.

ذهبت إليهم وقبلت حماتي وقبلت يدها وسلمت على شقيق زوجي وكأن شيئًا لم يكن، وأخبرتهم أني سأوكّل محاميًا ليسأل عن زوجي أحمد، لكني أريد دفتر عائلتي، لكن حماتي قالت: "إنه ضاع"، لقد رفضت إعطائي الدفتر، فقلت لها: "أنا سأذهب إلى دمشق وأريد أن اصطحب أولادي معي"، لكنها رفضت ذلك وقالت: "اذهبي وحدك"، فأخبرتها أني سأصطحبهم معي من أجل الترفيه عنهم وسأعود بالتأكيد إلى حلب وسأعيش بينهم وسيربى أولادي معهم، فأنا لا يمكننا تربيتهم بمفردي، فسمحت لي باصطحاب ابني الصغير سعد فقط.

ذهبت مع ابني إلى دمشق، وكلّفت المحامي الذي استلم قضيتي بأن يسأل عن زوجي، وأكدّ لي أنه مات وأن أهله تسلّموا هويته، وكان عليّ حضور جلسة محكمة في محكمة الإرهاب، في الجلستين الأولى والثانية كانت مدة امتثالي أمام القاضي لا تزيد على خمس دقائق، يتلو فيهما القاضي التهم الموجهة لي وأنكرها، ثم يتم تأجيل الحكم، ولكن بعد أن صدر الحكم في آذار 2017 لم أعد أستطيع العودة إلى حلب لأنهم سيعتقلوني على الحواجز، عندها قررت الذهاب إلى إدلب.

ساعدتني بالمال صديقتي الموجودة في لبنان وأعطتني رقم سائق، اتصلت به واتفاقنا على موعد محدد للسفر، لكنه لم يعاود الاتصال بي، فاتصلت به مجددًا واتفقنا أن نلتقي في الثانية ليلاً كي لا نتحدث عن الأمر هاتفيًّا، ذهبت أنا وابني وانتظرناه في منطقة مشروع دمر، وسألني عن وضعي فأخبرته، وقال لي: "أنتِ لا يمكنك المرور على الحواجز أبدًا" وأضاف: "سأقلك اليوم في الخامسة صباحًا، لكني طلبت منه الانتظار يومين كي تصلني الحوالة من صديقتي من أجل أن أدفع له الأجرة، فقال لي: "ما بدي منك ولا ليرة، جهزي نفسك وابنك وسنلتقي في نفس المكان في الخامسة صباحًا، وعندما تصلين إلى إدلب أرسلي لي المال"، فشكرته وقلت له: "الله يكتر خيرك".

وفي الموعد المحدد حضر السائق وصعدت في السيارة إلا أنه ما لبث أن طلب مني النزول منها وانتظاره ريثما يحضر شابًّا من منزله ليذهب معنا، فهو كان خائفًا مني ولا يريد أن أعرف أين يقيم الشاب، وأنا كنت خائفة منه أيضًا، فغادرت النقطة التي تركني فيها ومشيت أنا وابني إلى زاوية شارع فرعية تحسبًا من حصول أي مفاجأة، فأُكمِلُ حينها طريقي في اتجاه آخر، وانتظرت، فاتصل بي حين لم يجدني واتجهت صوبه حين رأيته واطمأننت، لكنه عرف أنني كنت خائفة، ما زلت أذكر هذه الحادثة وأضحك.

مشينا إلى إدلب وكان في السيارة ثلاث شباب منهم الهارب من العسكرية والمنشق عن الجيش، والحمد لله وصلت إلى إدلب، واستأجرت منزلاً من المال التي أرسلته لي صديقتي، وبدأت أبحث عن عمل إلا أن اشتغلت بصالة تجهيز عرائس، وتواصلت مع ابني الكبير وكان يريد أن يأتي إلي، وفعلاً اتفقت مع سائق، وطلبتُ من ابني أن يأتي هو وإخوته، أخبر ابني جدته بأنه سيخرج مع أخته للمساعدة في توزيع أغراض للأيتام، فوافقت، لكنه لم يجرؤ على إحضار طفلتي الصغرى لأنه كان خائفًا من تدقيق الحواجز ولفت نظرهم لكونه شابًّا صغيرًا ومعه طفلتان، سبحان الله كله نصيب، ومازال حتى الآن ابني نادمًا كيف ترك أخته الصغرى هناك، خاصة أنه لم يتبق لنا أي وسيلة لنحضرها إلينا، وبقيت مع شقيق زوجي محمد، لقد تحقّق ما أراده ولكن والحمد لله ابنتي تعرف أني أمها وتعرف أباها وتعرف أن شقيق زوجي ليس والدها، لأن ابني الكبير وإخوتها كانوا يدلونها على أمها وأبيها عن طريق صوري أنا وزوجي، رغم ضرب عمهم لهم حين يسمعهم يقولون لها ذلك.

بقيت ثلاثة اشهر في إدلب، كفرنبل، وعملت خلالها في راديو فريش، ثم سافرت إلى تركيا في الشهر العاشر من عام 2017، ورغم أن الحياة كانت في كفرنبل رائعة، لكني خفت على أولادي من القصف الشديد إضافة إلى أنهم منذ كانوا عند أهل زوجي انقطعوا عن الدراسة، وعندما سافرت إلى تركيا أدخلتهم في مدارس "القرية للأيتام"، ورغم انقطاعهم عن الدراسة إلا أنهم الآن والحمد لله من الأوائل، لكن ابني الكبير لا يريد أن يتابع دراسته، وخلال الفترة الماضية منذ اعتقالي واعتقال زوجي كان يحمل مسؤولية إخوته، وحتى الآن هو يريد أن يتحمل معي المسؤولية ويعمل الآن في ورشة للخياطة، وأنا أعمل الآن في محل لطب الأعشاب.

خلال اعتقالي الأول لم يطرأ تغيير على شخصيتي ولم أكن متأثرة كثيرًا، وكنت متفائلة ونشيطة، وكنت أعمل كموظفة داخل سجن عدرا وأحصل على راتب من جمعية المساجين، وكنت "أشطف" الجناح، وعينوني أيضًا مشرفة على الغرفة، وفي الوقت نفسه كنت ألعب الرياضة وأمرن البنات معي، منذ أول مرة دخلت فيها سجن عدرا، وكنت أركز فيها على تمارين الضغط والمعدة، حتى أستطيع التحمل إذا ضُربت على بطني، وأعرف كيف أمتص الضربة، بالإضافة إلى أني كنت أجري، وكانت الغاية أيضًا هي تفريغ الطاقة، وطبعًا كنت ألعب داخل الغرفة فقط بعيدًا عن الكاميرات الموجودة في باحة السجن في عدرا. لكني الآن أعيش من أجل مستقبل أطفالي، فأنا لم يعد لدي مستقبل.

العلاقة مع الأسرة والمجتمع

بعد خروجي من المعتقل وذهابي إلى حلب، لم أرَ أهلي إلا مرة واحدة أثناء عزاء لشاب من العائلة، واتفقت مع أمي على أن نلتقي بمكان قريب من مكان العزاء، كنا نقف مقابل بعضنا البعض، لكنني لم أنتبه لها ولم أشاهدها وهي لم تعرفني، حتى قال ابني: "هي مو نانا ؟"، فالتفت إليها وفي الوقت نفسه نظرت هي إليّ، فتوجهت نحوها وغمرتها وقبلتها، كان موقفًا صعبًا جدًّا، لقد فرحت عندما شاهدتها وتألمت لأنها لم تعرفني ولم تعرف أولادي، وذهبت إلى مكان العزاء وألقيت التحية على والدي، ودخلت إلى غرفة النساء بالعزاء وكان هناك قريباتي ولم أعرف الكثير منهنّ، ثم سألت أمي إن كانت ترغب في بقاء الليل معي حيث أقيم في أحد الفنادق، فوافقت، ولم ننم حتى الصباح وهي تسألني، لكنني لم أخبرها بكل ما حصل معي خلال ثلاث سنوات من اعتقالي حتى لا أزيد في حزنها، ولكن وبصراحة، أهلي لم يساندوني ولم يسألوا عن أطفالي خوفًا من أهل زوجي.

بعد أن استعاد النظام حلب ومنطقة صلاح الدين حصرًا، ذهب بعض الناس باتجاه إدلب، والبعض الآخر بقوا في بيوتهم، وقامت حماتي بكتابة تقارير للأمن عن بعض الناس الذين بقوا، وتم اعتقالهم. كانت حماتي وإخوة زوجي مخبرين بشكل نظامي، وكانت ترسل أولادها "لتعفيش" بيوت الناس الخالية، لم تترك غسالة أو برادًا أو مونة أو تنكة زيت في البيوت، وقد أخبرني أولادي بالأمر وبأنها جلبت إلى بيتها بعض تلك الأغراض.

عندما وجدت صديقتي المعتقلة السابقة أن أموري تزداد صعوبة، قامت بتوكيل محام لي، وخاصة عندما انتشر خبر على الإنترنت بأنه سيتم إعدامي أنا وخمسة معتقلات وكان بجانب اسمي مذكور بأنه تم تحويلي إلى المحكمة الميدانية، للأسف هذا الخبر الخاطئ زاد الأمر سوءًا لأنه فتح العيون علينا أكثر، وعندما سمعت الخبر كنت في سجن عدرا، وتوقّعت أن يتم إعادتي إلى الأفرع الأمنية للتحقيق معي، ولم نعلم من نشر هذا الخبر، ولاحقًا تم نفيه.

انقطعت علاقتي بصديقاتي اللواتي أعرفهن قبل اعتقالي لأنهن كن مقيمات في المناطق التي يسيطر عليها النظام، ولم يعدن يتواصلن معي على الإطلاق، ولكن أصبح لدي صديقات من المعتقلات السياسيّات، وأفتخر بهن، كنا مع بعضنا البعض على الحلو والمر، واجتمعت معهن في إدلب وتركيا، وما زلنا نتواصل مع بعضنا البعض، ونعمل معًا كيد واحدة لندافع عن قضيتنا، قضية المعتقلين، ليسمع العالم أصواتهم، وعلينا نحن أن نوصل أصواتهم، ونحكي قصتنا وتجربتنا خلال الاعتقال لأنها تشبه الكثير من قصص المعتقلات.

حوّل المجتمع، كل المجتمع، اعتقالنا إلى ندبة على أجسادنا، ترافقنا أينما ذهبنا، نظرة المجتمع لنا سخيفة، وبالنسبة لهم الاعتقال من قبل النظام يعني أن المعتقلة تعرضت لكل شيء، وإذا كان الشخص سيئًا، فسيحاول أن يستغل المعتقلة لمصالحه الشخصية "وبالمشرمحي لمصالحه الجنسية"، ولسان حاله: "أنتِ

كنتِ معتقلة من قبل النظام فهذا يعني أنك مغتصبة، ولمَ لا يحق لي أن أفعل معكِ ما أريد؟"، أما الإنسان الذي يريد الزواج والارتباط فهو لا يرضى أن يتزوج أو يرتبط بمعتقلة سابقة، رغم أنه قد يكون معتقلاً سابقًا، وهذه القصة حصلت مع صديقتنا، بعد أن تعرّفت على شخص يبحث عن زوجة، رفض الارتباط بها وقال لها: "كل العالم يعرفون أنك معتقلة، أنا يمكنني أن أصدّق أنه لم يحدث معك شيء لكن المجتمع لن يُصدّق". مع العلم أن صديقتي لم يحصل معها شيء داخل المعتقل.

لقد أثّر اعتقالي على والدي، وكاد يضره في عمله، لكنه كان يقول لزملائه في العمل وسائر الناس إنه لا يسأل عن ابنته وأن ليس له أي علاقة بها، حتى عندما التقيت بأهلي لم يعرف أحد بالأمر، وحتى الآن لا أحد يعلم أني على تواصل مع أمي وأبي، الجميع يعلم أن أهلي تبرؤوا مني حفاظًا على سلامتهم وأمنهم.

وأثّر اعتقالي على أخي الكبير وهو يعتبرني بحكم الميتة، وأثّر أيضًا على زوج أختي، وقد منعها من الحديث معي حتى لا تتأثّر سمعة بناته، وأنا لا أتواصل أبدًا مع أختي وأخي، وأنا أتألم من هذا الوضع، أحيانًا ألتمس لهم العذر، وأحيانًا لا أستطيع أن أعذرهم، فقد كان من الممكن أن يتعرض أخي أو زوجته للاعتقال، وقد تعرّضا له، وكان من الممكن أن يعتقل هو وزوجته ولكن الله لطف بهما، ولذلك كان يجب أن يقدّر وضعي وأن يتفهم أن ما حصل معي هو ما كتبه الله لي، وكان لا يجب أن يزيد القسوة عليّ، فالمعتقلة عندما تخرج تكون ضعيفة وعليها أن تبدأ حياتها من الصفر، وإذا لم يكن أهلها واعين فمن الممكن أن تضيع أخلاقيًّا ويتم استغلالها، ففي تركيا على سبيل المثال عندما يجدون معتقلة وحيدة وليس بجانبها أحد يحاولون تشغيلها بالدعارة، أو يتم توريطها بقضايا سياسية من قبل أناس لا هم معارضة ولا موالاة، وإنما أشخاص يستفيدون من الطرفين أي عملاء للطرفين، وهؤلاء مخيفون أكثر من المؤيدين للنظام، وإذا لم تجد المعتقلة حضنًا دافئًا أو شخصًا يحتضنها ويقف بجانبها ويدعمها ويوجهها إلى الطريق الصحيح أو تكون هي واعية لتصرفاتها، فستضيع.

العلاقة مع الشارع

أصبح الشارع بالنسبة لي عبارة عن غابة، أمشي بطريقي للعمل فقط، ولست مضطرة للالتفات إلى الطرف الآخر، وأي شارع بالنسبة لي طرف آخر، حتى أني لا أنظر إلى أسماء المحلات. لقد اختلف الشارع اليوم عن الشارع الذي كنت أتظاهر فيه وأهتف فيه من أجل الحرية، كنا آنذاك شعبًا واحدًا ويدًا واحدة، وكنا نتظاهر من أجل مبدأ، أما الآن فلا يوجد مظاهرات ولم تعد القلوب صافية والضمائر صاحية، ومن تغربوا عن سورية لم يعيشوا الحياة التي عشناها، وأصبح تفكيرهم منحصرًا فقط في بناء حياتهم وجمع المال، حتى ولو كان على حساب أي شخص عاجز أو ضعيف جدًّا، المهم عندهم هو أن يصعدوا ويبرزوا، وغيرهم ينزل إلى الأسفل، وأنا أتكلم تحديدًا عن الناس الموجودين حاليًّا في تركيا، والذين لم يشاركوا في الثورة ولم يعانوا من الحرب وخرجوا من سورية في بداية الثورة بعد أن جمعوا أموالهم، وهم من الأساس ليس لديهم ضمير صاح.

التحديات

أهم التحديات التي أواجهها الآن هو المجتمع، كوني معتقلة سابقة و أظهر على الإعلام بصورتي ووجهي وأتكلم عن الاعتقال، وقد ظهرت على عدة قنوات فضائية منها على سبيل المثال، قناة الجزيرة وتحدثت خلالها عن الاعتقال بشكل عام وعن معتقلات تم تغييبهن في سجن صيدنايا، ولذلك أسمع أحيانًا من بعض النساء "ها أم سعد عم تحكي على التلفزيون"، وأعين المجتمع مسلطة عليّ وخاصة أن المنطقة التي أقيم فيها "الريحانية" هي منطقة صغيرة والجميع يعرفون بعضهم البعض، ومنهم من يؤيد ما أقوم به ومنهم من يقول لي: "إنتِ مرا شو بدك بهالحكي، ومين عم يسمعك، وعاملة حالك إعلامية"، وأنا صحيح امرأة ولكن يمكنني أن أقوم بإيصال أصوات كثيرة، ولا أدع أي شخص أو رأي يؤثر عليّ من الأصوات التي تؤنبني على عملي.

أما قبل الاعتقال، فكنت سيدة منزل عادية ولم يكن لدي أي نشاط سوى الاهتمام بأطفالي وبيتي، لكني كنت مهتمة ومنذ صغري في معرفة الأمور السياسية، وخاصة المجازر التي ارتكبها حافظ الأسد في الثمانينات، لكنني لم أجرؤ على الحديث عنها لأن أمي كانت دائمًا تقوم بإسكاتي، وحتى عندما كبرت بقيت أسأل عن ما حدث في تلك الفترة، الجميع يتكلم ويقول "هيك صار بالثمانينات" بدون أي إيضاحات تفصيلية لجيلنا، للأسف ما حصل في الثمانينات كان مدمرًا لسورية، وبعد الثورة بدأت الأجيال التي خرجت في المظاهرات تتحدث عن تلك الفترة، بعض الناس فقد أمًا أو أبًا أو أحد الأقرباء، وبدأ الحديث عن قيام النظام بإخفاء النساء اللواتي اتهمن بالانتماء إلى الإخوان المسلمين، وأيضًا صادفت في المعتقل إحدى المعتقلات أخبرتني بأنها حينما كان عمرها خمسة عشر عامًا اعتقلوها واتهموها بالانتماء للإخوان المسلمين، النظام هو من زرع الظلم وبسببه قامت الثورة، وما أسسه الأسد الأب كان تأسيسًا خاطئًا، ودائمًا أقول حتى لو همدت الثورة الآن لكنها ستقوم مجددًا على أيدي الجيل القادم لأن الفقد والظلم الآن أكبر مما حدث في الثمانينات.

العلاقة مع منظمات المجتمع المدني

عُرض علي القيام بجلسات دعم نفسي من إحدى المنظمات ولكن وقتي ضيق جدًّا ومقسم بين أولادي وعملي الذي يبدأ من الساعة التاسعة والنصف صباحًا وينتهي في السادسة مساءً.

سابقًا، عملت عملاً طوعيًّا مع إحدى المنظمات التي تعمل على ملف المعتقلين، وكنت مسؤولة عن المعتقلات الموجودات في إدلب، وكانوا يطلبون مني توثيق الأسماء والحالات المرضية وتاريخ الاعتقال وغيرها من المعلومات، وفي الشهر الثاني من عملي طلبنا منهم توفير فرص عمل لهن، بعضهن كن متعلمات وبعضهن جامعيات ولكن لا توجد فرص عمل لهن، فكيف سيعيشون مع أطفالهن!

كان بإمكان المنظمة الاستفادة منهن في العمل، وبنفس الوقت سيشكل العمل بالنسبة لهن دعمًا نفسيًّا، لكنهم لم يؤمنوا لهن أي شيء ولا حتى مساعدات، وكل ما قدموه لهن هو الوعود الكاذبة، ولم أكن أفهم على أي أساس كانوا يطلبون أسماء المعتقلات وتجديد بياناتهن دون تقديم أي فائدة لهن، وطلب تجديد بياناتهن يعني أن المنظمة تستفيد منها، وكأننا كنا بالنسبة لهم أحجارًا مربحة يقومون بتحريكها ليربحوا المزيد، وحق المعتقلات الناجيات ضائع، وحتى اللواتي ما زلن معتقلات لا يتم العمل والصراخ من أجلهن، ولو لم نخرج نحن المعتقلات على الإعلام لم يكن أحد يعلم بنا ويذكر قضيتنا، وهذا هو هدفي من توثيق شهادتي هذه، وقصتي هي قصة من آلاف القصص التي ترتكز على معاناة المعتقلات، وهي رسالة صغيرة عن الأهوال التي تتم في المعتقلات.

كلمة أخيرة

المحاكمات الدولية هي الحل لمحاسبة المجرمين في سورية، وبالتأكيد سأقوم برفع دعوى على المجرمين الذين ارتكبوا الانتهاكات بحقي وحق المعتقلات والمعتقلين، وحقنا كناجيات من الاعتقال، يصلنا في عقابهم، فألمنا لا شيء يعوضه، وعلى الدولة في المستقبل أن تقدم إعانة للمعتقلات ولأطفالهن.

المعتقلون والمعتقلات هم وحدهم الذين يستحقون المساعدة لأنهم دفعوا الثمن الغالي، ومن يعيش الآن داخل المعتقل يتمنى الموت في كل يوم وفي كل لحظة ويفقد الأمل بالخروج، وهو ما حصل معي أثناء اعتقالي، وكنت أقول في نفسي: "يا ربي دخيلك يا موتني يا طلعني بس لا تخليني بالمعتقل"، وعلى سبيل المثال، عندما كنت في عدرا وحاصر الجيش الحر السجن، كان هناك قصف ونزلت قذيفتان في باحة السجن القريبة منا، ولو كنا فيها لمتنا، ورغم القصف كانت القليلات منا خائفات، الخائفات كن يعلمن أنهن سيخرجن من السجن قريبًا وأنّ قضيتهن بسيطة جدًّا، أما البقية فلم نكن نكترث سواءً عشنا أم متنا.

أميرة[6]*

6 - حوار أجرته الكاتبة مع أميرة فؤاد الطيار عبر WhatsApp))، في الثاني من شباط عام2019، مدة الحوار: أربع ساعات وربع.

* لوحة الغلاف: أديب الحريري

Adeeb Al.Hariry

أنا أدعى أميرة فؤاد الطيار من مدينة حماة، ومن مواليد السادس عشر من شهر تشرين الثاني عام 1974، أقيم حاليًّا مع ابنتي في منطقة قيصري بتركيا، وهي منطقه قريبة من الحدود الروسية، وصلت في التعليم إلى الصف السادس، لديّ ثلاثة أبناء، شهيد ومعتقل منذ عام 2013 وابنتي.

لدي تسعة إخوة وأخوات، تم اعتقال أخي في عام 2013، واستشهد تحت التعذيب في سجن صيدنايا، لكننا لم نعلم بوفاته إلا بعد أن زارت أمي السجن، فأُعطيت شهادة وفاته من النفوس، وذلك بعد عام كامل من استشهاده، ولم يتسنَّ لنا أن نعرف مكان دفنه حتى الآن، كان أخي مع الثورة والجيش الحر وكان يحمي مظاهرات النساء.

منذ بداية الثورة خرجت أنا وابني وزوجي في عدة مظاهرات سلمية في مدينة حماة، وبعد المظاهرة المليونية بدأ بعض الشباب بالتسلّح من أجل حماية المظاهرات، وبعدها بدأ الجيش الحر بالتشكّل، وانتسب لهم ابني ذو الخمسة عشر عامًا، ومع بداية دخول الجيش إلى حماة في الواحد والثلاثين من شهر تموز عام 2011، اعتقل زوجي من مكان عمله وحتى الآن لا أعرف عنه أي شيء.

أنا ثائرة، قمت بإسعاف المصابين ومساعدة العساكر على الانشقاق وتأمين أماكن آمنة لهم، وتطوّعت في الهلال الأحمر في مدينتي، وقمت بمساعدة العوائل الفقيرة، وخبأت الثوّار في منزلي، واصطحبت نساءهم إلى المشافي ليلدن.

دعمت الثورة والجيش الحر، ولم نكن أبدًا فصائل "هيئة" أو "تحرير" أو "إخوان مسلمين"، عملت مع الثوّار منذ البداية ولم أندم أبدًا على ذلك، مع أني خسرت ابني الذي استشهد تحت التعذيب، وخسرت زوجي أيضًا ولم أتخلَّ عن الثورة، ولم أحزن على فقداني أعزائي وأحبابي، بل على العكس تمامًا، كنت أزداد قوةً وإصرارًا، بعض الناس كانوا يحاولون إخافتي، ويقولون: "أنت الآن سعيدة بالثورة وتضحكين وتريدين إسقاط النظام، ولكنَّك ستبكين في النهاية وتندمين على ذلك"، وقد كنت أجيب بأنني لن أبكي أبدًا، وأنا إلى الآن أتمنى أن نعود ونقاتل النظام إلى أن يسقط.

في عام 2012، أُوقفت للمرة الأولى مدة خمس ساعات في موقع حماة العسكري، بعدها عملت أنا وابني مع الثوار في الشمال السوري، ثم عدت إلى حماة المدينة وأكملت عملي مع الثوار، وبعد ثلاثة أيام من اعتقالي تم احتجازي لساعات، ثم اعتقلت مرة أخرى من قبل أمن الدولة في الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول عام 2014، من منزل أهلي الكائن في منطقة حي البعث بمدينة حماة، بعدما أحرق النظام منزلي، وتم تحويلي إلى المحكمة العسكرية بحماة في الأول من تشرين الثاني عام 2014.

ومن ثم تم تحويلي إلى فرع الأمن العسكري بحماة، وبقيت فيه مدة شهر، وبعدها تم تحويلي إلى الشرطة العسكرية في حمص وبدأت المعاناة والتعذيب والضرب، بعد مدة أسبوع تم تحويلي إلى فرع 215 في الشام، وحُقِّق معي لمدة أسبوع، ثم تم تحويلي إلى فرع 229 ووضعت في المنفردة، وكانت عبارة عن حمام "تواليت"، ثم تم تحويلي إلى فرع المخابرات الجوية.

وكان التعذيب بواسطة التنقيط حيث نقاط الماء تسقط على قطعة معدنية طوال الوقت، ووضعت في غرفة مليئة بالمرايا، وبعدها تم تحويلي إلى فرع 555، وفي هذا الفرع رأيت العجائب من أنواع التعذيب، منها ما تم بواسطة بوري يُستخدم لتمديد المياه، وكانوا يُطلقون عليه "الأخضر الإبراهيمي"، أما عذابي الأكبر فكان بسماع أصوات الرجال الذين كان يتم تعذيبهم.

بعد أسبوع تم تحويلي إلى فرع 235، وأثناء التحقيق معي اقتلعوا أظافري وعذبوني بواسطة الكهرباء، كي أعترف بأنني أساعد الجيش الحرّ، وأن منزلي كان مشفًى ميدانيًّا، ثم تم نقلي إلى مشفى 601، وتمّ شبحي على سرير لمدة أسبوع، والشبح نوع من أنواع التعذيب يُربط السجين بإحكام من يديه ورجليه، وتُشدٌّ اليدين والرجلين كل باتجاه.

ثم تم نقلي إلى فرع فلسطين، وتفاجأ الضباط والعناصر كيف عدت وأنا على قيد الحياة، وبعد أسبوع تم وضعي في غرفة صغيرة يوجد فيها ستة شباب موتى، وشاهدت داخل غرفة آلة تشبه الحلزون لفرم اللحم، وهدّدني أحد العساكر بأنّ مصيري سيكون كمصير شاب فرموه إن لم أعترف.

تم تحويلي إلى محكمة الإرهاب، ونقلوني بعدها إلى مخفر كفرسوسة بدمشق، وبقيت فيه أسبوعًا، ثم تم نقلي إلى سجن عدرا إلى أن أطلق سراحي في السابع والعشرين من كانون الثاني عام 2015. خرجت من المعتقل وكتفي مكسور وأظافري مقلعة وجسدي عليه آثار التعذيب ويداي عليهما آثار التعذيب من استخدام الكهرباء.

في جميع الأفرع الأمنية كانوا يستخدمون كلمة يا قحبة يا شرموطة وكأنهم ينادون بأسمائنا، بالإضافة إلى تهديدنا بالاغتصاب لنا ولبناتنا.

اعتقالات ابني

استشهد ابني عبد الفتاح لحلاح تحت التعذيب في سجن صيدنايا، اعتقل ثلاث مرات. بعد اعتقاله في المرة الأولى تم القاؤه على باب منزلي حافٍ عارٍ "بالكلسون"، لاعتقادهم أنه موشك على الموت من جراء التعذيب الذي تلقاه في الفرع 215 في دمشق، وذلك بعد خمسة أشهر من اعتقاله، كان ينزف بشدة من فمه، وتظهر على جسده علامات كالتي يسببها الثاقب الذي يستخدم لثقب الجدران.

وكان منظره يثير الفزع، وبحوزتي تسجيل فيديو يوثق الحالة التي كان عليها، بعد اصطحابه إلى طبيب أخبرني بأنه بحاجة لعملية جراحية إذ كان يعاني من نزيف تحت الدماغ، وتمت معالجته.

في المرة الثانية تم اعتقاله لمدة شهر من قبل فرع الأمن العسكري بحماة أمام موقع حماة العسكري، نزلة الدبّاغة، أثناء ذهابه للحصول على ورقة "كفّ بحث".

في الاعتقال الثالث أخذوه هو وابني الأكبر الذي كان متخلفًا عن الجيش من منزل أخي في حي البعث، وذلك في الثاني والعشرين تشرين الأول عام 2013، وبعدها وصلتني أخبار من بعض المفرج عنهم من فرع الأمن العسكري في حمص، بضرورة إخراجه بطريق الرشوة لأن حالته مزرية، وخصيتاه متورمتان من

أثر التعذيب بالكهرباء، وأنّ خصيتيه أصبحتا تزنان عشرة كيلوغرامات، ولكنني لم أكن أملك المال وليس لدي أي شيء لأبيعه.

ثم انقطعت أخباره إلى أن تم اعتقالي بعد عام كامل في الثاني والعشرين تشرين الأول عام 2014، حيث تم إحضاره ليُشاهد عملية تعذيبي، كنت معصوبة العينين ومع ذلك استطعت أن أتعرّف عليه، فقد لمحته من خلف عُصبة العينين، كان يزحف ولا يستطيع الوقوف على قدميه، لم يستطع إلا البكاء وهم يعذبونني ويقتلعون أظافري أمام عينيه لإجباري على الاعتراف بأسماء القادة الذين كنت أعمل معهم ولكني كنت أرفض الاعتراف.

ذكريات عن الجرائم في حماة 1982

يصادف اليوم ذكرى أحداث حماة في عام 1982، كنت صغيرة لكني مازلت أذكر الكثير من الجرائم التي شهدتها المدينة والتي كانت تقوينا أثناء الثورة، من الأمثلة على ذلك أنني وأثناء مرافقتي لوالدتي لشراء الحاجيات شهدت بأم عيني في "نزلة الجزدان" كيف كان النظام يقوم بصف الرجال، ووضع ذقونهم على حافة الرصيف بينما أجسادهم على الأرض وبعد ذلك جاءت الدبابة لتدهسهم واحداً تلو الآخر. وهذه مجزرة مشهوره ومروية بين الناس.

وأذكر تماما أنني كنت برفقة عمتي التي ذهبت لتطمئن على بيتها في منطقة الحاضر، رأيت سبعة شباب من ذوي الذقون الطويلة محروقين على شط النهر في ساحة العاصي. وفي طريق العودة رأيتهم وقد أُلقي عليهم التراب، كما رأيت بعينيّ أنهم كانوا يُحضرون الشهداء في شاحنات نقل الأنقاض إلى مقبرة "برية العشر" التي بقرب محطة القطار، ويُلقون بهم في حفرة ويسكبون عليهم الأسيد حتى تذوب جثثهم ثم يدفنونهم في قبور جماعية، وقد شُيدت فوق تلك المنطقة مدرسة الرياحين في وقت لاحق.

جميع هذه الجرائم لم تزدنا إلا إصرارًا وعزيمة على الاستمرار بالثورة حتى أن ابني الذي استشهد كان يرفض حمل الهوية "البطاقة الشخصية"، وكان يتلفها كلما أصدرت له واحدة جديدة، على اعتبار أنها صادرة عن هذا النظام، وهو لا يقبل أن يكون بشار رئيسًا له.

ويذكر لنا خالي أنه عندما كان يعمل إطفائيًّا في قوى الدفاع المدني، طُلب منه بعد أن زُوّد ببندقية كلاشنيكوف، أن يدخل إلى أحد المباني ويقوم بفتح النار على كل من بداخله، وكانوا من آل أرناؤوط، ولكنه رفض ذلك وألقى البندقية على الأرض وتمارض وأخذ يصرخ مدعيًا أنه يشعر بألم شديد في بطنه، حتى لا يشارك في الجريمة، ولكنهم أجبروا شخصًا مدنيًّا غيره على قتل العائلة، و"كان الدم للركب".

وأذكر أيضا كيف أُخرج أبي وجدي، وأُلقيا على الأرض، وكيف داس العناصر على صدريهما وهم يقولون: "أنتم إخونجية" أي من الإخوان المسلمين. مع أن أبي وجدي كانا حليقي الذقن وكان لديهما شوارب كبيرة بعكس الإخوان.

من ذكريات بدايات الثورة

كان زوجي قبل الثورة يعمل في إصلاح مولدات الكهرباء ومضخات المياه، وكان يُصلح بعضها لصالح الأمن العسكري، ويعرف شخصًا هناك يدعى "أبو حافظ"، اتصل به ذات صباح وأخبره بأنه ستتم مداهمة مدينة حماة، وستكون هناك سيارات نوع مرسيدس وحافلات كبيره، بغية الهجوم على أشخاصًا من آل العرعور وذبحهم فخذوا حذركم.

عندما نقلت هذه المعلومات للشباب الثوّار لم يأخذوها على محمل الجد، ولكنني بقيت مستيقظة إلى ما بعد "صلاة الصبح" على شرفة منزلي أراقب الشوارع للاطمئنان، وكانت تسهر معي امرأة تدعى وفاء، كانت ناشطة جدًّا بالعمل الثوري، وكان منزلها مشفى ميداني، وبعد مغادرتها بقليل وصلت سيارات المرسيدس سوداء اللون وحافلات، وبدؤوا بالانتشار، وكانوا يرتدون زي قوات حفظ النظام الأسود، فهرعت لأوقظ الشباب وأحذرهم، فقطعوا شارعًا قرب مبنى المالية بواسطة حرق الدواليب كي لا يدخل الأمن، لكن عناصر الأمن لم يرحلوا إلا بعد أن ذبحوا أكثر من خمسة عشر شخصًا من آل العرعور.

إسعاف الجرحى

في أثناء نشاطي في الثورة بين عامي (2012-2014) كنت أقوم بإسعاف الجرحى ونقلهم إلى المشافي وخصوصًا مشفى "الحوراني"، حيث كانوا يعالجون المصابين مجانًا دون دفع أي تكاليف، حتى إنني كنت أقوم بحمل الشباب الجرحى على كتفي، عندما لا يستطيع الرجال الدخول إلى المستشفى.

أذكر حادثة حصلت معي عندما اتصل بي أحد الثوار، يدعى (ك.ب) وهو مطلوب حيًّا أو ميتًا، وأخبرني أنّ هناك شابًا مصابًا بطلق ناريّ في بطنه، إثر رش السيارة التي يستقلونها باتجاه كفرزيتا، بعد إخبارية جاءت عنهم وهو بحاجة لإسعاف، فأقلني من مشفى الحوراني إلى مكان غربي المشتل، وعند وصولي وجدت عدة أشخاص يختبئون فوق سطح أحد المباني وفوجئت بشاب يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا موضوع في "قنٍّ" للحمام والأرانب، ومصاب بطلقة دخلت من خاصرته وخرجت من الأخرى وينزف نزفًا شديدًا، فصحت بهم مستنكرةً وضعه بمكان كهذا، فكانت إجابتهم أنهم خائفون، فأمرتهم بالنزول فورًا من السطح حتى لا نلفت أنظار سكّان البناء.

أذكر أنّ الجوّ كان شديد البرودة، وعندما نزل الجميع، سألت الشاب إن كان يحتمل الألم فأجاب بنعم، فحملته على كتفي ونزلت به سبعة طوابق، ووقفت على ناصية الشارع أوقف السيارات المارة، ولكن لم يتجاوب أحد خوفًا من ملابس الشابّ المضرجة بدمائه، صرت أقول لسائقي السيارات: إنه ابني وإن جرحه من عملية الزائدة الدودية، وقد انفتح الجرح لأنني طلبت منه تحريك ماكينة الكبة، إلى أن وافق أحد السائقين على نقله.

اتصلت بشخص يدعى (أبو نوّاف) وهو طبيب بيطري من الثوّار، يعيش حالياً في قرية ترمانين المحررة عند معبر باب الهوى، ومازال يعمل بالثورة، وأخبرته بقصة الشابّ فطلب مني أن أنقله إلى مشفى الحكمة،

فتوجهت إلى هناك حيث قاموا بإجراء عملية للشابّ واستئصال أجزاء من معدته وأمعائه التي كانت متأذية، وقد نجا بحمد الله، لكن الطبيب (ن.ش) قام بالتبليغ عني بأنني أحضرت حالة مصابة بطلق ناري، ومن وقتها صار النظام يبحث عني، مع أنني كنت على قائمة المطلوبين قبل ذلك ولكن الذي بلّغ عنّي أول مرّة، لم يكن يعرف اسم والدتي فوقع خطأ وتم تسجيل اسم عواطف بدل اسم فاطمة.

وكانت الدوريّات تأتي إلى حارتي ويسألون عن امرأة تدعى "أم الكل" أو "أم الثوار"، وهي خائنة للوطن وخائنة لبشار الأسد، حتى إنهم سألوني أنا دون أن يدركوا بأنني من يبحثون عنها، لأنني كنت أتظاهر بحبي لبشار، وبأنه شخص جيد لم يؤذِ أحدًا، وكنت أدعو على من يعاديه ويسيء إليه، كما أنّ الدوريات كانت تفتش المنازل شبرًا شبرًا ولكنّنا كنّا نعلم بوقت التفتيش عندما كانت سيارة بائع الخضار تتأخر بالمرور في شارعنا جراء قطع الطرقات، فنقوم بإخفاء الأدوية وأدوات الإسعاف في حفر تحت الأرض كنا قد حفرناها مسبقًا.

قصة الاعتقال الأول 2012

كان هناك مجموعة من الثوّار يختبئون في داري، ولمّا عرفت أنّ النظام سيقوم بتفتيش المنازل في ذلك اليوم، طلبت من الثوّار أخذ حاجياتهم والمغادرة، خوفًا من أن يتمّ اعتقالهم، وقلت لهم: "سأتصل بكم لأزودكم بالمعلومات والمستجدات عما يجري في الحي"، وغادروا جميعًا بالفعل.

وفي ذلك اليوم وأثناء وقوفي أمام باب داري للمراقبة صادفت شابًّا عسكريًّا بعتاده الكامل، وكان بحوزته قاذف "آر بي جي"، ويقوم بتفتيش المنازل، فحاولت التحدث معه للحصول على أيّ معلومات مفيدة، فعرفت منه أنه يدعى محمد من مدينة درعا وقد سيق إلى حماة للقضاء على الإرهابيين المسلحين وقتلهم واعتقال ما تبقى منهم، فأجبته: "إن أهلك في درعا يُعتقلون ويُقتلون وأنت قادم إلى حماة بدل الدفاع عن أهلك في درعا؟"، فأجابني بأنه لا يستطيع فعل شيء، فقلت له: "بإمكانك الانشقاق، فسألني عن الكيفية، فقلت له: "لا أحد يراك الآن، يمكنك الاختفاء والانشقاق، وأنا يمكنني أن أدلك على شباب يساعدونك على ذلك، وحتى بإمكانهم إيصالك إلى أهلك لو أردت وسأثق بك على الثقة والأمانة"، وبالفعل استطعت أن أقنعه بالانشقاق، وأرشدته إلى طريق الثوار فوصل إلى المكان وانضم إليهم بعتاده الكامل.

بعد ذلك عدت للمراقبة من على باب بيتي، وكان قد تمّ اعتقال بعض أبناء الحي وتُرك بعضهم الآخر، ومن بين المعتقلين كان هناك رجل يدعى (ع.ح) يعمل في تصنيع أبواب الألمنيوم، وكان يُمسك به أحد عناصر حاجز "العجزة" ويدعى "أبو محمد"، فسارعت إليه وادعيت أنه ابن خالتي وأقسمت أنه لم يخرج بالمظاهرات في حياته ولم يفعل شيئًا. أخبرني العنصر بأنه يريد فقط التأكد من هويته، فسحبت الهوية من يده بلطف وناولتها لصاحبها، وأقسمت أنه لم يفعل شيئًا، فنظر إلي شزرًا ورحل.

بعد ذلك وقفت في الشارع لمدة عشر دقائق لأتأكد من أنهم رحلوا وأن التفتيش انتهى، فقمت بالاتصال بالشباب لأخبرهم بذلك وأنا أسير إلى أول الزقاق، وفجأة وبينما أنا على الخطّ تمّ اقتحام الشارع من قبل

أكثر من خمسين عنصرًا مثل الوحوش، فأخبرت الشباب بذلك، وعلى الفور وقبل أن أكمل كلامي تم لَيُّ ذراعيَ خلف ظهري وأخذ الجوال من يدي، ودُفعت إلى داخل سيارة، وتم إجباري على خفض رأسي داخل السيارة حتى لا يراني أحد، ولكني كنت أقاوم حيث إنه لم يتم إيثاق يديّ، بعد ذلك قاموا بالالتفاف حول المنطقة مرتين، ثم أخذوني إلى موقع حماة العسكري في "نزلة الدباغات".

كان في حوزتي خمسة جوالات ومسدس وخمسة وثلاثون ألف ليرة ودواء قابض للأوعية، وكان أحد الجوالات يرن مرارًا في جيبي، وأنا أقوم بفصل الخطّ حتى لا يسمعوه، لأنّ نغمة الرنين كانت "يا بشار، والله لنشيلك بالصرماي"، أي: أننا سنخلعك بقوة الحذاء، فاقترح أحد العساكر هامسًا أن يأخذ مني هذا الجوال ويخفيه، يأخذ الهاتف لنفسه بذريعة أن لا يتم استخدامه كدليل ضدي، فوافقت وأخذه، وأنا أحمد الله في قلبي، بعد ذلك وهم يقومون بتبديل العساكر الذين في السيارة سارعت بإلقاء المسدس الذي كان بحوزتي تحت مقعد السائق دون أن يراني أحد.

ثم أخذوني إلى الأمن العسكري، وتم تفتيشي هناك عند البوابة، وسألوني عن المبلغ الذي معي، فأجبت بأنها "خرجية" مصروف، ولن أتركها في البيت لتُسرق، فوضع عنصر الأمن المبلغ في جيبه، وكان المبلغ مخصصًا لشراء شرائح جوالات للثوار، ثم أرسلوني مع الحقيبة إلى مكتب العميد وأفرغوا محتوياتها على مكتبه، فأشار إليها، وقال "هدون شو؟" أي: ما هذه الأشياء؟ فأجبته لقد كنت أخرج في المظاهرات، وأكملت قائلة: نحن لم نخرج لنخلع بشار الأسد ورددتُ "الشعب يريد اسقاط النظام"، نحن لا نريد سوى أن يسقط النظام، فرفع يده وصفعني عدة صفعات على وجهي. وقال: "يعني أنك تعترفين"، فأجبت: "نعم كنت أخرج في المظاهرات، لا أستطيع أن أنكر وأنا أحمل علم الثورة ونقاب الثورة"، فسألني عن النقاب، فأجبته: "نحن نضع النقاب لكي لا يتعرف علينا المخبرون"، فأجاب: "أهذه أقوالك؟"، فأجبت: "نعم"، فسألني عن الهوية التي كانت بحوزتي، وهي هوية مخبر مقتول أعطاني إياها المحامي (ح.خ) لكي أقوم بتسجيل عشر شرائح جوال باسم صاحبها، فأجبت وأنا أشير إلى العسكري الذي رآني أرمي القمامة في الليلة السابقة، أنني رأيت شيئًا يلمع على الأرض فأخذتها ووضعتها في حقيبتي حتى أسأل عنها في الجامع في الصباح، ولكنكم أمسكتم بي قبل أن يتسنّى لي ذلك، مع أنني أعلم أنهم لن يصدقوني، فقال لي: "صاحب هذه الهوية مسلّح وأريد منك تسليمه"، فأقسمت أنني لا أعرفه وأنني وجدت الهوية على الأرض، فقال: "ماذا عن الأدوية؟"، فأجبته بأن ساق أبي مبتورة من الفخذ، وهي حقًّا بترت بسبب داء السكري، وهذه الأدوية لارتفاع ضغط الدم والإبر للكزاز وللالتهاب، وبإمكانك الذهاب لرؤية أبي بأم عينك، طوال التحقيق كنت أتعرض للصفع والركل بدون توقف، ثمّ أخرجوني من المكتب، وأوقفوني في الرواق، فرأيت أحد شباب الحي الصغار، وهم يسكبون عليه الماء ثم يقومون بكهربته، وذلك لأنه وشى بي ولم تثبت صحة وشايته، فصرخت به موبخةً "مو عيب عليك"، فسمعني عميد الفرع وخرج غاضبًا وأخذ يصفعني ويركلني من جديد، وعندها انتبه إلى مشط المسدس الفارغ، فقال لي: "ما هذا؟ هذا يعني أنّ المسدس الذي وجدناه في السيارة يعود لك"، فأنكرت ذلك وقلت: "أنا شكلي شكل حدى بيحمل فرد، ومن أين لي أن أحصل عليه، إن ابني

يعمل بالصناعة، وأنا ماشيه لقيته، فقلت بجوز يلزمله لأنني رأيت بداخله راصور". وكانوا يضحكون لادعائي بعدم معرفته، وقالوا: "ألم يلعب ابنك بمسدس بلاستيكي من قبل؟"، فأجبت: "وما أدراني أنه حقيقي"، لقد كانوا يعلمون أنني أكذب.

في هذه الأثناء اتصل بهم شخص يدعى (ع. ل. ذ) وهو مكلف من قبل (ع.ع) لكي يقوم بدفع الرشاوى للنظام لإخراج النساء المعتقلات، و يمتلك معملاً لقص الرخام، ثم أنزلوني إلى غرفة فيها شاشة "بلازما"، وأروني صورًا للمظاهرات، ومسيرات تشييع الشهداء، وأخذوا يسألونني عن الأشخاص الذين في الصور، فأنكرت معرفتي لأي منهم، حتى وصلوا إلى صورة كنت أنا موجودة فيها، فادعيت أنها صورة مفبركة، وكانت هذه الصور تصور من قبل مخبرين من داخل المظاهرات، بعد ذلك قام (ع.ل.ذ) بدفع كفالتي وتعهد بأنني لن أخرج بمظاهرات مرة أخرى، مع دفع الرشوة طبعًا.

بعد ذلك أخذوني من الأمن العسكري إلى موقع حماة العسكري، ووقعت على تعهّد وأطلقوا سراحي، بعد أن أخذ الأمن العسكري الدواء واحتفظوا بدفتر عائلة أخي المطلوب ودفتر عسكرية ابني الذين كانوا بحوزتي وأعادوا لي علم الثورة ونقاب الثورة داخل الحقيبة، كانت مدة اعتقالي خمس ساعات.

الاعتقال الثاني

بعد ثلاثة أيام من اعتقالي الأول، كنت متجهة إلى الهلال الأحمر، وكان رئيس موقع حماة العسكري مع عناصره قد اعتقل 50 شخصًا من باب قبلي والوادي، فقال لي: اعطني حقيبتك وسيري أمامي، فقلت له: "أنا ما علي شي خرجت أول أمس"، لكنه لم يكترث وأخذوني من جديد إلى موقع حماة، وبدأوا بضربي "دبحوني من القتل"، ثم عرضوني على الأشخاص الذين اعتقلوهم وأخبروهم بأنهم إذا اعترفوا أن هذه المرأة هي التي سلحت أبناءهم وأخرجتهم في مظاهرات، وكان يقصدني، سيتركونهم على الفور. وأمرهم أن يقولوا ذلك، ويرددوا ما قاله، فنفذوا ذلك.

بعدها رموا لهم بطاقاتهم الشخصية. فأخذوا يلملمونها ثم رحلوا، أما أنا فأخذوني ووضعوني تحت المجلى، وبدأ الجميع برفسي. علمت إحدى العاملات بالهلال الأحمر باعتقالي واتصلت ب (ع.ل.ذ).

أثناء التحقيق معي، قال لي أحدهم: نحن نعلم إنك تعملين ضدّنا، ونعرف ما تقومين به، أنت تسعفين الجرحى، وبيتك مشفى ميداني، فأنكرت ذلك، كان الهدف من اعتقالي هو تسليم ابني وأخي، وطلبوا مني أن أخبرهما هاتفيًّا ليأتيا إلى الموقع لأخذ دفتر العائلة العائد لأخي وهوية ابني العسكرية، فاتصلت بأخي وأخبرته.

ثم جاءني اتصالان رد عليهما أحد العناصر، الأول من ابني الذي شتمه وطلب منه تركي، والاتصال الثاني كان من قبل أحد الثوار الذي قال له مهددًا: إذا لم تتركوها سنأتي ونفجر المكان، إلى أن أتت المرأة التي تعمل في الهلال مع (ع.ل.ذ) ودفعت لهم المال، فطلب مني رئيس الموقع الخروج، وأخبرني أن علي

الذهاب إلى مكتب بيت الذكرى في أبي الفداء، أحد المعامل، حيث كان صاحبه مخبرًا لهم، لأحصل على هويتي.

خرجت بالفعل ومشى أمامي أحد المخبرين ويدعى (أ.ح) ولديه محل لبيع الهواتف النقالة، كنت أريد إخبار أخي وابني أن لا يذهبا إلى الموقع، كان الطقس باردًا والمطر يتساقط بشدة، وبسرعة استقليت تكسي وتاه عني المخبر. ذهبت إلى سوق النجارين ودخلت أحد المحال التجارية، وكان صاحبه يدعم الثورة بشكل خفي، وما إن رآني تفاجأ وقال: "طلعتي!".

طلبت منه الاتصال بأخي صفوان وإعلامه بعدم الذهاب لأني خرجت وسأعود إلى المنزل.

الاعتقال الثالث

مساء الواحد والعشرين من شهر تشرين الأول عام 2014، كان الأمن يحوم حول منزل أهلي الكائن في حي البعث، وفي الساعة التاسعة من صباح الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول عام 2014، قُرع باب البيت فنظرت من "العين الساحرة" وكان عناصر الأمن يقفون في الخارج، ظننت أنا وأختي أنهم قادمون بسبب قرار الحجز على الأغراض، الذي استصدرته زوجة أخي المعتقل، بعد أن رفعت عليه قضية خلع بحجة أنه إرهابي، وضعت غطاء الصلاة على رأسي وفتحت الباب، فإذا بمخبر معهم يشير إلي بيده، فأمر الضابط بأن نحضر هويات الإناث والذكور بسرعة، فجلبتها أختي وكانت هويتي هي الأولى، فقال لها: "يكفي"، أخذها وأمسك بي وأخذ يجرّني، فبدأت بالمقاومة والصراخ "ما بطلع" رافضة الذهاب معهم بغطاء الصلاة، إلى أن استيقظ أخي فحاول سحب السلاح من يد العسكري، لكنني صرخت في وجهه وقلت له: "إذا أنا ذهبت من الممكن أن أرجع، ولكن إذا أنت ارتكبت جريمة لن ترجع بحياتك، بكفينا واحد". وقد كان أخي الأكبر معتقلاً، ثم أخرجوا أخي مرتدياً ملابسه الداخلية وأوقفوه ووجهه إلى الحائط واضعين البندقية على ظهره حتى ارتديت ملابسي وخرجت، وقد كانت "الحارة" مطوّقة بعدة آليات.

لقد كانت دورية مشتركة من الأمن العسكري وأمن الدولة والمخابرات الجوية، وُضعت بسيارة "جيب" بيضاء اللون، فقلت للعسكري إنني مريضة بالقلب وأحتاج إلى دوائي كي لا أفقد وعيي في السيارة، فقال لي: اخبريني باسم الدواء حتى أحضره لك من الصيدلية، كان هدفي من تلك محاولة العودة إلى منزلي لأطمئن على إخوتي وأتأكد أنهم لم يأخذوا أحدًا غيري، وفعلاً ترك المركبات واقفة عند الدوار، وأخذني إلى بيت أهلي، فأعطتني أختي حبة مسكن وشربتها، لم أكن خائفة على الإطلاق عندما اعتقلت، ولأجل الصدفة كان هذا اليوم الأول الذي لا أخرج فيه من البيت في الصباح، لأن أمي طلبت مني أن أنتبه إلى قدر القرع، الذي كانت تطهوه فقد اعتدت أن اختفي عند أحد الأقارب أو الجيران حتى يحل الليل، لأنني كنت أعلم أنهم سيأتون يومًا ما لاعتقالي.

بعد ذلك أخذوني وأنزلوني عند "النصب التذكاري" وتركوني حتى يتفرّج علي المارّة، ويقولون لهم هذه هي الإرهابية، وبعد ثلاث ساعات تقريبًا أركبوني سيارة، وبعد مسافة قريبة دخلت السيارة بوابة مدرسة،

ولم أجد نفسي إلا في فرع "أمن الدولة"، وهو قريب من النصب التذكاري، قاموا بتفتيشي وسألوني إذا ما كنت أحمل سلاحًا، فأجبت بالنفي، كان معي مبلغ خمسة آلاف ليرة، جميعه من فئة مئتي ليرة، فسُئلت عن سبب كون المبلغ من هذه الفئة فقط، فأخبرتهم بأنني أعمل في تنظيف المنازل، وأساعد أمي التي تعمل في تموين الخضراوات، وأنا كنت أجمع لها أجرتها، ثم أخذوا المبلغ وأدخلوني إلى غرفة كان بها أحد جيراننا يدعى (ي.ط)، فطلبت منه ألا يذكر اسمي على الإطلاق ويعتبر أنه "لا بعرفك ولا بتعرفني"، فلاحظ الحارس أننا نتكلم فسألني: "هاد جوزك" فأجبته بأنني لا أعرفه وكنت فقط اسأله من أي منطقة هو، فأخذوه إلى التحقيق، وأدخلوني إلى غرفة فيها امرأتان معتقلتان من كفر زيتا، بعد ساعة تقريبًا جاء السجان وأخذني إلى العميد سليمان، الذي وجّه لي الحديث وسألني أنت: "أميرة طيار، أم عبدو؟"، فأجبته: "نعم". لكنه كرر السؤال ثلاث مرات فسألته عن سبب استغرابه فأجاب: "على حساب أنك ارهابيه مفزعة اعتقدت أن أم عبدو امرأة كبيرة سمينة"، وتابع قائلا بالحرف الواحد: "أنت يا ابنتي لست مطلوبة لنا؛ أنت مطلوبة لعشرة فروع في دمشق، ونقطة انتهى". ثم أعادوني إلى الزنزانة وبقيت فيها يومين.

لم يتعرضوا لي بالضرب على الإطلاق غير أنني كنت أسمع أصوات العنف الذي يمارس على الذكور، وبعدها استدعوني إلى غرفة التحقيق بعد أن عصب عيني بنقاب أبيض، وجه إلي سؤال: "ما هو دورك بالثورة التي خرجتم بها بسبب العرعور اللوطي؟"، ادعيت بأنني أشعر بدوار بسبب عصابة العينين، وذلك حتى يجلسني على الأرض، لأنني كنت أظن بأن أحدهم ينظر إلى جسدي من الخلف، إذ إنني كنت أخاف من أن يُعتدى علي، ولأن الغرفة التي كنا محبوسين فيها كان لها نافذة ذات شفرات، وكان أحد العناصر "كتير وسخ" يقف كلّ ليلة عند النافذة من الخارج، ويتفرّج علينا وينزل ملابسه السفلية ويقوم بالاستمناء وهو ينظر الينا.

كنّا نموت رعبًا منه ونغطي وجوهنا خوفًا من أن يُخرج إحدانا ويقوم باغتصابها.

خلع العصبة عن عيني وأجلسني على الأرض، وبدأ بسؤالي عن أمور من عام 1982 إلى لحظة وقوفي أمامه، وعن تفاصيل دقيقة في حياتي حتى أنا كنت قد نسيتها. سألني عن عمي المتوفى الذي كان عسكريًّا وخدم عند هشام معلا في لبنان، وسألني أيضاً عن والدي المريض وأمي، و كنت أتخيّل أنه يعرف ماذا كنا نأكل داخل البيت، ثم سألني عن أجهزة الجوال التي مسكوها معي، والتي كان بها صور، فأخبرته أنها أجهزة معطلة كانت في التصليح، وبأنني أحب الصور وأحب الشباب الوسيمين، وكنت أحتفظ بما يصادفني على النت من هذه الصور في الجوال.

كان التحقيق معي متساهلاً جداً في فرع "أمن الدولة"، حتى أنني أحسست بأنهم يتعاطفون معي، وذلك بسبب أنني لم أكن مطلوبة لفرعهم بل لأفرع أخرى في دمشق، ومع ذلك كنت أشعر بالخوف.

قال لي لا أريد منك شيئا سوى أن تخبريني ما تعرفينه، وماهو دورك مع المدعو: م.ب، والمدعو: م.ذ أبو حسن والمدعو: د.ب.ط والمدعو: أ.ط. وهم رجال كنت أعمل معهم في الثورة، لكنني أنكرت معرفتي بهم تمامًا. ثمّ سألني عن هوية المخبر التي كان معي في اعتقالي الأول، ساعدني أنّني لم أغيّر أقوالي على

الإطلاق منذ التحقيق الأول، وسألني أيضًا عن إسعافي الجرحى، فقلت له: "إذا شفت الدم بموت، فكيف لي أن أسعف جرحى؟!" وسأل أيضًا عن تشييع الشهداء فواصلت إنكاري، بعد ذلك بصمت على أوراق وعدت إلى الزنزانة.

بعد نصف ساعة عاد وفتح الباب، وكان غاضبًا جدًّا ونادى عليّ للخروج، وكان يحمل بيده رزمة أوراق سميكة، وهو يصرخ: "لولا أنك قد بصمت على تحقيقك لكان إعدامك هنا في أمن الدولة"، مشيرًا إلى التقارير والتهم الموجهة إلي. ثم قال لي: "اغربي عن وجهي" وذهب.

وبعد عدّة أيّام نودي باسمي، وأخبرني العنصر أنني سأخرج، وطلب مني أن أجهز أغراضي غدًا في الساعة الثامنة، ليتمّ عرضي على قاضٍ يدعى فراس دنيا.

وكنت أنا وخمسة فتيان أعمارهم خمس عشرة سنة، تم التحقيق معي من قبل القاضي، وقد طرح علي الأسئلة ذاتها التي طرحها كلّ من حقّق معي قبله، وكنت أصرّ على الإنكار، وأقول إنني فقط شاركت بالمظاهرات، ولم أرتكب أي شيء آخر. ثم قال لي القاضي إنني يمكنني الذهاب. وبالفعل غادرت القاعة بمفردي، لكن السجانين تبعوني وقاموا بِلَيّ ذراعيَ خلف ظهري ثم قيدوني بالرباط البلاستيكي، ورموني في سيارة براد اللحمة التي كانت تنقل المعتقلين، وكانت أمي حاضرة فأخبروها بأنني سأذهب لاستكمال التحقيق وسأعود إلى البيت في المساء أو غدًا صباحًا، وكان ذلك في الأوّل من تشرين الثاني عام 2014.

كنت قبلها قد ذهبت إلى الشرطة العسكرية وقال لي مساعد أول أن لا أقلق فقد جاءت توصية كبيرة لمصلحتي، وقد نصحني بالتخلص من أي أرقام هواتف كنت قد أخذتها من داخل الاعتقال كي أتواصل مع عائلات المعتقلات في حال خروجي لأنه يعتبر جرمًا كبيرًا، وقمت بالتخلّص منها، وبعدها أُخذت بواسطة ميكروباص إلى المحكمة العسكرية، وأدليت بشهادتي ثم خرجت، وقيل لأمي إنني سأذهب لاستكمال التحقيق في الأمن العسكري بحماة.

بقيت مدة عشرين يومًا محتجزة في مرحاض، وكان معي ستّ نسوة، وقد كان للمرحاض غطاءٌ حديديٌّ، وكنا نجلس كل ثلاث نساء متقابلات، وكانت هذه الجلسة أصعب ما في الدنيا، وكنا ننام واقفات، أما الطعام فكان عبارة عن قطعة من البطاطا المسلوقة ورغيفان من الخبز، واحد منهما للصباح والآخر للمساء، وفي المساء يحضرون حساءً "ريحته خامة"، كان الطعام سيئًا جدًّا.

سُئلت أثناء التحقيق معي عن علاقتي بالمدعو: م. م، فقلت: "إنني لا أعرفه"، فأجاب: "كيف لا تعرفينه وأنتِ من أسعفه"، قلت: "أنا ما شفته ولا أسعفته". وسئلت عن سبب خروجي في المظاهرات الإرهابية والثورة الخائنة فأجبته بأنني منذ اعتقلت للمرة الأولى، فاعترض وقال: "لا تقولي اعتقال قولي سرجلوني أيتها الإرهابية"، وقد كان يشتمني ويقول: "يا قحبة، يا شرموطة" وسألني عن الشيخ مصطفى فأجبته إنه "عرصة ولوطي لأنه قال لنا أن نخرج بالمظاهرات، فلم يكن بالدنيا غير الفقير فقير والزنكيل زنكيل وليس هناك حل وسط، وخرجنا ضده لأنه لم يعاقب الذين قاموا بخلع أظافر الأطفال في درعا".

كانوا يستهزؤون بي ويسخرون مني وأنا معصوبة العينين، فطلبت أن يقوم بنزع العصبة عن عيني أو أن أجلس على الأرض، فطلب مني أن أجلس على الكرسي، ثم قاموا بسحب الكرسي من تحتي وأنا اجلس، فوقعت على الأرض، وضحكوا علي ثم قاموا بنزع العصبة. وسألني عن دوري بالثورة، وبدأ بتهديدي بأن لديه تسجيلات لمكالمات كنت أجريتها من الجوالات التي كانت بحوزتي، ولديه أيضًا صور ومقاطع فيديو لظهوري بالمظاهرات وظهوري على قناة الجزيرة، وأنا أحمل بندقية رشاشة، وأطلق منها النار في الهواء أثناء تشيع "الفطايس تبعيتكن"، وكلّ هذا مذكور في التقارير الواردة عني، ولكنه لا يريد منّي سوى أن أذهب وأدلّه على مكان تواجد بعض الأشخاص وسيتم اطلاق سراحي وإعطائي مكافأة على ذلك. لكنني أنكرت معرفتي بهم تمامًا، فوضعني "بالدولاب" ولكنه لم يضربني لأن حجمي أصغر من أن يتناسب معه. وبعدها سألني عن زوجي وعن بنادق "بومبكشن" زعم أنه اشترها من ماله الخاص ووزعها على الشباب، فأنكرت معرفتي بالأمر.

و كانت قصة البنادق هذه هي السبب بالإمساك بزوجي، حيث إن مخبرًا مندسًا بين صفوف الثوار يدعى م.أ، قد احتال على زوجي ووشى به إلى المدعو ط.د، وهو زعيم ميليشيا من الشبيحة، فاتصل الأخير بزوجي، فهو كان يعرفه إذ أنه باعه مولدة كهرباء ولم يقبض كامل ثمنها، من مبدأ "كلب يعوي معنا ولا يعوي علينا". وأخبر ط.د زوجي أنه لن يأتي إلى مكان عمله في الصناعة، وأن عليه يأتي بنفسه إلى دوار السجن، حيث كانت تنتظره دوريات أخذته إلى المخابرات الجوية. واختفى منذ ذلك الحين، وذلك في الثاني عشر من شهر آب عام 2011 في رمضان.

وقد كان ط.د يتصل بابني ويبتزّه، ويطلب طعامًا بحجة أنه طعام لزوجي، وبعدها أصبح يتصل بي ويهددني بأنه سيمسك بي ويقوم باغتصابي على الملأ، وكان مشهورًا بفعل هذه الجرائم، وأخبرني بعدها أنهم قاموا بإعدام زوجي.

فرع فلسطين

تم تحويلي مع سبع بنات إلى فرع فلسطين 215 في دمشق، وكان مكتوبًا على الباب "الداخل مفقود والخارج مولود"، كانت الرائحة داخله كرائحة مسلخ، بعد وضع الأمانات، تم تفتيشي تفتيشًا شخصيًّا من قبل إحدى المعتقلات، وأمرتني بأن أخلع حمالة الصدر والملابس الداخلية وأبقى بالعباءة وأجلس بوضع القرفصاء حتى يتأكدوا أنني لا أخبئ أي شيء.

في الفرع سبع طوابق، وضعونا في الطابق الثاني، ولم يكن هناك طاقة للتهوئة، كانت التحقيق معي مشابهًا لجميع التحقيقات السابقة التي حصلت معي، في أوّل تحقيق قال لي المحقّق: "إن اعترفت بكل شيء فستخرجين غدًا"، فأجبته بأن ليس لديّ ما أعترف به، فمزّق عدّة أوراق أمامه ووضع ورقةً صغيرة في

ظرف، عندما أخبرت البنات بالأمر، قالوا لي بأن جميع التحقيقات التي حصلت معك سابقًا في حماة رماها، وسيحقّقون معك من البداية، ثمّ تركوني أكثر من ثلاثة أشهر بدون تحقيق.

كان وضعنا مقرفاً، جرب، قمل، ملابس رثة، حتى إن العنصر الذي يحضر الأكل كان يقرف من وضع يده على مقبض باب الزنزانة. كنا ستين بنتًا وفي كل يوم يجب أن تستحم سبع بنات خلال عشر دقائق، كنت أغسل أنا ومعتقلة أخرى غسيل البنات بينما يستحممن، ووضعوا لنا داخل الزنزانة سطلاً لقضاء الحاجة خارج الوقت المسموح فيه الخروج إلى المرحاض، وكانت الزنازين مقرفة والصراصير تمشي على الحيطان، وبمجرد الدخول إليها كان القمل يجتاح الداخل. لكل معتقلة مساحة بلاطة، وعند النوم ننام على سيفنا، كانت الزنازين مزودة بكمرات "صوت وصورة" للمراقبة، ومكتوب على الحائط بأنه تم تركيبها في الأول من آب 2013.

كانت الصلاة ممنوعة في الفرع، ومن يشاهدونها، بواسطة كاميرات المراقبة، تُصلي يعاقبونها. كانوا يقولون لنا صلوا بأعينكن، حتى المسبحة كانت ممنوعة، كنا نسحب خيطانًا من الملابس ونصنع منها مسبحة.

وفي إحدى المرات طلب مني مدير الفرع أن أكون رئيسة القاووش، لكني رفضت حتى لا يقال عني مُخبرة، وقلت له: "لا أستطيع لأنهن، أي المعتقلات، سيضربونني، وأنا مالي قدهن"، لكنني أخبرت البنات بما طُلب مني ورفضي له، وأضفت بأنهنّ مثل أخواتي.

كنت أعتني بجميع البنات وأترك طعامي للكبيرات في السن أو للتي تريد، كان أكلي قليلاً جدًّا، لأن عقلي كان دائمًا مع أولادي ومع أخي، وأتساءل دائمًا عن مصيري.

هناك ندوة "دكان" في فرع فلسطين، نستطيع أن نشتري منها بعض المواد الغذائية والفوط الصحية، من أموالنا في أمانات السجن، ولكنّ سعرها كان غاليًا جدًّا، فعلى سبيل المثال كان سعر كيلو الملح ألفي ليرة. كنّا نوصي السجّان بما نريد شراءه، ومن لم يكن لديها المال كانت تستدين من الأخريات، وعندما تخرج من الاعتقال كانت تسدّ دينها لعائلة من قامت بإعطائها المال.

كان هناك خمسة وأربعون معتقلاً، رأيتهم حين خرجنا من الفرع، كانوا يبدون كالمجانين، الجروح تملؤ أجسادهم، ويبولون على أنفسهم. وكان السائق يضغط باستمرار على المكابح، فينقلب المعتقلون على بعضهم البعض، وكان غاية هذا الفعل أن يزداد ألمهم من الجروح التي على أجسادهم.

من أقسى أنواع التعذيب الذي تعرضت له هو وضع تنكة تحت صنبور ماء يقطر على مدار الساعة، كان هذا الصوت يدفعني إلى الجنون، حتى إنني أصبحت لاحقًا لا أطيق أن أسمع أي شيء مشابهًا لذلك الصوت، كصوت المضغ أو صوت أكل البزر.

التحقيق كان يبدأ في الساعة الثانية عشرة ليلاً، وكنا نعلم بموت الشباب حين نسمع أحدهم يقول: "سيدي فطس"، ثم يلفونه ببطانية ويرمونه على الدرج، كان تعذيبنا النفسيّ أصعب من التعذيب الجسدي، كان

الشباب يصرخون: "يا الله، وكانوا يضربون رؤوس الشباب في الجدران، كنا أثناء صعودنا الدرج إلى غرفة التحقيق نشاهد الدماء والأظافر على الأرض، لم يكونوا يكترثون لأي شيء.

خلال التحقيق التالي معي كُسر على جسدي ثلاث عصي بلاستيكية، يسميها المحققون "الأخضر الإبراهيمي"، وكُسِر كتفي جراء ذلك، كان يقوم بإطفاء السجائر بجسدي، ويسألني كيف كانوا يضربون الحواجز، وكيف كانوا يقتلون العساكر، وكان يسألني عن أسماء بعض الثوار، كان جوابي له: "لا أعرفهم ولا أعلم شيئًا"، وفي إحدى المرات أدخلني المحقّق إلى الحمامات وسكب علي الماء وكهربني، واتهمني بأني مارست جهاد النكاح فقلت له: "لا عنا جهاد ولا عنا نكاح بالحارة، ولا بعرفهن ولا شفتهن"، كنت أقول له: "عندما فتشتوا بيتي ماذا رأيتم، رأيتم زجاجة ويسكي"، وبالفعل كان زوجي يشرب الكحول من زمن بعيد والزجاجة قديمة.

أحد المحقّقين وهو من دير الزور كان يقول لي: "اجلسي على القاع"، ولم أكن أعلم ما تعني هذه الكلمة حتى فهمت أنه يقصد الأرض عندما رماني على الأرض وهو يقول أنتِ تقفين عليها، ثم بدأ بضرب رأسي بالجدار حتى أغمي علي وأخذوني إلى مشفى 601.

مشفى 601

بقيت في مشفى 601 أسبوعاً كاملاً، مشبوحة ومكبلة يداي وقدماي إلى السرير. كان خلالها العسكري يدخل ويبلل فمي بالماء فقط، شاهدت خلالها جثثًا مرمية على أرض باحة المشفى، وكانت تُنقل في سيارات تشبه سيارات القمامة. قال لي أحدهم في المشفى: "لا أحد يخرج من هنا حيًّا"، فأوصيته إن مت أن يدفني ولا يترك جثتي تنهشها الكلاب كتلك التي رأيتها في الباحة، فأجابني: "إذا صعدت روحك إلى السماء السابعة فما الذي يعنيه ما قد يحصل لجثتك؟"، وأجهشت بالبكاء.

وسمعت أحدهم يقول: ابن هذه المرأة كان هنا، في هذه الغرفة التي كنت موجودة فيها. كان هناك الكثير من المعتقلات ولكن بيننا ستائر.

في إحدى الأيام دخل أحدهم وقال لي: "سيدخل عليك شخص ضخم يدعى عزرائيل وسيضربك بالغناية، وهي عصاً خشبية لها رأس مليء بالمسامير، على رأسك حتى تموتي، أو سوف يعطونك إبرة هواء لتموتي"، فأوصيته أيضًا أن يدفن جثتي إن متّ، وبعد ربع ساعة سألني: "هل أنتِ جاهزة فأجبته: "لماذا؟"، فقام بفك يديّ وقدميّ، وكانوا يريدون إعادتي إلى فرع فلسطين، بقيت حتى الصباح وأنا أتألم من وجعي جراء شبحي أسبوعًا كاملاً على السرير، "كنت يبسانة".

ليلة أخرى في فرع فلسطين

عندما عدت إلى الفرع، قالوا لي: "أنهم سيأخذوني إلى الإعدام، وفي الساعة الثانية عشرة ليلاً وضعوني في غرفة مربّعة تحت الأرض، مساحتها متر مربع واحد، وفيها ست جثث لشبان معتقلين، وعلى الحائط

كانت توجد دائرة كبيرة عليها حلزون تشبه ماكينة اللحمة، وكان أحدهم يدخل ويخرج ويهددنني قائلاً: "ألا تريدين أن تقولي لنا من هم القادة اللذين تعاونت معهم، ومن أين السلاح، إن لم تخبرينا سيكون مصيرك كمصير هؤلاء الشباب واسمك شطبناه من النفوس وجميع الناس يعلمون أنك ميتة، ألم تقرأي ما هو مكتوب على الحائط، الداخل مفقود والخارج مولود"، فأجبته: "ليس لديّ ما أقوله".

بقيت ست ساعات أو أكثر، وكان يدخل ويخرج ويهددني، ثم وضع جثة أحد الشبان الميتين في جهاز الفرم، وفرمه ثم قال لي: "أن الجثة الآن في الصرف الصحي، ولكن أنتِ سنضعك فيها وأنت حية وليس وأنت ميتة"، فانهارت أعصابي وانعقد لساني، في الواقع إن سجن أبو غريب أهون من فرع فلسطين. ثم وضعوني في غرفتي.

رويت ما حدث معي للبنات، فنصحنني بالاعتراف لأنه أهون من التعذيب، ولكنني لم أعترف، فأنا أعلم أنني هنا ميتة، وإن وشيت بأي اسم ولم يجدوه فسيكون مصير عائلته من النساء كمصيري وسيدعون عليّ.

بعد قليل دخل أحدهم وقال لي: "أميرة طيار، صدر قرار إعدامك وسيتم تحويلك إلى سجن صيدنايا"، وأخرجني من الغرفة، فوجدت عدّة محقّقين وشباب وجوههم إلى الحائط، وطلب منّي أحدهم أن أعترف وهو يرفسني بقدميه، كنت أتدحرج على الأرض لأمتار، ثم سألني: "إلى أي صف درست" فقلت له: "إلى الصف الأول، لأني لم أكن أحب المدرسة".

كان معه أوراق، وجدت على إحدى الأوراق ثلاثة أو أربعة أرقام، وهي أرقام هواتفي وبضع كلمات، ثم سألني ألا تعرفين الكتابة والقراءة؟ فأجبته لا، ثم طلب مني أن أبصم باللون الأزرق وبصمت باليد الأخرى باللون الأحمر، فسألني: "هل تعلمين على ماذا بصمت؟"، فأجبته: "لا"، فقال: "أنتِ بصمت على وفاة ابنك"، فقلت له: "سألاقيه في الجنة"، فاستشاط غضبًا وقال: "بالجنة!" وضربني بحذائه العسكري على وجهي وسالت الدماء منه، وعدت إلى غرفتي.

في التاسعة صباحًا حضر سجانان؛ أحدهما اسمه محمد والآخر طارق، وطلبوا مني تفتيش إحدى المعتقلات، وكانت ستخرج من الفرع، رجتني تلك الفتاة أن لا أضربها عند التفتيش، وقلت لها أعلم أن معك أرقام هواتف أهالي معتقلات، فطلبت مني أن أعطيها رقم عائلتي، فأجبتها: "لا عليك لن تحفظيه"، وطلبت منها الخروج ولم أفتشها. وفي الساعة الحادية عشرة صباحًا، قامت إحدى المعتقلات بتفتيشي، وطلبت مني أن أتعرى كي تتأكد من عدم وجود أرقام هواتف أهالي المعتقلات، لكنّنا كنّا نكتب الأرقام على ورقة الفوطة النسائية، ونكتبها أيضًا في ورقة صغيرة ونضعها داخل إسفنج الصدرية، فلم تجد شيئًا.

ثم أخبرني العسكري بأني سأذهب إلى منزلي، وتوجهت للأمانات لأستلم حقيبتي، وكان فيها مفتاح منزلي وحزام معطفي أما الخمسة آلاف ل.س التي كانت بحوزتي فأخذوها مني. أحمد الله بأن هاتفي الجوال لم يكن معي وإلا لم أكن لأخرج من المعتقل.

وقبل أن يتم تحويلي إلى محكمة الإرهاب، أحضروا معي خمس شباب مواليدهم 1995، ومعهم حقائبهم المدرسية وقد بدوا لي كالأشباح من شدة الهزال، مثلي تماماً، وقال لي أحد الشباب ظننا بأن الفرع لا

يُعتقل فيه إلا الرجال، واقترب مني ووضع رأسه على كتفي فأحسست أن أولادي قد خرجوا معي وانهارت أعصابي وبدأت بالبكاء.

كبّلونا مع بعضنا البعض، وصعدنا في باص السجن إلى محكمة الإرهاب.

من محكمة الإرهاب إلى سجن عدرا

وصلنا إلى المحكمة في الساعة الرابعة بعد الظهر، تمنيت أن لا يتم إجباري على ارتداء الثوب الأزرق، لأنه مفزعٌ بالنسبة لي، سألني أحد العساكر: كيف هي المعنويات؟ قلت له: عالية، فسألني إن كنت جائعة وطلب مني خمس مئة ل.س ليشتري لي سندويشة، فشكرته وأعلمته بأني لا أملك مالاً، وأخبرني بأن الدوام انتهى في المحكمة وسيتم تحويلي إلى مخفر شرطة كفرسوسة.

وعند دخولي إلى مخفر شرطة كفرسوسة طلب مني أحدهم شطف الطابق كلّه، وكانت آثار التعذيب ما زالت آثارها على جسدي، وأخبرته بأن كتفي مكسور ويدي متورمة، ولا أستطيع، لكنه أجبرني على شطفه وحف الأرض ومسحها، وبعد أن انتهيت بدأ جسمي يرتجف، كنت جائعة، وسألني مجددًا إن كنت أملك المال ليجلب لي طعامًا، ولم يصدق أني لا أملكه ففتح حقيبتي وتأكد، ثم قدم لي كأسًا من الشاي وأخبرني بأنهم لا يقدمون الأكل هنا إلا لمن يملك ثمنه.

بعد أسبوع خرجت وداروا فينا بالباص على كل الأفرع، كانت تخرج من كل فرع بنت أو بنتان، ثم انتظر الباص أمام باب الحميدية لمدة ثلاث ساعات حتى خرجت النسوة من المحكمة، وتوجهنا إلى سجن عدرا.

في عدرا، تفاجأت بوجود كم كبير من البنات اللواتي التقيتهن في فرع فلسطين، فقد ظننتهن خرجن إلى بيوتهن، استقبلوني جميعهن بفرح عندما رأوني، ودخلت السجانة وقالت لي: "سنحلق لك على الصفر لأنك آتية من فرع"، فقلت لها: "لست مقملة ولا جربانة"، ففحصت شعري لتتأكد وسألتني: "منذ متى لم تستحمّي؟"، فقلت لها: "منذ خمسة أشهر، لأني إن استحممت سيقشر جلدي وسأبدأ بالحك وسأجرب"، فقالت لي: "لن نحلق شعرك لأنك نظيفة من القمل والجرب".

أعطوني حقيبة لونها أزرق وكانت هدية من الأمم المتحدة وبداخلها لباس السجن وشال ومشط وشامبو وبلسم وعصارة للتسلخ و"شحاطتان" بالإضافة إلى فوط نسائية.

كانت معاملة السجانات لنا سيئة، وفي التاسعة مساءً حضر مدير السجن للتفقّد وسألني: "هل أنت جديدة؟" فأجبته: "نعم"، وسألني ماذا أريد فقلت له: "أريد توكيل محامٍ"، فأجابني: "بعد ثلاثة أشهر يحق لك توكيل محامٍ، أمّا الآن فيحق لك أن تسجلي لمعاينة طبيب"، قلت له: "لا أريد"، فقال متسائلاً: "وهذا الإزرقاق، ويدك المتورمة؟"، فلم أجبه فقد كنت متأكدة من خروجي، وطلبت منه حرام، فأجابني: "غدًا سنعطيك، اليوم نامي على الأرض"، وفي الثانية عشرة ليلاً صاحوا عبر مكبّر الصوت باسمي، وطلبوا أن أتوجه إلى مدير السجن، وسألني بإصرار عدة مرات عن الإزرقاق ويدي المتورمة، ولماذا أرفعها، في البداية أخبرته بأني وقعت من الباص ثم أخبرته بأنه تعذيب في فرع فلسطين، فقال: "حسبي الله ونعم الوكيل"،

وأضاف: "لقد أتى إخلاء سبيلك"، لم أستوعب ما قاله ظننت أنه قال: "إعدام"، فصرت أقفز في مكاني، وقلت له: "لوين بدكن تاخدوني؟"، قام بتهدئتي وقال لي: "يعني أنك ستذهبين إلى بيتك، لعند أمك كي تنامي بحضن أمك وتشاهدي أولادك" ثم طلب لي كأسًا من الليمون.

سألني الشرطي وأنا خارجة من غرفة المدير: "ألا تريدين إعطائي البشارة؟"، فأجبته معي خمس مئة ل.س، أعطتني إياها امرأة في مخفر كفرسوسة كي آكل، خذها، ثم قال: "لولا القصف خارج السجن، لكنا طلبنا منك الذهاب إلى الجامع الأموي، وهناك سيعطيكِ الشيخ أجرة الطريق لتذهبي إلى بيتك، نحن نطلب من جميع البنات الذهاب إليه ليحصلن على أجرة الطريق".

في الصباح اتصلت بأمي وطلبت منها أن تأتي لزيارتي لأني في سجن عدرا، فبدأت تزلغط، وأخبرتني بأنها أعطت مبلغ أربع مئة وخمسون ألف ل.س لشخص أخبرها بأني سأخرج من السجن في حمص، بالإضافة إلى عشرة آلاف ل.س أجرة طريق، وأضافت أنها أعطته ملابس لي ومولدة كهرباء وأدوات كهربائية، فقلت لها: "كل ما ذكرته لم يصلني، وهو كاذب".

في اليوم التالي أنزلوني من الباص الذي صعدت فيه، لأن لدي زيارة، فرأيت أمي وابنتي وحماتي وأختي أتين لزيارتي ومعهنّ أغراض لي، لكن كان عليّ أن أنتظر عودة البنات من المحاكم، ورّعت الأغراض والمال الذي معي على البنات اللواتي ليس لديهن زيارة، حتى ملابسي الجديدة التي كنت أرتديها أعطيتها لهنّ ولبست ملابس إحداهن المهترئة.

خرجت من السجن مساءً في الساعة الثامنة، ووجدت أمي بانتظاري أمام باب السجن. وساعدني بشكل مجاني أحد المحامين ويدعى (ح.خ) في الحصول على ورقة (كفّ بحث).

في حماة، ورغم آثار التعذيب الواضحة عليّ، خرجت في اليوم التالي إلى الشارع واقتربت من أحد الباعة لأشتري الحمص، فقال له شخص بجانبه: "أهي مجنونة!" فأجبته: "لا، لست مجنونة، ولكني كنت معتقلة عند النظام"، فقام وقبّل قدمي واعتذر مني.

الدورة الشهرية

في فرع الأمن العسكري بحماة، عندما كنت في زنزانة منفردة، عبارة عن مرحاض، أحضروا معتقلة أخرى وتدعى (ن.د)، في ذلك اليوم أتتني الدورة الشهرية، ولم يكن لدي أي شيء أستعمله كفوطة، فقمت بقص كم قميصي، لأنني استحييت أن أخبر السجّان الذي كان في بداية العشرينات، ولكن في اليوم التالي كانت قد بدأت أعراض الطمث لدى المعتقلة الأخرى، فلم نعرف كيف نتصرّف فقمنا بالطرق على الباب حتى جاء السجان، وسألنا عن ما نريد، فأخبرناه أننا نريد فوطًا صحيّة، فطلب أن نعطيه المال، فأخبرناه بأننا لا نملك نقوداً، فأغلق طاقة المرحاض وغادر.

بعد ذلك حضر الطبيب ليقوم بالتفقّد اليومي لجميع السجناء، وقام بقياس ضغط دمي وكان منخفضًا جدًّا، فأمر السجّان بأن يحضر لي القليل من الملح، فأحضر حبة طماطم متعفّنة وعليها القليل من الملح، فرفضت أكلها، فأعطاني القليل من الملح، وبعدها أخبرت الطبيب أنني والمعتقلة الأخرى في فترة الحيض، وأنّ

العسكري رفض أن يؤمنّ لنا فوطًا صحيّة ما لم نعطه المال، فقام في اليوم التالي بإعطائنا كيسًا من الضمادات القطنية، بعد أن كنا نستعمل قصاصات من كنزة سوداء للإحدى السجينات ونقوم بغسلها، ثمّ نعاود استعمالها في كلّ مرّة.
كنا كلما خرجت معتقلة من الفرع نعطيها صابونة و فوطة صحية، فلا أحد منا يعلم إلى أين سنذهب، وفي عدد من الأفرع كانوا يضعون لنا الكافور مع الماء لتنقطع عنا الدورة الشهرية.

التحديات

بعد خروجي من المعتقل، عدت إلى بيت أهلي، ودخلت للعلاج في إحدى مشافي حماة، وبقيت فيه لمدة عشرة أيام عالجت خلالها كتفي المكسور والتهابات في جسمي، كانت تعتريني نوبات من السخونة والبرد، ولم أعد قادرة على المشي، وكنت أعاني من آلام في المفاصل، التهاب المفاصل التنكسي، جراء ثني ركبي في الزنزانة، كنت مطلوبة لزعيم إحدى ميليشيات الشبيحة في حماة، المدعو: ط.د، وقد أرسل لي أحدهم، وكان مستغربًا من اطلاق سراحي، وأعلمني بأنه سيحولني إلى فرع المخابرات الجوية ليُستكمل التحقيق معي، وسأبقى فيه لمدّة شهر ثم يحولوني إلى الشام وأقدّم إخلاء سبيل، لكن كان من المستحيل أن أُسلم نفسي لهم "بموّت حالي ولا بسلمهم حالي"، فاتجهت إلى تركيا.
الآن ومن شدة الضغوطات عليّ، أقول في نفسي: ليتني مت في السجن ولم أخرج منه، فأنا أجد صعوبة كبيرة في العيش في تركيا، أنا ليس لي أحد، فقدت المعيل، لكنّ الله لا ينسى من فضله أحدًا، ابنتي تمسح الدرج وتُدرّس اللغة التركية للعرب، وتُدرِّس بعض الأتراك اللغة العربية، الذين يسافرون في رمضان إلى القدس وهي متطوعة بالهلال الأحمر.
أنا حاليًّا لا أخرج من البيت إلا برفقة ابنتي، أحيانًا أبقى في البيت أسبوعًا أو شهرًا كاملاً، لا أخرج لأنني لا أتحدّث اللغة التركية، لم أحاول أن أتعلمها لأني كبيرة في السن، "بدي إحكي أجنبي وأنا بهالسن"، لو كنت أجيد اللغة التركية لكنت خرجت وتحدّثت عن قصتي وعن معاناتنا.
لا تختلف تجربة المعتقلة عن تجربة الرجل المعتقل، فالتعذيب للرجال مشابه لتعذيب النساء، فحسب تجربتي، حين تعترفين لا تُعذّبين كالتي لم تعترف، أنا عذّبوني كثيرًا لأني لم أعترف.

تجربتي السابقة مع التوثيق

يأتون إلينا كثيرًا لنوثّق ما حصل لنا، ويُحدّثونا عن أهمية دعمنا نحن المعتقلات، ويأخذون أسمائنا، ويقبضون الكثير علينا، مئات الألوف ولا يعطوننا أي شيء.
وثّقت مع شخص يدعى: ج.ش، وعَدَنا بأنه سيفتح فرنًا، وستكون عوائده لدعم المعتقلات، ولم يفِ بوعده.
إحدى المنظّمات دفعت بعد التوثيق خمس مئة ليرة تركيّة لعشر معتقلات، ثم وضعوا أسماءنا ولم يدفعوا

لنا شيئًا، قبضوا على أسمائنا وكذبوا علينا، وإحدى المنظمات التركية وثقت قصّتي، لكني وجدت أن المسؤولة السورية في هذه المنظمة أصبح لديها بيت وسيارة على أكتافنا نحن المعتقلات.

إحدى المعتقلات تواصلت معي وقالت: "إحدى الجهات الداعمة اشترطت وقبل أن تقدم لنا دعمها بأن نوثق ما حصل معنا"، لقد وثّقت معهم ولم يقدّموا لي شيئًا.

إحدى المنظمات الدولية الفرنسية وثّقت حالتي في منطقة قيسري، وأخبروني بأنهم سيرفعون دعاوى بعد إسقاط بشار الأسد، وإحدى منظمات دعم المرأة وثّقت حالتي في أنطاكية، وكان معهم أطباء من مختلف الاختصاصات، أخبرونا أنّهم سيعطونا رواتب شهرية، ولكننا لم نحصل على أي شيء، هم يدعمون أشخاصًا معينين، بعض المعتقلات يقبض من تلك المنظمة ثلاث مئة وخمسون يورو شهريًّا.

وبعض المعتقلات يقبضن من إحدى المنظمات ألف ليرة تركية، اتصلت بهم فقالت لي: "اذهبي واعملي أنتِ وابنتكِ، نحن نعطي من لديها أطفال صغار"، لكنّني ما زلت أوثّق تجربتي، لأنّنا نريد إسقاط بشار الأسد، لقد رغبت الآن بالتوثيق كي يسمع العالم صوتنا، ويعرف كيف يُعذّب بشار الأسد الناس، فالدول الغربية تعتقد أن المعتقل في سورية له حقوق ويُعامل كما يعامل المعتقل في بلادهم، ويعتقدون أن الأزمة في سورية هي وجود إرهابيين، ولا يعلمون ما حدث.

العلاقة مع الأسرة والمجتمع

بقيت صداقاتي كما هي بعد الاعتقال، ولكن أبرز الأسئلة التي وجهت لي بعده هو: "هل اغتصبوكِ؟" باستثناء أهلي الذين لم يسألوني هذا السؤال أبدًا، على العكس تمامًا، عندما وصلت إلى المنزل أطلقوا النّار وزمامير السيارات، وحملوني على الأكتاف تعبيرًا عن فرحهم. لقد استقبلوني كعروس، وهم يقدّمون لي الدّعم، وهم فخورون بي، ويعتبرون أنّ ما فعلته أفضل من ما فعله ألفا رجل.

حتى النساء اللواتي كنت أساعدهنّ في تنظيف بيوتهنّ حضرن إلى بيتي لتهنئتي، منهنّ من شوت لي اللحم، وأخرى عجنت لي "لحمة بعجين"، ومنهنّ من قدمن لي الهدايا، لأنّ الجميع كان يعتقد أنني مت تحت التعذيب، في بداية الأمر لم يصدّق أحد أني قد خرجت.

كلمة أخيرة

لم أعد سعيدة بحياتي بعد تجربة الاعتقال، أصبت بالسرطان في الغدة وأجريت عملية لها وسوف أخضع لعلاج كيماوي، لقد دُمّرت حياتي بالكامل، لكني أقول الحمد لله على كل حال، ما زلت قويّة و مصرّة على إسقاط الأسد، وسآخذ بثأر ابني الذي استشهد ولو بعد مئة عام، زوجي وابني ما زالا في سجن صيدنايا، وأنا صابرة لأن حالي كحال كلّ الأمّهات والزوجات.

يبدأ إنصاف المعتقلات والمعتقلين من محاسبة المجرمين حسب القانون الدولي لمرتكبي جرائم الحرب، وتكريم المعتقلات والمعتقلين وتسليط الضوء على معاناتهم خلال فترة الاعتقال.

واجبي وواجب كل إنسان حر أن يكون طرفًا في الادعاء ضدّ كلّ مجرم كان سببًا في تشريدنا وقتلنا وتهجير أهلنا، وضدّ كلّ من مارس بحقّنا أشدّ أنواع التعذيب والاعتقال التعسفيّ لأنّنا طالبنا بالحريّة والكرامة.

نحن أصحاب حقّ، والحقّ لا يموت، وسأقوم بواجبي بالادّعاء على مرتكبي الجرائم وهو بالنسبة لي أمر غير قابل للتفاوض.

شمس الدمشقية[7]*

[7] - حوار أجرته الكاتبة مع منى بركة عبر WhatsApp))، في الثاني من آذار عام 2019، مدة الحوار: ثلاث ساعات وعشرون دقيقة.
* لوحة الغلاف: ديلاور سليمان

١٣

اسمي منى بركة ولدت في التاسع من شباط عام 1984، أنا من دمشق وكنت أسكن منطقة القدم، تخرّجت معلمة صف ودرست مادة الشريعة الإسلامية لسنة واحدة فقط، وتزوجت في عام 2002، وأنجبت طفلين وكنت متفرغة لتربيتهما، الأول عمره الآن خمسة عشر عامًا والثاني ثلاثة عشر عامًا، وأقيم حاليًا في تركيا، وتحديدًا في الريحانية.

اعتقلت أوّل مرّة قبل الثورة في عام 2001 بسبب مشاركتي في جمع مساعدات لغزّة، وتم توقيفي لمدّة ثمان وأربعين ساعة، وبقي هذا الموقف مرافقًا لي حتى بداية الثورة عام 2011، بالإضافة إلى أن عائلتي كانت معارضة لنظام الحكم في سورية مما دفعنا للمشاركة أنا وإخوتي في الثورة وعملنا في التنسيقيات، وكنت من المؤسِّسات لجميع التنسيقيات في منطقتي، تنسيقية القدم واليرموك والحجر الأسود وغيرها، نظمنا المظاهرات في هذه المناطق، وكتبنا شعاراتها وحددنا من سيهتف خلالها، وكنا نوّزع مراقبة المنافذ على العوائل، ليُخبروا عن دخول الأمن إلى المنطقة خلال المظاهرة، وكنت أنقل الخبر إذا دخل الأمن أو خرج أو إذا سمعت أصوات الرصاص.

كنت أعمل في الظل عبر الإنترنت، ولم أكن أشارك في المظاهرات لأن أهلي كانوا محافظين جدًّا، وكان يمانعون ظهوري أو الاختلاط، كنت أجمع الأخبار وأنقلها وأصوّر من مكان مرتفع في بيتنا يطلّ على ساحة الضبع التي غيّر الشباب اسمها إلى ساحة الحرية. حرّرت الأخبار وكتبت التقارير لقنوات عربية؛ مثل الجزيرة والعربية حيث كانت لي مصداقية بين الثوّار، وكنت ناطقة باسم الجنوب "جنوب دمشق والمنطقة الغربية"، منذ منتصف عام 2012 وحتى بداية عام 2013؛ رغم ذلك لم أظهر بالعلن سوى مرتين فقط خوفًا على أهلي، فأنا كنت مقيمة في منطقة حساسة، من السهل أن يدخلها النظام، خاصة بعد اعتقال اثنين من إخوتي، الأول وهو محامٍ اعتقل لمدة أسبوع من قبل فرع المنطقة في الثاني والعشرين من نيسان عام 2011، في جمعة سميت بـ" الجمعة العظيمة"، والثاني تمّ اعتقاله لمدة يومين ثم رموه في الطريق، لنجده وقد أصيب بصدمة، صمت بعدها خمسة عشر يومًا.

بقيتُ أعمل في الظلّ بشكل كبير حتى عام 2014، تحت اسمين مستعارين "الحّرة الدمشقية" و"شمس الدمشقية"، وقد لجأت إلى استخدام الاسم لأن الاسم الأول أصبح ملاحقًا من الأمن، وتعرّضت حساباتي الإلكترونية للتهكير.

بعدها اضطررنا للهرب من حيّ القدم بسبب سوء الأوضاع، عندما هجم العلويّون على بيوتنا بالسكاكين والسواطير في الشهر السابع من العام نفسه؛ وكان هذا الهجوم ردة فعل على خلفية استفزازات وقعت بينهم وبين شباب الثورة، بالإضافة إلى القلق الناتج عن المداهمات المستمرة التي كان يقوم بها النظام، فعندما كانوا يطرقون الأبواب كانوا يأخذون جميع الذكور من عمر اثني عشر عامًا فما فوق، والبيت الفارغ لم يكن ينجُ أيضًا، فقد كان يُسرق أو يتم تحطيم كلّ ما في داخله، وقد رأيت هذه المداهمات بعيني.

في مرّة من المرات في عام 2011، أوقفوا باصًا وجمعوا كلّ من كان فيه، في ساحة الحرية وداسوا عليهم. الطائفية لم تكن موجودة قبل الثورة، وإنما هي ورقة لعب عليها النظام، فكبار الضباط وموظفي الدولة

من جماعته، والشباب كانوا يشعرون بهذا الإقصاء ولا يفصحون به، وهذا الذي أدى إلى انشقاق عدد من الضباط من رتب متنوّعة، لكنهم كانوا مستبعدين عن دائرة اتخاذ القرار، ولم يكن لديهم صلاحيات حقيقية، ونحن منذ بداية الثورة رفعنا لافتات كتبنا عليها "لا للطائفية".

لجأنا إلى الغوطة الغربية بعد قصف النظام الذي أدى إلى استشهاد مجموعة من الشباب، بقينا هناك مدّة اثني عشر يومًا، وعندما جاء شهر رمضان عدنا إلى بيوتنا، على الرغم من أن الوضع لم يتحسن، والبيوت كانت خالية من أصحابها، بقينا بلا كهرباء، مما دفع أبويّ للعودة مرة أخرى إلى الغوطة، بعد أن رفضنا مرافقتهم أنا وإخوتي وزوجاتهم، وسكنا سوية في بيتنا.

سمعنا بخبر انفجار "خلية الأزمة" في الثامن عشر من تموز عام 2012، واستبشرنا خيرًا وزادت على إثره المظاهرات بعد أن بدأ سكان الحيّ بالعودة إليه، وأخذت الحياة تكون أشبه بالطبيعية، وعندما تسلّح شبّان في المنطقة وظهروا على قناة الجزيرة وهم يحملون السلاح، عاود النظام القصف العشوائي ودخلت الدبابات في الحادي والعشرين من رمضان عام 2012، وبدأت تقصف قصفًا عشوائيًا، حينها اختبأنا في قبو تحت الأرض، واستشهد وأصيب الكثير من الشباب، وفي صباح اليوم التالي غادرنا القدم نهائيًا، وبدأت العمل في مجال الإغاثة ضمن جمعية خيرية، استمرّ عملها من نهاية عام 2012 حتى عام 2014 وكنت أنا مديرتها، كنت أجمع التبرعات وأنشأنا مستودعات وطوّرنا عملنا بشكل واسع وكبير، وأصبحت تأتينا المساعدات ونوزّعها على المناطق التي حاصرها النظام، مثل مخيم اليرموك والحجر الأسود والقدم. وكان من ضمن مشاريعنا الكثيرة كفالة أيتام وافتتاح صيدلية خيرية في الغوطة الغربية؛ لم يكن هناك نساء مشاركات في الجمعية سوى أنا و"أم جواد" في منطقة القدم وقد توفيت لاحقًا، وبعدها تمّت ملاحقتي وحاول النظام كشف هويتي؛ غالبية أهلي لم يعارضوا عملي، وخاصة أبي لأن أغلب العمل كان يتم عن طريق "الإنترنت"، ويهدف إلى خدمة الناس، وكانت والدتي ترافقني أحيانًا عندما أضطر لحضور الاجتماعات وزيارة المستودعات، ولم أخبر أهلي بالطبع بكل ما أقوم به خوفًا عليهم من النظام، ولأن طبيعة العمل الإنساني تتطلب عدم الجهر به كي لا يضيع ثوابه، وكي لا يؤثر عملي على أبي، لأن عمي كان معارضًا لعملي ويتمتع بشخصية قوية وله سلطة في العائلة، بالرغم من أ ن أبي كان الأكبر سنًا بين إخوته.

بعد فترة تلقينا تحذيرات بأن نخلي بيوتنا، لأن النظام يحضر حملة لاجتياح بلدة "خيارة دنون"، ولكن أهلي رفضوا الخروج؛ بقينا ودخل النظام إلى البلدة، بدأ حملته بالقذائف وتم "تفييش" جميع أسماء الرجال، واعتقل أحد الشباب العاملين في الجمعية التي أديرها، هنا قرّرت عائلتي أنني يجب أن أختفي عن الأنظار بسبب خوفهم عليّ، فأرسلوني إلى منزل عمّي في خان الشيح، وهناك لم أستطع التحرّك أو ممارسة نشاطاتي أو إجراء أي اتصال خوفًا من معرفة مكاني من خلال هاتفي المحمول؛ لأن النظام حين يحاصر منطقة كان يقصف النقطة التي يُستخدم فيها خط هاتفي مضروب كخطي الهاتفي، بعد فترة قصيرة جاء أبي وأعادني إلى بيتنا في "خيارة دنون"، لكنني لم أتحمّل وجود علم النظام وصور بشار الأسد مرة أخرى

في المنطقة، فتوجهت فورًا إلى أخي الذي كان يقيم في بيت حميه في الكسوة، رغم مشقة الطريق، فقد اضطررت أن أذهب مشيًا على قدميّ بين البساتين، خوفًا من الحواجز المنتشرة، وذلك لأنني كنت أحمل الكثير من "الفلاشات" وختم الجمعية والأوراق الهامّة التي حتمًا ستعرّضني للاعتقال.

الكمين

تمّ اعتقالي في التاسع من حزيران عام 2014، من قبل سرية مداهمات الأمن العسكري فرع 215، فقد نصبوا لي كمينًا بعدما وظّفوا فتاة للتواصل معي عبر الهاتف، أخبرتني أنها من طرف صديق وتريد مساعدتي في العثور على منزل؛ لم أقتنع في البداية ولكنني لم أشكّ بها، وفعلاً حدّدت لي مكانًا للقائها بعدما وعدتني أنها ستساعدني في العثور على منزل يؤويني أنا وأخي وعائلته، ذاك المكان كان مستوصف تعرفت إليه، وبعدما وصلت هاتفتها وأخبرتني أنها ستصل بعد خمس دقائق، لكنها لم تصل بل وصلت سيارة "فان" المداهمات واعتقلتني مع زوجة أخي.

حاولت أن أنقذ زوجة أخي، وقلت لهم أن لا علاقة لها وإنها حامل، فأجابني أحدهم بسخرية: "نحنا منولدها"، وفتح عنصر آخر الباب وكان ضخم الجثة ويضع قبعة من القش على رأسه ويلبس لباسًا عسكريًا، وهو لباس كان مخصصًا لعناصر الدفاع الوطني وسأل: "من منكما شمس الدمشقية؟"، فأجبته: "أنا"، فقال لي: "يا بنت الحرام حفينا وراكِ منذ سنتين ونحن نلاحقك"، وأضاف: "هل تعرفين القانون الجديد الذي أصدره سيادة الرئيس بشار الأسد"، فأجبته: "لا أعرفه"، فأردف قائلاً: "عشرة أشخاص سيشرفون على اغتصابك يا شمس"، وأغلق باب "الفان" وقال لهم: "خذوها إلى الفرع". أغمضوا أعيننا ومضوا بنا وسط بكاء زوجة أخي التي كان بكاؤها يزيد الحرقة في قلبي وخاصة عندما كانت تنظر إلي وتقول: "أنا لا ذنب لي"، وقلقي لأن حقيبتي آنذاك كانت تحتوي على "فلاشات" وختم الجمعية وهواتفي.

وخلال الطريق كان العنصر الذي يجلس بجانبي يضع يده على رجلي وأنا أقوم بإزاحتها، ويوجهون لنا شتائم وسخة "يا بنات الشر.. يا منا.. "، كلامهم كان مزعجًا جدًّا فأنا لم أكن متعوّدة على سماعه من أحد طوال حياتي.

الأمن العسكري فرع 215

داخل الفرع أخذوا مني جميع أغراضي الشخصية ووضعوها كأمانات؛ حينها كان موعد انتخابات بشار الأسد، سألني أحد العناصر إذا انتخبت بشارالأسد بعد أن وجه نظره إلى إصبعي، أجبته بالنفي فصفعني على وجهي وأغمي عليّ فورًا، بعدها طلبت من زوجة أخي أن تخبر أبي أنني سأموت حتمًا لذلك يجب أن يهتمّ بأطفالي؛ صفعة واحدة كانت كفيلة بأن أغيب عن الوعي، وعند استيقاظي كانت الدماء تنزف في أذني

من جرّاء الصفعة، وقد أحضروا لي كومبيوتر وطلبوا مني أن أفتح جميع حساباتي على مواقع التواصل بالإضافة إلى "الإيميل"، وكلما رفضت كنت أضرب على رأسي، قرّروا بعد امتناعي عن ذلك، أن يتواصل معي أحدهم بطريقة لطيفة، وبدأ بإقناعي بأننا سوية يجب أن ندخل إلى حسابي ونتواصل مع الشباب الذين أعرفهم لأوقع بهم، هنا بدأت بالبكاء والصراخ وانهالوا عليّ بالضرب المبرح أمام زوجة أخي، وكان العنصر أنس يقول لي باستمرار: "بس تروحي لعند الله تبعك قوليلو بعتني لعندك المهندس أنس". ثم وضعونا وراء باب ووجّهونا إلى الحائط، حاولت التواصل مع زوجة أخي التي كانت تبكي وتقول: "أريد أن أخرج من هنا"، لطمأنتها بأنها ستخرج، وطلبت منها أن تتحدث إلى أبي ليسامحني ويستخرج لي شهادة وفاة، وأن تقول له إن أولادي أمانة عنده، كنت أشعر بالذنب تجاهه وتجاه أعمامي الذين سيوجهون اللوم له جراء تساهله بشأن عملي، صرخ العنصر أنس وقطع حديثنا، ثم جرّ زوجة أخي وقال لها: "شو عم تقلك هي القحبة"، وعلمت لاحقًا أنه حقق معها وسألها عني وعن زوجي لكنها لم تتكلم بشيء، فأفرجوا عنها في اليوم نفسه، لكنها بقيت صامتة خمسة عشر يومًا بعد خروجها.ثم أخذوني إلى صالة كبيرة فيها خمسة وعشرون شابًّا تتراوح أعمار معظمهم بين ستة عشر عامًا وسبعة عشر عامًا، وأكبرهم لم يتجاوز خمسة وعشرين عامًا، وجوههم للحائط وهم معصوبو الأعين وعراة إلا من اللباس الداخلي، يُسحبون إلى التحقيق واحدًا تلو الآخر، وكنت أسمع أصوات تعذيبهم، مجموعة منهم استشهدوا تحت التعذيب، تقريبًا ستة أشخاص. كانوا يعذبونهم بالكهرباء، حيث كانت أصوات صرخاتهم تعلو ويتردد صداها في الصالة، مع صوت ذلك العنصر الذي كان يضربهم خلال مشيه جيئة وذهابًا إلى الباب.

لم يكن هناك أماكن للجلوس سوى كنبة واحدة كانت بقربي، وأخفيت بين ثناياها 200$ كنت قد وضعتها داخل صدريتي لأجار المنزل، وداخل الصالة غرفة صغيرة للتعذيب، يدخل كلّ شخص إليها تقريبًا نصف ساعة ليعذبوه، وكنت أتخيل طوال الوقت أنني التالية، وأنني سأدخل وأموت مثل البقية، خاصة عندما أسمع صوت عسكري التعذيب يقول: "شيل هالكلب فطس لفو واحملوه من هون"، حتى الآن كلما تذكرت أصوات تعذيبهم بالكهرباء أرجف، لقد استمر التعذيب من السادسة مساءً حتى العاشرة ليلاً، كنت خلالها أتلو القرآن.

لم تكن تلك أكبر مخاوفي، فبعد وقت قليل أخذوني إلى غرفة صغيرة، ودخل إليّ رجل متقدم في السن، وطلب مني أن أخلع ثيابي، هنا انهرت من البكاء، ورجوته أن يعدل عن طلبه، لكنّه هدّدني بالصعق بواسطة عصًا كهربائية كان يحملها، وقبله هدّدني أنس بالإحراق والاغتصاب، واضطررت لأن أنزع جميع ثيابي، وبدأ بتفتيشي وكان يطلب مني أن أجلس القرفصاء وأنحني، تلمّس صدري وتحرّش بي بحجة تفتيشي، وأنا أرجوه وأقول له: "ليش هيك عم تعمل؟!" وكان رده: "بركي حاطة برحمك شي دولار!".

بعدها ارتديت ملابسي وأنا أبكي، فسألني العنصر الذي أرسلوه ليأخذني إلى الطابق السادس "شو بتشتغلي دعارة؟" فقلت له: "عيب تحكي معي هيك"، فأجابني: "كلكن هيك بتعملوا شرفاء قدامنا"، لم أردّ عليه واستمرينا بالمشي.

في الطابق السادس كان هناك غرف كثيرة فيها أجهزة اتصالات، وثلاث غرف للتحقيق، أخذني إلى إحداها وقال قرب باب حديدي كبير: "أبو علي فتاح"، كان منظر الرجل الذي فتح الباب مخيفًا جدًّا، وظننت أنها غرفة التعذيب فصرخت وقلت للعنصر: "أرجوك لا تتركني هنا"، لكنه طلب مني الاطمئنان، ثم أدخلوني إلى غرفة شاهدت فيها عشرين فتاة، فارتحت قليلاً. كان اسم الغرفة "13"، عندما دخلت إلى غرفة انهالت عليّ أسئلة الفتيات عن سبب اعتقالي لكنني لم أجبهنّ، وجلست بجانب امرأة مريحة الوجه، وبدأت بالبكاء وسألتها: "هل سيغتصبونني؟" قالت: "لا، لن يفعلوا لا تخافي"، لكنني لم أستطع التوقّف عن البكاء والدعاء، وقامت الفتيات بتنبيهي إذا أردت الوضوء والصلاة فيجب أن لا أقول ذلك أمام السجان، وانتظرت دورنا إلى الحمام وتوضأت وصليت، وسمعت اسمي مرة أخرى، حيث تمّ استدعائي للتحقيق في غرفة عميد الفرع؛ أعتقد أن اسمه ح. د.

كان جالسًا وراء طاولة كبيرة، ومحاطًا بستة عناصر من الشبيحة ومحقق، بعدما نسخوا جميع رسائلي الإلكترونية وسألني الشخص الجالس وراء الطاولة: "شو يا شمس الدمشقية؟"، فحاولت أن أنكر معرفتي بأي شيء بناء على توصية الفتيات، لكنه استوقفني وقال: "لا لا، أوعي تفتحي تمك، هادا ملفك شوفيه، وأنا مدلعك شمس الشمسوسة، وناصبلك الكمين من زمان"، وكان اسم الملف الخاص بي مكتوب عليه "شمس الدمشقية شمس الشموسة"، وبدأ العميد بغناء أغدًا ألقاك لأم كلثوم، طبعًا لم أستطع الرد، وعندما توقف عن الغناء أخبرني أنهم أنهوا دراسة عني واكتشفوا أنني قبيسية وهابية سلفية وحثالة، وأرفق جملته بشتائم " يا كلبة يا شرموطة، إيري بكل جوامع البلد واحد واحد، أنتِ مين مفكرة حالك، عم تعملي ضد الدولة، وأنت مجرد حثالة"

بدأ بالاستجواب بعدما وضعوا لي كرسيًّا وسط الغرفة وإلى جانبي أنس، وكان يضربني كلما وجه إليّ العميد سؤالاً، بعد أن بدأ يعرض أمامي أخبارًا كنت قد نشرتها ومحادثات أجريتها على وسائل التواصل، ويسألني عن كلّ شخص ورد بيني وبينه رسائل، وكنت أنكر معرفتي بأسمائهم إلى أن قام العميد من وراء مكتبه وأمسك رأسي بعنف وقال: "سأخنقك يا بنت الحرام إذا لم تقولي لي من هم الشباب الذين كنت تعملين معهم ومكان تواجدهم"، لكن أنس لم يترك لي مجالاً للرد وهو يضربني ويصيح: "احكي يا شرموطة"، ثم أحضر عصًا مليئة بالمسامير وبدأ يضربني بقوة على يدي اللتين انتفختا فورًا، لكنني لم أصرخ لأن العميد كان يتلذذ بصراخي ويقول لي: "وعم تتأوهي كمان فات فيكِ"، إلى أن انهارت قواي وبدأت بالصراخ وحاولت إبعاد العصا عني، لكنني جرحت يدي فطلب العميد أن أُترك رغم أن العنصر طلب إذنه ليقتلني، كان كابوسًا تمنت أن أستيقظ منه، وكانت صورة أبي ترافقني دائمًا، أعادوني إلى الواقع بعد سؤالهم عن شاب عرفته من خلال التنسيقيات، كان اسمه أبو جعفر المنصور، طلبوا مني أن أخبرهم عن اسمه الحقيقي وأين هو، أخبرتهم أنه أحمد العلي، وأنه استشهد. وهنا هجم علي وضربني بقوّة شديدة جدًّا وقال لي: "قولي فطس فطس"، استمرّ التعذيب أكثر من أربع ساعات متواصلة، أغمي علي خلالها مرة واحدة وصحوت جراء ضربي بالكف، وأحمد الله أني لم أعترف على أيّ شاب، ثم أعادوني إلى الغرفة.

عادت أسئلة الفتيات عما حصل معي، لكنني لم أجب وجلست في زاوية الغرفة، رفضت الطعام والشراب لمدة ثمانية أيام، وخلال هذه الفترة تخيلت ابني محمد؛ دخل إليّ حاملاً الخبز كعادته ونادى: "ماما"، أجبته بصوت عالٍ: "ماما حبيبي"، فالتفت الجميع إليّ وظنوا أني جننت، وبدأت بالصراخ: "لماذا أغلقتم الباب؟ أريد ابني". فسكبوا على وجهي الماء وأخبروني بما فعلت، ولاحقًا بعد إطلاق سراحي علمت أن ابني محمد كان متأثرًا جدًّا بغيابي، وكان يجلس مكان جلوسي، وينام في نفس المكان الذي كنت أنام فيه، وأنه حبس نفسه في غرفة أولى أيام اعتقالي، ورفض الطعام والشراب واللعب مع أصدقائه.

في احدى المرات اقتربت مني سيدة من كفرنبودة في ريف حماة، وأخبرتني أنهم سيأخذونني مرة ثانية إلى التحقيق، وطلبت مني أن انتبه إلى أجوبتي وأن لا أخبرهم بأسماء الشباب الذين أعرفهم، وفعلاً بعد ثمانية أيام تم استدعائي مرة ثانية، وكان العميد والعنصر أنس مرة أخرى، وعادت معاناتي مع الضرب والغياب عن الوعي، وكلما سألوني عن شيء كنت أقول لهم: "أن أحمد هو المسؤول"، لأنه استشهد ولن يستطيعوا الوصول إليه. وفي إحدى المرات سألوني عن اسم شخص يعمل معي في الجمعية، وكان هو قد أخبرني سابقًا أنهم يعرفونه، وأني أستطيع أن أعطيهم اسمه في حال اعتقلت، وبالرغم من ذلك طلبت منه السماح بعد أن خرجت لأني ذكرت اسمه في الفرع فرد عليّ: "عادي هم يعرفونني من زمان".

وبعد أن أتممت عشرة أيام أخبرني العميد أن ملفي قد أغلق، وأنني سأبقى عامين في الفرع وسأمضي ما تبقى من حياتي في السجن المؤبد؛ بكيت كثيرًا ورجوته لأنني أريد أولادي، لكنه اشترط أن أركب السيارة معه وأسلمه من أعرف من الشباب والصبايا الذين تعاملت معهم، وبعدما رفضت أكدّ لي أنني لن أخرج، ومع ذلك شعرت بالراحة بعد إغلاق ملفي، وأقنعت نفسي بضرورة التأقلم مع الوضع، وقسمت جزءً من بطانية لأنام عليها واستخدمت معطفي كوسادة وعدت لتناول الطعام والشراب، وبدأت أقرأ الكتابات على جدران الغرفة "13" ووجدت عليه أسماء مروة عرنوس وفاتن رجب ودعاء المحمد وكتبت اسمي أنا أيضًا وبعض المعلومات عني، منى بركة شمس الدمشقية عضوة في اتحاد تنسيقيات الثورة – المكتب الإعلامي وعضوة في لجنة حقوق الإنسان، وبعد مرور شهرين كاملين أصبحت أنا أقدم المعتقلات أساعد الفتيات الجديدات وأخبرهنّ عن طبيعة التحقيق وصرت محبوبة من الجميع.

كانوا يسمحون لنا بالحمام كلّ عشرين يومًا، وكنّا نهتم بنظافة الغرفة ونمسح بلاطها، وكنا نستعمل القصعة المخصصة للطعام لغسل ثيابنا وللتنظيف، كما كنا نتناوب فيما بيننا كي نمنع دخول الجرذان والفئران والصراصير عبر فراغ أسفل باب غرفتنا، وخلال رمضان بقيتُ أيامًا أصوم ولا أفطر بسبب الصراصير وتطفلها على طعامنا الذي كنا نضعه جانبًا حتى يحين موعد الإفطار، ولكن في حالات الجوع الشديد كنا نضطر لإزاحة الصرصور والأكل. كانوا يقدمون لنا خبزًا وبعض حبات الزيتون، وأحياناً قليلاً من اللبن في الصباح، وبعض البطاطا أو البرغل وحساء العدس مساءً، وأحياناً لتجنب هبوط السكر في أجسامنا يقدّمون لنا قليلاً من المربّى.

في إحدى الغرف القريبة من غرفتنا، كان هناك شباب معتقلون منذ بداية الثورة، وكان فيها أيضًا بعض التونسيين، وكنا نشاهدهم من خلال الطاقة المطلة على الممرّ، وهم عبارة عن هياكل عظمية، كانوا يجرّون أنفسهم جرًّا، ويتكّؤون على بعضهم البعض ليستطيعوا المشي، وكان المبنى الذي يحوي غرفة التعذيب بعيدًا عنا مسافة ثلاث دقائق مشيًا، وبالرغم من ذلك كنّا نسمع صراخهم أثناء التعذيب طوال الليل، وفي كثير من الأحيان كنا نضرب روؤسنا في الجدار ونقول: "يا ريت نحن ولا هم"، وأذكر في إحدى المرّات أنّي مرضت كثيرًا وآلمني ضرسي، فأخذوني إلى مدير السجن، قابلت حينها أحدهم فسألته بعد أن تأكدت من خلو الغرفة من الكاميرات: "هل أنت سجين مثلنا؟" فأجاب: "نعم، وتذكري اسمي عندما تخرجين، أنا رامي حقي طبيب تخدير من حمص، اعتقلوني وأنا مغادر إلى لبنان"، وفي إحدى المرّات تذرّعت حين أصابتني حساسية من البطانيات، لأسأل الشاب نفسه عن أسماء المعتقلين عسى أن أسمع شيئًا عن زوجي وأقاربي، لكنه خاف وطلب مني أن لا أتحدث معه أبدًا وأن أتصرّف وكأنّي لا أعرفه كي لا أسبب له ولي أي مشكلة.

إلى سجن عدرا

بعد شهرين تم تحويلي إلى القضاء العسكري في المزة، بقينا حتى الساعة الرابعة بعد الظهر، وبعدها أخذونا إلى مخفر ركن الدين، وحشرونا في غرفة صغيرة جداً مع مجموعة من الفتيات. لم نكن نستطيع الجلوس إلا بعد ثني أرجلنا، وبقيت فيها لمدة يومين، ثم حوّلونا إلى عدرا في شهر آب، والتقيت هناك بالكثير من البنات اللواتي رحبن بي وأخبرنني أن هذا السجن أهون من الفرع، وأن بإمكاني أن أشرب القهوة، فقد عرفن مني سابقًا أني أحبّها.

بعد عشرين يومًا من وصولي سمحوا لي أن اتصل بأهلي، ولم أكن أعلم بمن سأتصل، فأنا لا أحفظ الأرقام، إلى أن وجدت رقم ابن عمي في دفتر الأذكار الموجود في حقيبتي، فتحدّثت معه وسألته عن أولادي وأبي وأمي وأخبرته عن مكاني، بعد هذه المدة حوّلوني إلى المحكمة، وبقيت في الجناح الخامس أي جناح الإيداع، وهنا استطعت أن أتنفس وأتأمل. إلى أن جاء المحامي الذي وكّله أهلي وأخبرني أنني إذا خرجت خلال عامين سيكون هذا جيدًا جدًّا لأنّ ملفي كبير، وهو العمل مع جمعية خيرية تدعم الإرهابيين، فالإغاثة بالنسبة لهم هي تمويل أعمال إرهابية، وتمويل المعلومات يعني لهم التواصل مع الثوار، حمدت الله وحاولت التأقلم مع الوضع، وكنت أقرأ القرآن كثيرًا، ولكني كنت معظم الأحيان وحيدة، فالبيئة كانت مخيفة جدًّا، ومن تكون صديقة اليوم، تشي بكِ وتنقل أخبارك في اليوم الثاني لعميد السجن، وبدوره ينقلها للفرع.

في إحدى المرات أخبرت إحدى المعتقلات عن عملي ورغبتي في فضح التعذيب وجميع الانتهاكات حين أخرج، وعندما كنّا نسمع أصوات القصف والمعارك بين النظام والجيش الحرّ، وكانت الآر بي جي تقصف من وراء السجن، كنت أدعو الله لينصر الجيش الحرّ، لكني بدأت أشعر بتغير في سلوكها، وإذ بمشرفة الجناح، وكانوا يختارونها من أوسخ البنات المتهمات بالدعارة أو المخدرات، تدخل وتقول لي: "ليكي يا منى جيش الخرا بتحكي عنو برا مو بالسجن عنا" فسألتها عن قصدها وأجابت اليوم ستعرفين ماذا أقصد، وفي المساء

صرخ عميد السجن باسمي وهو يدق على بابنا، فخرجت مستفسرة عن ما يريده مني، لكنه بدأ بضربي بعصا كان يحملها وهو يقول: "ليكي جيش الخرا تبعك ما بتحكي عنو هون، وإذا ما بتقصي لسانك أنا بقصوا بالأمن السياسي، ودعواتك علينا منحطها بسفل رجلنا"، أدركت حينها تنبيهًا وجهته لي إحدى المعتقلات قبل أن تخرج بأن هناك واشيات بيننا، بالإضافة إلى أن بعضهن إن استحلت أي شيء من أغراضنا ولم تحصل عليه فإنها تلفق لصاحبتها أي تهمة وتشي بها، في إحدى المرات ضُربت أمامنا معتقلة بعد أن لفقت لها معتقلة أخرى تهمة ووشت بها.

بعد ذلك اعتزلتُ البنات، لأني لا أريد أن أعاقب بالضرب، أو بالرمي في منفردة، أو بوضعي داخل القبو المخيف الذي ماتت فيه فتاة تدعى نجلاء عمرها عشرون عامًا فقط، توفيت بعد معاناة من مرض السلّ، حيث بقيت تصرخ، وبقيت دون طعام أو شراب مدة خمسة عشر يومًا إلى أن ماتت، وقبل أن توضع في القبو، وضعوها في منفردة كإيداع، بعد أن حلقوا شعرها في المشفى العسكري، وأخبروا إدارة السجن أنها ستموت قريبًا بسبب المرض، لكنّ بعض المعتقلات تذمرن من وجودها قريبة منا خشية أن يصبن بالسل، فرماها عميد السجن في منفردة في القبو المخيف، وكنا نسمع ليلاً مواء القطط وصرير الرياح وكأنّه مسكون بأشباح، وكانت تتقيأ دمًا ولا تستطيع الحراك، كنّا نراها ونواسيها من باحة السجن المطلّة على غرفتها، إلى أن منعنا العميد من ذلك، وعندما لم نعد نسمع صراخها أخبرنا العميد وعرف الجميع أنها ماتت، وهنا دخل العميد إلى غرفتنا وأخبرنا أن إخلاء سبيل نجلاء قد صدر، فقلت بيني وبين نفسي: "يا ابن الحرام، أخليتم سبيلها عندما ماتت".

بعد شهرين وعشرين يومًا تم تحويلي إلى محكمة الإرهاب، حيث جلسنا تحت درج المحكمة في غرفة صغيرة مساحتها لا تتجاوز المتر المربع، وبمقابلنا صف من الشباب مقيدين بالجنازير، كلما انزعج منهم العنصر أو خرج أحدهم عن الصف، يضرب الجنزير بالكهرباء حتى تصل إلى جميع المعتقلين، هذا العنصر اسمه أبو حيدر لم ينفكّ عن سؤالنا إذا كنا نريد استخدام الحمّام، لكننا لم نتجاوب، لأنه كان يتحرّش بالفتيات عندما يدخلنَ إلى الحمّام، كنّا فرجة للنّاس ونحن بثوب الجزاء مقيدات بالجنازير، وعندما سمعت اسمي سألني القاضي، وهو القاضي السابع، ماذا يمكن أن أفعل بعد كلّ ما فعلته، فأنكرت كلّ شيء، وطلب مني أن أوقع على ورقة إيقاف، طلبت منه الرأفة بي وصرخت بجنون طلبًا لرؤية أولادي، لكنه أجبرني على التوقيع، ولم أستطع التوقف عن البكاء حتى بكى كل من سمعني، وأوصيت إحداهنّ بعد أن أخبرها القاضي بأنها "ترك" أي أطلق سراحها، أن تُخبر أهلي بأني أحتاج إلى ملابس فأنا لم يكن لدي شيء في السجن، رغم أنهم كانوا يزورونني، لكنهم لم يُحضروا لي شيئًا، وكانوا يقولون لي: "لا حاجة لكِ بها، فنحن نعمل على إخراجك من السجن"، لكنّ الشتاء أتى وكنت أتغطّى بمعطفي، وأنام تحت التخت لأنّ الحصول على بطانية لم يكن متاحًا لي في كلّ الأوقات.

حوّلوني إلى جناح الإيقاف في سجن عدرا، وأصبحت أنا وإحدى المعتقلات وتدعى هنادي أصدقاء، كنا نأكل سوية وننام على بطانية واحدة، إلى أن فرّق العميد بيننا، ووضع كل واحدة منّا في غرفة بسبب دسيسة من بعضهن.

كانت إحداهنّ، وتدعى هنادي أيضًا ومن القدم، موقنةً أنها ستخرج بهدنة، وبالفعل عندما فاوض النظام على القدم طالب الشباب بالإفراج عن المعتقلات، فخرج ست معتقلات من أصل خمس وثلاثين معتقلة، كنت أنا وهنادي من بين من خرجنَ، بعد شهر وعشرين يومًا بجناح الإيقاف، صرخت من الفرح عندما قال لي السجان أن أجهز نفسي للعودة إلى البيت، والطريق لم يكن سهلاً، فعلى كل حاجز كانت الكلاب تصعد إلينا لتشمنّا إن كنا نحمل أي شيء مخدّر، إلى أن وصلنا إلى الفرع 48 - فرع أمن الدولة، وجلسنا في القبو مدة ساعة ونصف، ظننا حينها أننا لن نخرج مطلقًا، إلى أن طُلب منا التوقيع على تعهّد بعدم ممارسة أعمال إرهابيّة، وأخبرنا عميد من فرع فلسطين أن بشار الأسد وقع على إخلاء سبيلي أنا وهنادي، وأننا سنذهب إلى المحافظة وسيكون هناك تصوير وستحضر لجنة من الحيّ لاستلامنا.

كانت المحافظة دائرة حكومية كبيرة، أدخلونا إلى صالة كبيرة في داخلها ضباط كثر، بالإضافة إلى مجموعة رجال من القدم حضروا لاستلامنا وأعطوني ورقة تفيد بأنه يجب علي مراجعة مبنى 123– فرع فلسطين بمنطقة القزّاز، فسألتهم: "ما هي هذه الورقة؟"، فأجاب أحدهم: "إنه إجراء روتيني"، فقلت له أمام الجميع: "وما هي الضمانات بأنكم لن تعتقلوني مجدّدًا؟!" ولكن اللجنة التي أتت لاستلامنا طمأنتني، وأوصلونا إلى محطة القدم، وكان عمّي بانتظاري، خفت كثيرًا من أن يقتلني لكنه أخذني إلى بيت أختي القريب، وكان خلال الطريق يقول لي: إنه كان يتمنّى لو كنت أكثر حذرًا ، فقلت له وأنا أبكي: "يعني لن تذبحني؟!" فتفاجأ كثيرًا وقال لي: "لماذا أذبحك؟"، فأضفت وطلبت منه أن يصارحني وسألته مجددًا: "هل ستقوم بتقييدي وتمنعني من الخروج؟"، فأجابني: "الذي فعلته أنتِ، لم أستطع أنا فعله، أنتِ رفعتِ رأسنا، لقد أخبرنا الناس بما كنتِ تفعلينه، أنا كنت أول واحد سأذبحك لكن بعد الذي سمعته عنك ممن كانوا يعملون معك، أقول لكِ إنّك رفعتِ رأسنا"، ثم قام بضمّي وقبّلني وقال لي: "لقد فعلتُ المستحيل لكي تخرجي من السجن".

بعد يومين، وبسبب إلحاح اللجنة وإعطائي تطمينات بأنه لن يتم اعتقالي مجددًا بسبب الهدنة، صليت ركعتين وذهبت مع أمي إلى فرع فلسطين، لكنهم لم يسمحوا لها بالدخول معي، رحّبوا بي وطلبوا مني بشكل مباشر أن أتعامل معهم وأن أتجند لصالحهم، وأسلمهم أسماء الشباب الذين أعرفهم، وطلبوا مني شراء خط هاتفي كي يتابعوني ويعرفوا مكاني وحذّروني من إعلام أي شخص بالأمر، فأخبرتهم بأني سأفكر في الموضوع، وعندما عدت إلى بيتي أخبرت أبي وقرّر أنه يجب عليّ السفر، فانتقلت مع أولادي من دمشق إلى حماة في نهاية الشهر الخامس من عام 2015، بعد أن كسرت الشريحة الهاتفية التي اشتريتها للتواصل معهم ورميتها بعيدًا، وبعد حوالي عشرة أيام توجهت إلى إدلب ثم وصلت إلى تركيا عن طريق مسؤول تركي "قائم مقام" ساعدني دون مقابل.

وصلت إلى تركيا دون زوجي الذي اختفى عندما دخل منطقة القدم في الشهر السابع من عام 2012، مع سبعة من الشباب وتم اعتقالهم من قبل الفرقة الأولى، كان ذاهبًا ليجلب بعض الأشياء من منزلنا بعد أن تهجّرنا ولم يعد، في تلك الفترة كان العناصر على الحواجز يعتقلون كل رجل مذكور في هويته أنه من القدم، أما إذا كانت امرأة فإنهم كانوا يتشدّدون في التدقيق عليها، وقد عُرِف عن منطقة القدم أنها "أعدمت ميدانيًّا"، لأن الكثير من الشباب كانوا يعتقلون على الحواجز ويتم إعدامهم وترمي جثثهم في الحي. لقد استشهد العديد من أقاربي في المعارك وبعضهم كانوا في درعا، وحاول ابن عمتي الذي كان هناك أن يقوم بتسوية مع النظام لكنهم اخذوه واختفى.

أقمت حين وصولي إلى تركيا في دار أيتام، وبقيت فيها حوالي شهرين، كنت خلالها أبحث يوميًّا عن عمل، وللأسف لم يساعدني أحد، ومن ضمنهم المنظمات التي كنت أعمل معها سابقًا، إلى أن عملت سكرتيرة في عيادة طبيب أسنان، وكنت أقوم بتنظيف العيادة والمعدّات، فطلب مني القيّمون على الدار الخروج منها بعد أن وجدت عملاً، فاستأجرت بيتًا وسكنت فيه مع أولادي وكان فارغاً من كل شيء، وبعد عشرين يومًا تعرّض ابني لحادث سير، دهسته سيارة وبقي في السرير يتعالج أربعة أشهر، بعد أن تم تركيب أسياخ في رجله، وتعذّبت بين عملي وحادثة ابني، ثمّ عملت متطوعة مع إحدى المنظمات، وبعد ستّة أشهر حصلت على أجر فتركت عملي في عيادة الطبيب، وبالتدريج بدأت أكوّن نفسي وأشتري أغراضًا للبيت، وافتتحت مكتبًا للإغاثة بعد أن أرسل لي الشباب الذين كنت أعمل معهم مبلغ ألفي دولار أميركي، وعملت بشكل تطوّعي وبالتوازي مع عمل المكتب مع عدد من المنظمات، وأسند وضعي المالي من خلال بطاقة الهلال الأحمر.

لقد خرجت من هذه التجارب ومن تجربة الاعتقال أقوى، كنت أثق بالناس لكنهم أصبحوا بالنسبة لي الآن محطات، باستثناء الأشخاص الأساسيين في حياتي، كنت عاطفية ومندفعة والآن أصبحت أكثر اتّزانًا، واعتمدت على نفسي أكثر، لكنني اكتسبت مزيدًا من العصبية، وما زلت أنشط كمتطوعة في مجال الإغاثة، وأعمل وأكدح لأعيل نفسي وأولادي، ولا فضل لأحد عليّ. تعلّمت الكثير خلال وجودي في تركيا، بدأت من الصفر عدة مرات ولم أستسلم، وقد كُرّمت قبل فترة من الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة، وكُرّمت أيضًا في مؤتمر حضرته مع خمس ناشطات من قبل حركة ضمير، ورسالتي دائمًا لكلّ معتقلة وامرأة بأن لا تضعف.

لا أعتقد أن تجربة الاعتقال بين الرجل والمرأة تختلف، فالبعض عاد أقوى بعد الاعتقال، والعديد من المعتقلات اللواتي لم يكن ينشطن قبل اعتقالهن ينشطن الآن، أمّا بعض المعتقلين فقد خرجوا مع عقد نفسية نتيجة تعرضهم لاغتصاب، زوج إحدى صديقاتنا ما زالت آثار الشبح على يده حتى الآن، رغم أنه خرج من السجن منذ عام 2013، وتقول لي زوجته إن عضوه الذكري كان لونه أسود من شدة الضرب عليه، وإنه امتنع لفترة طويلة عن إقامة علاقة جنسية معها، لأنه كان ينظر لها بقرف، فهما كانا معتقلَين، وكانت دائمًا تقول لي إنها غير مرئية بالنسبة له، وعندما كانت تضع المكياج كان يقول لها: "أزيليه ما هذا القرف؟!"

وكانت تُخبرني أنها أخذته للعلاج في مراكز نفسية حتى تحسن الآن، وتمكّن حديثًا من معاودة نشاطه الجنسي.

لم أتلقَ أي دعم نفسيّ، رغم أني بقيت فترة طويلة بعد خروجي من المعتقل، أسمع صراخ المعتقلين تحت التعذيب، وكثيرًا ما يخبرني أولادي أنني أتحدث خلال نومي، وكثيرًا ما أستيقظ فجأة وألهث، وأحيانًا أحلم أن الأمن يلاحقني وأنا أهرب منهم، وقد سألت طبيبًا نفسيًّا عن ذلك، فأخبرني أنها قد تكون آثارًا نفسية أو صدمات قديمة، تظهر بعد فترة من الزمن، إما على شكل كوابيس أو آلام في البطن أو غير ذلك.

العلاقة مع الأسرة والمجتمع

لا أتواصل إلا مع أبي وأمي، وبقية أفراد العائلة غير راضين عن سفري بحجة أني سيدة وحيدة، وإلى اليوم يلومون أبي لأنه سمح بسفري، وقد مرض وأجرى عملية جراحية في قلبه جراء مشاحنات جرت بينه وبين إخوته بسبب سفري، رغم أنه أخبرهم أن فرع الأمن كان يطلبني، لكنهم لم يقتنعوا بذلك، وهم لا يتواصلون معي، وأنا لا يمكن أن أقوم بتسوية مع النظام، حتى بالنسبة لاعتقالي هناك من يراه إيجابيًّا، وهناك من يراه سلبيًّا، أول سؤال وجهته لي أختي بعد أن خرجت من المعتقل: "هل اقترب منك أحد؟"، ومهما أجبت ربما لن يصدقني أحد من عائلتي، لأنّ عناصر الأمن هدّدوني بالاغتصاب أمام زوجة أخي، لكن أبي قال لي: "أنتِ رفعتِ رأسنا، ويشرّفنا ما فعلته، ولا تتخيلي أنك عار علينا، وإذا لمسوكِ في المعتقل، فنحن مسلّمين بقضاء الله، وأنت لا ذنب لك في ذلك، وإن لم يلمسوكِ فالحمد لله، فمن أخرجك هو الله"، وكان هذا جوابًا منه على تلك الأسئلة.

أشعر في تركيا وكأني مقطوعة من شجرة، فالتواصل مع أهلي يتم كلّ عشرين يومًا وأحيانًا كل شهر، إما بسبب سوء الانترنت، أو بسبب خوفهم من النظام، أمي الوحيدة التي تخاطر وتتصل بي، بعد أن تحديت النظام وكسرت الشريحة الهاتفية وسافرت، وبعد سفري اتصل عنصر من فرع فلسطين بأسرتي وسأل عني، فأخبرته أختي أني قد تزوجت وسافرت، لكنه قال لها إنهم عمّموا اسمي على الحواجز.

هدفي أن يصل صوت المعتقلات وأريد أن يعرف العالم "نجلاء" التي ماتت في القبو، وسائر المعتقلين الذين رأيتهم يستشهدون تحت التعذيب.

أعمل حالياً مع الكثير من الرجال وأنسى أنني أنثى، لقد تأذّيت كثيرًا من بعض البنات، لكنّ صديقاتي يقلن لي: "إنها مسألة غيرة، ولأني اعتقلت بسبب نشاطي وليس بسبب نشاط شخص آخر، وإن الشجرة المثمرة هي التي تُضرب"، حتى عندما تم تكريمي لم أنجُ من بعضهنّ، وتلقيت منهنّ اتصالات كانت جلّها تتمحور حول لماذا أنتِ التي كُرمتِ؟ لماذا لم تتذكّرينا؟ ومن قال لكِ أن تتحدثي باسمنا، وكان ردّي بأني لم أمثّل أحدًا، وأن الجهة التي كرّمتني هي اختارتني، فهل أقول لهم لا أريد هذا التكريم!

رغم أني لا أتحدث عن قصتي لأني أعتبرها تشبه الكثير من القصص، ودخلت المعتقل بسبب عملي وليس بسبب شخص آخر، وكنت مدركة أنه قد يؤدي إلى اعتقالي، وقد يؤدي أيضًا إلى موتي، لقد واجهت الكثير

من الإساءات مع ذلك أقابل الإساءة بالإحسان، وأعلم أن طريقي صعب وأعاني من مضايقات إلا أنني لن أتراجع.

كلمة أخيرة

أخيرًا يجب أن يحاكم بشار الأسد، وأن تحاكم أجهزته الأمنية جميعها، واللجان الشعبية التي أساءت للناس، وكلّ من قصف ودمّر وأجرم، الإنصاف والعدل يتجلّى بمحاكمتهم وتعويض الناس عما عانوه خلال سنوات، خاصة النساء منهم، ونحن نحاول منذ فترة تشكيل رابطة للمعتقلات، لأننا فقدنا المعيل وبعض من تزوجن بعد الاعتقال انفصلن عن أزواجهن، وأنا منهنّ، تم طلاقي بعد شهرين من الزواج، وخسرت وظيفتي إثر الصدمة التي سبّبها لي الطلاق، فتغيّبت عن عملي مدّة أسبوع، فقاموا بطردي بعد أن قال لي أحدهم: "من قال لكِ أن تتزوجي وتطلقي؟!".

كثير من المعتقلات يتمنين الهجرة والعيش في بلد يحفظ حقوقهنّ، فحفظ حقوقنا وتعويضنا ماديًّا ومعنويًّا هو ما ينصفنا، وليس لديّ أية مشكلة في تقديم ما ذكرته للمحكمة كشاهدة ضد هذا النظام.

نور[8]*

[8] - حوار أجرته الكاتبة مع نور (اسم مستعار)، عبر (WhatsApp)، في الخامس عشر من شباط عام 2019، مدة الحوار: ساعتان.

* لوحة الغلاف: إياس جعفر

eyas-2019

أنا نور من حلب، من مواليد عام 1991، التحقت بكلية الشريعة ووصلت للسنة الثالثة قبل اعتقالي، وبعد أن خرجت من المعتقل فُصلت من الجامعة بسبب نشاطي في الثورة، كنت قبل الثورة أعمل في تعليم الأطفال في المعاهد، بحكم دراستي للشريعة، وخبرتي باللغة العربية، فقد كنت أعلمهم القرآن، وأقويهم باللغة العربية، لكنني لم أكن أنتمي لأي جماعة إسلامية، فأنا أعتقد أن هذه الجماعات تقوم بتأطير الدين وهو أوسع من ذلك.

كنت أُكرّس وقتي ونفسي تمامًا للتعليم، لا أخرج من البيت إلى لأجله، أو لأذهب إلى الجامعة، حتى إنني كنت مقصرّة في الواجبات الاجتماعية، حتى إن فكرة مشاركتي في الثورة كانت مستحيلة، ولم تخطر ببال أحد.

ارتديت الحجاب في الصف الخامس الابتدائيّ، ثم تنقّبت في الصفّ الثامن، وقد عارضت عائلتي ذلك بشدة بسبب صغر سني، عائلتي محافظة ولكنها ليست شديدة الالتزام، والتنقب برأيهم لا يجب أن يكون فورة، وإنما يجب أن يكون قرارًا شخصيًّا، وليس تأثرًا بشخص آخر، كما أنه لا ينبغي أن يُفرض فرضًا على المرأة، كما يحصل في بعض مناطق حلب، حيث النقاب ليس مرتبطًا بالالتزام الديني، أو القناعة الشخصية. لقد تنقّبت بإرادتي الشخصيّة التامّة، وليس كما ينظر المجتمع إلى بعض المنقبات، وصرت المنقبة الوحيدة في عائلتي! فأنا منذ صغري أميل كثيرًا إلى الاطلاع على المعارف الدينية، وأحب الدخول إلى المساجد. ولمّا التحقت بالثانوية الشرعية في الصف السابع اقتنعت متأثّرة بمدرساتي، ولكن لديّ الكثير من الصديقات المحجّبات وغير المحجّبات.

بداية الثورة

في بادئ الأمر كنت أحس بـ"فورة" من الحماس، متأثّرة بجوّ الجامعة والشباب وبدء المظاهرات وسماع الهتافات، فكنت أنضمّ إليهم، مع العلم بأنني كنت أعتقد أن "الرئيس" إنسان طبيب ومثقف، وقادر على قيادة البلاد، فقد تطورت البلاد في عهده.

أذكر أنني في أثناء تقديمي لامتحاناتي في دمشق، وكنت قد استأجرت مع ستّ طالبات حلبيّات شقة بمنطقة ركن الدين، انطلقت مظاهرة في إحدى الجُمعات، وشهدت بعيني إطلاق الرصاص على المتظاهرين، وموت ستة منهم، وكان ذلك مقابل منزلي تمامًا، فتأثرت كثيراً. فقد كانت لدي فكرة عن وجود عنف جسدي واعتقالات، ولكن ليس إلى هذه الدرجة. بعد ذلك تم تشييع الستة، وتمّ حظر التّجوّل ولكنهم سمحوا لنا بالخروج، نحن الحلبيات، لأنهم تعرفوا علينا من خماراتنا السوداء، بخلاف الخمارات الملوّنة في دمشق. فمدينة حلب كانت معروفة بأنها مدينة مؤيدة وتخرج فيها مسيرات مؤيدة للرئيس، وأذكر أن هذه الأحداث كانت في منتصف الشهر السابع من عام 2011.

عند رجوعي إلى حلب كنت مشحونة ومتأثرة بشكل كبير، وكنت لا أطيق سماع هتافات المسيرات المؤيدة، لأنني كنت قد اختلطت مع زميلات لي في الجامعة من مدينة درعا، وكوّنت صورة عن الرعب الذي يعشنه بسبب المداهمات والاعتقالات المتكررة بناءً على الهوية، حيث كن يلجأن أحيانا إلى منزلنا. بعد ذلك بدأت أشارك بالمظاهرات بشكل كبير، في حرم الجامعة ثم خارجها، وقد شجعني على ذلك أستاذ لي استشهد لاحقاً، وتم اعتقال الكثير من رفيقاتنا ورفاقنا، واستشهد الكثير منهم، وأذكر شابًّا كان يحمي المسيرات النسائية، وكان يدعى "أنس سموق"، وقد استشهد أمامي مباشرة، وكان ذلك في الحادي والعشرين من شهر شباط عام 2012، وهذا ما دفعني للتوجّه للعمل الإنساني وانضممت لإحدى الجمعيات الخيرية في نهاية عام 2012.

بداية العمل الإنساني

كان الكثير من النازحين يتوجهون إلى مناطق تواجد النظام، هربًا من الحرب والقصف المكثّف، مما أدى إلى وجود عدد كبير من الناس في مدينة حلب، معظمهم يحتاجون إلى مساعدة، وذلك ما تطلّب نشاط الجمعيات الصغيرة في تقديم المساعدات وتأمين الأغذية والمسكن. كان أكبر نشاط لي في مجال المساعدات الغذائية مع منظمة خاصة، ولكنّها مرخّصة ومعروفة من قبل النظام، وكان أحد شروطها الأساسية أن يتم دعم عائلات متواجدة في مناطق سيطرة النظام بالمساواة مع النازحين، وبالرغم من ذلك قامت المنظمة بإخبارنا بأننا معرضون للاعتقال بأي لحظة، وبأنها ستكون عاجزة عن مساعدتنا إذا حدث ذلك، وبأن كل واحد منا يعمل على مسؤوليته الشخصية.
بالنسبة لنا كان هذا الأمر متوقعًا بسبب حملات الاعتقال المستمرّة بين الفينة والفينة، وكانت جميع الجمعيات الموجودة معرّضة لهذا الأمر، حيث إني اعتقلت مع ثمانية عشر شخصًا، لا يعرف بعضنا بعضًا، وكنا جميعًا من منظمات حلب الإغاثية المرخّصة التي تعمل في مناطق سيطرة النظام، وكانت يتم أخذ الموافقة من النظام قبل الدخول إلى مناطق الجيش الحرّ.

الاعتقال

بحكم عملي السابق كمعلمة للأطفال كنت أتأثر كثيرًا بحالهم، ولذلك عملت مشرفة على الأيتام، كنت أساعد في استقبال الأيتام النازحين، وضمهم للأيتام الموجودين لدينا، وبعدها قُدِّم لي عرض من منظمة "اليونيسيف"، للعمل في مشروع يدعى "مساحات صغيرة"، مخصّص للأطفال الأيتام و (اللقطاء)، وكلّ ما يتعلق بمشاكل الأطفال، وكان من المفترض أن نوقّع العقد في التاسع عشر من آب عام 2014، حيث كان الاتفاق بين منظمتنا واليونيسيف قد أبرم شفويًّا، ولكن في يوم الجمعة الموافق للسادس عشر من آب عام 2014، تم اعتقال الشاب الذي يعمل معي، ولم أعلم بذلك، وأنا تم اعتقالي بعدها في صباح اليوم التالي في السابع عشر من آب عام 2014، فقد حضرت مجموعة من العساكر، إلى المبنى الذي أسكن فيه

مع عائلتي، بحجة أنهم يبحثون عن الشباب للالتحاق بالخدمة العسكرية، ولكنني عرفت أنني أنا المعنية بالموضوع، لأنهم توجهوا إلى منزلي من بين جميع منازل المبنى الذي كان بكامله ملكًا لعائلتي، وقد كنت أتوقع حدوث ذلك.

دخل العميد ورئيس قسم التحقيق بطريقة حضارية جدًّا، وقاموا بطمأنة أهلي مدعيين أنهم سيأخذونني فقط لطرح سؤال بسيط وتتم إعادتي بعد نصف ساعة، وأن بناتهما، أي العميد والمحقق، من عمري ولن يعاملوني إلا كما يعاملون بناتهما.

بعد أن سألوني عن مجموعة من الصور كانوا قد أروني إياها لمجموعة من الشباب الذين يعملون في الإغاثة والذين لم أكن أعرفهم في ذلك الوقت، ولكنني كنت خائفة ورافضة للذهاب، فأقنعوني بعد أن طلبوا مني أن أخرج وأنا أرتدي حجابي (نقابي) بشكل طبيعي، وأن أسير إلى السيارة بمفردي، لم يقوموا بتفتيش المنزل، لكنّهم أخذوا جوالي وحاسوبي الشخصي لأنهم رأوهما، ولم يتم تقييدي ولكن عندما ركبت بالسيارة، طلبا مني ألا أنظر إليهما وألا أحفظ شكلَيْهما، فقد أخبرا أهلي بأنهما من الأمن العسكري ولم يخبراني ذلك.

بقيت السيارة تتجول في جميع أنحاء المدينة لمدة ساعتين بلا هدف، فأحسست أنهم يحاولون إتاهتي، حتى لا أعلم إلى أي مكان سأذهب، ولكنهم لم يعاملوني بقسوة.

الدخول إلى الأمن العسكري بحلب

دخلنا إلى فرع الأمن العسكري بحلب، وهناك تغيّرت المعاملة تمامًا، ابتدؤوا بإزالة خماري وتفتيشي من قبل إحدى المعتقلات، ثم عُصبت عيناي وأدخلت إلى غرفة التحقيق بعنف، ثم بدأ المحقّق بضربي وصفعي على وجهي، وركلي على أرجلي، وهو يردد: "أيها المعارضون كيف تخرجون بمظاهرات ضد الدولة، أنتم تكرهون سيادة الرئيس وهو من قام بتعليمكم مجانًا، وعالجكم في مشافيه مجانًا، وأمن لكم الرفاهية!" دون أن يوجّه لي أي تهم مباشرة.

واستخدم أثناء الضرب "الأخضر الإبراهيمي" حتى إنه وضعه على رقبتي وخنقني به فكاد يغمى عليّ، بعدها أزال عصابة العينين عن وجهي وأجلسني على الأرض، ثم قام بإدخال الشاب الذي كان يعمل معي، والذي لم أكن أعلم بأنه معتقل حتى هذه اللحظة، وهو شاب صغير، كان حينها في السابعة عشر من عمره، لكنه لم يتعرف علي لأنني لم أكن أرتدي النقاب، وأنا لم أتعرف عليه من آثار الضرب، ثم بدأ يضربه ويسأله عن هويتي "مين هي؟ مين هي؟"، وكان الشاب يجيبه بأنه لا يعرفني، فأخبرت المحقق أنه لا يعرفني لأنه لم يراني بدون نقاب من قبل، فاستغرب ذلك، عرفني الشاب عندها من خلال صوتي، وأخبره أنه يعمل معي في الجمعية، بالعمل الإغاثي وحسب، فأخرجه. وبدء يتكلّم معي ويخبرني أنه لا يتمنى أن يراني بهذا الوضع، وأننا لو لم نخرج في المظاهرات، لما احتاج الأمر لأعمال الإغاثة، ولكنت الآن تتابعين حياتك بشكل طبيعي، "لو ما طلعتوا ما كان هيك صار". وكان يشير إلى الثورة بكلمة "ثورتكم".

شعرت أنهم كانوا يعاملوننا نحن الطلاب الجامعيين بطريقة مختلفة عن عامة الناس، ويستعملون معنا طرقًا أكثر عقلانية، حيث يحاولون إقناعنا بأن الثورة خاطئة وبأننا خُدعنا وتأثرنا بالمجتمع الذي حولنا، وبأننا مجرد آلة بأيديهم، بينما كنا نسمع من بقية السجينات عن طرق مثل التهديد بالاغتصاب أو التخويف على أقرباء والأبناء أو القتل، أحسست أنهم يحاولون إيصال صورة أقلّ وحشية إلينا، باعتبار أننا عندما نخرج سنتكلم عما حصل. واستمر التحقيق لمدة ساعتين تقريبًا، وكنت طيلة هذا الوقت متماسكة، لظني أني سأعود إلى البيت. حتى أخبرني المحقق أنهم سينزلونني إلى الأسفل، فقلت له: "إنك لم توجّه إلي أي تهمة، وإن العميد أخبرني بأنني سأعود بعد نصف ساعة"، فقال لي إنني سأبقى.

ظننت أنهم سيضعونني في الزنزانة المنفردة، لكنهم أدخلوني إلى غرفة فيها سبع عشرة امرأة، بين نساء وفتيات، وهناك نساء يدخلن وأخريات يخرجن، لم أكن أتحدّث كوني جديدة، لكنني كررت سؤالهن عن شيء واحد كنت أخشاه جداً وهو الاغتصاب، حيث إن هذا الأمر كان يروّعني، وحتى عندما أخبرنني بأنه لا يوجد اغتصاب، لم أصدّق، واعتقدت أنهم يحاولون تهدئتي فقط، لكن جميعهن أجمعن بأنه لا يوجد اغتصاب. لا اعتقد أن الاغتصاب يتم لمن يكونون في الغرف الجماعية.

عندما تم إخراجنا إلى المراحيض في الساعة الثامنة صباحًا وجدت هناك فتاة في مثل عمري تبكي، حاولت التحدّث إليها ومواساتها، وتحدثنا قليلاً. علمت منها أنها تعمل أيضًا في مجال الإغاثة الإنسانية، وأنّهم سألوها عنّي أثناء التحقيق معها، فأخبرتهم أنها لا تعرفني، وعرفت منها أيضًا أنهم اعتقلوا جميع الأشخاص الذين في الصور، التي أروني إيّاها وسألوني عنها، وأن تهمتنا واحدة، وهي العمل في الإغاثة الإنسانية.

في اليوم التالي بدأت التحقيقات، وكانت أول تهمة وجهت إلي هي التظاهر، ولكنني أنكرتها تمامًا، حتى لا أضطر لذكر أسماء من كانوا معي في التظاهر، رغم علمي بوجود عفو عن المتظاهرين بسبب الانتخابات.

في كل تحقيق كانت التهم الموجّه ترتفع بناءً على اعترافات المعتقلين الثمانية عشر الذين في القضية، وهم خمس فتيات وثلاثة عشر شابًا، بدءًا من التظاهر مرورًا بتوزيع الأدوية وتهريبها والعمل الطبي والمشافي الميدانية، ووصولاً إلى تفجير الحواجز، ولكنني لم أعترف برغم العنف والضرب، وأصررت على أني لن أعترف بأي شيء لم أقم به، وبعد خمسة وأربعين يومًا على هذا الحال أُخبرت أنا وزميلاتي الأربع أننا سنخرج إلى بيوتنا، وقال لي المحقّق شخصيًّا إن قضيتي نظيفة وسأخرج، بعدها ركبنا في حافلة، البنات الخمس والشبّان الثلاثة عشر، ونحن مكبلون ومعصوبو الأعين ومطأطئو الرؤوس داخل الحافلة.

الرحلة إلى فرع فلسطين

كانت المعاملة بغاية القسوة داخل الحافلة، حيث جلس بين كل مقعدين عسكري، وتعرضنا لكلام بذيء وتحرّش لفظي، من قبل العساكر الموجودين، وخصوصًا للإناث هدفها إذلال الشباب المعتقلين، والدوس على حميتهم وإشعارهم بأنهم عاجزون عن فعل أي شيء لمساعدتنا.

وكنت أسمع أصوات الشباب، يئنون ويبكون عندما يوجّه إلينا هذا الكلام. وأذكر أن أحد العناصر سألني عن دراستي، فأجبت بأنها الشريعة، فقال لي: "ماذا تعرفين عن جهاد النكاح؟ أهذا جهاد النكاح الذي تتعلمونه؟ فأجبته بأنه لا يوجد شيء اسمه جهاد النكاح. بعدها قال لي إنهم من فرع فلسطين. فلم أستطع تمالك نفسي من الفزع وصرخت: "لماذا تأخذوننا لفرع فلسطين"، فغضب أحد الجالسين في الأمام، يبدو أنه المسؤول عنهم، وقال لي: "اخرسي"، وعاد إلى شتمي بكل ما يعتادون استعماله من كلمات بذيئة "يا ... يا ... يا ...".

فرع فلسطين

بعد أن وصلنا إلى فرع فلسطين في دمشق، و"استلمونا" كما جرت العادة، وضعنا نحن البنات في غرفة، واقتادوا الشباب إلى التعذيب، وقد عرفنا ذلك من أصوات الصراخ التي كنا نسمعها في نهاية الأدراج التي أنزلوهم عليها، وعندما أعادوهم إلى الغرفة كانوا "غير وجوه"، أي أن وجوههم قد تغيّرت من التعذيب والدماء، وكان أحدهم فاقدًا للوعي، وبعدها قمنا بتسليم أماناتنا وكانت هذه آخر مرة نجتمع نحن أصحاب هذه القضية.

تُركنا نحن البنات الخمس في غرفة لما يقارب النصف ساعة، وبعدها تم فرز كل واحدة إلى غرفة مختلفة من الزنزانات الخمس الموجودة، ما عدا أنا وصديقتي تصادفنا في غرفة واحدة، ولم نرَ الأخريات مرة أخرى.

عندما دخلنا إلى الزنزانة، كان أول سؤال نوجّهه للسجينات الموجودات، هو عن الاغتصاب.

كان فرع فلسطين هو أسوء تجربة مررت بها في حياتي، مع أنني لم أتعرض للضرب أو التعذيب على الإطلاق، ولكن العذاب النفسي أكبر بكثير، وأشده ما كنا نسمعه من صراخ وأنين على مدار الساعة، كنا نسمع أصوات تعذيب الشباب من خلال أرضية الغرفة من الطابق الأسفل، عندما نستلقي عليها ونسمع الصراخ من زنزانات التحقيق في الطابق نفسه، وكان التعذيب يزداد بعد الساعة العاشرة ليلاً.

عندما كنا نخرج إلى المراحيض كان من الطبيعي أن نمر بين جثث الشباب، كما أن النظافة كانت معدومة والطعام رديئًا، الأمن العسكري في حلب أفضل في هذه النواحي، كانت تجربة بشعة جدًّا في فرع فلسطين، مع أنني علمت أنني في فرع 235، وهو "أخف" فرع من فروع فلسطين الثلاثة.

من النادر أن يتم تعذيب المعتقلين المنقولين من أفرع أخرى في دمشق إلى فرع فلسطين، لأنهم "شبعانين تعذيب"، إلا إذا لم يقتنع المحقق بما يقولونه فيعاد تعذيبهم بنفس الطرق المتبعة في بقية الفروع، لكن المعتقلين الجدد الذين يُجلبون من دمشق أومن محافظة أخرى، ويكون أول فرع يدخلونه يتم تعذيبهم، أذكر مثلا فتاة من محافظة درعا، لم تُعجب أقوالها المحقق، فقام بتعذيبها حتى يجعلها تعترف بتهمة لفّقها لها وهي استدراج العساكر، وكانت فتاة ناعمة ضعيفة البنية، ولم تتحمّل التعذيب، فاعترفت بما يريدها أن تقوله حتى تنجو.

وأذكر أيضًا أن فتاة من دمشق حملت وهي داخل الفرع، وقد كانت بالزنزانة المنفردة، وقبل أن تلد بفترة وجيزة، تم نقلها إلى سجن عدرا، ووضعت المولود هناك، وهي ما تزال في سجن عدرا على حدّ علمي.

بعد خمسة أشهر من تواجدي في فرع فلسطين بدون تحقيق، أرغموني على أن أبصم على أوراق بيضاء، جرت العادة أن من يبصم يخرج، ولكني أُعدت إلى الزنزانة مرة أخرى، أنا والفتيات اللواتي كُنّ معي في نفس القضية، وبقيت مدة ثلاثة أشهر وعشرة أيام ، وبعدها تمّ تحويلي إلى سجن عدرا في الرابع عشر من شهر شباط عام 2015، وتمت مصادرة أماناتي.

النقل إلى سجن عدرا

بعد أن وصلت إلى سجن عدرا، بقيت إلى الثالث من آذار عام 2015، قبل أن أحوّل إلى القاضي بمحكمة الإرهاب، وعندما عرضت عليه أخبرني أن علي أن أجلب ورقة تثبت أنني كنت أعمل مع منظمة مرخصة، وأنني لن يخلى سبيلي بدون هذا الإثبات ثم عدت إلى عدرا.

في سجن عدرا الزيارات مسموحة، وقد استطعت أن أكلّم والدتي هاتفيًّا، وأنا بحالة خوف من أن أورّطها معي بسبب هذا الاتصال، لأعلمها بمكاني ووضعي، ولم أتوقف عن البكاء وأنا أكلمها، وبعدها قام أهلي بتوكيل محامٍ لي وجاءوا لزيارتي عدة مرات، وأحضروا لي ثيابًا، وقد عانوا كثيرًا من صعوبة التنقّل بين حلب ودمشق في تلك الأيام.

بقيت في عدرا حوالي ستة أشهر، فترة إيقاف، ثم جاء إخلاء سبيلي بعد أن قدّم المحامي الأوراق التي تثبت أني كنت أعمل مع منظمة مرخّصة، وبالفعل تمّ إخلاء سبيلي في التاسع عشر من تشرين الأول عام 2015، ويتم الخروج عن طريق دورية تخرج المعتقلين وينزلونهم في "البلد" مركز ناحية عدرا، لكنهم لم يختموا على يدي، مع أنني نبهتهم إلى ذلك لكنهم لم يكترثوا. وكان معي في الدورية فتيات مطلوبات إلى فرع 251، فقاموا بإنزالي معهم بالخطأ! مع أن ورقة إخلاء سبيلي كانت بحوزتي، وعندما نزلت إلى الفرع أخبروني أنني لست مطلوبة ولكن لا يمكننا أن نتركك هكذا فعليك البقاء، وبقيت في هذا الفرع لمدة سبعة أيام، وأهلي يعلمون أني قد خرجت من عدرا، ولا يعلمون مكاني.

في هذا الفرع كنت أحاول أن أنصح المعتقلات، بحسب خبرتي، عما يجب أن يقلنه أثناء التحقيق، وبما لا يجب الاعتراف به. ويبدوا أنهم رأوني عبر الكاميرات فقاموا بنقلي إلى زنزانة كان فيها مئة وعشر أسيرات كنّ موجودات للتبادل.

بعد ذلك خرجت من هذا الفرع وكانت معي فتاة فتواصلت مع أهلي عن طريقها، كان أهلي يبحثون عني، وبقيت في دمشق مدة خمسة أيام، حتى استكملت أوراق "كفّ البحث" ثم سافرت إلى حلب.

العلاقة مع الأسرة والمجتمع

منذ أن كنت طفلة كان أبي يعطينا أنا واخوتي حريتنا بالاختيار، ويقوي شخصياتنا، فمع أنه كان معارضًا لفكرة عملي مع المنظمات الإنسانية، حتى وإن كانت مرخصة، من مبدأ أن النظام لا يعنيه هذا الشيء. ولكنّه أخبرني أنّ القرار في النهاية يعود لي، وبعد أن خرجت من المعتقل احتوتني أسرتي إلى أبعد الحدود، واستمرّوا بدعمي والوقوف بجانبي، وكانوا متفهمين ولم يوجّهوا لي أي أسئلة محرجة، وأنا أخبرتهم بما حصل معي بأريحيّة تامّة، وأصبحت درجة تعلّقنا ببعض أكبر بكثير، وعلاقتي بوالدي تحديدًا باتت أقوى، بالرغم من اعتقاده بأن قراري كان خاطئًا، لكنه أخبرني بأنها مرحلة ومرّت، ويجب علي الآن أن أعود إلى دراستي وأكمل حياتي.

قبل أن أعتقل كنت مخطوبة، لكن الأمور لم تعد إلى سابق عهدها بيننا بعد أن خرجت، فقد كنت أحس بفتور في العلاقة، لم يستطع أن يتقبّل فكرة أنني معتقلة، فانفصلنا. بعد ذلك كانت هناك سمتان تتكرران في كل من يتقدّمون إلي؛ وهما: إما أن يكون المتقدم من الثوّار ولديه فكرة بأنه يجب أن يتزوج من معتقلة سابقة، حتى يستر عليها، من مبدأ أنها ضحيّة معذبة، وبهذا يساهم في دعم الثورة، ومنهم من يفضل معتقلة مغتصبة بالتحديد، وإما أن يكون إنسانًا بعيدًا عن الثورة، ولا يتقبّل فكرة أنني معتقلة سابقة ويعتبر أنه عارّ.

أعتقد بأن كلا الأمرين يهمّشان المعتقلة، فأنا بحاجة لأن أرتبط بإنسان يراني كما أنا ويتقبلني كشخصيّة، شخص أستطيع أن أكلمه عن ما تعرضت له، وأثق أنه سيتقبّل الأمر.

أنا أرى أنني خرجت من هذه التجربة بأقل الخسائر، وبالرغم من أنها كانت تجربة أليمة بالنسبة لي، لكنها كانت أصعب وأكثر إيلاما على أهلي، فهم كانوا يجهلون مكاني ومصيري، وبقوا على أعصابهم طيلة فترة اعتقالي. وقد تعلّمت أن أتخطى الكثير من المشاكل، حيث إنني كلما وقعت في مشكلة، أذكر أنني قد تجاوزت مشكلة أكبر.

السفر إلى تركيا

كان أهلي قد عانوا كثيرًا أثناء فترة اعتقالي بسبب الأخبار الكاذبة التي كانت تأتيهم عني، وعندما خرجت أصبح لديهم خوف كبير عليّ، فسارعوا بإرسالي إلى تركيا، وكان من المفترض أن أسافر لمدة ثلاثة شهور كتجربة، فإما أن أتقبّل الغربة وأبقى، وإما أن تعتبر فترة نقاهة وأعود، في البداية بالرغم من صعوبة بعدي عن أهلي، وخصوصًا أنني بقيت بعيدة عنهم في المعتقل، كنت أجبر نفسي على تقبّل الوضع الجديد، وخصوصًا عندما كان هناك مشروع ارتباط في تركيا، ولكن هذا المشروع لم يتم، وعند زيارة أهلي لي هنا وجدوا أن الوضع صعب علي، وأن بقائي بمفردي في مجتمع غريب ولغة غريبة، وأنا ما زلت في حالة الصدمة، أمر غير مناسب، ومع خطورة عودتي إلى سوريا، ارتأوا أن نبقى جميعنا في تركيا.

عملت في بداية تواجدي في تركيا مع منظمة إغاثية لمدة ستة أشهر، وعندما انتهى عقدي عُرض علي عقد جديد في ولاية أخرى، ولم أستطع أن أترك أهلي، فلم أوافق ولم أعمل بعد ذلك.

أحب أن ألقي الضوء على قضية تعاني منها اللاجئات هنا في تركيا حيث تنتشر كثيرًا حالات الاتجار بالناجيات بشكل عام عن طريق استغلال عوزهن، لتشغيلهن بالدعارة أو الدعارة المقنعة، بحيث يتم تزويجهن لفترات محددة أو غير محددة، مقابل مبلغ متفق عليه من المال.

الفرق في تجربة الاعتقال بين الرجل والمرأة

المجتمع يعطي لنفسه الحقّ بأن يسأل المعتقلة إن كانت قد اغتصبت أم لا، وهذا لا يحصل مع المعتقلين الذكور، وهو أقسى على المرأة من هذه الناحية، أما برأيي الشخصي فإن تجربة الاعتقال تكون أقسى على الرجل من المرأة، لأنه يتعرض غالبًا إلى عنف جسدي أكبر بكثير، وفترات اعتقال أطول وتعذيب أقسى، ومن الممكن أن يتعرض لعنف جنسي أيضًا وأن يغتصب، أما المرأة فبالرغم من كل العنف الذي تتعرض له فالمشكلة تبقى في الاغتصاب فقط.

كلمة أخيرة

إن ما عشته في المعتقل يجعلني أتمنى لكل شخص ساهم بهذه الأعمال الإجرامية أن يتعرّض لنفس ما كنا نتعرّض له، ولكن ألا يعطيه الله الصبر الذي صبرناه. وأنا أريد أن تقام محاكم للتحقيق مع هؤلاء المجرمين، وسأقيم دعوى ضدهم إذا أتيحت لي الفرصة، مع علمي بأن لا جدوى ترجى من ذلك، فبالرغم من كل التوثيق الذي تم، لم يحصل أي شيء بغياب الدعم الدولي لهذا الملف المرفوع. وأنا رغبت بتوثيق تجربتي لأني أعتقد بأن الجميع يجب أن يعلم ماذا يجري وما يتعرض له المعتقلون والمعتقلات، وأنا لا أخجل من القول بأني كنت معتقله أمام أي أحد، حتى لو كان المجتمع يرفضني، المجتمع هنا في تركيا ينظر إلى المعتقل بعين الدعم والمؤازرة وليس بعين الشفقة أو النفور، كما يحصل في المجتمع السوري، ولعل توثيقي يساهم ولو بشكل بسيط بتسليط الضوء على ما تعانيه زميلاتي اللواتي ما يزلن داخل المعتقل.

آخر امرأة في القابون[9]*

[9] - حوار أجرته الكاتبة مع ورد (اسم مستعار)، عبر السكايب، في تاريخ 2019/2/16، مدة الحوار: ثلاث ساعات وربع.
* لوحة الغلاف: ميلاد أمين

أنا ورد من الشام ـ منطقة القابون، عمري ثلاثة وأربعون عاماً، تزوّجت عندما كان عمري ست عشرة سنة، لي ثلاثة أبناء شباب، محمد ورامز وماهر، محمد وماهر معتقلان حتى الآن، وأنا ورامز حاليًا في تركيا.

أنا حاصلة على شهادة الصفّ التاسع، ودرست في معهد للرياضة واللياقة البدنية، ولديّ خبرة بسيطة في المعالجة الفيزيائية، فقد عملت مع طبيب لفترة خمس سنوات في إحدى العيادات، ثم عملت وحدي خمسة عشر عاماً، كما عملت أيضًا في المعالجة الفيزيائية وجلسات تكسير الشحوم في أحد النوادي الرياضيّة.

في البداية كنت أعمل كي أعيل أولادي، فزوجي كان مريضًا ولا يستطيع العمل بسبب نوبات صرع كان يعاني منها. في كثير من الأحيان، كانت تأتيه النوبات في الشارع، وغالبًا ما كان يقوم الناس بإحضاره إلى البيت بعد تلك النوبات، وبسبب الدوخة والنوبات فقد كان رأي من حولنا من الأقارب والأصدقاء والجيران أن لا يخرج من المنزل، حرصًا على حياته.

وبالإضافة لمرض زوجي فقد كانت أخلاقه صعبة، وقد عانيت معه كثيرًا، لم يكن يعرف كيف يربي أبناءه، ولم يكن يساعدني في أعمال المنزل، الحياة الزوجية لم تكن مريحة معه، في بداية زواجنا كان يحبسني داخل المنزل، ولم أكن أجرؤ على الخروج. حتى بعد ولادة محمد، ابني البكر، كان زوجي يشتمني ويضربني عندما أخرج من المنزل، ووالدته كانت أقسى منه، فقد كانت تسانده في قسوته عليّ.

كنت صغيرة وأخاف منهما، وبعد حملي الثاني أردت الطلاق، وأسقطت الجنين بنفسي عبر حمل أشياء ثقيلة والقفز، فمات داخل بطني في الشهر الرابع من الحمل. أنا أعلم الآن أنّ ما قمت به خطأً، لكنّي كنت صغيرة وكانت معاناتي كبيرة، ولم أكن أدرك ما أفعل، لقد ندمت بعد ذلك.

أمّي كانت تحاول تهدئتي دائماً، وتطلب منّي أن أصبر على معاملة زوجي السيّئة، وتؤكد لي أنّه سيتغير، فقد كانت أمّي امرأة مسالمة جداً، لم تكن تريد أن "ينخرب" بيتي، ولم تكن تريدني أن أصبح مطلّقة، فقد عانت هي أيضًا خلال زواجها من أبي، وتريدني أن أربي أولادي وأن لا أتركهم، وأن أصبر على زوجي كما صبرت هي.

بعد عامين من أسقاط الجنين، حملت مجددًا بابني ماهر، كانت أحوالي مع زوجي تزداد سوءًا، لكنّي كنت قد نضجت وتعلمت كيف أدافع عن نفسي، وتعلّمت أن أقول "لا" عندما أريد، بدل كلمة "نعم" التي لازمت حياتي سابقًا.

تغيّرتُ، وبدأت أبحث عن عمل لأنّ وضعنا الماليّ أصبح سيئًا جدًا، كانت أمي تتكفّل بكلّ احتياجات عائلتي من طعام وأغراض للمنزل ورعاية لأولادي. كانت كبيرة في العمر، وإخوتي كانوا أطفالاً، والفارق بين عمر ابني وأخي سنتان فقط.

اتخذت قرارًا بأني وعائلتي يجبّ أن لا نكون عالةً على أمي، زاد ضغط زوجي عليّ، واعتبر "أنّ رأسي بدأ يكبر" فأنا لم أعد أطيعه وأخاف منه، كان مطلوبًا منّي أن أجلب له الدواء كي لا تتدهور صحته وتصبح معاملته لي أسوأ.

حاولت أخت زوجي، وهي ممثلة، مساعدتي عبر إقناع زوجي أن يسمح لي بتعلّم الحلاقة النسائية، وأغرته بأنّ معرفتي لهذه المهنة ربّما تُمكِّننا من السفر إلى دبي والعمل هناك، فأرسلني لتعلّم المهنة في أحد الصالونات، كنت آنذاك حاملاً بولدي الثالث "رامز"، قويت شخصيتي كثيرًا بعد العمل، وبدأت أعرف ما أريد، وكيف أستطيع أن أغيّر حياتي وواقعي.

مع دخولي بالشهر التاسع من الحمل، كان جلّ تفكيري منحصرًا في العودة إلى العمل بعد الإنجاب، والصعوبات التي سأواجهها في ذلك، لكن أمّي ساندتني ووقفت إلى جانبي، فاستطعت أن أعود إلى العمل في الصالون بعد شهر واحد من ولادتي القيصرية، كلّ أبنائي ولدتُهم بعملية قيصرية بسبب حادث حصل معي عندما كنت طفلة، أدّى إلى كسر في حوضي، كنت أترك ولدي الصغير عند أمي وأذهب لعملي، وأحسست بأنني أبني حياتي من جديد.

لم يعد زوجي يستطيع "أن يُمَشّي كلمته عليّ أبدًا أبدًا"، لقد تمرّدت عليه، وأصبحتُ أقول له: "عجبك هيك عجبك، وإذا ما عجبك ما حدا ماسكك من إيدك" لقد شعر أنّني تغيّرت فرضخ للأمر الواقع. كانت مشاجراتنا دائمة، وأحيانًا كان يضربني، لكنّني في النهاية كنت أنفّذ ما أريد، ولم أعد أعبأ عندما كان زوجي يشكوني إلى إخوتي لأني قرّرت تغيير حياتي.

في عام 2003، وضعت ابنيّ محمد وماهر في مدرسة "ميتم قريش" كي أستطيع العمل، قدّمت لهم أوراقًا تفيد بأنّ زوجي مريض ولا يعمل، وأنا أريد العمل وليس لديّ مكان آمن لأضع أولادي فيه، فوافقت إدارة الميتم واعتبرت أنّ أبنائي بحكم الأيتام. كنت أذهب لإحضارهما إلى المنزل كلّ يوم خميس وأصطحبهم إلى الميتم يوم السبت، ويبقى معي ابني الأصغر رامز الذي كان عمره وقتها سنتين.

لم أجد عملاً بسهولة، عملت في تنظيف إحدى الصيدليات، ثلاثة أيام في الأسبوع، دون علم أهلي، وكانت صاحبة العمل تعطيني في اليوم خمس مئة ليرة، وهو مبلغ ممتاز يكفي لإعالة أولادي ولم أعد أحتاج أي مساعدة من أحد.

كنت أثناء عملي، أبحث عن عمل آخر في الجرائد التي تصل للصيدلية، كنت أريد أن أطوّر نفسي، وفي إحدى المرات قرأت إعلانًا يطلبون فيه سكرتيرة للعمل عند أحد أطباء الأمراض القلبية، أجرى الطبيب معي مقابلة ووظّفني، كان تفكيره رأسماليًا يسعى وراء المشاريع التي تدرّ عليه المال، أعجبته طريقة حواري وتعاملي مع المرضى، فأنا استفدت كثيرًا من عملي في صالون الحلاقة.

تعلمت في العيادة الكثير، حتى إني كنت أساعده في تخطيط القلب، وبعد ستة أشهر نقلني الطبيب للعمل في مركزه المتخصص بتكسير الشحوم والتنحيف الواقع في منطقة دوما، توسعت صلاحياتي، وبدأ الزبائن يأتين من أجلي، بعضهنّ كُنّ يطلبونني شخصيًّا، استمريت في هذا العمل لمدة ثلاث سنوات، كان الطبيب "صاحب المركز" يستغلّني كثيرًا، فقد كان دوامي طويلاً جدًّا وراتبي قليلاً. كان عملي يدرّ على المركز خمس مئة ألف ليرة شهريًّا، بينما كان راتبي خمسة آلاف ليرة فقط، كنت أعمل من التاسعة صباحًا حتى التاسعة ليلاً، لكنّي كنت سعيدة فيه، ولدَيَّ الكبيران في المدرسة وابني الصغير رامز في الروضة.

أصبح المركز بيتي الثاني ولم أعد أرغب في العودة إلى بيتي، ثم أقنعت الطبيب أن يفتح فرعًا آخر في منطقتنا القابون، وأصبحت المسؤولة عن الفرع الجديد باعتباري "بنت البلد" وغالبيّة النساء يعرفنني، وبالفعل اشتغل المركز من الشهر الأوّل لأنّ زبوناته جاهزات، فهنّ اللواتي طالبنني بافتتاحه، كنت أتعب كثيرًا في العمل ولاحظت أنني أعمل بجد وغيري يحصل على نتيجة جهدي، فقرّرت أن أتسجّل في دورة وأحصل على شهادة لأفتح مركزًا رياضيًّا خاصًّا بي.

بدأت من الصفر، فقد كنت قد ادخرت مبلغ مئة وخمسين ألف ليرة، بعد أن شاركت أخي بسيارة بيك آب، سحبت المبلغ من أخي وأخبرته أنني أريد أن أفتح مشروعي الخاص، واستأجرت من أمي شقة كانت تملكها وتؤجّرها باستمرار، وما تبقّى معي من المال كان الدفعة الأولى للآلات والتجهيزات التي اشتريتها بالتقسيط.

كان موقع الشقة بعيدًا عن وسط البلد في منطقة القابون، لكن تروجي لمركزي بين زبوناتي جعله ينطلق بسرعة شديدة من أول يوم، الحمد لله تيسّرت أموري وزبوناتي كنّ مسرورات، لكنّهنّ بدأن يُطالبنني بنقل المركز لمكان أقرب، لأنّ المشوار كان بعيدًا بالنسبة لهنّ، وبالفعل في عام 2010، استأجرت شقة بمنطقة استراتيجية "بنص البلد" في القابون.

نقلت أجهزتي، وخلال ثلاثة أيام بدأت العمل، أمّا زوجي فقد زادت المشاكل بيني وبينه، وفي عام 2011 رفعت قضية خُلع على زوجي وخلعته.

بدأ عمل المركز يتراجع في بداية الثورة عام 2011، لكنّي استطعت أن أعلّم أولادي والحمد لله، فابني محمد حصل على شهادة البكالوريا، لكنه رغب في إعادتها ليحصل على معدل أعلى يُمَكِّنه من الالتحاق بالجامعة، لكنّه ترك الدراسة لاحقًا وقدّم طلبًا مستعجلاً للانخراط في الجيش، قلت له: "يا ماما لماذا تريد الذهاب للجيش"، فأجابني: "لدي غاية وأريد الذهاب".

قصة ابني محمد

في بداية الثورة، خرجت المظاهرات السلمية بكثرة وسقط شهداء، من بينهم أصدقاء لابني، فقرّر أن يلتحق بالجيش ويخضع لدورة تدريب مدّتها شهران، يتعلّم فيها استخدام السلاح ثمّ ينشقّ بسلاحه. لم أستطع منعه فتركته يفعل ما يريد، فنحن لم نكن نعلم ماذا سيحدث!

كانت مدة الدورة ثلاثة أشهر ولم يستطع ابني خلالها العودة إلى البيت، فكنت أزوره يوميًّا لأنّ الدورة كانت في منطقة القدم، وهي قريبة منا، بعد ذلك تمّ فرزه إلى محافظة السويداء، كان "يفيش" يدفع رشوة للضابط المسؤول عنه كي يعطيه إجازة. وكان يحصل على إجازة يومي الخميس والجمعة، ويأتي إلى المنزل ليُشارك في المظاهرات يوم الجمعة ويعود إلى قطعته يوم السبت، كانت علاقته جيدة مع الضابط، حتّى إنّ الضابط أعطاه دفتر إجازات يوقّع عليه ويحصل على إجازة متى شاء.

وفي أحد الأيام، كان يوم المولد النبويّ والفلانتاين في الأسبوع نفسه، ونزل ابني من السويداء يوم الخميس وأراد أن يرى ابنة عمته التي يحبّها، لكنّه لم يستطع أن يتفق معها على اللقاء إلا في يوم الأحد، ما يعني أنه لن يلتحق بقطعته يوم السبت، فتكاسل ورفض الذهاب مبررًا أنه يوم عطلة، ولن ينتبه أحد لغيابه. ألححت عليه أن يذهب لكنه رفض وأخبرني أنه اتفق مع أصدقائه وأنهم سيتصلون به في حال حصول أي طارئ، فيذهب فورًا إلى قطعته العسكرية، وأضاف: "حتّى لو لم يتصلوا بي فسقف عقوبتها هو السجن لمدة ستة عشر يومًا، لم أكن أستطيع أن أعارضه، حتى لو فعلت فسيفعل ما يريد.

وبالفعل اتصل به أصدقاؤه وأخبروه أن يأتي فورًا، لكنه رفض الذهاب يوم السبت فسُجن وحُقّق معه وكان التحقيق قاسيًا لأنّ "نفوس" ابني من القابون ودوما، فوالده من دوما وأنا من القابون.

كان المحقق ضابطًا "ابن حرام"، ضربه على ظهره أثناء التحقيق بكرسي حديد وكسر لوح ظهره ويديه الاثنتين، ورُمي في زنزانة ولم يتمّ إسعافه. كنت أتواصل مع أصدقائه في القطعة وأسأل عنه لأن أخباره انقطعت، فقد ترك شريحة هاتفه معي، وبعد ستة أيام استطاع أصدقاؤه التواصل معه ومشاهدته، لكنه كان شبه مغمى عليه في الزنزانة، وجهه أصفر وحرارته عالية، ولا يستطيع الوقوف على قدميه، فأخبروا "مُعلّمه" الضابط المباشر الذي كان يحبّه ويعطيه الإجازات، فأخرجه من السجن وحوّله إلى المشفى، حيث بقي في العناية المشدّدة خمسة أيام، وبعد أن صحا من غيبوبته اتصل بي وطلب مني القدوم لأصطحبه إلى المنزل، فهو لا يستطيع التحرّك بسبب الكسور.

رفضت ضابطة برتبة عميد أن تعطيه هويته لأستطيع إخراجه من المشفى، وأخبرتنا بأننا سنحصل عليها في اليوم التالي، وفي اليوم التالي عندما وصلت إلى المشفى لاصطحابه، اتصل بي وأخبرني بأنه خرج وهو في الكراج وقد حصل على إجازة لمدة خمسة أيام، فقلت له: "لا مشكلة سآخذك غدًا إلى مشفى تشرين، ونحصل لك على إجازة جديدة وطويلة"، وهذا ما حصل، صوّروه في المشفى، وأخبروني أنّ وضعه سيّء، وحصلنا على إجازة له لمدة خمسة عشر يومًا، وبعد اليوم الثالث عشر من إجازته، قلت له: "لن أتركك تعود إلى الجيش، والموال اللي براسك ما راح تقدر تغنيه"، أي أن يهرب بسلاحه، فهذا الأمر بات مستحيلاً، فأجابني: "كيف لا تريدينني أن أعود إلى الجيش سيعتقلون أبي وإخوتي وربما يحرقون بيتنا، قلت له: "لا عليك سأتصرف".

كانت المجموعات النائمة في القابون قد بدأت بالتشكل، وبدأ الشباب بالانتساب لأحد الفصائل، والمداهمات كانت في بدايتها، والمنطقة لم تكن قد حوصرت وأغلقت بعد.

كان قائد المجموعات ابن خالي، في بداية شهر شباط 2012، اتصلت به وأخبرته أنني لا أريد أن أرسل ابني محمد إلى الجيش، طلب مني أن أفكّر مليًّا قبل أن أتخذ هذا القرار، فقلت له: "إنّ الأمر قد حُسم، وإني أفضّل أن يُقتل أمامي على أن يُقتل هناك وأنا لا أعرف عنه شيئًا". وبالفعل في الساعة الثانية فجرًا أتى ابن خالي وأخذه.

بعد الموعد المحدد لانتهاء إجازته بثلاث ساعات اتصلت بأصدقائه في القطعة العسكرية وسألتهم: "أريد أن أطمئن على محمد، هل وصل إلى قطعته؟"، فقالوا: "لا لم يصل". وبعد ثلاث ساعات اتصلّ بي الضابط المسؤول عن القطعة وسألني: "ابنك وين؟"، فأجبته: "أوصلته إلى الكراج وركب أمامي في ميكرو السويداء وذهب، يجب أن يكون عندكم الآن، وقد ترك هاتفه الجوّال في المنزل لأنه يحتاج إلى تصليح، دخلت بالجو وبدأت بالبكاء"، وقلت له: "أخبرني ماذا فعلتم بابني؟"، فأجابني: "وكلي الله، ربما العصابات المسلحة اختطفته، اذهبي إلى الأمن العسكري جانب مشفى تشرين وقدّمي شكوى بأنّ ابنك فُقِد". وفي صباح اليوم التالي قمت بتقديم الشكوى خوفً على أولادي وأبيهم. كان الضابط يتصلّ بي كلّ عدة أيام ويسألني عنه ويقول لي: "يا أختي إذا ابنك هربان نحنا منجيبوا وما منخلي ياكل كف، ومنرجعوا على قطعتوا". وبعد فترة انقطعت اتصالاتهم.

استمرت المظاهرات والمداهمات، واطمأننت على ابني بعد خمسة عشر يومًا، وأخبروني إن أردت أن أسأل عنه فعليّ أن لا أستخدم اسمه الحقيقي بل أستخدم الاسم الذي أطلقوه عليه "رضوان"، وبعد حوالي ثلاثة أشهر من غيابه، كان أحد "العواينية" يراقبهم، وفي نيسان 2012، داهمت دورية إحدى المزارع في منطقة العدوي بعد أن حاصرتها، كان ابني ومعه مجموعة مؤلفة من واحد وعشرين شخصًا يقيمون فيها، هرب منهم أحد عشر شخصًا، وأُلقي القبض على الباقين، ولم يُعرف من مات منهم ومن أصيب خلال المداهمة، كان ابني بين من لم يُعرف مصيرهم. وبعد شهرين علمت أنّه أصيب وأخذه الأمن محمولاً، ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن لم أسمع أي خبر عنه، وبعد سنتين علمت أن أحد الذين تم إلقاء القبض عليهم أُفرج عنه بعد أن دفع أهله أموالاً لإخراجه.

اعتقال ابني ماهر

في بداية الثورة بتشرين الأول 2011، وأثناء عودة ابني ماهر ذي الأربعة عشر عامًا إلى المنزل، شاهد سيارة أوبل للمخابرات تدور في الشوارع لقمع المظاهرات، فركض باتّجاه مظاهرة نسائية وقال لهنّ: "إجا الأمن، إجا الأمن"، فشاهده عناصر الأمن واعتقلوه، ثم وجّهوا له تهمة تمويل المظاهرات، ابن الأربعة عشر عامًا يموّل مظاهرات !!! أقولها وأضحك.

بعد شهر من اعتقاله، توسّطت له قريبته المتزوّجة من ضابط وأخرجته من المعتقل، لكنّه خرج مريضًا ومصابًا بالجرب وآثار الحروق على جسده، ثم اعتقل مرّةً ثانية في تشرين الثاني 2012، ولا أعلم عنه أي شيء حتى الآن.

آخر امرأة في القابون

توقّف عمل المركز عندما ازداد التصعيد والقصف على القابون ونزح السكان، وعندما فتح الهلال الأحمر مركزًا في منطقتنا، التحقت به لمدة أربعة أشهر لأساعدهم في التمريض، وفي الوقت نفسه وبشكل سريّ،

عدّلت الأجهزة الموجودة في مركزي وحوّلت عمله لتقديم العلاج الفيزيائي للمصابين، وطلبت من أحد الأطباء في القابون أن يساعدني في العمل وتعلّمت منه خياطة الجروح ومعالجة الإصابات.

أُغلقت القابون ونزح السكان، لكني بقيت أساعد الأطباء في المشفى الميداني وأعمل في مركزي، وفي عام 2013 أصبح صعبًا على النساء أن يلدن أو يتعالجن أو يلقحن أولادهنّ، فأحضرت إلى مركزي قابلة قانونية وخصصت إحدى الغرف للتوليد، وفي الحالات الصعبة كان أحد وجهاء البلد يتصل بالأمن ويطلب منهم وقف عمل القناص ريثما أنقل المريضة إلى مشفى خارج المنطقة لتلد.

استمرّ التصعيد العسكري ونزحت أمي مع ابني الصغير رامز إلى المنطقة غير المحاصرة في القابون، وبقيت وحدي مع أخي الذي استشهد لاحقًا، عملت أنا وأخي الذي كان لديه سيارة على نقل المصابين فيها، وفي التاسع عشر من شهر حزيران عام 2013، وقفت دبابة على الأتوستراد وبدأت القصف على المدنيين في منطقتنا، كنت أنا وأخي نسعف المصابين جراء القصف الشديد، ولكنّ عددهم كان كبيرًا، الناس كانوا يركضون من حولنا هاربين في كافة الاتجاهات، فتوجّه عدد من الشباب إلى أخي وقالوا له: "الدبابة عم تضرب بدنا نروح ليها يا محمود". فترك الإسعاف وحمل القاذف وذهب باتجاهها وبدأ بضربها وهي تقصف باتجاهه، حتى استشهد رحمه الله تعالى وبقيت وحدي وتابعت عملي رغم الحصار.

دُمِّر مركزي بالقذائف، فقد كان موقعه حسّاسًا، وعلى مرمى القنّاص، ولم أعد أستطيع العمل، كان الشباب يُحدثون خروقاً كبيرة في جدران المنازل، تسمح للأشخاص بالانتقال من بيت إلى بيت عبرها، هربًا من القنّاص، والتي صارت تعرف بـ "الطلقيات"، وقد فتحوا طرقًا للمنازل وفتحوا أيضًا طريقًا لمركزي.

قرّر "كبارية البلد" التحدّث مع النظام كي تخرج النساء والأطفال من منطقتنا المحاصرة، وبالفعل تمّ ذلك، ولم يبقَ إلا الرجال، وكنت أنا المرأة الوحيدة التي بقيت، رغم أنهم ألحّوا عليّ لأخرج لكني رفضت، فقد كان لديّ هدف وأودّ العمل من أجله ولا أستطيع أن أترك المصابين، بقينا محاصرين حوالي عشرة أشهر، وكانت القذائف تتساقط علينا "كزخ المطر إذا أصبحتِ ما بتأمسي وإذا أمسيتي ما بتصبحي"، لقد بقيت في بلدي القابون لأن لدي عقيدة، وأهل بلدي واقعون في أزمة، وهم بحاجة لمساعدتي، وعليّ أن أساعدهم ومن المستحيل أن أتركهم.

بعد استشهاد أخي، كنت أساعد أغلب أصدقائه الجرحى، وأحسست أنّي إن تركتهم فكأني تركت أولادي، أغلبيّتهم استشهدوا فيما بعد يرحمهم الله.

خلال الحصار تقدّم أحد الشباب للزواج مني "ر.ل" ويلقّب بالطيّب، كان يحبني كثيرًا ويحبّ عملي، رغم أني سابقًا رفضت رفضًا قاطعًا فكرة الزواج لأنّ همّي الأساسيّ كان معرفة أيّ خبر عن ولدَيَّ المعتقَلَيْن، ولكن، ولأنني كنت المرأة الوحيدة في القابون، أصرّ الشباب على أن أتزوج، وبعد محاولات عديدة من قبلهم وافقت على الزواج من الشاب، في بداية عام 2014.

كان مقاتلاً ومطلوبًا للنظام، وقد طلب مني مرارًا أن يتزوّجني، حتى قبل الحصار كان يرسل لي عبر أخي رغبته بالزواج منّي ويقول له: "شو بدها إختك لعيونا أنا بدي ياها على سنة الله ورسوله"، حاول أخي إقناعي

مرارًا وكنت أرفض. كان زوجي يساعدني ويرافقني في عملي قبل زواجنا وبعده، وكان يستخدم سيارة أخي الشهيد لنقل المصابين.

لقد تعلّمت من الأطباء الكثير، وكنت أعمل بالتمريض، فرضت عليّ الظروف التي كنا نمرّ بها أن أساعد الأطباء حتى عند إجراء العمليات، بسبب عدم وجود أشخاص مختصين، كان لدينا خمسة أطباء، ولكن بعد الحصار بقي منهم ثلاثة فقط اثنان أخصائيان والثالث طالب طب لم يتخرج.

خلال الحصار كان أغلب أكلنا، برغل، عدس، رز، لم نكن نهتم بالأكل، فقط نأكل لسدّ جوعنا، كنا نطحن الشعير والرز والذرة ونصنع منها خبزًا، "كان خبزنا ما بيتاكل"، كنا نعيش عدّة أيّام على الحساء، لم يكن لدينا جبنة أو حليب أو لحم، بقينا على هذا الوضع مدّة عام كامل، وبعدها صارت هدنة، وفتحوا لنا طريق برزة، لم يستطع الجميع الخروج، كان هناك تدقيق أمني كبير على من يخرج، خرجت مباشرة بعد فتح الطريق، مثل العصفور المحبوس "اللي بدو يشوف أهلو ورفقاتو" زرت أمي وابني، واشتريت بعض الأغراض التي كنّا نشتهيها وعدت أدراجي، لم يكن الحاجز يسمح لنا بإدخال كلّ شيء، وعلى سبيل المثال، كان ممنوعًا علينا إدخال السميد وحمض الليمون، فقط ربطة خبز، خضار، جبنة، كيلو سكر وكيلو رز، فقط كيلو هو المسموح.

بقيت أخرج يوميًّا وأحيانًا كلّ يومين لجلب حاجاتنا، ثم قمت بترميم المركز، وعدت للعمل، وبدأت بإحضار عكازات للمصابين وكراسي متحرّكة للعجزة، في إحدى المرّات سألني العنصر على الحاجز، لمن هذا الكرسيّ المتحرّك، فأجبته: "إنه لحماتي العاجزة، الله يريّحني منها"، كنت آخذ الأمر بالضحك والسخرية، وكان الله يُعمي عني، سبحان الله كان الله يسهّل مروري على الحواجز، وتعرّفت على أطباء تبرّعوا بأدوية كنت أقوم بإدخالها إلى القابون، بقيت على هذا الحال مدة سنة ونصف، كنت أضع ما أريده في أسفل الأكياس وفوقه ملابس داخلية، فيخجل العنصر على الحاجز من تفتيشها بدقة، وأمرّ.

قصة إصابتي

في بداية عام 2013، وقبل استشهاد أخي بحوالي شهرين، كُثِّفَ التصعيد علينا خلال الحصار، وأصبح القنّاص يستهدف سيارات الإسعاف التابعة للهلال الأحمر، كنت آنذاك أعمل معهم، رفض الهلال الخروج لجلب أحد المصابين، بسبب استهدافهم عدة مرات من قبل القنّاص، أخبرتهم أنني مستعدة لجلبه، وحين وصلت إلى منطقة ممتلئة بأشجار الزيتون بدأ الرصاص ينهمر باتجاهي، كنت مراقبة من قبل القنّاصين ولكن لم أكن أدري أين يتمركزون، أُصبتُ ولم أعد أستطيع العودة أو التقدم، داريت نفسي ووقفت في زاوية، ولكن أحدهم أصابني في كتفي، دخلت الرصاصة من الأمام وخرجت من ظهري، ظننت أنني سأموت فتلوت آية الكرسي و تشاهدت، لكنني لم أمت، أخرجت هاتفي من حقيبتي واستلقيت فوقه واتصلت بابني، وأخبرته بأنني أًصبت ولم أستطع الوصول للمصاب، فقال لي: "سنصل إليكِ أنا والشباب"، فحذرته من القدوم لأن المنطقة محاصرة، وقلت له: إني سأحاول العودة إليهم، لكنني كنت متيقنة من حتمية موتي، كنت أنزف ولم أعد أشعر بالألم، فقلت في نفسي: إذا لم أتحرك فسأموت من النزف وإن تحركت سيجهزون

عليّ، والروح حلوة، وقفت بعد أن سمعت صوتًا في إحدى البنايات القريبة، كانت إحدى صديقاتي تسكن فيها، عاد الرصاص باتجاهي لكنني لم أصب، توجهت إلى البناء حيث الأصوات عالية، فصرخت مستغيثة، وإذ بخمسة عشر رجلاً من الأمن نزلوا باتجاهي، وقال أحدهم: "سيدي سيدي هناك مصابة"، أدركت إنني لن أنجو منهم، أخذوني إلى إحدى الشقق بالطابق الثالث، وإذ بأخي يتصلّ بي، وبدأ بشتم الضابط، وأخبرهم بأنه سيأتي لاصطحابي، فأجابه الضابط أنه سيأخذني جثة هامدة، وبدأ بشتم أخي وكسر هاتفي النقّال، رنّ هاتفي الثاني وكان المتصل صديق أخي، الذي استشهد فيما بعد، تناول هاتفي ضابط آخر ورد عليه، فاعتذر المتصل من الضابط وقال له: "أختي أمانة عندكم، كنت أظن أنها وقعت بين أيدي العصابات المسلحة"، وطلب منه إسعافي، وبدا أنّ الضابط قد اقتنع بكلام صديق أخي، لكنّ ضابطًا آخر قال: "هاد واحد كذّاب ومسلّح"، اختلف الضابطان فيما بينهما، أحدهما أراد الإجهاز عليّ والآخر أراد إسعافي، في هذه الأثناء اتصل ابني بإحدى قريباتي وأخبرها بإصابتي ووقوعي في أيدي الأمن، فاتصلت بدورها بخال زوجها فقد كان على علاقة جيدة ببعض الضباط ، فاتصل أحد معارفه بمن وقعت بين أيديهم وأخبرهم أنني مررت بالخطأ في هذه المنطقة وأني لا أعرف ما يدور فيها، ومباشرة قاموا بإنزالي لأسفل البناء من أجل إسعافي، وإذ بأخي قد أحضر بعض الشباب من الجيش الحر لأخذي، واشتبك الطرفان، لكن أحد ضباط الأمن وضعني في سيارة تاكسي وأرسل معي عنصراً نقلني إلى مشفى "المجتهد"، بدأت أفقد الوعي جراء النزيف، لكن العنصر حاول إبقائي صاحية وقام بسكب الماء على وجهي، وحين وصلت إلى المشفى تم إدخالي إلى غرفة العناية المشددة، وبقيت فيها خمسة أيام، وبعدها نقلوني إلى غرفة أخرى، وعند قدوم الفرقة الرابعة إلى المشفى كتب أحدهم في ملفي أنه ممنوع أن يتدخل بي أي شخص، وخصوصًا الجهات الأمنية الأخرى، كي لا أهرب.

أحد أطباء المشفى اهتمّ بي لأنه كان صديقًا لأخي، لم يعرّفني بنفسه لكني تذكّرته وعرفت من لهجته أنه من القابون، أصبحت علاقتي به ممتازة وأقنعته بأن ينزل معي ويعمل في مركزي، وبعد ثلاثة عشر يومًا لم أعد أطيق البقاء في المشفى، ورجوته أن يسمح لي بالمغادرة، فتجاوب معي وقال: "سأحضّر أوراقك وستخرجين على مسؤوليتك" فوافقت، لكنّه أثناء تحضير أوراقي سمع أحدهم يتحدث مع المخابرات الجوية ويطلب منهم القدوم لأخذي، فقد كانت الفرقة الرابعة تريد اعتقالي، عاد إليّ الطبيب وقال: "عليّ أن أهربك من هنا بأي وسيلة، لكنني لم أرغب في توريطه بقضيتي، فاتصلت بقريبتي، التي ساعدني خالها، مجددًا وأخبرتها بقصتي، فطلبت مني التريث، وعاودت الاتصال بي وطلبت مني أن لا أهرب وأن أبقى في مكاني كي لا تثبت عليّ التهمة، وبالفعل أتت الفرقة الرابعة و اصطحبوني إلى فرع المخابرات الجوية، وحقّقوا معي طوال اليوم، وفي المساء أفرجوا عني.

انحصرت أسئلتهم خلال التحقيق معي بكيف أدخل إلى منطقة محاصرة؟ واتهموني بأني كنت أفتح الطريق للمسلحين، وكنت أنكر كلّ شيء، فقد علمت من قريبتي التي اتصلتُ بها أنّ أموري بخير، لذلك بقيت مصرّة على روايتي وهي أني كنت في الشام خارج القابون ولا أعلم ما يحصل داخل القابون، وسألوني أيضًا مع

من كنت أتكلّم في الهاتف حين أًصبت، فقد كانوا يظنون أني اتصلت بالجيش الحر ليشتبكوا معهم، فأخبرتهم أنني اتصلت بأخي لإسعافي وأنّ كلبًا أطلق علي النار، وأنا امرأة لاحول لي ولا قوة، وبإمكانكم العودة إلى اتصالاتي الهاتفية والتنصّت عليها، ثم أتى اتصال هاتفي للضابط الذي كان يحقّق معي وسمعته يردّ: "سيدي هي اتصلت بأخيها ليسعفها ولم تتصل بالمسلحين". وبعدها طلب مني الانصراف، فتجرأت عليه آنذاك وقلت له: "هل هو معقول أن تحضروني من المشفى وأنا ما في عليّ شي"، فأجابني: "روحي انضبي واحمدي ربك ولا تروحي هيك روحات مشبوهة". بلعت لساني وقلت في نفسي: "انفدي بريشك يا بنت"، وخرجت إلى منزل أهلي في القابون والذي كان على حدود المنطقة المحاصرة.

اعتقالي

في السابع عشر من تشرين الأول 2015، خرجت مع أختي إلى سوق الخجا لجلب أغراض، وإذ بدورية مؤلفة من ثلاثة شبان توقفنا، سألوني عن اسمي واسم زوجي، كان هناك تقرير بحقي يشير إلى أني متزوجة من مسلح "يرمي على" أي يقصف الطيران، دبّ الذعر في قلب أختي، أعطيناهم الهويّات، "وشحطونا شحط"، أخذونا إلى مكتب لهم يقع في منطقة جانب المحافظة، وبعد أخذ بياناتنا، أعادوا هويّة أختي وطلبوا منها المغادرة، وأخبروها أنهم يريدونني لمدّة ربع ساعة فقط، فطلبتْ منهم أن تنتظرني، وبمجرد أن سنحت لي الفرصة، غمزتها لتغادر المكان، فأنا لا أريدها أن تتضرّر بسببي، لكنّها لم تغادر، ناداها ضابط، وقال لها: "اذهبي واحضري مئتين وخمسين ألف ل.س كي نسمح لكما بالمغادرة، قبل أن أحوّل أختك إلى أحد الفروع الأمنية.

كانت أختي تعلم أن تحويلي إلى أحد الفروع الأمنية يعني أني لن أخرج أبدًا كما حصل مع ولدَيَّ الاثنين، وبالفعل خرجَتْ واتصلَتْ بأخي الكبير وأخبرَتْه القصة، فأمن لها المبلغ وسلّمه لها، لكنّها لم تسمح لأخي أن يقترب من المكان الذي أنا فيه، وعادَتْ وأعطت المبلغ للضابط، فوضعه في الدرج وقال لها: "انقلعي من هون أحسن ما أكتب فيك ضبط، وأسجل فيه أنك كنت تنوين رشوتي، وأضعك أنت في غرفة وأختك في غرفة أخرى وسنغتصبكما" في هذه اللحظة، لم تعد أختي تريد إخراجي ولم تعد تريد المال الذي دفعته، كان كل همها الخروج من المكان وبسرعة، وبدأت ترجو الضابط أن يدعها تخرج، خرجت بعد أن جعلها توقّع على ورقة بيضاء، وطلب منها أن لا تُخبر أحدًا بأي شيء وإلا "فسيقص لسانها".

أخبرت أختي أخي بما حصل وقالت له: "اغسل إيدك منها فهي لن تخرج أبدًا".

بقيت في المكان حتى المساء، تم تفتيشي والتحقيق معي واستمروا بتهديدي والتحرّش بي لفظيًا، ثم حوّلوني إلى فرع المخابرات الجوية في منطقة المزة. في مكتب القلم، تم أخذ بياناتي وقاموا بتفتيشي وتصويري، وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً وضعوني في زنزانة منفردة، لا يوجد فيها ضوء، لمحت كومة سوداء داخلها وخفت أن أقترب منها، لأول وهلة ظننتها جثث مكومة، جلست القرفصاء وبدأت أنسق أفكاري استعدادًا للتحقيق.

في الصباح دخل خيط ضوء من طاقة صغيرة أعلى جدار الغرفة، فاكتشفت أن الكومة السوداء هي عبارة عن بطانيتين مملوءتين بالقمل، تنبعث منهما رائحة كريهة، لم أجرؤ على الاقتراب منهما.

بعد فترة، لا أعلم بالضبط كم كانت الساعة، دفع أحدهم الباب وأعطاني رغيف خبز وقطعة بطاطا وخيارة واحدة "فلحشتهم" في وجهه وقلت له لا أريد الأكل، أريد الخروج من هنا، فأجابني متوعدًا وهو ينعتني بأقذر العبارات: "وتصرخين أنت محرومة من الأكل"، فقلت له: "تضرب إنت والأكل بدي اطلع من هون، وصار يكبِّر بالحكي معي"، ثمّ أغلق الباب وذهب.

في آخر النهار أخذوني بعد أن "طمشوا عيوني" إلى أحد الضباط للتحقيق، أحسست بالرهبة، وخفت آنذاك على إخوتي، وأنا في طريقي إلى الضابط كانوا يسخرون مني، وقالوا: "هي كانت مع المسلحين جوا ومن واحد لواحد، تمارس جهاد النكاح"، ولم أكن أفهم معنى كلمة النكاح!

في بداية الأمر كان الضابط يتحدّث معي بهدوء، سألني عن اسمي وقال لي: "أنت هنا أمانة لدينا، وسيادة الرئيس سيصدر عفوًا عامًّا في نهاية السنة، ومهما يكن ما ستقولينه فسيتم الإفراج عنك، احكي كل شيء وأنا سأساعدك، لأنك لم تحملي السلاح"، فأجبته: "أنا لم أحمل السلاح ولا يمكن أن أحمل السلاح على أهل بلدي، أنا فقط اشتغلت في العمل الإنساني". أخبرني بأنه سيتركني لأرتاح قليلاً، وطلب مني أن أراجع نفسي قبل التحقيق، أعادوني للزنزانة وفي المساء أحضروا لي طعامًا، وبدأت بترتيب أفكاري بحيث أتحدّث بأمور تجعلهم يأمنون جانبي ولا أضرّ نفسي أو غيري، وفي صباح اليوم الثالث أخذوني إلى ضابط آخر غير الذي تحدث معي في اليوم الأول، "والله لا يورجيك هالضابط"، استقبلني بحديث جارح وكبير يا لطيف، "الله لا يسامحو على هالحكي"، أصغر كلمة كانت "يا قحبة، كنتِ مع المسلحين تنيكي من واحد لواحد، وأخيرًا وقعتي بإيدنا يا شرموطة"، وقال كلامًا آخر والله أستحي أن أعيد كلماته. وكان يتكلم بلهجة الساحل.

أوقفني حوالي خمس ساعات أمامه، ولم أعد أعرف بماذا أجيب، كان يضربني ويرفسني، وكانت يداي معصوبتين إلى الخلف، كما كانت هناك عصبة على عيني، وكان يطلب مني أن أقف على رجل واحدة، أحضر أمامي إخراجات قيد لشباب من القابون وطلب مني التعرّف عليهم، لم أعطه أسماء شباب على قيد الحياة، أعطيته ألقابًا وأسماء شباب ماتوا مثل أبو فلان، وكان يقول: "يا قحبة يا شرموطة عم قلك شو اسمو ما عم قلك أبو شو"، فأجبته أنني لا أعرف أسماءهم، أنا أعرفهم بألقابهم، ثم أعطاني إخراج قيد يعود لزوجي بعد أن قام بتغطية اسمه، ولكن صورته على القيد كانت قديمة حين كان عمره أربعة عشر عامًا، في الحقيقة لم أتعرّف عليه، كنت أعلم أن زوجي مطلوب لهم، وهو بنفسه كان يقول لي منذ أن تزوجنا: "إذا تم اعتقالكِ ارمي علي كل الحمل، لا توقعي حالك". اعتقالي كان متوقعًا جدًّا لأني كنت أخرج وأدخل من وإلى المنطقة المحاصرة، خلال التحقيق أصرّ وكرّر الضابط سؤاله: "عم قلك مين هاد؟" فأجبته: "والله ما بعرف"، بدأ يكفر بالله ويشتمني، وأحضر عصًا وبدأ يضربني على يديّ، لم أعد أجرؤ على الحلف بالله أمامه من شدة عبارات الكفر التي كان يتلفّظ بها، ثم سألني: ما اسم والد زوجك ووالدته؟ فأجبته بشكل صحيح، وسرعان ما انهال علي بالشتائم وهو يقول: "هذا زوجك اللي حاطط إي ... فيكي، معقول ما بتعرفي زوجك!"

فأجبته: أنا أعرف زوجي وعمره أربعون عامًا ولا أعرفه طفلاً، وأفتخر به لو عرفته لقلت لكَ، فانهال الضابط عليّ بالضرب والشتائم حتى وقعت على الأرض وأغمي علي، تركوني على الأرض، وحين صحوت لم أجد أحدًا داخل الغرفة، ولكنها كانت مجهّزة بالكاميرات، وبمجرد أن حاولت الوقوف، دخل مجددًا وبدأ برفسي وشتمي بنفس العبارات القذرة، أبقاني واقفة لساعات طويلة، ثم أعادوني إلى الزنزانة، بقيت على هذا النحو مدة ثلاثة عشر يومًا، وكان التحقيق يتكرّر مرة أو مرّتين يوميًا، كانوا يجبرونني على الوقوف لساعات طويلة.

كانوا في المخابرات الجوية يطلقون عليّ اسم زوجي "ر.ل" لأنه كان يقصف الطيران، ونزّل طيّارتين للنظام، ولم يزعجني الأمر، وقلت لهم: "إنّ زوجي لمّا كان ينزل طيّارات، كانت هي الطيّارات تضرب أطفالنا، وقت ضربتوا صاروخين على المدارس كان ابني معهن، ابني انصاب وما مات، لكن في أطفال ماتوا، بالعكس أنا بفتخر بزوجي، لأنو الطيران ما كان عم يحمينا كان عم يقتل أطفالنا، حكيت وما خفت، وقت إحكي هيك كان يضربني كتير."

اتهموني بنقل عبوات ناسفة إلى دمشق، وتهريب أغراض للمسلحين ومعالجتهم، في البداية أنكرتها، لكن فيما بعد اعترفت بأنّني قمت بإدخال موادّ للمصابين وليس للمسلحين، وأضفتُ قائلة، "أنا عملت فقط بالعمل الإنساني ولست نادمة على ذلك"، وبمجرد نطقي بعبارة "لست نادمة على فعل ذلك" انهالوا عليّ بالشتائم والضرب والرفس، وبعد اليوم الثالث عشر أخذوني إلى مكتب تحقيق آخر، رفعت "الطميشة" قليلاً، فرأيت معتقلين واقفين في الممر وأمام الجدران بملابسهم الداخلية "كيلوت" فقط، أحدهم كان سمينًا ولون جلده أبيض وكدمات باللون الكحلي تملئ جسده من شدة الضرب بالإضافة إلى الدماء، وقفت طويلاً أنتظر على باب المحقّق، وحين دخلت طلب مني أن أذكر خاتمة أقوالي وبدا لي أن هذا الضابط ذو منصب عالٍ، فأجبته: "ليس لدي غير ما أدليت به"، فطلب مني أن أخرج لمدة عشر دقائق لأفكر، دخلت مجددًا، فسألني: "أنتِ كنت تدخلين وتخرجين من المنطقة، أمن المعقول أنك حين كنت تخرجين لم تضعي عبوات ناسفة ومتفجرات في الشام؟!". فأجبته: "الإشراك بالله والإضرار بالناس لا يسامح بهما الله"، وكرّرت أقوالي السابقة.

بعدها نقلوني إلى زنزانة جماعية، بداخلها اثنتان وعشرون امرأة، مساحتها ثلاثة أمتار بثلاثة أمتار، وبداخلها مرحاض مع مغسلة وسخان لتسخين الماء، بقيت فيها أربعة أشهر وذقنا فيها الأمرَّيْن، برد دون بطانيات، وأكل سيء، النوم على الأرض، كانت أغلبية المعتقلات مريضات ومنسيات، كل واحدة منهن معتقلة لسنوات، بين الأربع سنوات والسنتين، هناك من خرجت من هذا الفرع وحُوّلت إلى سجن عدرا، و أُعيدت إليه مجدداً، كُنَّ صغيراتٍ في العمر، ولم أكن سوى أنا وأخرى متهمات، والبقية متواجدات بسبب رجل مطلوب من عوائلهن، إحداهن امرأة من منطقة القدم عسالي، كان عمرها ستون عامًا موجودة هي وبناتها، ابنها من جبهة النصرة وأخبروها أنهم لن يطلقوا سراحهن حتى يسلم ابنها نفسه أو يموت، كان ابنها عندنا في القابون وقُتل لاحقًا بعد أن خرجت أنا.

كنت أسمع خلال التحقيق معي صراخ معتقلين يُعذّبون بالكهرباء والحرق واقتلاع الأظافر، وكان الضابط يهدّدني بأنه سيعذّبني بواسطة الكهرباء مثلما يعذّبونهم، الحمد لله لم يكهربني، كان يضربني بعصا خشبية وبيديه وكان يرفسني. في إحدى المرات ضربني على حنكي وكسر أسناني، ومن شدة الضرب وقعت مرةً أخرى على إحدى الطاولات فانكسرت أسناني الأمامية أيضًا.

شاهدت عدة مرات، من خلال ثقب في باب زنزانتي كان مغطًى ومغلقًا بواسطة أكياس الخبز، كنت أزيلها حين أسمع أي حركة، أطفالاً يلحقون بأمّهم خلال ذهابهم إلى الحمام، وفي أوقات خروج المعتقلين إلى الحمام كان السجّان يعدّ من واحد حتى ثلاثة، ويطلب منهم خلع ملابسهم ومن يتخلّف عن الوقت لا يستطيع الدخول، ويَطلب منه الركوع ويبدأ بضربه بعد سكب الماء عليه، كنت أسمع صراخهم باستمرار.

كان يُسمح لنا بدخول الحمام مرتين يوميًا في الصباح والمساء، وإذا تجاوز مكوثنا فيه نحن النساء أكثر من دقيقة كان يضرب على الباب، أما بالنسبة للشباب فكان يعد للرقم عشرة، في حال تأخر المعتقل كان يضربه بشكل لا يحتمله العقل، كنت "أزعل" على الشباب كثيرًا، أحيانًا أسمع صوت معتقل يصرخ ويناجي وفجأة يسود الصمت، فيقول السجّان: "فطس، هات غيرو"، من المستحيل أن أنسى هذه اللحظات، كنت أتخيّل أولادي يتعذبون بهذه الطرق، وأتذكر عندما أخبرني ابني ماهر الصغير ذو الأربعة عشرة عامًا، خلال اعتقاله الأول أن السجّان قال له حين كان يعذّبه: "مات على إيدي أربعة وإنت الخامس"، ابْنَايَ الاثنان معتقلان ولا أعلم عنهما أي شيء حتى الآن.

بسبب الأوضاع المزرية في الزنزانة بدأت بالمطالبة ببطانيات وأكل وتدفئة، كنت أخبط على باب الزنزانة لإخراجنا وتحسين أوضاعنا، أصواتنا العالية كانت تُسمع خارج السجن لأن غرفتنا في الجوية كانت تطل على أوتوستراد، وكنا نشاهد الساحة عندما يتم إخراجنا للتنفّس، فعاقبونا ونزلونا إلى زنزانة بالأسفل كان بداخلها شباب نقلوهم بالباصات إلى مكان آخر، وطلبوا منا تنظيفها، الغرفة كانت سيئة، فلا حمام بداخلها، كان يُسمح لنا بدخول الحمام كل خمسة أيام، أما استخدام المرحاض فقد كان مرتين يوميًا في الصباح والمساء، كان عددنا ثلاثًا وعشرين امرأة، وكنّا نُمنح بين خمس عشرة وعشرين دقيقة للانتهاء من استخدام المرحاض، ساءت أوضاعنا أكثر، ولم أعد احتمل، كنت أتشاجر كثيرًا مع باقي المعتقلات، إحداهنّ قالت للعنصر: "نحن لا نريد البقاء في هذه الزنزانة، فنقلوني أنا وثلاث معتقلات إلى زنزانة صغيرة جدًّا طولها متر ونصف وعرضها متر واحد، كنا ننام على "سيفنا" ونضع أرجلنا بشكل زاوية، بقيت فيها عشرين يومًا، في كل يوم كنت أفتعل مشكلة مع العناصر لأنّ معاملتهم لنا كانت سيئة "ويكبِّرون معنا بالكلام".

في أحد الأيام مرضَتْ زميلتي في السجن وعمرها ثمانية عشر عامًا، أصابها إسهال وقيئ، وكانت تريد الدخول إلى الحمام، فأخرجت يدي من الطاقة الموجودة على باب الزنزانة، وهذه الحركة تعني أننا نريد شيئًا، لكنّ السجّان الذي يعرف أني "مشكلجية" لم يتجاوب وقال: "والله لإجي إكسرلك إيدك"، فأجبته: "بدك تكسرها ولا ما تكسرها، هلق بدّك تجي تفتح الباب، البنت بدها تفوت عالحمام".

استمرّ الجدل والشجار بيننا وهدّدني قائلاً: "والله لربي فيك السجن"، فقلت له: "طز فيك وبالسجن وبمعلمك، هلق بدي اشتكي عليكن إنكم عم تعاملونا أسوأ معاملة". هدّدته بالشكوى لأن لجنة كانت تقوم بالتفتيش أخبرتنا أن لا نسكت عندما يكون هناك أي شكوى.

فأجابني: "روحي خرّيها والله لربي فيكِ السجن"، حاولت البنات من حولي أن يقمن بتهدئتي وقلن لي: "لا يقوموا يعملوا فيكِ شي اسكتي"، دون جدوى فأنا لم أعد أستطيع السكوت وأنا أرى البنات تبكي وأحوالنا صعبة بسبب المرض والبرد، وكنت أرى المرأة المسنّة ذات الستين عامًا تبكي بشكل دائم، فهي مريضة بالسكري وكانت ترجوهم بأن يعطوها دواء وتطلب منهم السماح لها بالخروج إلى الحمام دون جدوى، فكانت تبول على نفسها، كنت أصرخ وأقول: "هي المرا قد أمك مو حرام ما تسمحلها تفوت عالحمام"، وكان يرد: "إنت شو دخلك يا شرموطة يا..."، حتى حضر رئيس الفئة المسؤول عن الزنازين وسألني: "لماذا تقومين بالاستعصاء وتصرخين وتقوّمي البنات علينا؟"، فقلت له: "أريد أن أشتكي".

كان هذا الشخص محترمًا معنا قليلاً وبدأ بتهدئتي: "خلص ازرعيها بدقني ما بدنا مشاكل"، سمعنا أحد الضباط وهو يمرّ، فاستفسر عن الأمر، فأخبرته أنني أريد أن أشتكي لرئيس الفرع، فبدأت النساء في جميع الزنزانات بالدقّ على الأبواب، "لقوني تجرّأت بالكلام، فقالوا حرام تبقى لوحدها تتحدث"، فجنن وبدأن بالدق على الأبواب. في هذه اللحظة خاف العناصر، وحضر رئيس الفرع، وأخبره العناصر بأن السجينة ورد "هيك عم تعمل". فصرخ وكفر وطلب منهم أن يحضروني، خفت وتخيلت أنهم سيعذبونني، وبالفعل أخذوني إلى غرفته، فقلت له: "بيجيبوا الشاي وما بيخلونا نفوت على الحمام، ما عدنا استرجينا ناكل أو نشرب، عم يعاملونا متل الحيوانات، عم يكبّروا معنا بالحكي، نحنا عندكن مماسح، مو نحنا ولاد البلد، كنتم تقولون لنا بأننا أمانة عندكم، ليش هيك عم تعاملونا؟" سكت الضابط وسألني: "شو تهمتك؟" فأجبته: "تعامل مع مسلحين تمويل ومدري شو" ثم قمت بتعداد التهم الموجّهة لي وهي من خمس إلى ست تهم، فأجابني: "كل هالتهم وإلك عين تحكي"، فقلت له: "إلي عندكم حق السجين، وأطالب بأن تعاملونا كبشر"، فسألني: "ما هي طلباتك"، أجبته: "تعاملونا كإنسان"، فرد رئيس الفئة المسؤول: "خلص سيدي أنا بكفلها إنو ما عاد تعمل شي"، فقال رئيس الفرع: "ما دام أبو هبة تكفّلك رح نسامحك هالمرّة، وهي آخر مرّة وعقوبتك إنّك تعطي الإبر للمساجين لما يكونوا بحاجتها" مسكنات وإبر لمرضى السكري.

بعد يومين، وفي الساعة السادسة صباحًا فتح باب الزنزانة نفس العنصر الذي تشاجرت معه وقال: أنتي احزمي أغراضكَ وتعالي. في الحقيقة خفت وتوجست منه، لأنّ الموظفين لم يحضروا بعد، "خفت يعمل فيّ شي"، أعادني إلى الزنزانة التي وُضِعت فيها أول مرة، وأحضروا أكثر من خمسين ورقة، بعضها ورق أبيض والأخرى مكتوب عليها، لكنني لم أستطع قراءة أي شيء فيها بسبب سرعته في قلب الأوراق بعد أن أوقع وأبصم، ثم "طمشوا عيوني وكلبشوا إيدي". سألته عدة مرات: "وين رايحين" فكانت إجابته مقترنة بضربي: "مو شغلك اخرسي وما تفتحي تمك".

وضعوني في سيارة، ثم "داروا فيني" بكل الأفرع من فرع الخطيب لفرع فلسطين .... إلخ، مررت على خمسة أفرع وآخر فرع كان فرع سيرونكس، ثم أمروا العنصر أن يأخذني مجددًا إلى فرع الخطيب، كنت أسمع أصواتهم، أحسست بعد فرع سيرونكس القريب القابون أنهم يريدون تضليلي، لأنهم لفوا نحو الأتوستراد باتجاه فرع الجوية بحرستا وليس إلى فرع الخطيب.

وضعوني من أجل المبادلة، صفقة تبادل، في فرع الجوية بحرستا في غرفة فارغة ومهجورة، وبدا لي أن الفرع كان فارغًا بسبب قصفه، سألت العنصر: "أين أنا؟"، فأجابني: "بدك تخربي بيتي خليكي ساكتة وفوتي نضبي".

تأكدت من المكان الذي أنا فيه من عبارة وجدتها مكتوبة على حائط الغرفة "فرع جوية حرستا". كانت المعاملة فيه جيدة، فقد نظّفوا الغرفة، وأعطوني حرامات نظيفة، وكانوا يطعمونني من الأكل الذي يأكلونه، فلا يوجد في الفرع آنذاك أي معتقلين، وبقيت في المكان ثمانية أيام. ولم يخبروني أنني هنا بغرض المبادلة، كنت عصبية جدًّا وأضربت عن الطعام، لأنني كنت أريد أن أفهم لماذا أنا هنا في هذا المكان المهجور.

في اليوم الثالث من وجودي حضر أحد الضباط، وطلب مني أن أتناول طعامي وأخبرني أني سأخرج خلال يومين، ظننت أنه يسخر مني، لكنه قال: "إلنا غرض عند الأوادم مناخدوا ومنطالعك" وخرج. خطر في بالي أن المبادلة ستكون بيني وبين زوجي لأنهم كانوا يسألونني عنه كثيرًا، فهو كان "مشهور كتير" بالجوية لأنه كان يضرب على الطيران، بدأت بقراءة القرآن، وكنت كل يوم أقرأ سورة ياسين أربعين مرة، وبعد سبعة أيام كنت أريد الاستحمام لأطهر نفسي بعد الدورة الشهرية، دخل الضابط وقال لي: "أحضري أغراضك وتعالي"، فقلت له: "للحمام؟"، أجابني: "روحي تحممي ببيتكم". ركضت خلفه، ولم يضعوا العصبة على عينيّ، ورأيت سيارة تقترب منا، دمعت عيناي ثم خفت، فقد ظننت أن السيارة هي سيارة زوجي، وتساءلت بيني وبين حالي: "هل هو زوجي ويريد تسليم نفسه مقابل خروجي؟" لكن الأمر كان مختلفًا، فقد رأيت "أحد كبارية" القابون ويدعى س.ب ، أتى لأخذي ولينفذ عملية المبادلة، أحسست أن عمرًا جديدًا قد كُتب لي، لم أكن أصدّقُ الضابط بقصة خروجي، لكن عندما شاهدت س.ب أيقنت بصدقية الأمر فهو معروف بأنه كان يتعامل مع الأمن، ركضت باتجاهه وأنا أقول: "معقول تركتوني خمسة أشهر بدون ما تطالعوني"، فأخبرني أن زوجي في بداية عام 2016 خرب الدنيا، فقد خرج مع أربعة من أصدقائه وخطفوا من أمام مشفى تشرين بدمشق دكتورة برتبة عميد، ولم يقبل النظام بالمبادلة، فأعطت الدكتورة رقم عائلتها لزوجي وطلبت منه أن يتصل بهم ليتفاوضوا مع النظام، وبالفعل أعلمهم زوجي برفض النظام للمفاوضة وقال لهم: إن أردتموها فاوضوه، وهذا ما حصل، لقد دفعوا للنظام عشرة ملايين ليرة، فوافق الأمن على المبادلة، وعندما اصطحبها س.ب للمبادلة، سأله زوجي: كيف أضمن أنك ستسلمني زوجتي؟ فقال ابن سميح إنه هو الكفالة وسيبقى رهينة مع زوجي حتى يستلمني، كان هذا الشاب يحبني لأنني كنت أهتم به عندما كان مصابًا، وفعلاً تم الموضوع كما اتفقوا عليه، وخرجت من المعتقل في بداية الشهر الرابع عام 2016.

وعدت إلى القابون المحاصرة وكان التصعيد والقصف علينا عنيفًا. بقينا هناك حوالي العام، وعدت إلى عملي في المركز حتى احترق، كان النظام يشنّ علينا حرب إبادة ولم يخرج منها إلا "كل طويل عمر"، لم يكن أحد يعتقد أننا سنخرج أحياء، إلى أن هُجّرنا.

أحضروا الباصات، وخرجت أنا وابني وزوجي، ولم يبق أحد في المنطقة، من أراد البقاء للمصالحة لم نعد نسمع عنه أي شيء، بعضهم اختفوا، وآخرون اعتقلهم النظام، كان من المستحيل أن أُصالح "النظام ما بيتأمن فيه، كيف بدي صالح؟". تم تهجيرنا إلى إدلب، بقينا هناك لمدة عشرة أيام، ثم خرجنا نحن الثلاثة "تهريب" إلى تركيا في آخر شهر نيسان عام 2017، بقينا شهرين في أنطاكيا، ومن ثَم توجهنا إلى إسطنبول.

كان زوجي قد أرسل ابنه "تهريب" إلى السويد عندما كان عمره أحد عشر عامًا، لمّ الطفل شمل أمّه وإخوته، وبعدئذ خرج زوجي إلى السويد بعد أن لمّت شمله زوجته، لقد خيّرته زوجته إما أنا وإما هي، وكان من الصعب عليه أن لا يشاهد أولاده فتركني "وعملتلوا لم شمل وطلع لعندها"، في الحقيقة، قبل أن يسافر سألني ماذا عليه أن يفعل هل يبقى معي أم يسافر، وقال لي: "شو بدك لأعمل؟" فأخبرته أنه لن يكون مرتاحًا بدون أولاده، وأن أولاده أحقّ به مني، وبقيت أنا وابني في تركيا نعارك هذه الحياة.

حاليًّا، أبحث عن عمل، الفرص قليلة وساعات الدوام طويلة جدًّا، والأجور متدنية جدًّا، كما أنّ صحتي لا تساعدني أن أعمل لساعات طويلة، ابني منذ عشرة أيام يعمل في "سوبر ماركت" وأمورنا ماشي الحال والحمد لله. لم أستطع حتى الآن أن أعالج أسناني المكسورة جرّاء تعذيبي، عالجت بعضها فقط، ومع ذلك أنا أرى أن الشتائم التي كانت توجّه لي في المعتقل والوقوف لساعات طويلة كانت "تشلني شل"، الخوف والرعب منهم كان تعذيبًا كبيرًا بالنسبة لي، "والفايت فايت والطالع طالع" كان بالنسبة لي تعذيبًا أيضًا.

لا أستطيع وصف ما مررت به خلال الاعتقال، كان الأمر صعبًا جدًّا، تعذيب المعتقلين أمامي وعلى مسمعي كنت أتخيّلها تحدث لأبنائي، جميع ما مررت به لا يوازي حزني على الظلم الذي كان محدقًا بالشباب، موتهم تحت التعذيب كان فظيعًا، صوت الرجال عندما كانوا يصرخون من الألم كان صعبًا جدًّا علي، "الحكي مو متل الشوف".

علاقتي بأهلي تغيّرت بشكل كبير جدًّا بعد اعتقالي، فقد أصبح أهلي يخافون مني، الاتصالات بيننا كانت محدودة وتتم بحذر شديد، حتى الآن إخوتي يرسلون لي رسائل مكتوبة فقط، فهم يقيمون في الشام وعلى أطراف القابون، إضافة إلى أن أمي كانت تحذرني من الاستمرار في عملي وتطلب مني التوقف، كان ذلك بدافع خوفها عليّ، فهم شاهدوا ما حصل لنا ولم تعد تتحمّل المزيد من الخسارات، أخي بعد اعتقاله قام أهلي بتسفيره إلى خارج سورية، وأخي الآخر استشهد، وباقي إخوتي "على باب الله وأمي دايمًا خايفة عليهن"، أختي الأصغر مني زوجها معتقل، ومات زوجها تحت التعذيب، سلّموها أغراضه.

حين تم اعتقالي أخبرني أخي أنّ أمي من شدة البكاء كانوا يعتقدون أنها ستموت "وما بتْصبح" لقد عانت كثيرًا، كانت تقول لهم: "ابني محمود مات، اطمأننت عليه ولن يقوم أحد بتعذيبه بعد الآن، أما ابنتي، تقصدني، فبنت لا أعلم ماذا يفعلون بها وكيف يعذبونها؟!" بعد خروجي من المعتقل دخلت أمي، عن

طريق برزة، إلى المنطقة المحاصرة التي كنت فيها، لكن أخوتي لم يجرؤوا على زيارتي، فمنطقتنا كانت من المناطق الساخنة، ومن يدخل إليها لا يسلم من النظام.

بعد خروجي من المعتقل شعرت أن طاقتي أصبحت أكبر، فأنا بدأت بطريق وعليّ متابعته، كان زوجي يخاف من الاغتصاب في المعتقل، بعد أن استلمني حين خرجت ركض باتجاهي وحضنني، وسألني: "حدا قرّب عليكِ؟" فأجبته: "لا"، فسألني: "متأكدة ولا عم تكذبي علي"، فأكدت له جوابي وحمدت الله، بقيت معاملة زوجي لي جيدة، كنت خائفة من أن يتركني بعد خروجي من المعتقل، أو أن يلومني لأني لم أنتبه لنفسي، فعندما خرجت مع أختي لجلب بعض الأغراض واعتقلت عندها، كان قد حذرني من الخروج وطلب مني البقاء فقد كان لديه معلومات أن الطرقات غير آمنة، لكني كنت مصرّة على الخروج، وعندما خرجت من المعتقل قام بتذكيري أنه حذرني من الخروج وقال: "هي لأنك ما ردّيتي عليّ انكمشتي".

لكن الذي حزّ في نفسي بعد خروجي من المعتقل هو أن معظم معارفي ومن ضمنهن صديقاتي قمن بحظري على وسائل التواصل الاجتماعي، "ما بجي عليهن لأنو النظام كلب وغدّار"، ومن لم يحظرني، وهم قلة، يتواصلون معي بحذر شديد، فالنظام أثناء التحقيق معي، حصل على جميع المكالمات التي قمت بها ودقّق بها، ومباشرة أغلقوا رقمي.

لم أتلق أي دعم نفسي، ولكني مؤخرًا سجّلت في إحدى المراكز في تركيا، وتلقيت بالأمس أول جلسة دعم نفسي، وجلسة معالجة فيزيائية لكتفي، لأن الرصاصة التي أصبت بها من نوع "خارق، حارق، متفجر" بعد أن تدخل الرصاصة الجسم تنفجر وتخرج منه. أعاني حتى الآن من تكلس في كتفي، وقطع بعض الأوتار، وأعاني من ضيق في التنفس أيضًا.

كلمة أخيرة

يجب أن تتحقّق العدالة، وأن يحاكم المجرمون في محكمة دولية، وأنا مستعدة أن أكون طرفًا في الادعاء عليهم، ومستعدّة لأيّ شهادة، ورغبتُ بتوثيق قصتي كي يسمع كلّ العالم الظلم الذي لحق بنا، فالنظام فاسد وظالم، أخذوا ابني ماهر من مقعد الدراسة، عندما كان طفلاً، وأنا لا أعرف عنه شيئًا منذ سبع سنوات، وهناك الآلاف حالهم كحال ابني، غالبية البنات اللواتي قابلتهن في المعتقل كانت أعمارهنّ تتراوح بين ستة عشر عامًا وثمانية عشر عاماً، و ما زلن حتى الآن في المعتقل، وأنا أتواصل مع أسرهن.

لقد آمنت بالثورة منذ البداية، ولولا ذلك لما تركت ابني "يروح"، كان ابني محمد، "الله يبيّن حقّو"، ينزل من قطعته يوم الخميس ليشارك في التظاهر يوم الجمعة، كنّا نخرج مع بعضنا البعض أنا وهو وابني وأخي، "ما كنّا نروّح علينا ولا مظاهرة ولا فعالية".

أمّا لماذا قرّر ابني أن يلتحق بالجيش، فلأنه شاهد في بداية الثورة وخلال مظاهرة سلمية إصابة أحد أصدقائه في فخذه، بالإضافة إلى وفاة أربعة شهداء، بعد هذه الحادثة كان محمد يقول لي: "ما لازم نسكت

علي عم يصير"، لقد شهدنا قصف المدنيين وحصارهم، كانت الثورة في دمي ويومًا بعد يوم كانت قيمتها تكبر في نفسي، صحيح أن النظام أخذ ابْنَيّ الاثنين، لكني كنت دائمًا أبحث عن ما يدعمها. وما زال لدي أمل كبير بأن يعود كلّ شيء أفضل مما كان إذا بقينا نطالب بحقوقنا، والحقّ لا بدّ من أن يعود إلى أصحابه في يوم من الأيام....

فالحق ينتصر دائمًا على الباطل.

بين سجنين[10]*

[10] - حوار أجرته الكاتبة مع ريم عبر WhatsApp))، في الرابع والعشرين من شباط عام 2019، مدة الحوار: ساعتان وعشرون دقيقة.
* لوحة الغلاف: ورد جبران

أنا ريم عمري ثلاثة وعشرون عامًا، كنت طالبة بكالوريا – علمي، ولم أكمل دراستي الجامعية بسبب الحصار على الغوطة وخوف والدي عليّ من الحواجز. خرجت من الغوطة بصحبة عدد من المعلمات، وانتقلت إلى منزل أختي في الشام، وعندما خرج زوجها من المعتقل سافرا فورًا إلى تركيا، ولم يتبق لي من أسرتي في الشام غير عمي ومنزل آخر لأقاربنا. كنت في تلك الفترة أعمل على إتمام أوراق زواجي كي أسافر إلى الأردن حيث يقيم خطيبي، وهو ابن خالتي جنسيته فلسطيني أردني، بصحبة عمي الذي يتطلب عمله السفر، وقد حصلت على جواز سفري رغم أني كنت خائفة من التوجّه لمبنى الهجرة والجوزات لأن والدي مطلوب، ولكن والحمد لله لم يحصل معي شيء.

الاحتجاز

في السادس عشر من آذار عام 2015، ذهبت مع عمي إلى موقف الباصات كي نسافر، ومررنا على الحاجز الأول بسلام، ولكن عندما توجّهت لختم جواز سفري أخبروني أنه لا يمكنني السفر، وأن علي مراجعة فرع فلسطين 235، وبعدها يمكنني ختم جواز سفري في منطقة المرجة، وهنا عرفت أنني مطلوبة، وكان عمي أثناءها منشغلاً في سيارة كان يريد جلبها من الأردن إلى سورية لدرجة أنه نسيني، حاولت مع الموظف أن يختم جوازي، وشعرت بأنه كان يريد مالاً، وتعزز شعوري هذا عندما وجدته ونقيبًا يعمل هناك يتحدثان مع عمي، لكنه كان منشغلاً بالسيارة.

فقدت صوابي لأني لن أسافر فقد كنت في حالة نفسية سيئة وغير مستقرة، وكنت انتظر بإلحاح لحظة خروجي من الشام المليئة بالعسكر، وقد انزعج خطيبي جدًّا عندما أخبرته بالأمر، فقد كان سيحضر مع خالتي لاستقبالي في الحدود.

سألني عمي إن كنت أريد أيًّا من أغراضي قبل أن يُسافر إلى الأردن، وقد كان في أمتعتي "جهازي"، لكني رفضت وأخبرته بأني لن أعود إلى الشام، ثم انتظرت عودته من الأردن وأنا أبكي بحرقة، حتى قال لي العساكر أنه يمكنني الانتظار والجلوس في الجامع.

دخلت إلى الجامع المليء بالناس الممنوعين من السفر، وكان الوضع مزريًا جدًّا، وأخدت هاتف سيدة كانت هناك، واتصلت بخطيبي وسمعت صوت عمي الذي كان بقربه، وأحسست بحرقة القلب لأني لم أسافر، وانتظرت حتى عاد عمي مع سيارته، ووعدني أنه سيحل أزمتي، وكان علينا انتظار الصباح حتى نتوجّه عن طريق السويداء، لأنّ الوقت أصبح متأخرًا جدًّا، فدخلت مع عمي إلى مبنى الهجرة والجوازات لأقوم بشحن هاتفي النقال، فسألني موظفون هناك: "هل أنتِ البنت التي قاموا بإرجاعها من الحدود؟"، فقلت لهم: "نعم"، فسألوني عن اسمي وطلبوا جواز سفري فأحضرته لهم، وأخبروني أن أخي ووالدي مطلوبان، وأنّ عليّ مراجعة فرع فلسطين، ثم طلبوا منا التوجّه إلى العقيد، وهناك فتشوا أغراضي وأخذوا هاتفي، وكان هناك صورة على الحائط لبشار الأسد فسألني أحد العناصر: "من هذا؟"، فقلت له: "رئيسنا"، ثم سألني عن عمل والدي فأخبرته أنه لا يعمل، وأنه كان ضابطًا وهو متقاعد الآن، كان هذا العنصر شابًّا حقيرًا ولئيمًا،

وضعنا أنا وعمي في مكتب قرب مكتبه وبداخله سرير، وطلب منا أن ندقّ على الحائط عندما نريد الدخول إلى الحمّام، وطلبت من أحد الأشخاص الذي كان برفقة عمي أن يُخبر أسرة عمي أن مفرزة المخابرات الجوية هي من أخذتنا، وفي تلك الفترة كانوا يعتقلون النساء ليبادلوا عليهن أثناء المفاوضات.
بقينا في تلك الغرفة على الحدود تسعة أيام ونحن لا نعلم أي شيء عن وضعنا، رغم أن عمي لم يكن مطلوبًا، وليس عليه مراجعة أي فرع، لكنهم احتجزوه معي، وحاول أن يلتقي بالعقيد لكنّ الأخير كان مشغولاً.
كنت خلال الأيام الأولى من احتجازنا أرتجف خوفًا ولم أستطيع تناول الطعام، الذي كان عبارة عن معلبات قاموا بمصادرتها من السيارات المارة، وفي نهاية اليوم التاسع سجلوا أماناتنا على أن نأخذها لاحقًا، وفي اليوم التالي بتاريخ الرابع والعشرين من شهر آذار عام 2015، حوّلونا إلى الفرع مع شخص آخر كان محتجزًا في النظارة، قيّدوا معصمه بمعصم عمي، ووضعونا في السيارة، واتّجهوا باتجاه طريق السويداء، وأنزلوا الشخص الذي كان معنا في فرع الجوية بالسويداء، طلبت من العنصر أن استعمل الهاتف كي أطمئن أهلي علينا، لكنّه رفض، وعندما وصلنا إلى منطقة المزة عرف عمي أنهم سيأخذوننا إلى فرع الجوية.

المخابرات الجوية

دخلنا إلى الفرع وسجلوا أماناتنا، وأجلسوا عمي مع معتقلين آخرين تحت الدرج، ثم أخذوا اسمي وأسماء أفراد أسرتي وغيرها من المعلومات، وأخبرني عمي أننا لن نرى بعضنا بعد ذلك، ودعوتُ له بالخروج من السجن فهو لا علاقة له بشيء وإنما أراد توصيلي إلى خطيبي، وأنا لا أريد له ولعائلته أن يتأثروا بسببي وبسبب عائلتي، وطلبتُ منه أن يُخبر خطيبي بأن لا ينتظرني لأنني لن أخرج قبل ثلاث سنوات، فطمأنني وقال لي ستخرجين، وإن خرجتُ قبلكِ فلن أدعكِ في السجن، ثم قيدوا معصمي وعصبوا عينيّ، ووضعوني في زنزانة منفردة رائحتها كريهة وفيها بطانية قذرة وكانت مساحتها 2×1 م^2، وذات سقف عال، فقلت لنفسي إن عليّ أن أنسى الحياة، لأنني لن أخرج من هذا القبر طول حياتي وبكيت، ثمّ دقّ العنصر الباب، وفتح الطاقة وسألني: لماذا أدعس على البطانية، فقلت له: "رائحة التراب والمكان أنظف منها!" فضحك وأخذني إلى التفتيش.
حضرت مضيفة طيران لتفتشني، وهي تحضر من المطار كلّ ثلاثة أيام لتفتّش النساء، كان عمري آنذاك أقلّ من عشرين سنة، فسألتني عن سبب وجودي. فأخبرتها قصّتي وبأني موجودة لأن أبي مطلوب، وقامت بتفتيشي وطلبت مني أن أخلع بنطالي فقلت لها: "لا أستطيع أنا في الدورة الشهرية" فتركتني، وكان هناك عدة صبايا جدد تمّ إحضارهنّ للتفتيش، وبعدها أعادوني إلى الزنزانة، وأخبرت السجّان أنّ البطانية وسخة فأحضر لي ثلاثة غيرها، وضعت اثنتين منها تحتي وتركت الثالثة لأتغطّى بها، ووضعت سترتي تحت رأسي، وأخبرني السجّان أن أدقّ الباب عندما أريد الخروج إلى الحمام.

كانت أول ليلة بالنسبة لي صعبةً جدًّا ومعتمةً وكنت جائعة، انتظرت وجبة العشاء وكانت عبارة عن قطعة بطاطا مسلوقة ورغيف خبز وماء موضوع بإبريق بلاستيكي، فطلبت من السجان الماء بعبوة أخرى، وتحدّثت معه بلطف كي يتجاوب مع طلبي، فأحضر لي ماءً بعبوة "الفلاش" بعد أن تم غسلها، فكانت هذه العبوة أسوأ من الإبريق، فلم أعد أشرب الماء إلا في الحمام.

وبعد يومين انتشر القمل في شعري وجسمي وبدأت الحكّة، قبل ذلك لم أكن أعرف شكل القمل، ولم أخلع حجابي أبدًا منذ احتجازي في الحدود، ولكنّي يومها مشطت شعري بأصابعي، فوجدت قملة على قمطة حجابي فانصدمت، وتفاجأت حين لاحظت أن القمل نوعان، قمل الشعر وقمل الجسم، إلى أن قالوا لي إن دوري في الحمام الآن، فخفت وقلت لهم: "ليس معي ثياب"، فقالوا: "سنجلب لكِ الثياب من إحداهنّ"، وكان مقابل زنزانتي، ورقمها تسعة، حمام صغير وبداخله مغسلة ولا تلتقطه الكاميرات.

عندما أخذوني إلى الحمام سمعت أصوات رجال، فنظرت من خلال شق صغير بين الحائط والباب، فوجدت رجلاً عاريًا، ولم أعد أجرؤ على النظر مجددًا. كنت خائفة من العناصر، فرجوت السجّان وهو من حمص أن لا يدع أحدًا يقترب أثناء دخولي الحمام، فصرخ مخاطبًا شباب السخرة، وهم شباب من المعتقلين صغار في السنّ، يقومون بتوزيع الأكل وشطف السجن، وقال لهم: "بدي إلعن شرفو اللي بيقرب لهون"، فدخلت واغتسلت بشكل سريع، وغسلت ثيابي ثم نشرتهم على الكراسي في باحة التنفس، وكان قد مضى على آخر مرة اغتسلت فيها عشرة أيام.

وعندما أردت إحضار ملابسي في اليوم التالي، رأيت القمل يمشي عليها، فنصحوني أن أتركها تحت الشمس، طلبت من السجان تغيير البطانيات بسبب انتشار القمل، ولم أكن أعرف كيف يمكنني إزالة القمل، إلى أن اكتشفت كيف يمكنني طقّها وبدأت أتسلّى بها.

في اليوم الثالث أخذوني إلى التحقيق بعد أن عصبوا عينيّ وقيدوني، وسألني الضابط عن اسمي وأسماء أفراد أسرتي وعملهم، وقد عرفت لاحقًا أنّه مقدم، ثمّ بدأ بإعطائي محاضرات عن تضحياته في سبيل البلد وأنّه مصاب مرتين، ثمّ قال لي: "من يظنّ أبوك نفسه؟ هل يظنّ أنّه سيستلم منصب رئيس الجمهورية! إن أباكِ كرٌّ وسافل"، لكني لم أردّ عليه، ولم يشتمني بشتائم كبيرة. لمحت من أسفل العصابة هاتفي بين يديه وكان خاليًا ونظيفًا إلا من مكالمات أجريتها مع أهلي، ثم سألني عن دراستي وعن خطيبي وعمي، وأخبرته أن الأخير لا علاقة له بشيء وأنه لا يتواصل مع أهلي، وقال: "بما أنك حلوة يا ريم ألم يخطبك أحد من الثوّار؟" فأجبته: "نعم، ولكني لم أوافق"، فاستفسر عن السبب وأجبته: "لأني لا أريد أن أدفن نفسي هناك داخل الحصار"، ثم سألني إذا كان لي تواصل مع أحد من الجيش الحر، فقلت له: "لا، أبدًا"، وبعد انتهاء التحقيق قال الضابط للعناصر: "ما تنقصوا عليها شي"، هنا خفت وتساءلت بيني وبين نفسي عن معنى هذا الجملة!

أعادوني إلى الزنزانة، ولم أنم في تلك الليلة من أصوات طرق باب الزنازين، فتحًا وإغلاقًا حين خروج المعتقلين إلى الحمام، وكان عددها أربعة وخمسين زنزانة، موزعة بين ممرّين، بالإضافة إلى صوت غناء

أحد العناصر، أما صوت تعذيب المعتقلين فقد كنت أسمعه يوميًّا من مكتب التحقيق القريب مني، وكنت أدعو الله أن يخفّف عنهم.

ثم طلبوني مرة ثانية للتحقيق وخفت كثيرًا، أدخلوني إلى الغرفة نفسها التي كنت من خلالها أسمع أصوات التعذيب بعد أن أوقفوا المعتقلين في الممرّ، ووجوههم باتجاه الحائط وكانوا معصوبي الأعين، وكان المحقّق وهو مقدم ويدعى زياد قد فتّش في هاتفي الجوّال وقال لي: "لا تكذبي علينا، نحن نعرف كلّ شيء"، فقلت له: "إني أعلم ذلك"، ثم سألني إذا كنت أتواصل مع أهلي الموجودين في الغوطة، فأجبته بأني لا أتواصل مع أحد باستثناء أمي وأخي الصغير أحيانًا، فقال: "في حقيبتك شيء طلبوا منكِ أن تنتبهي إليه، فقلت له: "إنه دواء لأمي وأوصتني ابنة عمتي بأن أنتبه له كي لا ينكسر"، فقال: "كذّابة ولي"، فأجبت: "لا يوجد في حقيبتي إلا ملابسي وجهاز عرسي"، ثم أضاف: "كل محادثاتك الهاتفية موجودة لدينا، ولن أسمع ألفي مكالمة هاتفية، ولكنّي سأكلّف ضابطًا أن يختار لي أربعين مكالمة وسأسمعها"، وقد كان يكذب لأن شريحة هاتفي جديدة، ولا يوجد فيها هذا العدد من المكالمات، لكنه حاول أن يلصق بي أي تهمة.

كنت خائفة بسبب أصوات التعذيب التي سمعتها وصوت العنصر الذي يغنّي ويمشي جيئة وذهابًا، وكنت أتخيّل أنّه سيدخل إلى زنزانتي ويغتصبني. أمّا صوت مرواح الهواء، فكانت وحدها تسبّب مرضًا نفسيًّا، لم أنم طوال الليل وكنت أقرأ القرآن، وقد علمت لاحقًا أنّ العنصر لا يجرؤ على دخول الزنزانة، لأنه سيعاقب وهناك كاميرات تراقب.

مرّ اليوم الثاني مثل كلّ الأيام اللاحقة، حيث يأتي الفطور عند السادسة صباحًا، وكان عبارة عن رغيف خبز ومعلقة لبن أو بضع حبات زيتون أو بيضة مسلوقة أو قليل من مربّى المشمش، كلّ يوم يقدمون لنا مادّة واحدة فقط، وفي الغداء يضعون القليل من الأرز، وكان يشبه العجين ولا طعم له، مع مادة أخرى كنت لا آكلها، والعشاء بطاطا مسلوقة، وكان رغيف الخبز يوزع علينا مرة واحدة في اليوم، وفي بعض الأحيان يقدّمون لنا الشاي، وكنت أُكثِر من الماء وأحاول أن أبرد كي لا يصيبني إمساك جراء الأكل الذي يُقدّم لنا، وكانوا لا يسمحون للشباب بالخروج إلى الحمام إلا في موعدهم المحدد، وأذكر في إحدى المرات أنّ أحد المعتقلين بال على نفسه، فشتمه العنصر وكفر بالله، وقال له: "لماذا لم تدقّ الباب؟"، لكنه كان سيضربه في كلّ الأحوال سواء دقّ الباب أم لم يدقّه.

كانوا يعطون الشباب مدّة لا تتجاوز خمس دقائق للحمام، ينظم دور دخولهم السخرة ويراقبهم من بعيد أحد العناصر، والسخرة هم من المعتقلين الشباب وتتراوح أعمارهم بين خمسة عشر عامًا وستة عشر عامًا، أما مدة الحمام بالنسبة للبنات فكانت أريح قليلاً، وكانت تكفي كي أتوضأ، وقد سألني السجان في إحدى المرات إن كنتُ أصلي، فأجبته بنعم، وقد كانت الصلاة متاحة لي لأني في زنزانة منفردة، لكني لم أكن أعرف مواعيد الصلاة وكنت أقدّرها تقديرًا.

بقيت في المنفردة خمسة عشر يومًا، بعدها جلبوا إلى زنزانتي امرأة اعتقلوها من المطار، وكانت تعمل فيه كمستخدمة، وقد أخبرتني أن زميلتها كتبت فيها تقريرًا، لأنّ في هاتفها بعض أغاني الثورة، كان ابنها قد وضعها فيه، وهي أم لثلاثة أطفال وتسكن في جرمانا، كانت امرأة معترة.

خلال وجودي في المنفردة حقّق معي الضابط مرتين، ومن كان يكتب أقوالي حقّق معي ثلاث مرات أخرى، وأخبرني أن إضبارتي سيكون مكتوباً عليها "الإرهابية ريم"، في بادئ الأمر كنت أظنه يمزح، لكني عرفت فيما بعد أنّ الأمر حقيقيّ. كان المحقّق ألطف من الضابط، وسمح لي بنزع العصابة عن عينيّ، وخلال التحقيقات طلبوا مني أسماء أصدقاء أبي وأعطيتهم أسماء أشخاص مطلوبين، واسم رجل ميت، فأنا أعلم ما يعنيه ذكر الأسماء لأنهم سيعتقلونهم فورًا، وأنا لا أريد أن أضرّ أحدًا، ولاحقًا أحضر الضابط أمامي القيود العائلية، لمن ذكرتهم مع صورهم لأتعرف عليهم ومن ضمنها صورة أبي وأخي.

وبعد خمسة وعشرين يومًا أخذونا ليلاً أنا والمعتقلة الأخرى إلى غرف فوق الأرض، ووضعوا كلاً منّا في غرفة، رحبت بي البنات، وفرحن بوصولي كأي معتقلة جديدة تنضم للقديمات المتواجدات في الزنزانة قبلها، وبدأن بسؤالي عن الأخبار التي تحصل خارج المعتقل وعن قصّتي، وسألوني: "إرهاب؟"، فأجبتهم: "لا، ولكن نصف عائلتي مطلوبون للنظام"، فقلن: "إذن إرهاب"، وضحكنا، وبدأت أسئلتهنّ عن قصتي وكيف وصلت إلى السجن، كنّ آنذاك قد أقمن حفلة، يرقصن ويغنين فقلت في نفسي: "إنّهنّ يتصرفن كالمجنونات، وأنا سأصبح مجنونة مثلهنّ"، وبدأت أسال كل واحدة منهنّ عن مدّة حبسها، فانصدمت بالأرقام التي تراوحت بين ثلاثة أشهر وسنة ونصف، وكان عددهنّ ست عشرة بنتًا، وعادة رغم الترحيب الأوليّ إلا أنّ الجديدة بينهنّ تبقى منعزلة، ولا يبدين ثقتهنّ بها فورًا، وكلّ واحدة لها صديقة مقرّبة منها، وحتى داخل السجن هناك المُتكبِرات، مثل مشرفة الغرفة الموجودة منذ سنة وخمسة أشهر وهي من الزبداني، ولم يحقّق معها محقّق السجن بل جميل حسن لأن قضيتها كما قالوا لي قضية كبيرة، ولم نعرف ما هي تلك القضية وهي لا تفصح عنها، وكانت متكبّرة بسبب المدّة الطويلة التي قضتها في السجن، وأيضًا بسبب أقدميتها ومعرفةُ جميع العناصر لها، وهناك أيضًا بنات طيبات.

كانت الغرفة نظيفة وكنّ حريصات على إبقائها نظيفة، فطلبوا مني أن أغتسل لأنّ الآتية من الزنازين تكون مليئة بالقمل، وكان في الغرفة حمام، فدخلت كي أغتسل، وفتّشت إحداهنّ ملابسي فلم تجد فيها قملاً، وأعطوني ملابس نظيفة، وفي اليوم الثاني فتشوا شعري ولم يجدوا فيه شيئًا.

كنّا ننام رأسًا ورجلين، وضعوني قرب الحائط، عندما وصلت ليلاً إلى تلك الغرفة لمحت إحداهن تمسك طفلاً وترضعه فظننت أنّها مجنونة وتتخيّل، ولكن عندما استيقظت صباحًا شعرت بوجود قدمي طفلة صغيرة تلعب بقدمي، فشعرت بالفرح والحزن معًا وبكيت، كان عمرها شهرين واسمها شام، وكانت أمها أيضًا صغيرة السنّ وقد أنجبتها في سجن عدرا ثم حوّلت إلى الفرع، وبعد أن أصبح عمرها ثلاثة أشهر ونصف أخذوها من أمها التي بكتها بحرقة.

كانوا مع العشاء يوزعون إفطار اليوم التالي، والبنات قسمن أنفسهنّ مجموعتين لتناول الطعام، ووضعوني في إحداها، وكنّ قد أعطين مهمة تقسيم الأكل لإحداهنّ، وكنّا نقص علب البلاستك التي يوضع فيها اللبن لنصنع منها ملاعق على شكل المسطرة، وبعضهنّ يأكلن في المعلقة البلاستكية الموجودة داخل علبة الحليب التي يحضرونها من حين لآخر للرضيعة التي كانت معنا، ويبدأ نهارنا بتناول الفطور ثم بشرب الشاي، ثم نصلي ونحفظ القرآن، ثم تبدأ الأحاديث، لم يكن يوجد في الغرفة كاميرات، وكنا نستطيع خلع حجابنا، حتى أن العنصر كان يدقّ الباب قبل دخوله، وعندما نقول له إننا جاهزات يفتح الباب، أما في الزنزانات الجماعية في الطابق الذي كنت فيه سابقًا، فيوجد فيها كاميرات، ولم تكن النساء المحجبات يستطعن خلع حجابهنّ بسببها، وفي الساعة الثالثة والنصف ظهرًا، كانوا يُحضرون طعام الغداء في قصعة، هي مثل "طشت الغسيل"، فيها أرز أو برغل وقصعة أخرى فيها مرقة ونوع من الخضار، حسب الموسم إما سلق أو سبانخ... إلخ، لكنه طعام لا يؤكل وطعمه سيئ جدًّا، إلا أننا نأكل الخضار مكرهات لنحافظ على صحة معدتنا، وكان الأرز كصبّة الباطون، شكونا عدة مرات سوء الطعام فتحسّن قليلاً، لكنه بقي سيئًا.

بقيت في الغرفة الجماعية تسعة شهور، وأصبحت علاقتي جيّدة مع البنات، وكنّ مرّة يتشاجرن مع بعضهنّ البعض ومرة يلعبن، وأتت إلى غرفتنا لاحقًا بنت حافظة للقرآن وكانت تحفظنا بعضه.

وكان العساكر المسؤولون عنّا مسؤولين أيضًا عن سجن للشباب العساكر المتخلّفين عن الجيش، وكان عبارة عن سجن قديم في الفرع، ومن هناك كان العناصر يأتون ليجلبوا لنا الطعام ويوزعه السخرة على الغرف، يضعونه قرب الباب ويعودون لسجنهم، وفي حال مرضت إحدى البنات أو أصابها دوار، كنّا ندق على الباب بقوّة كي يصل الصوت إلى السجن القديم حيث يتواجد العساكر، والذي يبعد عنّا مسافة عشرين مترًا، وعندما يأتي الطبيب كان يبقى خارج الغرفة ولا يدخلها، ولا يوجد معه سوى مسكّن ودواء للالتهاب فقط، ومهما كان نوع المرض كان يعطينا المسكّن، وكان الممرض يمرّ صباح كلّ يوم ويسألنا إذا كنا بحاجة إلى مسكن أو مرهم يدعى المرهم الشافي، وكنا عندما نغتسل نغسل ملابسنا ونجمعها وتخرج إحدانا وتنشرها على شجرة كانت موجودة بين غرفتين ويكون برفقتها أحد العناصر ثم تعود إلى الغرفة، وكان خروجنا للتنفّس يتمّ في الأسبوع مرّةً واحدة ولمدّة ربع ساعة، وأحيانًا لا يتمّ إخراجنا، وغرفتنا لم تكن منارة وتعتبر هذه الغرفة مع غرفة أخرى للمدلّلات اللواتي ليس عليهنّ أيّ تهمة.

كان يوجد ثقب في الباب الحديديّ بحجم مسمار، كنّا نراقب من خلاله ما يحدث في السجن المقابل لنا، وفي إحدى المرات أخرجوا منه جميع المساجين حتى بات فارغًا، فتساءلنا هل هناك عفو؟! وبعدها أتى إلينا نائب رئيس الفئة وجمع أسماءنا وقال لنا: "أحضروا أغراضكنّ مع البطانيات فظنّنا أنّنا سنخرج، وكان العناصر لا يقتربون من البطانيات، لأنهم يقرفون منها ومنّا، مع العلم أنّنا كنّا أنظف منهم، ثم ركبنا في باص ونقلونا إلى سجن ثانٍ، يبعد عن الأول بضعة أمتار وكان مخصصًا للعساكر، كما نقلوا جميع البنات في الزنزانات الجماعية والمنفردة، ومن كانت في منفردة نُقلت إلى منفردة أخرى، وعادة تبقى من لم يُحقّق معها في منفردة حتى لا تقوم القديمات بتعليمها ماذا تحكي في التحقيق معها وكيف تتصرّف.

مجموعتنا نحن الذين كنّا في غرفة واحدة، وضعونا في زنزانة جماعية لا يوجد فيها حمام ورائحتها كريهة، وكان عدد الزنازين الجماعيّة ثلاثة، وفي كلّ واحدة منها حوالي عشرين بنتًا، وفي الجماعية كان يوجد "غالونان" يستخدمهما الشباب عندما لا يكون لهم دور في الخروج إلى الحمام، وبدأنا بجمعها ووضعناها في فسحة التنفّس حتى امتلأت بالغالونات، أما البطّانيات الوسخة فجمعناها في إحدى الزنزانات، وبدأت البنات تبكين وتتذمرن من نقلنا لهذه الزنزانة، لأنها باردة ولا يوجد في داخلها حمام، وسادت حينها الفوضى في السجن. وقد أصبت بالصدمة عندما رأيت فادية من أعلى باب زنزانة، وقد كانت معنا في الغرفة، واعتقدنا أنّها خرجت منذ زمن، لكنهم حوّلوها إلى عدرا ثم أعادوها إلى الفرع، وقد أخذوها لأن ابن خالتها مطلوب، ولاحقًا علمت أنها خرجت بعد أن أمضت خمس سنوات في السجن.

وبعدها أصبح السخرة من البنات، لأن الرجال تمّ نقلهم خارج هذا المبنى، وكنت خلال تلك الفترة أبكي كثيرًا لأنّ أحدًا منّا لم يخرج من السجن، وقد بدا نقلنا إلى هذا المبنى وكأنّه إعلان عن بقائنا الطويل، ولم نعلم حينها بأنّ خروجنا سيكون عن طريق مفاوضات حتى أخبرنا بالأمر أحد العناصر، وعندما استفسرنا منه عن معنى المفاوضات، أخبرنا أنّه ستتمّ مبادلتنا، وكانت صدمة كبيرة لنا لأنّنا من عدة مناطق، درعا، الغوطة، القلمون والزبداني، فمن هي الجهة التي ستفاوض علينا! فاكتأبنا لأن آخر مبادلة حدثت منذ سنتين "مبادلة الراهبات" وقد خرج خلالها من الفرع عدد من البنات، وتأكّدنا أنّنا لن نخرج إلا بمبادلة أو تسوية أو عفو، وكان المقدّم يعدنا بأنّنا سنخرج قريبًا، ولكنّنا علمنا أنّ إحدى المبادلات التي كان يُعدّ لها في تلك الفترة قد فشلت وبقينا بعدها في السجن مدّة عام كامل.

وفي إحدى المرات كنت أبكي عندما كان رئيس الفئة يختار من البنات لأعمال السخرة، فظنّ أنّي أريد أن أنضمّ لهنّ ودعاني للمشاركة في العمل مع اثنتين من رفيقاتي، وكانت البنات يقاتلن ويتزاحمن ليعملن في السخرة، لما فيها من الحركة والعمل، وهذا بكل الأحوال أفضل من الجلوس في الغرفة، وأخذونا نحن الثلاثة، ووضعونا في زنزانة وحدنا وأملوا علينا مهامّنا، توزيع الأكل وجلي القَصَعات والشطف صباحًا ومساءً، وكان باب زنزانتنا لا يُقفل إلا مساءً، وعندما ينادي العنصر في وقت توزيع الطعام، فعلى واحدة منّا أن تخرج لتوزيعه. لم يكن عملاً سهلاً، ولكنّنا كنّا نتسلّى به ونتحرّك ونتعرّف على الجديدات القادمات، ونحاول أن نتحدّث معهنّ خلسة لنتعرّف عليهنّ رغم أنّه ممنوع، وكنا نجتمع مع البنات أثناء دور الحمام، لم يكن اختيار البنات لعمل السخرة عبثيًّا، بل كان يتمّ اختيارهنّ من اللواتي ليس لديهنّ أي تهمة، فأنا كنت مسجونة بسبب أبي، ورفيقتي الثانية بسبب زوجها، أما الثالثة فكانت مسجونة بسبب أخيها، وبقيت أعمل بالسخرة مدّة تسعة أشهر حتّى خرجت من هذا السجن.

كان في الفرع عائلة من أكراد دمشق من ركن الدين، مكوّنة من الأمّ والجدّة وولدين، وقد أخذوهم وهم متّجهون إلى لبنان، لأن الزوج كان ضابطًا متقاعدًا وتمّت إعادته إلى الجيش فانشقّ، وكان رئيس فرع المخابرات الجوية قد أرسله مع كتيبة مسلّحة إلى الغوطة، وما إن دخلها حتى انشقّ هو والكتيبة التي كانت معه، وكان لتلك العائلة معاملة خاصة، وكانوا مدلّلين مقارنةً بالبقية، ولا أحد يعلم سرّ هذا الدلال، فعلى

سبيل المثال كانوا يوصون على أنواع من الخضار والبهارات والبيض، ويجلبونها لهم بتوقيع من اللواء وليس من قبل رئيس الفرع، وكان ممنوعًا علينا الاقتراب منهم أو الحديث معهم، حتّى عندما يخرجون إلى الحمام، كان يتم إفراغ المكان، وكانوا يطلبون منّا نحن السخرة، أن نزيد لهم كميّة الأكل، وكنّا نضع لهم معكرونة مع البطاطا المسلوقة، وكانوا يخرجون إلى التنفس يوميًّا، وقد أخبرنا أحد العناصر بقصتهم وبأنّهم لن يخرجوا حتى يسلّم الزوج نفسه أو يموت، وقد التقيت به عندما خرجت من السجن، وعدتُ إلى الغوطة وأخبرته عن وضع عائلته في السجن، وفي إحدى المرات ادّعى أنّه مات لكنّ النظام كشفه، ورغم مرور تسع سنوات على اعتقالهم ما زالوا في السجن حتّى الآن.

المبادلة

خرجت من السجن بعد سنة وتسعة أشهر في العاشر من كانون الأول عام 2016، عن طريق مبادلة بين النّظام و فيلق الرحمن بالغوطة، وخرجت معي ثلاث وعشرون بنتًا من هذا السجن، وفي ذلك اليوم طلبوا منّا أن نجمع أغراضنا، وكنّا قد عرفنا بأنّ شيئًا ما سيحصل، ففي اليوم الذي سبقه طلبوا منا أن نستحمّ، وقبل خروجنا ألقى رئيس الفرع محاضرة أمامنا وتكلّم عن ما يقوم به الإرهابيون والزنادقة، ثم أخذنا الأمانات الخاصّة بنا وضمّت المبادلة بنات من درعا وداريا والمعضمية والغوطة، وصعدنا الباص باتجاه الإدارة العامة للمخابرات الجوية، وكان هناك عقيد وضابط آخر مسؤولان عن المبادلة، ثم حضر لواء وألقى أمامنا محاضرة وكان يعرف قصة كلّ واحدة منّا، وأخبرنا بأنه لولا المبادلة لما خرجنا، وبأنّهم لا يسجنون أحدًا ظلمًا، وطلب منّا أن نقول للواء الإسلام إنّه هو من يرفض المبادلة، وكان هناك عنصر يدخل كل برهة ويهمس في أذن اللواء بأنّ فلان حيّ، فيفرح اللواء ويقول: "اذبحوا له خاروفًا، ووزّعوا خمسة وعشرين ألف ليرة سورية"، ويبدو أنّ الأخبار كانت تصله بأنّهم أحياء عن طريق المبادلة، رغم أنه لم يخرج من طرفهم إلا نساء وأطفال من الطائفة العلويّة، ومن طرفنا خرج ثلاث وعشرون بنتًا وشابًّا، وكان من جملة ما قاله لنا: "أنا عمري ثلاث وستون سنة، وكان يفترض أن أكون متقاعدًا، ولكن سيادة الرئيس أبقاني لخبرتي، ولو بيخليني سيادة الرئيس لإخرب نصف السعوديّة"، كنّا نسمع تلك التخبيصات ونقول لأنفسنا فليتكلم بما يشاء المهمّ أن نخرج، وكنّا خائفات أن لا تنجح المبادلة، ثمّ سألنا إذا كنا نريد شيئًا فطلبت إحداهنّ أن تعود إلى وظيفتها، وسألته أنا: "هل أزيل طلبكم لي بمراجعة فرع فلسطين؟" فأجاب بأنّهم سيرسلون كتابًا للفرع، وبعدها أخذونا إلى عش الورور، وتبادلنا الأحاديث مع نساء في الباص المقابل لنا، وسألتهم إحدى البنات: "هل أنتنّ خارجات بالمبادلة؟"، فأجبن بنعم، والتقينا بهنّ ونحن ننتقل إلى باص آخر، وقلنا لهنّ: "الحمد لله على سلامتكنّ"، وأخبرونا أنّهنّ مسجونات منذ ثلاث سنوات، وقلنا لهنّ إنّ معنا سجينة منذ سنتين.

ثم أخذنا الجيش الحرّ إلى بيت في القابون وكان فيه بعض النسوة ينتظرن خروجهنّ بالدفعة الثانية، وأخبرنا عناصر من الجيش الحرّ أنّهم عاملوهنّ بطريقة جيدة، ووضعوهنّ في بيوت بمنطقة زملكا، وكانوا يجمعون المتزوجات منهنّ بأزواجهنّ كلّ فترة، وقاموا بتحفيظهنّ القرآن، وبعدها أخذونا بسيارة من نفق القابون إلى

عربين، وكان الأهالي ينتظروننا في صالة ومن ضمنهم أبي وأخي، ركضت باتجاه أبي حين شاهدته، وبقيت عند أهلي في الغوطة، رغم أنّي لم أكن أرغب بالدخول إليها لأنّها محاصرة، والخروج منها صعب جدًّا، وقد منعني أخي من البقاء في دمشق، لأنّه خاف أن يتمّ اعتقالي مجددًا، لأنّي خرجت عن طريق مبادلة، ثمّ ذهبت مع أبي وأخي إلى البيت.

كانت أمي مصابة إثر قصف الطيران، وقد عانت كثيرًا جراء اعتقالي وإصابتها، وبقيت معها فترة من الزمن حتّى تتحسن حالتها الصحيّة وأستطيع بعدها الخروج إلى الشام، وبعدها إلى الأردن حيث يقيم خطيبي لنتزوّج، ولكن بعد شهرين بدأت المشاكل، وأغلقوا الأنفاق واشتدت الحرب علينا، وفصل النظام الغوطة عن برزة والقابون، وعلقتُ في الغوطة أكثر من عام كامل.

وبعد الحرب الأخيرة حين دخل النظام وسيطر على الغوطة، خرج أهلي إلى الشمال لأنّهم كانوا مطلوبين ولا يستطيعون البقاء في منطقة يسيطر عليها النظام، وخرجت أنا إلى الشام مع جدي، واستخدمت هوية ابنة خالي ولم أستخدم هويتي، لأنّ أهلي منعوني من استخدامها أثناء خروجي، وكانت الإشارة ما تزال موجودة على اسمي وعليّ مراجعة فرع فلسطين، لكني رفضت الذهاب وقلت لمن كانوا يتوسّطون لي لرفعها إنهم لو فرشوا لي الأرض ذهبًا فلن أراجع الفرع، حتى لو اضطررت لإلغاء موضوع الزواج كلّه.

لم أكن مرتاحة لوجودي في الشام فذهبت إلى مدينة الباب في محافظة حلب، وأتى أبي لاصطحابي وذهبنا إلى عفرين، وبقيت فيها شهرًا واحدًا، ثم سافرت إلى تركيا في العشرين من آب عام 2018، أما عمّي فقد خرج من السجن بعد ثلاثة أشهر من اعتقالنا، وأعادوا له سيارته بعد أن سرقوا الأغراض التي كانت بداخلها.

العلاقة مع الأسرة والمجتمع

بعض البنات اللواتي اعتقلن بسبب أحد أفراد أسرهنّ، بدأن بشتمه لأنّه كان سببًا في اعتقالهنّ، وبعضهنّ أيضًا كنّ يعتقدن أنّ بإمكان أسرهنّ إخراجهنّ من المعتقل، وأنّهم لا يفعلون ذلك، وفي المقابل عدد منّا وأنا منهنّ لا نقبل أن يسلم المطلوب من أسرتنا نفسه مقابل خروجنا من السجن، وأنا تحديدًا كنت مستعدّة أن أبقى في السجن مقابل أن لا يأخذوا أبي، لأنّه كان ضابطًا متقاعدًا ويعتبرونه بحكم المنشقّ ومع الجيش الحرّ.

لم تتغيّر علاقتي بأهلي وخطيبي بعد الاعتقال، بل كانوا فخورين بي، وتوطّدت علاقتي مع صديقاتي أكثر، فأنا من عائلة معروفة بين النّاس، وكنت خلال الاعتقال مطمئنة أنّ أهلي يعرفون وضعي في السجن، وأنّي والحمد لله بصحّة جيّدة نوعًا ما، ولم أتعرض لاغتصاب وأنتظر فرج الله، فقد كنت أحاول وبشكل دائم أن أطمئنهم عن طريق معتقلات اعتقلن بسبب تقرير أو شريحة هاتفيّة، لم يتصلن جميعهنّ بأهلي ولكنّي كنت متأكدة أن إحدى بنات الغوطة بعد أن خرجت من السجن أبلغتهم بوضعي. تعلمت من هذه التجربة أن أكتم أخباري قليلاً، وأن لا أثق بجميع الناس، فالكثيرون من معارفي كانوا يعلمون

بدقّة الموعد الذي كنت سأسافر فيه، وإحدى جاراتي التي كنت أشكّ فيها قالت لي: "ان شاء الله ما بتسافري" وعندما سألتها عن السبب أجابت حتى لا تشتاق لي، وأشاعت تساؤلاتها بين الناس، كيف أقيم في الشام وأبي مطلوب!

كان أثر الاعتقال عليّ كبيرًا، فأنا خرجت من الحصار في دوما، ودخلت السجن وعدت إلى الحصار مجددًا، الأمر الذي أثّر على نفسيتي كثيرًا، ودخلت عدة مرات في حالات اكتئاب، وكانت أمي تقدّر وضعي لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا، وقد حاول أهلي الاعتناء بي قدر إمكانياتهم، وأنا مخطوبة منذ خمس سنوات تقريبًا ولم أتزوج من خطيبي حتى الآن، وأتساءل دائمًا ما هو الذنب الذي اقترفته في حياتي!

تلقّيت مرّة واحدة ورشة دعم نفسي عندما كنت في الغوطة، وكان المشرفون عليها من تركيا، ولم نكملها بسبب القصف الأخير علينا.

أنا لم أشارك في الثورة بأي نشاط باستثناء خروجي بمظاهرتين عندما كنت في المدرسة، وأعتقد أن تجربة الاعتقال بالنسبة للمرأة تختلف عن تجربة الرجل، فمعاملة الرجل خلال الاعتقال أسوأ وأكثر إذلالاً وتعذيبًا من المرأة، حتى من حيث كمّية الطعام حصته أقلّ، والنساء في المعتقل صوتهنّ عالٍ ويطالبن ويحتججن، أمّا الرجال فلم يكونوا يجرؤون على ذلك، وهذا لا يعني أنّ النساء لا يتعرّضنَ للتعذيب، ولكنّ تعذيبهنّ يكون عادة بأمرٍ من رئيس الفرع، بالإضافة إلى أنّ السجن مراقب بواسطة الكاميرات.

في إحدى المرات شبحَ عنصر إحدى المعتقلات دون إذن من رئيس الفرع، فاتصل به رئيس الفرع، وقد علمنا ذلك من بعض العناصر أثناء عملنا بالسخرة، وعلمنا أيضًا أنّ تعذيب المعتقلات لا يكون إلا بأمر من رئيس الفرع.

كان في السجن معتقلة تتعرض لتعذيب شديد، وكان يتمّ شبحها وتعليقها على باب زنزانتها من الداخل، وتبقى مقيّدة اليدين داخل الزنزانة، ويفكّ قيدها فقط عندما تخرج إلى الحمام، وقد أخبرتنا أنها من بلدة شين. علمنا من بعض العناصر أنها كانت في الجيش برتبة ملازم، وأنّها انشقت وقتلت حوالي خمسة عشر عسكريًّا.

بعد خروجي من المعتقل الكثير ممن أتين لزيارتي سألنني إن لمسني أحد في المعتقل، لكنّي كنت أخبرهنّ وأشرح لهنّ أنّ السجون وفروع الأمن ليست مثل بعضها البعض، فالفرع الذي كنت فيه لم يكن فيه اغتصاب، وكان أنظف من بقيّة الأفرع، لكن زمن البقاء فيه أطول، وغالبًا لا يخرج منه المعتقل أو المعتقلة، وخصوصًا الرجال إلا بعد عام أو عامين تقريبًا، وكلّ فرع بحدّ ذاته دولة، وتختلف نظرة المجتمع بين اعتقال المرأة عن الرجل لكونها امرأة.

لم أعاني من أي تحديات ولم أتعرّض لأي موقف مزعج عندما خرجت من المعتقل، ولكن نفسيتي كانت محطمة لأنني أعرف وضع الغوطة، حتى عندما خرجت من المعتقل لم أكن سعيدة لأنني خرجت من سجن إلى سجن آخر. رغم أن وضعها كان مقبول نسبيًّا، ولكن بعد شهرين من دخولي لها حوصرت تمامًا وأغلقت الأنفاق، وكنت أنظر إلى حياتي على أنها رحلة من حصار إلى سجن ومنه إلى حصار، فعزلت نفسي،

وبصراحة كرهت النسوان، رغم أنّهنّ قويات ولا يسكتن عن حقوقهنّ، لأنّني بقيت معهنّ سنة وتسعة أشهر، وكنت أسمع أحاديثهنّ وشجاراتهنّ، رغم أنّي لم أكن طرفًا بأي شجار حصل في السجن، لكنّي مللت من جلسات النساء، حتّى بعد اعتقالي كنت أجلس وحيدة برفقة هاتفي الجوّال، لم أستطع أن أدرس وصديقاتي سافرن، كنت عالقة ولم أستطع أيضًا ترك خطيبي ولا هو تركني، كنت متعبة نفسيًّا لأنّي خرجت إلى الحصار، وعادة تفرح المعتقلة بخروجها من المعتقل لأنها ستبدأ من جديد، أما أنا فخرجت إلى سجن أكبر من الذي كنت فيه.

كلمة أخيرة

بصراحة لن أقول إنّ من عَذّب في السجون ومن أجرم يجب أن يُشنقوا، ولكن يجب أن يحاسبوا كي يشفى غليل من عذبوهم ولو قليلاً، لأنهم وبصراحة أذلّوا الناس كثيرًا، وخاصة الرجال والشباب، ولكن هناك عناصر في السجون لم يضربوا ولم يُعذِبوا ولم يشتموا، وأنا شهدت ذلك بأمّ عيني، أمّا من عذّبوا وهم الضباط، وهم الرأس، فيجب أن يُحاسبوا، وبالطبع، ومليون بالمائة سأكون طرفًا بالادعاء على المجرمين، وشاهدة على ما ارتكبوا من تعذيب وجرائم.

أنا لم أوثق شهادتي مع أيّ جهة، ولكنّي رغبت في توثيقها الآن لأنها ستكون ضمن كتاب وستبقى على مدى طويل ولن تُنسى، وكي تعرف الأجيال القادمة ما الذي حدث في البلد، ولن يذهب اعتقالي سدىً فأنا خرجت من المعتقل وخرج بسببي نساء أخريات في المبادلة، فأنا ظُلمت وهن ظُلمن أيضًا.
أنا نادمة الآن لأني لم أعمل طيلة حياتي وأتمنى أن أتابع دراستي التي توقّفت، وحلمي أن أدخل الجامعة وأعمل بعد تخرجي عملاً أحبّه.

عندما نفيت من بلدي[11]*

[11] - حوار أجرته الكاتبة مع ياسمين الشامي (اسم مستعار) عبر WhatsApp))، في الثالث من آذار عام 2019، مدة الحوار: ساعة وخمس وعشرون دقيقة.

* لوحة الغلاف: ولاء العطار

أنا ياسمين الشامي من الشام، ولدت في الثاني عشر من كانون الثاني عام 1980، درست تربية وعلم نفس – اختصاص إرشاد نفسي، أقيم في تركيا منذ الرابع عشر من آذار 2014، زوجي معتقل منذ ست سنوات، وعندي ثلاثة أولاد، أعمل صباحًا إدارية في روضة سورية، ومساءً إدارية في التعليم السوريّ المؤقت، وهو تعليم للسورين فقط، وسيغلق نهاية العام كجميع المدارس السورية في تركيا.

أحببت زوجي وأنا صغيرة في السن، وحين تقدم ليخطبني رفضه أهلي، لأني كنت صغيرة في السن، وعليّ أن أكمل دراستي، وهو أكبر مني بثلاثة عشر عامًا، لكنهم في النهاية وافقوا عليه، وتمت خطوبتي عندما كان عمري خمسة عشر عامًا، ثم تزوجت بعد أن حصلت على شهادة الثانوية في الثاني من شباط عام 1998.

تابعت دراستي الجامعية بعد الزواج، وكان زوجي يرافقني أثناء تقديمي لحلقات البحث، وكنت أحضر الاختبارات فقط. عشت مع عائلة زوجي وكنت سعيدة معه.

الإقامة الجبرية

مع بداية الثورة في الحادي عشر من آذار عام 2011، أعتقل زوجي من ساحة الشهداء بدمشق وهو يوزع مناشير، وبعدها بأسبوع قامت أول مظاهرة في الحميدية، بقي زوجي في المعتقل إثنين وثلاثين يومًا ثم خرج وعاد إلى عمله.

وفي السادس من حزيران 2013، داهم الأمن منزلنا الكائن في دمشق - كفرسوسة في الساعة الثانية ليلاً، واقتادوا زوجي إلى مكان غير معلوم، ووضعوني أنا والأولاد تحت الإقامة الجبرية في منزلنا. وبعد ستة وعشرين يومًا أخذوا أولادي إلى جهة غير معروفة، وتم نقلي إلى المخابرات الجوية في مطار المزة العسكري، وبقيت فيه خمسة أشهر تقريبًا، ولم يكن أهلي يعلمون من هي الجهة التي اعتقلتني ولا مكان وجودي، وخرجت من الجوية في الأول من تشرين الأول عام 2013، وفي العاشر من كانون الأول 2013 خرجت من سجن عدرا.

حاولنا السؤال عن زوجي دون جدوى، وصلنا خبر أنه استشهد في معتقل صيدنايا عن طريق أسرة معتقل كان معه، وأنهم رأوا ورقة مكتوب عليها: "تم تنفيذ حكم الإعدام الميداني في يوم كذا بتاريخ كذا، على أن يتم كتمان هذا الخبر عن ذويه، ويصل بحثهم عنه إلى طريق مسدود"، لكننا غير متأكدين من الخبر حتى الآن.

خلال الإقامة الجبرية بقي معنا في منزلي عناصر الأمن، كانوا دوريتين يتناوبان، الدورية الأولى بقيت معنا ثلاثة أيام، والثانية بقيت حتى أخرجوني من المنزل، أي ثلاثة وعشرين يومًا، لم أعرف لماذا لم يتم اعتقالي فور المداهمة، لكن عناصر الأمن أعلموني لاحقًا، بأنهم عملوا كمينًا من أجل القبض على كل من يأتي ليسأل عن زوجي، رغم أن المنزل الذي كنا نسكنه لم يكن ملكنا، بل قدّمه لزوجي صاحب عمله، وسكنا فيه قبل أربعة أشهر من اعتقاله، ولم نكن نتوقع أي زيارة لأن لا أحد يعرف مكانه.

في بداية الإقامة الجبرية، طلب مني عناصر الأمن أن أجمع أغراضي، كي أذهب لبيت أهلي لأني غير متهمة بأي قضية، ولا أعلم لماذا غيّروا رأيهم وأبقوني في الإقامة الجبرية.

كانت الأيام الستة والعشرون من أسوأ فترات اعتقالي فلا أحد يستطيع زيارتي، وأولادي محبوسون ليل نهار في الغرفة، أما أنا فكنت مجبرة على الخروج من الغرفة، لأطبخ وأغسل وأمسح وأكوي، عملت خلال هذه المدة في خدمة عناصر الأمن. في أول الأمر كانوا محترمين معنا، إلى أن أتت الدورية الثانية، حيث عاملونا بمنتهى الحقارة والإذلال.

في اليوم العاشر من وجودهم، قال لي أحدهم ويدعى أبا عباس، وهو طالب في كلية الاقتصاد: "أريد أن أخبرك شيئًا مهمًا بخصوص زوجك"، فدخلنا إلى الغرفة وأقفل الباب وحاول أن يغويني، وخفت إن تمنعت أن يغتصبني، فقلت له: "أدر وجهك"، واتجهت نحو النافذة وقلت له: "إما أن تخرج أو أرمي نفسي من الطابق الثاني عشر، فأنا لا أعلم أين زوجي، ومصيري ومصير أولادي مجهول، ولا أعرف ماذا ستفعلون بنا، هل ستقتلوننا أم ستذبحوننا!"

بعد هذا اليوم بدأت معاملتهم السيئة معي ومع أولادي، وبدأ الضرب والشتائم، وكل ما يمكن للمرء أن يتخيله من معاملة سيئة، على سبيل المثال كان ابني عمره سنة ونصف كانوا يضربونه بواسطة مخدة من الجلد، ويشتمون ابنتي ذات الأربع سنوات، وكنت خائفة على ابنتي الصبية، ولكن والحمد لله لم يتم التعرّض لها، فقد كنت أحاول أن أبقى بمواجهتهم، ومهما حصل لي أهون من أن يحصل أي مكروه لأولادي، ولم يكن مسموحاً لهم الخروج من غرفتهم إلا لتناول الطعام.

كنت أنظف وأغسل وأطبخ لعناصر الأمن، وكانوا يخشون أن أدس لهم السم في الطعام، فكانوا لا يأكلون إلا بعد أن يأكل أولادي، ولكن لم يكن لدي أي شيء لأؤذيهم، مع أني كنت أتمنى ذلك، حتى أتخلص منهم، فأنا لم أكن أعرف مصيرنا.

خلال إقامتي الجبرية اتصل بي أهلي هاتفيًا وتحدّثت معهم، حتى خط زوجي وخطي في أول خمسة أيام من مداهمتهم لمنزلنا كانا مفتوحين، وقد أخبرتني أمي أنها تحدثت مع زوجي وقال لها إنه سيصطحبني لزيارة أهلي، حالما يتعافى ابني، وهو نفس الكلام الذي أجبروني أن أقوله لأمي عندما اتصلت بي، ولكن بعد أسبوع بدأت أمي بالقلق علينا، وأصبحت تتصل كثيرًا، فمنعوني من الرد، وأُغلق جوال زوجي، عندها قدّم أهلي بلاغاً عن اختفائنا في مخفر شرطة كفرسوسة، وتم إحضار ناطور البناية، فقال لهم إن الأمن في منزلنا، وطلبت الشرطة والأمن من أمي أن تنسانا هذه الفترة وتدعوا لنا لأن وضعنا صعب.

قبل خروجي من منزلي بيومين أخذوا مني هويتي ثم أعادوها لي في اليوم التالي، وأخذوا أطفالي مني ولم أعرف إلى أين ،وأخذوني إلى المخابرات الجوية.

المخابرات الجوية

دخلت إلى فرع المخابرات الجوية برقم، وبقيتُ كرقم خلال التفقد لفترة امتدت بين ثلاثة إلى أربعة أشهر، حتى نزل اسمي على الملفات. وبعد عشرين يومًا من اعتقالي استدعاني الرائد ويدعى رائد، وقال لي: "تفضلي"، وكانت أغراض زوجي أمامه على المكتب، الحاسوب والجوال وساعته وكلّ شيء يخصّه، ثم قال لي: "اجلسي هنا، كان زوجك جالسًا هنا واعترف لنا بكل شيء، إحكي لي ما لديكِ، من المُعيب أن نستدعي واحدة مثلكِ إلى فرع مخابرات، أنتِ شامية ومعروف لنا أن لا علاقة لكِ بأي شيء، لكن أنتِ هنا لضرورات أمنية"، فقلت له: "ضرورات أمنية، وما علاقة أولادي بما يحصل؟!" لكنه طلب مني العودة إلى الزنزانة والانتظار.

كان همي معرفة أين هم أولادي هل ماتوا أم هم على قيد الحياة؟ كنت أفكر في ابني الرضيع، فالولد عندما تفطمه أمه يعاني كثيرًا، فكيف يكون حاله الآن؟ وقد أُخذ مني فجأة.

كانت الفتيات في المعتقل يقلن لي: "ربما أرسلوهم إلى قرية الأيتام، وربما اعتقلوهم في غرفة أخرى في الفرع"، فقد كان في غرفتنا أطفال صغار ورضع مع أمهاتهن، لكن لم يخطر في بالي أنهم عند أهلي.

في البداية كان في الزنزانة ثلاث بنات وكنت أنا الرابعة، وأصبحنا في رمضان تسعًا وعشرين بنتًا، كانت الغرفة مربعة الأضلاع وتقع في حديقة الفرع، بعد عشرين يومًا وخلال التفقد حضر سهيل الحسن، وهو غير الشخص الملقب بالنمر، فقلت له: "أنا فلانة ورقمي ..."، فسألني: "أنتِ زوجة فلان؟ زوجكِ لن يرى الشمس"، فسألته عن أولادي، فأجاب: "هم بخير لا تقلقي، وأنتِ هون لنشوف شو بيصير".

تم استدعائي للتحقيق عدة مرات، وكانت أسئلتهم تتمحور حول زوجي وما أعرفه عنه، وكم عدد الهواتف التي يملكها وكم هوية وجواز سفر لديه. في الحقيقة كان زوجي مثل رجال أيام زمان، ومثل رجال مسلسل باب الحارة، يرى أن المرأة لبيتها وأولادها فقط، كان يمنعني من الخروج من المنزل، ولم يكن لدي تلفزيون أو هاتف جوال، وعندما كان المحقق يسألني عن حسابي في الفيسبوك أو الإنستغرام أو الوتس أب، كنت أستغرب الأمر، ظنوا في بداية الأمر بأني أستهزأ بكلامهم.

كنت كل يوم أطرق الباب وأسأل عن أولادي، حتى سمحوا لي أن أتصل بأمي، وأثناء إجراء إحدى التفقّدات أخبرني سهيل الحسن بأنهم طلبوا أمرًا من زوجي إذا فعله فسأخرج، وبعد عشرين يومًا قلت له: "إذا لم يقتنع زوجي فدعوني أقابله وأنا سأقنعه"، حتى إني صرت أتحجّج بأني أريد أن أطلق زوجي، كي يدعوني أراه وأطمئنّ عليه وأطمئنه عنا.

اتهموا زوجي باتهامات كبيرة منها، انتماؤه إلى جبهة النصرة، إغاثة، تمويل، تفجيرات، قتل، ولو أن زوجي قام بكل تلك التهم لما مرّ أمام الحواجز، فنحن نعيش في وسط الشام وفي كفرسوسة المليئة بالأفرع الأمنية، ومن المستحيل أن يكون أهبل إلى هذه الدرجة.

بعد فترة علمت منهم أنهم طلبوا من زوجي أن يظهر على قناة المنار كي يتحدث لصالحهم وكما يريدون، ثم أخبروني أن زوجي نفذ ما طلبوه منه وأني سأخرج، وطلبوا مني إحضار أغراضي، استلمت أماناتي التي

كانت عبارة عن جوازات سفر لي ولأولادي وهويتي وسائر أوراقنا الرسمية، فقد كنت جمعتها لتكون سهلة المأخذ عند حدوث أي طارئ، لكنهم احتفظوا بكل الأوراق المتعلقة بزوجي، حتى صوره الشخصية، الأمر الذي أثار استغرابي فسألتهم: لماذا لم تعطوني صوره الشخصية؟ فقالوا: هذا الرجل يجب أن تنسيه لأنه لم يعد موجوداً.

تفاجأت عندما أخذوني إلى القضاء العسكري، ومن ثم تم تحويلي إلى محكمة الإرهاب، وكان يوم عطلة فحولوني لمخفر ركن الدين حيث بقيت ليلة واحدة، ومن ثم عدت إلى محكمة الإرهاب، ومن ثم لمخفر كفرسوسة الذي بقيت فيه مدة أسبوع، وأخيرًا إلى سجن عدرا.

بقيت حوالي خمسة أشهر وأنا لا أعلم عن أولادي شيئًا، حتى ساءت حالتي الصحية والنفسية، فقد كان كل همي أن أطمئن على أولادي، فابنتي الكبرى عمرها أربعة عشرة عاماً، والثانية عمرها أربع سنوات، وابني عمره سنة ونصف وكان آنذاك يرضع مني، ثم سمحوا لي بإجراء اتصال هاتفي مع أهلي فعلمت بوجود أطفالي عندهم.

سجن عدرا

عندما وصلت إلى سجن عدرا، أرسلت خبراً إلى أختي عن طريق سائق الباص أنني أصبحت في عدرا، ومباشرة زارني أخي، ونبهته إلى أن زوجي سيظهر على قناة المنار، وفي حال لا قدر الله أن يكون قد فعل تلك التهم، فيجب أن ينتبهوا لأنفسهم ولأولادي لأنهم لن يسلموا من كلام الناس وشرهم.

فور دخولي تم استدعائي وتفتيشي بشكل دقيق من قبل إحدى النساء، وتم ضربي من قبل أحد العناصر حين اكتشف أوراقًا كنت قد خبأتها داخل معطفي، وقمنا بخياطتها داخل البطانة، وفيها أرقام هواتف أهالي المعتقلات، وفيها أيضًا رسالة من فاتن رجب إلى مزينة شعر في كفرسوسة وقد كتبها بخط يدها، تطلب منها أن تُخبر أخاها أنها بخير، وتطلب منه أن يُحضر لها أغراضًا، وعندما اكتشف وجود الأوراق، خفت أن أُتهم بتهمٍ أكبر من التُهم التي ألصقوها بي، فقلتُ له: "هي اللي مدايقتك!" ومزّقت الأوراق "ميت شقفة"، فصفعني على وجهي صفعتين، وانهال علي ضربًا بيديه وقدميه، وحاول بإصرار أن ينتزع مني الأوراق ليقرأ ما فيها.

استلمت قضيتي قاضية رقم 1 تدعى خلود، تقوم دائمًا بإيداع المعتقلين، ولا تعرف الرحمة، وقالت لي: "إيداع"، وفورًا حوّل أهلي قضيتي إلى القاضي رقم 3 ويدعى أ.ج، وبعد أحد عشر يومًا قال لي القاضي: "هذا ملف عجيب وأنت وقعت فيه"، ضحكت وقلت له وأنا مذهولة: "أنا؟!" ثم قلت له: "لقد كانوا يسألونني دائمًا عن زوجي، ولم يسألوني أي سؤال يتعلق بي، ولم أوقع إلا عندما استلمت أماناتي، أنا لم أفعل شيئًا". واندهش القاضي حين أخبرته أن الأمن بقوا معي في منزلي لمدة ستة وعشرين يومًا، ثم استطردت أمامه وأخبرته كيف كانوا يعاملون أولادي ويشتمون ويضربون ابنتي ذات الأربع سنوات، فقال لي: "روحي عمو روحي ربي ولادك وديري بالك عليهم"، وكتب لي ورقة بأن فلانة خرجت.

كانت قضيتي ما تزال في محكمة الإرهاب ولكن القاضي أطلق سراحي، ثم عاد واستدعاني مرة أخرى بعد قليل وقال لي: "انظري يا ابنتي أنا تركتك لوجه الله تعالى، ولم آخذ نقودًا من أحد، وأي شخص يقول لكِ إني أخذت نقودًا كي أُخرجَكِ يكون كاذبًا، اتصلي بأمك الآن من مكتبي وقولي لها إنك حصلت على إخلاء سبيل، ويبقى لديكِ فقط دفع أتعاب المحامي الذي وكلته أنتِ"، وبعد أن أغلق الإضبارة قال لي: إن تهمتي هي كتم جناية.

لن أنسى هذا القاضي وكلامه ما حييت، الله يوجّه له الخير أين ما كان. عدت إلى سجن عدرا وعملت (فيش جنائي)، ثم خرجت إلى بيت أهلي، والحمد لله زوّجت ابنتي وعشت شهرين دون أن يكون هناك أي إشكال، ولكن فيما بعد أصبح الأمن يلاحقني مثل ظلي، إن أكلت يتصلون بي ويقولون: "صحة وهنا"، وإن خرجت يتصلون بي ويقولون: "أين كنتِ؟"، وإن استحممت يقولوا: "نعيماً!". كنت أتفحص الجدران، حتى إني بدأت أشك بأن أولادي وأمي يقومون بإخبارهم!

في إحدى المرات كانوا يقومون بمداهمات حول منزل أهلي، ومن شدة خوفي كنت أريد أن أرمي نفسي من النافذة، وقلت لأمي: "اتركيني موت ولا بدي روح لعندهم".

لم أكن أعلم من هي الجهة الأمنية التي كانت وراء تلك الملاحقة، ولكن قررت أن أترك الشام لأني تعبت نفسيًّا، وسافرت عن طريق الحدود بشكل عادي، رغم أن قضيتي كانت مفتوحة في محكمة الإرهاب وما تزال إلى يومنا هذا، وأتيت إلى تركيا، وبعد اثني عشر يومًا أتم فيها خمس سنوات.

الطريق المسدود

لم يظهر زوجي على تلفزيون المنار، رغم أن جميع من اعتقلوا معه ظهروا، و لم يذكر أيٌّ منهم اسمه أو قصته، وكأنه غير موجود وغير معتقل، وهذا الأمر يدعوا إلى الاستغراب، ويؤكّد الأخبار التي وصلتنا عن موته، كما يُفسر سبب وصول البحث عنه إلى طريق مسدود.

لا أعلم لماذا يخفونه! لو أخبرونا أنهم قتلوه كنا تيقنا أنه مات، ولو أخبرونا أنه معتقل كنا فهما أنه حي. بعد أن وصلت إلى تركيا، قمنا بتوكيل محامية له، وحولنا لها مبلغ خمسة وثلاثين ألف دولار، ولو كانت أمهر في التمثيل والنصب لكانت حصلت منا على مبالغ أكبر، لكن ما كشف كذب ادعاءاتها، قولها إن زوجي أخبرها أنه لم يتم توقيفه من قبل المخابرات الجوية، وهذا الأمر مستحيل، فالجهة التي اعتقلته هي الجوية، وحين اعتقلتُ فيها أخبرني المحقّق أن زوجي جلس في مكاني أمامه. ورغم ذلك طلبت منها تسجيلاً بالصوت او صورة يثبت أن ما تقوله صحيح، وأنها قابلته وما تزال تقابله، لم تحضر التسجيل، لكنها أطلعتنا على التهم الموجه إليه وهي: محرض ضد نظام بشار الاسد، إغاثة، تمويل، ضرب حواجز، وأكبر تلك التهم أنه أمير في جبهة النصرة في الشام وريفها. أذكرها وأضحك، أمير ويعيش في الشام وزوجته غير منقبة! فأنا أضع الحجاب والبس "مانطو"، لا أعلم حقيقةً من أين يخترعون هذه القصص!

كان هناك شخص في الفرع 215، يدعى أبا حيدرة، قبض من أهل زوجي مبلغ عشرة آلاف دولار، من أجل أن نعرف أي خبر عنه، وبعد اغتيال رستم غزالة، تم توقيف أربعين ضابطًا كان أبو حيدرة من بينهم، وسمعنا أنهم وجدوا اسم زوجي أثناء تفتيش حاسوبه، وتم تحويل أبو حيدرة مباشرة إلى سجن السويداء.

بعد كل هذا النصب والاحتيال فقدنا الأمل، حتى وصلنا خبر عن طريق صديق له أنهم أعدموه في سجن صيدنايا إعدامًا ميدانيًا، وحرصوا على تغييب هذه المعلومة عنا.

ومنذ ذاك الوقت، وأنا أحاول مع المحامي إغلاق ملفي، ولكن مع إضبارتي يوجد ست قضايا، معتقلتان أطلق سراحهما وأربع تم تحويلهن إلى الجنايات، وصعب أن تصدر أحكامهن بسرعة، ولكن بسبب ملفي المفتوح وإخفائهم كل أثر لزوجي، لا أستطيع العودة إلى الشام، رغم إني أتمنى العودة، لأن الحياة صعبة في تركيا، لذلك أقول دائمًا: "أنا نفيت من بلدي ولم أخرج بإرادتي".

يومياتي في المعتقل

علاقتي مع المعتقلات كانت جيدة جدًا، سبحان الله، رغم أنها كانت أيامًا صعبة، لكن كان هناك ما يزرع الأمل في الحياة، فأنا بعد أن تزوجت لم أكن أخرج من المنزل، ولم يكن لديّ صديقة، وكنت في المعتقل أرى المعتقلات وأسمع قصصهن ويسمعن قصصي لأول مرة، ونتشارك الهموم، ولكن كان معنا في الغرفة مندسة تثير المشاكل بيننا، وتحرض معتقلة على معتقلة أخرى، "كانت ترمي بلا بيننا، كانت منهن وفيهن"، وأحضروها إلى فرع الجوية لأنها وضعت حاجزًا طيارًا تبتزّ فيه الناس.

كانت معي فاتن رجب وعندما خرجتُ كانت ما تزال هناك، وسمعنا بعد ذلك أنه تم تحويلها إلى سجن عدرا، وبعد ذلك غُيبت، كان يصيبها حالات نزيف، وفي إحدى المرات طرقتُ بابها، لأني رأيتها تنزف من أذنيها وأنفها، فقالت: "لا تطرقي الباب تعالي"، فقلت لها: "لماذا لا يحضرون لكِ طبيبًا؟"، فأخبرتني أنهم يعطونها إبرًا في رأسها كي تنسى المعلومات وهي التي تسبب لها النزيف، وقد طلبوا منها أن تتعاون معهم لكنها رفضت، كانت تخبرنا أيضًا عن عملها وصديقتها التي نصبت لها الكمين، وعن أختها أم عمر وعن أخيها الشهيد، وحين كانت فاتن تراني أبكي، كانت تقول لي: "أنتِ لديك أمل في الخروج من هنا، سواء بقيتِ شهرًا أو سنةً أو ثلاثَ سنوات، أما أنا فلا يوجد أمل على الإطلاق"، الله يرحمها في الحياة وفي الممات.

كان معنا أطفال داخل المعتقل، وكنا ننشغل بهم، أحدهم طفل عمره ستة أشهر وأمه عمرها تسعة عشر عامًا، كانا يبكيان سويةً، لم يكن لديها ما تطعمه، أتطعمه برغل؟! ولم تكن هي تأكل حتى تقوم بإرضاعه، كنا نغيّر له ونستخدم كيس الخبز الفارغ للربط، حتى أن فاتن رجب، الله يرحمها ويتقبلها، قالت لهم: "في أماناتي يوجد مبلغ مليون ليرة، أحضروا له منها الحليب والحفائض، فأجابوا: "رح تمنّني عالجوية، لن تكوني أكرم من الجوية!" فأصبحوا يُحضرون لها كل شهر علبة حليب وكيسًا من الحفائض.

كان الأكل صباحًا عبارة عن قصعة لبن، وبيض مسلوق، كانت إحدى المعتقلات في غرفتنا تقسمه بيننا بالعدل، وفي الغذاء كان طعامنا برغل، كأنما طُبخ بزيت سيارات محروق، أمّا العشاء فحساء عدس وبطاطا

مسلوقة، لو رميت على الحائط لرجعت كما هي، أتذكرها وأضحك، لم نكن نستطيع أن نأكل الطعام بسبب سوء طبخه.

كان في غرفتنا حمام ومغسلة، وكانت المياه في شهر رمضان تنزل من الصنبور ساخنة جدًا، فنقوم بوضعها في وعاء "طشت" من الألمنيوم كي نستطيع شربها. لم يكن داخل غرفتنا كاميرا بل كانت بجانب الباب من الجهة الخارجية وفي الحديقة، لكن كان كل شيء مراقب.

في إحدى المرات، أخطؤوا بين رقمي ورقم إحدى المعتقلات، فأنزلوني إلى غرفة الشبح "التعليق والتعذيب" وشبحوني وضربوني، واكتشفوا الخطأ بعد أن قلت لهم: "هلق تذكرتوا تعذبوني، أنا هنا منذ ثلاثة أشهر، أنا شو عاملة!" فأجابوني: لا أنتِ أتيت بالأمس، وبعد أن سألوا، صدّقوني وأعادوني إلى زنزانتي وأحضروا المسكينة للتعذيب، كانت صبية صغيرة في السن وعمرها أربعة عشر عامًا. كنت أرى المعتقلات بعد التحقيق معهنّ قد تم تعذيبهنّ، إما مشبوحات أو تم تعذيبهن على الدولاب أو رمي عليهن الشاي، وذلك حسب كمية الخمر التي يكون المحقق قد شربها، أو حسب مزاج المحقق. في إحدى المرات استغرق التحقيق مدة خمس ساعات، والمحقق يسأل إحدى المعتقلات والتي كانت تعمل مزينة شعر، كيف تقص الشعر وكيف ترسم الحواجب وكيف تضع الحمرة!

كنا نرى حذاء السجان ملطخاً بالدماء عندما كان يقدم الطعام لنا، ويخبرنا أنه كان يعذب الإرهابيين. كان أصعب شيء علينا أن نسمع أصوات تعذيب المعتقلين، يا لطيف، في أول فترة قضيتها في المعتقل كنت لا أعرف كيف أسد أذناي كي لا أسمع أصواتهم، كنت أسمع أصوات الكهرباء زززز، ثم أسمع صراخ الشاب إلى أن يغيب عن الوعي، "يعلي انشاء الله شو كانوا يتعذبوا، يا ربي يتقبل الكل ويفرج عنهم"، كنا نسمعهم يقولون مات أو فطس حسب السجان، بعضهم يقول مات "بيكون لسا بقلبهم شوية رحمة قبل ما تنعدم".

في إحدى المرات كانوا يعذبون شابين، الأول كان بواسطة الكهرباء، حتى اعتقدت أن الكهرباء التي استخدموها كانت تضيء قرية بأكملها، وكان يصرخ ويقول: هي لله هي لله، ولم ينطق بغيرها، واستمرا بكهربته حتى لم نعد نسمع صوته، أما الثاني فكان يقول لهم: ربي بشار الأسد، ديني بشار الأسد، رسولي بشار الأسد، إلا أنهم استمروا في تعذيبه، وكنت أقول في نفسي ماذا يفعلون به "لحتى ما عم يعرف شو عم يحكي"، الحمد لله رب العالمين، ولكن مهما كانوا يقولون كانوا يستمرون في تعذيبهم، كانت هذه الأصوات التي نسمعها من البناء المجاور لنا، فالبناء الذي كنا فيه لم يكن يوجد فيه شباب.

وخلال الفترة التي قالوا إن أمريكا تريد ضرب الفروع الأمنية والأماكن العسكرية في سورية في عام 2013، كان باب غرفتنا من البلاستيك، وكنا قد كسرنا طرفه قليلاً، فشاهدناهم حين أخرجوا عدد من المساجين وهم عراة، والسلاسل في أقدامهم وأيديهم، وكانوا حليقي الرؤوس، ثم طلبوا منهم أن يضعوا الإطارات والبراميل حول مكاتبهم كدروع لتحميهم. وكانت الغرفة تهتز بنا، وتُطرش آذاننا عندما نسمع أصوات الصواريخ الموجودة فوق المبنى الذي كنا فيه وهي تقصف داريا. أما الروائح التي كنا نستنشقها فكانت

عبارة عن بلاستيك محروق، وكنا نقول لهم هناك رائحة كهرباء ورائحة شيء يحترق، كنا نظن أحيانًا أنهم يحرقون الجثث.

عندما كانوا يقولون لنا أنه سيصدر عفو خلال العيد، كانوا يعتقلون أشخاصًا بشكل عشوائي ثم يخرجونهم بالعفو، لم يكن يطلق سراح أي من الموجودات، من تخرج إما عن طريق المبادلات أو يتحولن إلى المحاكم، أما من لديهن قضايا فلم يكن يخرجن بالعفو أبداً.

العلاقة مع الأسرة والمجتمع

الأمر الذي لن يمحى من ذاكرتي هو عندما خرجت من المعتقل ولم يعرفني ابني، فقد غبت عنه ما يقارب ستة أشهر، وكان عمره آنذاك عامًا ونصف العام، بقيت بعدها شهرًا وأنا أحاول أن أذكره بنفسي.

أول سؤال سأله الناس بعد أن عرفوا أني كنت معتقلة: "هل اغتصبوك؟ هل تحرّش بك أحد؟"

أعتقد أن تجربة الاعتقال بين المرأة والرجل تختلف كثيراً، فابنتي، الله يرضى عليها، كانت من المتفوّقات في المدرسة، وظهرت نتائج الصف التاسع ونحن في الإقامة الجبرية، والأمن هم من أحضر نتائج فحصها، ومن أجل فترة الستة والعشرين يومًا التي تواجد الأمن معنا في بيتنا، ومن خوفي من كلام الناس، خلال شهر واحد بعد خروجي من المعتقل، خطّبتُها وجهّزتُها وزوجّتُها، لماذا؟! لأنّ الناس لا ترحم، فهي بنت وسوف تلاحقها أيام الحجز، وسيظل الناس يقولون إنها بقيت مع الأمن ستة وعشرين يومًا، ولا أحد يعلم ما حصل في هذه الأثناء! بينما لو كان معي شاب لما خفت عليه، بل على العكس تمامًا، ربما كنت أفتخر به وأقول: "ابني كان معي بالبيت، وابني ساوا وابني عمل وابني بطل"، ولكن لأنها بنت، فضلّت أن أزوّجها وأطمئن عليها، فهي قد لا تجد زوجًا إذا ابتدأ الناس بالقيل والقال، كان عمرها عندما زوجتها خمسة عشر عامًا، وهي من مواليد الأول من كانون الثاني عام 1999، الآن لديها ولدان، ولكن الحمد لله زوج بنتي جيد جداً، ولم أندم على تزويجها، لأني لم أعد أستطع الاهتمام بها، ولا وقت لدي للخروج معها، رعايتها، وأقول الحمد لله ربما لو لم أزوجها لكانت ضاعت معي بالغربة، وأقول إن الله اختار الخير لها وتزوجت و تركّنت عند زوجها وصار عندها أولاد وهي تربيهم أحسن تربية، الله يرضى عليها.

بعد خروجي من المعتقل، لم تتغير علاقتي بأسرتي على الإطلاق، لكنهم لاموني لأني لم أخبرهم بأن الحياة مع زوجي كانت صعبة، في الحقيقة لم أخبرهم لأن زواجي كان خياري، وهم في حزن شديد لأنهم لا يستطيعون رؤيتي، وأنا لم أرَ أمي وإخوتي منذ خمس سنوات، فالفيزا إلى تركيا أصبحت بالنسبة للسوريين أمراً مستحيلاً، كانت ابنتي وزوجها وأولادها معي في تركيا ولكنهم رجعوا إلى سوريا مؤخرًا، بعد أن دفع زوجها بدل العسكرية.

بعد اعتقالي واعتقال زوجي لم يتعرض أهلي أو أهله لأي ضغوط، ولم يراجعهم أو يسألهم أحد، رغم كلّ تلك التهم التي اتهموه بها، وهذا الأمر جعلنا نستغرب! وبالرغم من أن عائلة زوجي تركوا البلد، وحاليًا، قسمٌ منهم عاد إلى سورية، وقسمٌ آخر ما زال في تركيا، لكن العائلة كلها تضررت نتيجة اختفائنا أنا وزوجي

والأولاد، إخوته عندما علموا بالأمر تركوا البلد، رغم أن ابنتهم الكبيرة كانت تقدّم آخر موادها في الثانوية العامة، العائلة كلها عانت، صحيح أنهم لم يُحقق معهم ولم يُعتقلوا، لكنّ الخوف كان يأكلهم، فأفرغوا المنازل وغادروا سورية خلال أربع وعشرين ساعة وسافروا إلى لبنان وتركيا.

في تركيا

أنا تغيرت كليًّا، لكني أشتاق إلى أيام زمان، اشتقت كثيراً للحبس الذي كان زوجي يحبسني فيه، لم أكن واعية إلى الشر الموجود في هذه الحياة، قسمًا بالله، أيام الاعتقال أرحم من الأيام التي تمرّ علي الآن في تركيا، لأن الناس لا يتركونني في حالي، على سبيل المثال، قبل قليل اتصل بي شخص من رقم خاص غير مرئي، كان يكلمني كلامًا مزعجًا، "بدي نام معك، ليش ماعم ترضي؟ بدك مصاري؟ إنتِ ليش شايفة حالك؟ شو بتفرق معك إن نمت معك؟ واحدة من صديقاتك دفشتني عليكي، وعطتني رقمك لأزعجكِ"، وقلت له: "لو كنت رجلاً لقلت لي من أنت! لماذا تكلمني من رقم خاص!".

في تركيا ينظر بعض السوريين للمرأة التي تعيش وحدها كشخص رخيص، إذا لم يكن معك أحد فأنتِ حتمًا ستقعين في الأخطاء.

أما الأتراك، فنادرًا ما تتم مضايقتنا من قبلهم ولو بكلمة، لكنهم ينزعجون منا لظنهم أننا أخذنا شيئاً من حقوقهم، أما لسان حال السوري "ليش لحالك وما عم بقدر أوصلك؟ ليش لحالك والناس تمدحك؟" وللأسف بعض السوريين هم من خربوا حياة السوريين، الآن لا نستطيع استئجار منزل إلا في حالة وجود كفيل تركي، بالإضافة إلى دفع شهرين سلفًا للتأمين، أنا أدعوا لله دائمًا أن أكون على قدر هذه المسؤولية، فالحياة صعبة جداً، والعمل ليل نهار، وما تحصلين عليه من أجر تصرفينه.

أعمل يوميًّا إثنتي عشرة ساعة، أخرج من الساعة الثامنة صباحًا وأعود في الثامنة مساءً، ابنتي في الصف الخامس وابني في صف الأول، أتركهم وحدهم ستّ ساعات، يذهبون إلى المدرسة ويلبسون ويأكلون وحدهم!

قبل الاعتقال كنت لا أخرج من منزلي، بيتوتية، للطبخ والنفخ والغسيل والشطف، الآن أصبحت هذه الأمور آخر اهتماماتي، فأنا اريد أن أتطور وأعمل وأتعلم، و أريد أن أتعرف على الناس أكثر، وواقعي يحتاج أن أكون أقوى وعلاقاتي أوسع، أصبح وضعي يتطلب مني الانخراط في المجتمع، بعض صديقاتي أكملن تعليمهن، ولكن، بحكم وجود أبنائي الصغار معي فحركتي محدودة جدًّا، وإذا فكرت في أن أكمل تعليمي أو أن أتعلم لغة، فالأفضل والأهم هو أن أعمل، ولو فكرت في التسجيل لأتعلم اللغة التركية، فأنا أحتاج للمال والوقت وهما غير متوفرين، والأمران صعبان بالنسبة لي، أما غيري من الشابات والشباب فقد تعلموا لغة ودرسوا، لكنني ومع ذلك أعتبر نفسي ناجحة، ففي إسطنبول يصعب على الرجال أن يتدبروا أمورهم ومصاريف العائلة، وأنا الآن قادرة على إعالة نفسي وأطفالي، وقادرة على أن أقف بوجه الناس السيئين، والحمد لله ما زلت قوية.

العلاقة مع الشارع

علاقتي مع الشارع تغيرت بعد الاعتقال، كنت جبانة جدًا، كنت أخاف أن ينزعج مني الناس، الآن أقول لا، وأنا مسؤولة عن نفسي وعن أولادي، لم أعد أهتم بمن يرضى أو ينزعج من عملي، لم أعد أتنازل، لقد أصبحت قوية، لم أتخيّل يومًا أن أعيش مع أولادي وحدنا، وأن أترك سورية وأغادرها، حتى الآن أسأل نفسي هل صحيح أني في تركيا، أم هو حلم؟!

كلمة أخيرة

بعد كل ما فعله المجرمون بالناس، فإن أي عقاب سيكون قليلاً بحقهم، الناس الذين ماتوا واستشهدوا واعتقلوا، والناس الذين تزلزلت حياتهم، مهما فعلنا فيهم قليل عليهم، مهما عملنا لن يعود حقنا، هل يعود الذي استشهد، هل يعود الذي فُقد! هذه الأيام التي نقضيها في الغربة والمعاناة، مهما فعلنا فيهم، قليل عليهم.

أما الناجيات من الاعتقال، فمهما كانت الإجراءات لرد اعتبارهن فسيبقى هناك شيء مكسور، أنا عدت إلى ابني ولم يعرفني، فكيف سأنسى؟ بقيت خمسة أشهر ولا أعلم إن كانوا أحياء أو أمواتًا، في أول أسبوع من دخول الأمن إلى منزلي، كنت دائمًا أسألهم: "كيف بدكم تصفونا، بدكم تذوبونا أو تحرقونا أو تخنقونا أو تذبحونا؟"، فقد كنا قد شاهدنا مجزرة الحولة على التلفزيون واليوتيوب!

ابني حتى الآن يسأل: "أين أبي؟"، ولو شم جميع أنواع العطور وشم رائحة عطر أبيه يقول هذه رائحة عطر أبي، فما الذي سيعيد الاعتبار لنا؟ نشأ أولادي دون أبيهم، نشؤوا في الغربة بعيدًا عن أهلهم، وفي تركيا أيضًا يفتقدون أمهم، لأني أكون خارج المنزل اثنتي عشرة ساعة يوميّاً، أعمل كي أعيلهم وأعيل نفسي.

سأكون أول امرأة ترفع دعوى ضد المجرمين، إن شاء الله، في حال فتحت مسارات قضائية.

لقد رغبت بتوثيق قصتي حتى يُسمع صوتي، حتى ولو كانت تحت اسم مستعار، رغم يقيني بأن أي شخص في الجوية عندما يقرأ هذه القصة سيعرف اسمي، وأسأل الله السلامة

رسالة شكر:

إن منظمة اليوم التالي تتقدم بالشكر لكل من ساهم في انجاز هذا الكتاب من منظمات وأشخاص ساهموا وشاركوا في انجاح مشروع الناجيات وصدور هذا الكتاب.

<u>الجهات التي شاركت بالمشروع :</u>

- **CVT** منظمة إنسانية غير ربحية متخصصة في تقديم إعادة تأهيل ما بعد الصدمات.

كلمة :

كان من دواعي سرور منظمة **CTV** دعم هذا المشروع من خلال توفير الدعم النفسي-الاجتماعي ، والتدريب على الرعاية الذاتية لبعض الناجيات اللاتي تم تمثيلها في هذا الكتاب.

تضمن جزء مهم من هذه الأنشطة بناء المرونة النفسية من خلال توفير مساحة آمنة للناجيات للحديث عن بعض التحديات التي واجهتها أثناء الاحتجاز وبعده ،وتعلم مهارات جديدة تهدف إلى مساعدتهن على التعامل مع العمل الحالي أو ضغوط الحياة ، ونتيجة لهذه المشاركة فإن العديد من الناجيات طلبن مزيداً من المدخلات في هذه المجالات ، وأكدن على الحاجة إلى مثل هذه الخدمات في هذا النوع من المبادرات.

- منظمة محامون وأطباء من أجل حقوق الإنسان **LDHR**

وهي منظمة مجتمع مدني غير حكومية ، تدعم المدنيين خلال أزمتهم وتكرس الوقت والطاقة لتقديم المساعدة سعياً لوقف انتهاكات حقوق الإنسان ، ومساعدة من يحتاجون إلى الحصول على الخدمات المطلوبة لإعادة تأهيلهم ليكونوا أعضاء فاعلين في المجتمع.

<u>الأشخاص الذين ساهموا بدعم المشروع:</u>

- إسلام العقيل **CVT**
- الأستاذة نادين عبيدين **LDHR**
- الأستاذ علي الزير **LDHR**
- الأستاذة زهور قهواتي **LDHR**
- الدكتور محمد كتوب
- الدكتورة هالة غاوي **(عائلات من أجل الحرية)**
- ديمة كتوب **PDC**

The Day After (TDA)
Office: +90 (212) 252 3812
www.tda-sy.org
@TDA_SY
@TheDayAfterTDA